

موسوعة

الفرق والمذاهب المسيحية

الكاثوليك / الأرثوذكس / البروتستانت
المارونية / الأيونيون / الأريوسيون
النسطورية / البربرانية / الملكانيون
اليعاقبة / المرقيونية / الغنوصية
البولسية / الشمشاطيون / إيان
الأناباتيست / السوسيانية / اليسوعيين

العالمية للكتاب والنشر



محمد حسنى يوسف

**موسوعة
الفرق والمذاهب
المسيحية**

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية

محمد حسني يوسف

شبكة كتب الشيعة

الناشر

المنار العالمية للكتب والنشر



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

يوسف، محمد حسني.

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية / محمد حسني يوسف.

الجيزة: الدار العالمية للكتب والنشر 2011 م/س.م.

1_ الديانات المقارنة.

العنوان.

ديوي 291

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية

محمد حسني يوسف

الطبعة الأولى: 2011

رقم الإيداع: 2011/ 2476

الطبعة

دار طبعة للطباعة - الجيزة

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

15 شارع الفاروق عمر بن الخطاب

الطالبة - فيصل - الجيزة - مصر

هاتف: 37241803 فاكس: 37827787

محمول: 0123595973 _ 39848568

Email:alamyah@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

(البقرة الآية: ٧٥)

المقدمة

لقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وأعانته على القيام بأعباء هذه الخلافة بأن زوده بالعقل والإدراك، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين.. ويبيّنون له الخير من الشر والنافع من الضار ويرشدونه إلى طريق صلاحه في الدنيا وسعادته في الآخرة.

وهكذا توالى الرسالات السماوية بدءاً بأدم عليه السلام وانتهاءً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم تدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الذي خلق كل شيء والذي بيده ملكون السموات والأرض.

وهذه الرسالات جميعها تتكامل فيما بينها ولا تتناقض فمصدرها واحد وهو الحق تبارك وتعالى الذي شرع الدين للناس جميعاً:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الدين، ١٣).

وقد اكتملت سلسلة الرسالات السماوية ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث أراد الله له أن يكون خاتم النبيين فكان آخر لبنة في صرح النبوات جميعاً.

ويصور لنا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم علاقته بالأنبياء السابقين بقوله:

«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجملته إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويمجّبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟»

قال: فاننا اللبنة وأنا خاتم النبيين والمرسلين» (١).

ومن الطبيعي أن يكون الوحي الإلهي للأنبياء السابقين على محمد ﷺ قد تبأ بظهور هذا الرسول الخاتم وبصفة خاصة في التوراة والإنجيل كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم في هذا الصدد:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُهُمُ الْعَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(الأعراف: ١٥٦، ١٥٧)

كما ذكر القرآن الكريم على لسان عيسى ﷺ قوله:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصفا: ٦).

وكما جاء عيسى ﷺ مصدقاً لما بين يديه من التوراة جاء محمد ﷺ مصدقاً لما بين يديه من الوحي السابق: وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

(المائدة: ٤٨)

ولكن القرآن الكريم لم يقف عند حد التصديق لما سبقه من الوحي بل جاء مهيمناً عليه يحفظ منه الأصول الثابتة غير المتغيرة، وينسخ منه ما ينفي أن ينسخ من الفروع طبقاً للمشيئة الإلهية. وهكذا جاء محمد ﷺ هادياً للبشر جميعاً ومكماً للرسالات السابقة ومصححاً للعقائد الفاسدة ومتمماً لمكارم الأخلاق وجامعاً لخيري الدنيا والآخرة.

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (المنافق) ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الفضائل).

والذى يدرس الأديان السماوية السابقة على الإسلام دراسة موضوعية محايدة ويدرس الإسلام بنفس الروح سيصل حتما إلى الاقتناع بصحة هذا الدين الخاتم وبأنه الحق الذى لا مرأى فيه.

ويقول ﷺ: «ما من نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وإذا كان موسى ﷺ قد اشتهر بمعجزة العصا واليد فإن الله أوحى إليه بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

ولئن ذهب موسى لمتابعة ربه على الجبل فقد أسرى الله بمحمد وعرج به إلى الأفاق الربانية لمرتبة لم ينلها ملك مقرب، ولا نبي مرسل وأراه من آياته الكبرى:

﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) ﴿عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١٤) ﴿عندها جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (١٥) ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (١٦) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (١٧) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ١٢ - ١٨).

ولئن طلب موسى الرؤية فحجب عنها وجوزى بالصعق لقد رأى محمد أنوار وأفاض عليه من بركاته وفيوضاته. هذا هو سيد الخلق أهدمه لأهل الكتاب:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

والله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وفضله على سائر خلقه بما حباه

وكمله بنعمة العقل والقدرة على التعقل والإدراك، وكان هذا حقاً لله سبحانه أن يخاطب الإنسان على ما يفعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والله سبحانه وتعالى تمكيناً للإنسان من العزة والعقل لم يفرض كيانه فرضاً سواء رضى أو لم يرضى بل توخى هبته للإنسان من العقل أراد أن يدخل إلى قلب الإنسان بالإيمان لهذا قيل في الإنجيل للباحثين عن الحق:

(وتعرفون الحق والحق يحرركم) (يوحنا: ٨ - ٣٢).

وفي هذا المعنى بقول رسول الله ﷺ:

«رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم» رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

ويقول تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

(فصلت: ٥٣).

بل يتجه الله جل شأنه على أولئك الذين لم ينعموا بنعمة البصر فيستلهم البصيرة بقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

وهكذا يهدى الله الإنسان إلى الطاقات العظمى لنعمة العقل لتكون أساس الإيمان.

والتاريخ شاهد صدق على رجل من كبار اللاهوتيين الذين نشدوا الحق واستبسلوا له فهذا أريوس في القرن الثالث الميلادي الذي استبسل لعقيدته عن المسيح ﷺ بما يقارب مع عقيدة المسلم عنه.

وذاك لوثيروس الذي نادى بالإصلاح الدينى وحمل لواء الإصلاح فى عزم وتصميم ونادى بأن الله وحده هو الغفور الرحيم وأن البشر جميعهم سواسية أمامه لا فضل لكاهن على مواطن إلا بالتقوى.

وفى هذا يقول نبي الله داود ﷺ: «باركى يانفسى الرب ولا تنسى كل حسناته الذى يغفر جميع ذنوبك الذى يشفى كل أمراضك» (مزمور: ١٠٣: ٢-٣).

بل يؤكد أن الغفران لله جل شأنه وحده فيقول:

(عند كثرة همومي في داخلي تغرياتك تلذذ نفسي) (مزمور ٩٤: ١٩).

وبهذا يخلص إلى الحقيقة التي يؤمن بها المسلم والتي يوضحها قول داود عليه السلام: «كنت تراقب الآثام يارب ياسيد فمن يقف. لأنه عندك المغفرة لكي يخاف منك» (مزمور ١٣٠: ٣).

إذن الطريق إلى الله واضح للعالم، والوصل إليه رائده المنطق والعقل والرسالات السماوية جميعها تتأشد الإنسانية ما قاله المسيح عليه السلام: (الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا) (يوحنا ٤: ٢٤).

وهي هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

فإن عقيدة الإسلام سهلة وواضحة ترمي إلى الوجدانية لله عز وجل والمغفرة والكثير لما يطمئن له القلب والعقل.

وبهذا يتقرر في العقل ما قرره القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا

أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١ - ٤).

ويقابل هذه العقيدة السهلة السمحة في الإسلام - عقيدة التثليث المعقدة في المسيحية؛ التي تنزل الله من عليائه ليحل في بعض خلقه، أو ترفع بعض المخلوقين إلى منزلة الخالق مما يبيلب أفكار عامة الناس ويحير جهازة العلماء.

ولم تقرر هذه العقيدة عندا لمسيحيين إلا في مجمع نيقية المنعقدة سنة ٣٢٥م بدعوة من الإمبراطور قسطنطين بسبب الخلاف بين الأسقف آريوس والشمامس أثناسيوس الإسكندري.

قال الأسقف: إن المسيح مخلوق لله ومتصف بكل الصفات الإنسانية، وتعتريه كل العواطف البشرية من نوم ويقظة وفرح وحزن وغير ذلك فلا يكون

إلهاً بحال.

وقال الشماس: إن المسيح ابن والابن لا بد أن يكون مساوياً للأب لأنهما من عنصر واحد فلا بد أن يكون المسيح إلهاً مثل أبيه.

وقد صدر قرار المجمع بإدانة الأسقف لأن فكرته تقلل من شأن المسيح كأن المسيح لا يرتفع شأنه - وهو بشر - إلا إذا وضع - برغم أنف العقل والنصوص الدينية - في مصاف الآلهة.

وفي سنة ٢٢٤ دعا الإمبراطور قسطنطين إلى مجمع صور الذي قرر إلغاء قرارات مجمع نيقية وعفا عن الأسقف وقبل تعاليمه.

ثم مازالت المجامع تتعقد وتقرر القرارات المختلفة - مما يدل على اضطراب العقيدة وعدم اعتمادها على أساس - حتى انقسم المسيحيون بسبب قرارات مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م - قسمين وأصبح لهم كنيسة: شرقية أرثوذكسية بالقسطنطينية وغربية كاثوليكية بروما ثم كانت حركة مارتن لوثر سنة ١٥١٧م التي بسببها انقسمت كنيسة ثالثة بروتستانتية بألمانيا انتقلت بعد إلى إنجلترا والولايات المتحدة.

وقد اكتشفت حديثاً فوق هضبة بجوار البحر الميت مخطوطات يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٠٠ ق.م فيها معلومات تصحح الفكرة الخاطئة عن ألوهية المسيح ﷺ وقد أرسل الدكتور تريفور صورة منها إلى الدكتور و. ف ألبرايت إنه (لا يشك أحد في العالم في صحة هذه المخطوطات التي ستحدث ثورة في فكرتنا عن المسيحية).

ويؤخذ من هذه المخطوطات أن عيسى ﷺ ابن الإنسان وليس ابن الله كما ادعى أتباعه من قبل.

وبهذا قد يكون تبين لنا أن التثليث دخيل على المسيحية الحقّة وأنه مستورد من الوثنية الفرعونية كما صرح بذلك الأستاذ (جارسلاف كريني) أستاذ الحفريات بجامعة (أكسفورد) في كتابه (ديانة قدماء المصريين) وأن هذا

التثليث لم يوجد في الأصل اليوناني.

وصكوك الغفران واستحالة أن الخبز يتحول إلى جسد المسيح ﷺ خروج
عن الحق الإلهي كما صرح بذلك زعماء الإصلاح في القرن الخامس عشر
وعلى رأسهم: (لوثيروس الألماني).

وبشرت التوراة بالرسول محمد ﷺ. ففي سفر التثنية ٢٢: ٣ (جاء الرب
من سيناء وأشرق لهم من سمير وتلاًلاً من جبل هاران).

وتلك هي الرسائل الثلاث: لموسى وللمسيح ولمحمد عليهم جميعاً أفضل
الصلاة والتسليم.

وهذا مصدق قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَالَّتِينَ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ١ - ٣).

لأن منبت التين والزيتون مهجر إبراهيم ومولد عيسى عليهم السلام وطور
سيناء مكان مناجاة الله تعالى لموسى ﷺ وهاران في مكة: مولد الرسول
محمد ﷺ.

وجاء في أسفار الأنبياء عليهم السلام: أنه ﷺ روح الحق والفارقليط
والمعزى وأنه لا يتكلم إلا بما يسمع من الله تعالى وأنه أساس الحق ورأس
زاوته وهو البار الذي تتبأت به زوجة الوالي الروماني.

والمخطوطات والآثار القديمة تثبت بشرية المسيح ووحداية الله ومجيئ
محمد عليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم وقد صرح إنجيل
برنابا بذلك كله.

وكلمة (مسيا) كلمة آرامية معناها (رسول).

وعند مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام يسجد العالم شكراً لله
وسيجعل كل سنة هذا اليوم بدل كل مائة عام وهذا الذي قاله برنابا معناه:
الحج في الإسلام وهو الركن الخامس منه.

وكلمة (إنجيل) معناها: بشرى لأن المسيح ﷺ جاء مبشراً بقدم محمد عليه الصلاة والسلام.

وتعاليم المسيح ﷺ تهدم التعصب الطائفي والعنصري كما جاء في قصة الكاهن مع الجريح الذي مر عليه وتركه ولقد صرح الأسقف الإسكندري (أريوس) بأن المسيحية قد حرقت بما دخل عليها من المبادئ الفلسفية المستوردة من الهند والصين وفارس ومصر فلم يبق إذاً غير الرجوع للحق ولدين الحق الذي تكفل الله بحفظه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وليس أجمل من هذا ولا أحسن:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء، ١٢٥).

وبالله التوفيق

المؤلف

محمد حسنة

نشأة الدين

لقد فطر الله النفس البشرية على معرفة الله والإيمان به، وجاء الدين يلبي هذه الفطرة، والشعور الداخلي عند الإنسان بحاجته لتلبية هذه الفطرة أمر يُجمع عليه الناس كلهم من بداية خلق الإنسان إلى يومنا هذا، ولكن الفطرة كثيراً ما انحرفت، فنشأت أفكار وتصورات وعبادات كثيرة لا حصر لها، وكانت مهمة الرسل عليهم السلام تصحيح الانحراف والرجوع بالفطرة إلى سلامتها وأصلها.

فالتدين أمر فطري في النفس البشرية (ولقد أجمع مؤرخو الأديان على أنه ليست هناك جماعة إنسانية أو أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن يكون لها فيه رأى سواء أكان يقيناً أم ظناً^(١)).

لكن القضية التي دار حولها الخلاف في هذا الموضوع بين الباحثين هي نشأة الدين، كيف نشأت هذه الفكرة؟ ومتى نشأت؟ وهل اهتدى الإنسان إلى هذه العقيدة من يومه الأول أم أنه توصل إليها في مرحلة متأخرة؟

وهل كانت بداية التدين أوهاماً وخرافات، ثم بدأت بالتطور حتى اهتدت إلى عقيدة التوحيد الصحيحة؟ أو أن التوحيد كان منبهاً وأساسها منذ البداية؟

حول هذا الموضوع ظهرت أفكار ونظريات سنحاول في هذا الفصل التمهيدى أن نكشف الستار عنها بشيء من الإيجاز.

وقبل بيان هذه المذاهب لابد من الإشارة إلى أن معظم الباحثين في هذا

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ١١١.

الموضوع قد أخطأوا في طريقة البحث التي سلكوها (وجمهور الباحثين لا يطلبون من بحثهم الوقوف على الأسباب العامة التي تتيسرُ دراستها ويمكن التحقق منها في كل عصر، بل يفهمون من كلمة - نشأة الدين - الصورة التي ظهرت فيها الأديان أول ما ظهرت في الوجود، فالأوليَّة التي يريدون تصريها زمانية مطلقه تقتزن بظهور الإنسان على هذا الكوكب، والمنهج الذي يسلكونه للوصول إلى هذا المطلب هو: التقيب عن أديان الأمم القديمة أو المعاصرة غير المتحضرة حتى إذا ما انتهى بهم السير في تلك العصور المظلمة إلى أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الديني اعتبروه صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول)^(١).

فهؤلاء الباحثون أرادوا أن يتوصلوا إلى الزمن الذي بدأ به الإنسان يفكر بقضية الدين، وذلك عن طريق البحث في أديان الأمم البدائية غير المتحضرة، القديمة منها والحديثة.

(والإنسانية الأولى استطاعت أن تحفظ لنا صوراً من حياتها في قبائل متعددة منتشرة في أستراليا وأمريكا وإفريقيا وآسيا، ونفر العلماء من مختلف الدوائر إلى دراسة تلك الوثائق وتمحيصها، وإلى بحث حياة أطفال الأرض الأوَّلين هؤلاء، لتحديد الدين الأول في نقائه وروعه، فظهرت نظريات ومذاهب منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن تحاول تحديد تلك الصورة)^(٢).

وظهرت في الموضوع فكرتان رئيسيتان متناقضتان هما:

١ - فكرة فطرية التوحيد وأصالته.

٢ - فكرة التطور.

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ١١١.

(٢) نشأة الدين، على سامي الناشر: ص ١، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٤٩م.

١ - فكرة فطرية التوحيد

أصحاب الفكرة الأولى توصلوا إلى أن عقيدة الإله الأعلى هي أقدم ديانة ظهرت عند البشر، وسمّوا نظريتهم (فطرية التوحيد وأصالته)، وانتصر لهذا الرأي جمهور من علماء الأجناس وعلماء النفس، ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى أستراليا وإفريقيا وأمريكا^(١).

لقد توصل (لانج) إلى فكرة أصالة التوحيد عند الإنسان، وأنه العقيدة الأولى عن طريق بحوثه واكتشافاته، وهو يقول: (إن الإنسانية عاشت فترة فى حياة دينية مليئة بأسمى المعانى، ولكن تحللاً قد حدث بعد ذلك فى عهد من العهود البدائية)^(٢).

وكان (لانج) بهذا القول يرد على القائلين بفكرة التطور، وأن التوحيد جاء مرحلة متأخرة، وقد توصلوا إلى ذلك أيضاً عن طريق اكتشاف بعض القبائل البدائية التى عبدت الأسلاف وبعض الظواهر الطبيعية، يرد عليهم بأن اكتشافاتهم تلك إنما كانت لأمم قد تحللت وانحرفت عن عقيدتها الأصلية عقيدة التوحيد.

(ووافق (لانج) كثير من الباحثين الذين قدّموا أبحاثاً متعددة عن أقدم القبائل فى أمريكا الشمالية وأواسط إفريقيا، وأثبتوا وجود فكرة الإله الأسمى عندهم)^(٣).
(كما وافقه بروكلمان الذى أثبت الفكرة عند الساميين قبل الإسلام)^(٤).

لقد وجد هؤلاء الباحثون فكرة (الله) لدى كافة المجتمعات البدائية وأنكروا نظرية التطور مستنديين على بحث واقعى من أدق الأبحاث، دعموه بوثائق ممتازة عن الحياة البدائية الأولى، وقام بحثهم على الواقع من ناحية، وعلى ما ندركه فى نفوسنا من ناحية أخرى نحو الفكرة النبيلة (الله)^(٥).

(١) الدين، دراز: ص ١١٣. (٢) نشأة الدين، النشار: ص ١٨٨.

(٣) نفس المرجع: ص ١٩٧. (٤) الدين، دراز: ص ١١٣.

(٥) نشأة الدين، النشار: ص ٢. وقوله: «فكرة الله اصطلاح للنشار والصواب: حقيقة».

٢ - المذهب التطوري

وملخص الفكرة الأولى التي نشأ عنها المذهب التطوري، أن الدين مبدأ بصورة ساذجة هي صورة الخرافة والوثنية، وأخذ الإنسان يترقى في دينه على مدى الأجيال، حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته.

وهذه النظرية نادى بها أنصار مذهب (التطور التقدمي) الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلوم، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من الباحثين منهم: (سبنسر) و(تايلور) و(هريزر) و(دوركهايم)^(١).
والتطوريون حلوا المشكلة في ضوء تحليلهم لتطور الحياة الإنسانية نفسها من الأدنى إلى الأعلى.

وينقسم التطوريون كما يقول الدكتور (النشار)^(٢) إلى قسمين مختلفين: الأول: القائلون بفرديّة الدين. والثاني: القائلون بجماعة الدين. وأهم نظريات الفريق الأول (نظرية الحيوية، والنظرية الطبيعية). وكل نظرية نشأ عنها مذهب خاص.

١ - المذهب الحيوي

وينسب إلى (تايلور) و(سبنسر) وقد ذهب إلى أن أقدم دين في الوجود هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها، وأولى الآلهة عندهم الأسلاف. ونشأت هذه الفكرة على رأي (تايلور) عن اعتقاد الإنسان البدائي في الحياة المزدوجة بين يقظته ونومه، ومن ذلك ثبت للبدائي أن فيه كائناً آخر غير الجسم يستطيع في ظروف معينة، أن يترك الجسم ويعتمد عنه، فاعتقدوا للنفس قوة عجيبة، تستطيع الاتصال بأجسامها وتؤثر عليها بالضرر والنفع، ولا يستطيع الإنسان أن يتصل بها إلا بمراعاته لطقوس خاصة، ولما كان الموت هو بداية تحويل هذه

(١) الدين، دراز: من ١١٣.

(٢) نشأة الدين، النشار: من ٢، ٣.

النفس إلى روح مقدسة فإن أول عبادة إنسانية إنما اتجهت إلى الموتى، إلى نفوس الأسلاف^(١).

هذا المذهب الذى قال بأن عبادة الأسلاف هى العقيدة الأولى التى ظهرت فى الوجود، رُدَّ عليه كثير من الباحثين، (وقد رد عليه (دوركهايم) بأن اعتقاد الإنسان الأول ببقاء الأرواح لا يكفى لنشوء عقيدة دينية، لأن عبادة الأسلاف وجدت عند الأمم البدائية بجانب عبادة أشياء أخرى، بل بعض الأمم لم تعبد الأسلاف فلم يكف هذا لتفسير نشأة العقيدة)^(٢).

٢- المذهب الطبيعى

قام بعرض هذا المذهب عالمان هما: (ماكس مولر ١٨٥٦م) و(كوهن ١٨٥٩م) ويمثل (مولر) على الخصوص المذهب الطبيعى فى كماله وأوجه.

ويتلخص هذا المذهب: (فى أن الدين قام على تجربة استمد منها سلطانه فلا شيء يتكوّن فى عقيدة الإنسان لما لم يكن قد أتى من قبل حواسّه وأن الظواهر الطبيعية المتغيرة التى تحيط بالإنسان وتثير فيه مختلف المشاعر كافية لأن تثير الفكرة الدينية فكانت الطبيعة عندهم الدهشة العظمى والفرع الأكبر)^(٣). فالإنسان البدائي عندما نشأ وجد نفسه ضعيفاً بين الظواهر الكونية المختلفة، كالشمس والقمر والنجوم والرياح والصواعق والبحار والأنهار وغيرها، فاعتقد أن باستطاعتها أن تفعه أو تضره فأخذ يتقرب إليها ويقدم لها سائر أنواع العبادات دفعاً لشرّها.

وبذلك يكون الدين على رأى هؤلاء قد نشأ عن تأملات للطبيعة أثارت مشاعر وإحساسات معينة.

(وقد رد (دوركهايم) على هذا المذهب بأن الخوف لا يصلح سبباً لنشوء

(١) نشأة الدين، النشار: ص ٢٣، ٢٨.

(٢) الدين، دراز: ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) نشأة الدين، النشار: ص ٦٩ - ٧٣.

المقيدة، لأنه مع الزمن يألف الإنسان هذه الأشياء بتكررها على نسق واحد ويذهب خوفه منها ويترك التقرب إليها^(١).

٤ - المذهب التوتمي

(وأصحابه هم القائلون بجمعية الدين، الذين تمثلهم المدرسة الفرنسية الاجتماعية في أوائل القرن العشرين، وقد راعتهم فكرة العقل الجمعي ورأوا فيها رمز الدين أو بمعنى أدق ذهبوا إلى أن الدين رمز لها وعلم على وحدتها)^(٢).

وأبرز أصحاب هذا المذهب (دوركهايم) الذي اعتبر التوتمية أقدم ديانة على الإطلاق.

والتوتم عبارة عن رمز تتخذه العشيرة شعاراً لوحدها وقوتها، وتعتقد أنه جدها الأعلى ومنه تناسلت، فتقدس العشيرة هذا التوتم، وقد يكون هذا التوتم جماداً أو نباتاً أو حيواناً.

(ولم تظهر كلمة توتم كمصطلح في علم الأجناس إلا في أواخر القرن الثامن عشر.. وأخيراً اكتشف (جلين) و(سينسر) خلال أبحاثهما في وسط أستراليا عدداً من القبائل يدينون بالتوتمية)^(٣).

(وقد ورد كل من (لانج) و(فريزر) و(شميث) و(تايلور) على هذا المذهب بأن هذا التوتم لا يصلح كمبدأ للعقيدة، لأنه من خلال الأبحاث الكثيرة تبين أن هناك أمماً بدائية كانت تعبد مع التوتم آلهة أخرى وربما لم تعبد التوتم إطلاقاً وإن كان رمزاً لها)^(٤).

والملاحظ أن: (التوتمية عقائد خاصة ضيقة، لا تتناول سوى الرمز التوتمي من النبات أو الحيوان الذي تشير إليه الرموز، ثم أفراد العشيرة، وهذه لا يمكن أن تشكل ديناً، لأن الدين الحقيقي هو ما حاول الإحاطة بالكون كله.. وتلك هي

(٢) نشأة الدين، النشار: ص ٢.

(١) الدين، دراز: ص ١١٩ - ١٣٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٩٢، ٩٤.

(٤) الدين، دراز: ص ١٥٩ - ١٦٥.

المحاولة التي أرادها (دوركهايم) حين أراد أن يجعل من التوتمية مذهباً في الوجود، وهو بهذا يشبه التوتمية بأى دين آخر من الأديان التي قامت بهذا العمل^(١).

(والغريب الذى نلاحظه أن (دوركهايم) الذى أنكر على المذهب الحيوى اعتباره فكرة عبادة النفوس فلسفة البدائى الأول، وحاول أن يسلب عن البدائى القدرة على التأمل النظرى، نراه هو نفسه يعود إلى اعتبار التوتمية فلسفة وجودية ينبثق عنها أعظم تفكير)^(٢).

هذه خلاصة مذاهب نظرية التطور، أوردناها بإيجاز كما أوردنا الرد عليها موجزاً من كلامهم أنفسهم كما رد بعضهم على بعض.

وقبل أن نبدأ بالرد على هذه النظرية، وتفنيدها مزاعم القائلين ، لابد لنا من الإشارة إلى أن كثيراً من المسلمين قد تأثروا بها، ووضعوا كتباً يؤيدون فيها فكرة التطور هذه، ومن هؤلاء عباس محمود العقاد، ويظهر ذلك واضحاً فى كتابه الذى سماه (الله) فقد افتتح الكتاب بالعبارة التالية:

(ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلوم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات)^(٣).

وتحت عنوان (أطوار العقيدة الإلهية) بحث الأستاذ العقاد موضوع نشأة الدين، وأورد ما قاله أصحاب المذهب التطورى من أن البشرية مرت فى اعتقادها بثلاثة أطوار هى: التعدد، والتمييز والترجيح، والوحدانية^(٤).

فاعتبر التوحيد نهاية هذه الأدوار، متأخراً عنها، وهو يقول: (أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى)^(٥).

(١) نشأة الدين، النشار: ص ١٢٦.

(٢) نشأة الدين، النشار ص ١٢٧.

(٣) الله، عباس محمود العقاد: ص ١٢، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٦م.

(٤) الله، العقاد، ص ٢٨. (٥) نفس المرجع: ص ٣٢.

والأستاذ العقاد بعد سرده لرأى التطوريين من علماء مقابلة الأديان يثبت هذا الرأي فيقول: (فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه، ولكن لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات)^(١).

كما قرر في نهاية الأمر رأى التطوريين، فاثبت: أن عبادة الظواهر الطبيعية كانت سابقة لعبادة الإله الأعلى، فقال: بأن عبادة الشمس كانت الخطوة السابقة لعبادة الإله الأعلى، فقال: (ولنا أن نقول: إن ديانة الشمس كانت هي القنطرة الكبرى بين عدوة التعدد وعدوة التوحيد)^(٢).

ويحاول العقاد: أن يستدل لصحة ما ذهب إليه من القرآن الكريم، فبعد أن يذكر: أن ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد يقول: (وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ﴾ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣).

واستدلال العقاد لهذه الآية في هذا الموضع مخالف للمعنى الصحيح لها، فليس صحيحاً أن إبراهيم كان محتاراً منذ البداية في الاهتداء إلى الحق، وأنه كان يريد أن يصل إلى حقيقة يجعلها ففكر ونظر، وعبد الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، واهتدى أخيراً إلى عبادة الإله الواحد الأحد، ذلك لأن إبراهيم - عليه السلام - نبي من أنبياء الله، معصوم عن أن يشرك بالله (وغير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يصبح أن يتوهم هذا على من عصمه الله!

(١) نفس المرجع السابق: ص ٢٢.

(٢) الله، العقاد: ص ٣٩.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧٦ - ٧٩.

وآتاه رشده من قبل! وأراه أن ملكوته ليكون من الموقنين). ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عَرَفَ الرب أول النظر^(١).

ثم يبين القرطبي: أن هذا المعنى قد رد عليه علماء اللغة، (قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ، وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٢)، وقال جل وعز: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٣)، أى لم يشرك به قط)^(٤).

وسياق الآيات يدل على أن إبراهيم عليه السلام، كان يريد أن يقدم الدليل المحسن لقومه على بطلان عقيدة الشرك التي كانوا يمارسونها، فاتبع أسلوب الاستدراج هذا كوسيلة من وسائل الإقناع.

يقول القرطبي: قال الزجاج: (والجواب عندي أنه قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ (الاحق: ٢٧)، وهل جلّ وعلا واحد لا شريك له، والمعنى أين شركائى على قولكم)^(٥).

والمفسرون ذكروا لهذه الآية معانى كثيرة غير هذا المعنى منها: أن قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ (على معنى الاستفهام والتوبيخ منكرأً لعلهم، والمعنى: أهذا ربى؟ ومثل هذا يكون رباً؟ فحذف الهمزة، وفى التنزيل: ﴿أَلْإِن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾^(٦) أى أفهم الخالدون)^(٧).

وبذلك يظهر لنا جليهاً: أن استدلال العقاد بهذه الآية باطل من أساسه، لأنه حاول أن يستدل على أمر باطل أصلاً، ومخالف لمفهوم الإسلام فى تاريخ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٥/٧، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة، ١٣٨٧هـ.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥. (٣) سورة الصافات: الآية ٨٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي: ٢٠/٧ - ٣٦.

(٥) نفس المصدر: ص ٢٦. (٦) سورة الأنبياء: الآية ٢٤.

(٧) تفسير القرطبي: ٣٦ / ٧.

الدين، فدين الله الذى نادى بمقيدة التوحيد، عرفته البشرية منذ بدايتها على يد أبيها الأول آدم ﷺ.

نقد المذهب التطورى

◆ الوجه الأول:

(إن وضع المسألة على هذا الوجه، ومحاولة حلها عن هذا الطريق، ينطوى على خطأ مزدوج: خطأ فى الغاية، وخطأ فى الوسيلة، فالغاية التى يهدف إليها هذا البحث، وهى تحديد أصل العقيدة ومظهرها فى أول الأزمنة خاطئة، لأن هذه المنطقة البدائية قد اعتبرها العلم شقة حراماً، حظرها على نفسه.. ومؤرخو الديانات على الخصوص يمتدحون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري، وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً، فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب)^(١).

وكذلك الحال بالنسبة للوسيلة، والمنهج الذى اعتبروه طريقاً للاستدلال، فقد استدلوا على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم الممنزلة المتخلفة، وهذا أيضاً منهج خاطيء، لأنه مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل إليها بحثهم، وأنها لم تمر بأدوار متقلبة، وهو افتراض لم يرق عليه دليل، بل الذى أثبتته التاريخ، واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية، هو أن فترات الركود التى سبقت مدينتها الحاضرة، كانت مسبقة بمدن مازدهرة، قامت على أنقاض مدن مدينتها بائدة فى أدوار تتعاقب على البشرية، كتعاقب العصور، بحيث لا نستطيع أن نقطع بأيهما بدأت دورة الزمان، وعلى ذلك يمكن أن تكون الخرافات القديمة نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة، ولقد أنصف العلامة (هوفدنج) حين قال: (إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى، فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية فى موضع ما)^(٢).

(٢) نفس المرجع: ص ١١٤.

(١) الدين، دراز: ص ١١٢.

◆ الوجه الثاني:

المذهب التطوري يذهب إلى قياس الأديان على الفنون والصناعات، وكما أن الإنسان ينتقل في نموّه البدني من الضعف إلى القوّة. فقد يلوح أيضاً أنه بدأ حياته الروحية بالسُخف والخرافة، ولم يصل إلى العقيدة الصحيحة إلا بعد جهد وعناء. وهذا قياس بعيد لأنه ليس من المسلم به أن حياة الناس الروحية تسير ملازمة دائماً لحياتهم المادية، وكما يقول الدكتور دراز: (بل من الممكن أن تكون قناعة الإنسان في بدايته بكهف يأويه، وجلد حيوان يستتره، وشيء من الأعشاب يدفع مَحْمَصَتَهُ، وقلة مشاغله الدنيوية من الممكن أن تكون هذه كلها، قد تركت في نفسه فراغاً عميقاً للتأملات التي ترهف حاسته الدينية)^(١). هذا ولم يقل أحد من علماء النفس: إن الأفكار السامية لا تنمو إلا في ظل الترف والرخاء.

◆ الوجه الثالث:

إن التاريخ نفسه يفند هذه النظرية، إذ كان إبراهيم - ﷺ - وهو قبل المسيح بالفين وخمسمائة سنة على عقيدة التوحيد الخالص، وأكبر دعائها، ولا يزال يوجد اليوم بعد ألفي سنة من المسيح عشرات الملايين من بني آدم على عقيدة الشرك، فهل هذا دليل على الارتقاء التاريخي وتطور عقيدة التوحيد^(٢)؟

ولدى مناقشة التطوريين بهذه الوجوه يظهر لنا: أن نظريتهم في بيان عقيدة الإنسان الأولى لا تستطيع مواجهة النصوص التي وردت في الكتب السماوية تؤيد فكرة القائلين بأصالة التوحيد، وفطريته، وأنه عقيدة الإنسان الأولى.

كما أنه لا يفوتنا أن نذكر مصادمة نظرة التطوريين للفطرة التي فطر الله الناس عليها، تلك الفطرة التي تتجه إلى الخضوع لله عز وجل.

(والكتب السماوية متفحة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك

(١) الدين، دراز: ص ١١٥.

(٢) مفاهيم إسلامية، أبو الأعلى المودودي: ص ٢٢، دار القلم - الكويت، ١٣٩٤هـ.

وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد، بل تمهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم، فكان أبو البشر أول المؤمنين الموحدين^(١).

والواقع أن هذه القضية التي خاض بها علماء الأديان، حتى وقع كثير منهم في متاهات صعب عليه الخروج منها، هي قضية ليست من شأن العلوم الاستنتاجية أو الاستقرائية، وإنما هي من شأن الوحي وإخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، ذلك لأنها قضية داخلية في إطار الغيب، خاضت في حقبة من الزمن لا نعلم عنها إلا ما أخبرتنا به الكتب السماوية، فهي فترة سابقة للتاريخ، وخارجة عن نطاق المعرفة البشرية اليوم، كما أن نظرياتهم مرتكزة على فرضيات في عصور غامضة. ومع كل هذا فقد وجدنا من الباحثين في هذا المضمار من توصلوا إلى نتائج توافق ما ذهبت إليه الرسائل السماوية.

أثر الخلاف وموقع المسيحية منه

والقضية التي تتشأ عن الاختلاف حول نشأة الدين وبيداته، قضية أساسية مهمة هي: هل هنالك أديان سماوية إلهية أم أن الأديان كلها وضعها الإنسان، فهي من بنات أفكاره تطورت معه وفقاً لتطور حياته المادية؟.

والتطوريون ينقسمون حول هذه القضية إلى فريقين:

فريق أنكر فكرة الوحي من أساسها، واعتبرها خرافة أسطورية صاغها العقل البشري البدائي الساذج. ثم تطورت هذه الديانات مع تطور هذا واتساع مداركه. ولا شك أن أدياناً كثيرة مارسها البشرية في تاريخها. ولا زالت تمارسها ما هي إلا خرافات، ولا نعتبرها ديانات سماوية أصلاً، ولكننا نعتقد أنها انحرافات لديانات سماوية الأصل وتحريف لتعاليم إلهية.

أما الفريق الآخر فإنه يؤمن بالرسالات السماوية، ويؤمن بفكرة الوحي، ولكنه يعتقد أنها جاءت متأخرة، فلقد قضت البشرية أحقاباً طويلة تدين

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ١١١.

(٢) نشأة الدين، على سامي الناشر: ص ١، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٤٩م.

بالخرافة والأوهام، حتى إذا ما اكتمل العقل البشرى ونضج، أذن الله برسالات سماوية، وبوحى إلهى بدأ يتنزل.

السؤال الآن: ما موقع المسيحية من هذه القضية؟ وهل المسيحية دين سماوى، ثم تداعت عليه التحريفات، أو أنه وضعى أصلاً لا علاقة له بالوحى؟
فالفريق الأول الذين أنكروا فكرة الوحى أصلاً، إذا بحثوا فى المسيحية كان بحثهم لها على اعتبار أنها ديانة وضعية صاغها العقل البشرى، فظهر من هؤلاء من شكك بحقيقة المسيح - ﷺ - ووجوده. ويسوق لنا صاحب قصة الحضارة أسماء مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين قالوا بهذا التشكيك. ومن هؤلاء:

١ - (بولنجيرونك) وجماعة - وهم جماعة ارتاح لأفكارهم فولتير نفسه - وقالوا: إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق.

٢ - سنة ١٨٤٣ كتب (برنويور) ليثبت أن يسوع لا يعدو أسطورة.

٣ - المدرسة الهولندية (بيرسن، أنابر، متناس) أنكروا بعد بحوث مضمّنية حقيقة المسيح التاريخية.

٤ - فى إنجلترا أدلى (سمث) و(برتسون) بحجج من هذا النوع أنكروا فيها وجود المسيح^(١).

ويثبت (ول ديورانت) بعد ذلك وجود المسيح مستدلاً بإشارات فى كتب اليهود القديمة تثبت وجوده، كما يذكر إشارات إلى المسيح فى الأدب الوثقى^(٢).

ويقول: (وقصارى القول: إن نكران ذلك الوجود لا يخطر على ما يظهر لأشدّ المخالفين لليهودية، أو اليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت)^(٣).

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١ / ٢٠٤، ترجمة د. زكى نجيب محمود ومحمود بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م

(٢) المرجع السابق: ١١ / ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق: ١ / ٢٠٦.

ونحن المسلمين نؤمن بوجود المسيح، ونؤمن بالمسيحية على أنها رسالة سماوية سامية، ولكنها حُرِّفت وبدلت أصولها وفروعها. وأن التحريف الذي نشهده في النصرانية اليوم عن عقيدة التوحيد الأصلية، لا يدفعنا إلى القول بإنكار وجود المسيح ﷺ، لأن الإيمان به جزء من عقيدتنا ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).



(١) سورة آل عمران: الآية ٨٤.

أثر الفلسفة فى تحريف العقيدة النصرانية

تمهيد:

ليس من قصدنا فى هذا الفصل أن نقدم دراسة عن المدارس الفلسفية اليونانية التى سادت البيئة اليونانية خلال ستة قرون قبل ميلاد المسيح - ﷺ - لبيان مدى تأثيرها فى تحريف العقيدة النصرانية، فليس لفلاسفة هذه المدارس علاقة بالنصرانية التى نشأت فيما بعد .

وليس من قصدنا كذلك أن ندرس فى هذا الفصل فلسفة العصور الوسطى، التى اشتغل بها آباء الكنيسة فى تلك العصور، موقفين بينها وبين العقيدة النصرانية، وفلسفة العصور الوسطى كانت بعد أن اكتمل تحريف العقيدة النصرانية خلال القرون الأولى للنصرانية.

وإنما نعى فى هذا الفصل بمرض آراء الفلاسفة الذين نشأوا فى القرون الأربعة الأولى للنصرانية، تلك التى تكونت فيها العقيدة النصرانية بكل ما لحقها من انحراف عن عقيدة المسيح ﷺ .

ولإسيما أولئك الفلاسفة الذين جمعوا بين دراستهم للفلسفة ثم اعتناقهم للنصرانية بعد ذلك، وقاموا خلال تلك القرون إما بتحريف العقيدة النصرانية الصحيحة فى بعض جوانبها، أو بتفسير العقائد الموجودة فى هذه القرون تفسيراً فلسفياً، أو بمحاولة التوفيق بين الآراء الفلسفية والعقائد النصرانية، أو بالتأثير على بعض دعاة النصرانية الأوائل عن طريق الاتصال بهم، كما حدث بين فيلون الإسكندري وبولس وكما سنوضحه فى هذا الفصل، أو بانتشار

مذهبهم الفلسفى فى البيئة النصرانية، وإن لم يمتق الديانة كما حدث لأفلاطون الإسكندرى، صاحب فلسفة الأفلوطينية الحديثة، إلى غير ذلك من مظاهر التأثير فى العقيدة النصرانية.

أولاً: بداية دخول الفلسفة اليونانية فى الفكر النصرانى

بدأت النصرانية كفرقة يهودية اضطهد اليهود دعائهم، ولم تكن فى بادئ الأمر تلتفت إلى آراء الفلاسفة؛ لأن دعوتها إلهية تقوم على الإيمان بالله تعالى وحده، ولذلك لم تدخلهم العلوم الفلسفية ولا الجدل اليونانى.

وبقيت النصرانية صافية من هذه الشوائب يوم كانت دعوة خاصة ببنى إسرائيل زمن عيسى عليه السلام، ولكن بعد أن انتشرت الديانة النصرانية فى أرجاء الدولة الرومانية - بعد بدء فكرة عالمية النصرانية على يد بولس دخلت إلى العالم الوثقى، فدخلت معركة مع الوثنية من جهة - ومع الفلسفة من جهة أخرى، وانتشرت وتسربت بعض الأفكار والعلوم إلى هذه الديانة الناشئة المضطهدة، فتأثرت بهذه الأفكار وخاصة الفكر اليونانى، وذلك لأسباب منها:

- دخول أصحاب الأهواء والمنافقين ممن تأثروا بالفلسفة أمثال بولس فى الديانة فى عصر مبكر من تاريخ النصرانية، حيث أمكنهم أن ينشروا أفكارهم ومعتقداتهم الضالة، ولم يكن للنصارى الصادقين إمكانية الرد عليهم وقمعهم من خلال دولة تحمى دين المسيح - عليه السلام - من تحريف الضالين الجاهلين وأصحاب الأهواء.

- دخول بعض فلاسفة اليونان فى الديانة النصرانية، وقد كان كثير من كبار قساوسة النصرانية تنصروا بعد فلسفة، بل تعمقوا فى الفلسفات الوثنية، فكان من الطبيعى أن يصدروا عن معارفهم وأفكارهم السابقة وثافتهم فى مجال تبيان عقيدتهم، مثل «يوستن»، وحاولوا أن يسدوا الثغرات التى يجدونها فى الديانة النصرانية بمزيج من الفلسفات التى كانوا عليها، بل يمكن القول إن

اليونانى بقى يونانياً بعد دخوله فى النصرانية^(١).

- تسامح رجال الدين النصرانى مع الداخلين فى الديانة لأجل استقطاب أكبر عدد منهم، فكان المرء يدخل فى النصرانية اسماً فقط، وأفكاره كلها مع ما كان يمتقده من قبيل، كحال جميع الذين دخلوا فى النصرانية، لأن النصرانية لم تكن لها دولة تحميها، بل كانت مضطهدة تحت الدولة الرومانية، لذلك لجأت إلى التسامح، وغض النظر عن الأفكار الدخيلة^(٢).

ثانياً؛ أهم الفلاسفة الذين تأثر بهم النصارى فيلون؛

ولد فيلون فى الإسكندرية نحو عام ٢٠ أو ٣٠ ق.م، ومات بعد عام ٥٤ من القرن الأول الميلادى، أى فى زمن الحواريين، وكان كبير المنزلة بين أبناء جنسه وطائفته اليهود، حتى أرسل على رأس وفد إلى رومة ممثلاً لها لدى الإمبراطور «كاليجولا»، وكان ذلك بعد أن تجاوز الستين من عمره.

وهو فيلسوف إسكندرى فى آرائه الفلسفية والدينية، وقد درس الفلسفة اليونانية وسائر الفلسفات، التى كانت الإسكندرية تموج بها فى عصره.

وقد بلغ من علو مرتبته فى الفلسفة الإغريقية أنه كان يلقب «بالأفلاطونى» أو «بأفلاطون اليهود»، ذلك بأن فلسفته كانت تقوم بعد التوراة والتفكير اليهودى على فلسفة أفلاطون والمذاهب الأفلاطونية عامة، وقد جعل هدفه التوفيق بين الكتاب المقدس، وعادات اليهود من جهة، والآراء اليونانية وبخاصة آراء أفلاطون من جهة أخرى.

ومع هذا لم تخل فلسفته وآراؤه من التأثر ببعض التفكير الشرقى

(١) راجع الديانة اليونانية، ص ١٧١، فجر الإسلام، ص ٢٨، تاريخ الفكر المسيحى، ٨٢/٢، ٨٤، ٨٥. عقيدتا التثليث والصلب، ص ٢٧١.

(٢) راجع أهم عوامل انحراف النصرانية، ص ٦٥، موجز تاريخ الشرق الأدنى، فيليب حتى، ص ١١٩.

ومذاهبه، ومن ثم كان لفلسفته - وهذه مصادرها - الأثر الذي لا ينكر في الأفلاطونية المحدثة، والنصرانية الحالية، وكان ذلك بفضل دعاة النصرانية الأوائل، وهذا هو السر في أن فيلون قد شغل أول الأمر المؤرخين الذين يبحثون عن أصول النصرانية.

وقد ازدهر نشاط فيلون العقلى في الأربعين سنة الأولى من القرن الأول النصرانى، فقد كتب آخر مؤلفاته في عام ٤١م.

وقد أسهم على غير علم منه في تكوين اللاهوت النصرانى، وسيتبين ذلك من عرض بعض أرائه ونظرياته الفلسفية والدينية، والتي تكررت بهيئتها في العقائد والتعاليم النصرانية^(١).

أفلوطين؛

ولد في مدينة أسيوط عام ٢٠٤م، وتوفى عام ٢٧٠م. تتلمذ في مدرسة الإسكندرية، ثم رحل إلى فارس والهند، فاطلع على المعارف الصوفية الهندية، والتعاليم البوذية والبرهمية.. إلخ، ثم عاد إلى الإسكندرية، وفي جعبته خليط من ألوان الثقافات، فراح يدرسها.

وكان أساس تعاليمه أموراً ثلاثة:

١ - الكون نشأ عن الخالق الأزلى الأول الذى لا تحده الأفكار.

٢ - الأرواح شعب لروح واحدة تتصل بالخالق الأزلى عن طريق العقل، المنبثق عن الخالق الأزلى الأول.

٣ - العالم كله في تدبيره وتكوينه وتحريكه يخضع لهذه الثلاثة: المنشئ الأزلى الأول، العقل المنبثق عنه، الروح التى هى مصدر تشعب عنها الأرواح جميعاً.

ويشرح أفلوطين نظريته الثلاثية فيقول: عن المنشئ الأول صدر العقل، وليس صدره كالولادة، ولكنه انبثاق من العقل انبثقت الروح التى هى وحدة

(١) راجع عقيدتا التثليث والصلب، ص ٢٤٩، ٢٥٠.

أساس الأرواح كلها. وهذه الثلاثة المنشئ الأول، والعقل والروح أساس لتوالد العالم وتواجد تكوينه^(١).

ثالثاً: فلاسفة النصراني في القرون النصرانية الأولى وأراؤهم الفلسفية يوستينيوس:

ولم سنة ١٠٠ أو ١٠٥ من أبوين وثنيين، وترى على الديانة الوثنية، وتعلم الفلسفة الرواقية^(٢)، ثم درس فلسفة الأكاديميين^(٣) والفيثاغوريين^(٤)، ولكن كل هذه الدراسات لم تشبعه، حتى وجد - حسب زعمه - في النصرانية الفلسفة الحقيقية. وقد اشتغل في الدفاع عن النصرانية، إلا أنه لم يتخل عن دراساته الفلسفية السابقة، وقد حكم عليه بالإعدام سنة ١٦٥م في روما.

آراؤه العقيدة:

يعرض القس حنا الخضرى آراءه الاعتقادية فيقول: يرى يوستينيوس أن «اللوجوس» هو القنطرة التي أقيمت على الهاوية الفاصلة بين الله والإنسان، فطور هذه القنطرة أو اللوجوس هو الوساطة بين الله والإنسان. والله لا يتصل بالعالم إلا عن طريق اللوجوس، فهو الوسيط الذي عن طريقه يعلن الله ذاته، ثم يقود النفوس إلى الرب.

(١) راجع تاريخ الفلسفة، إبراهيم مدكور، ص ٦٥، مشكلات العقيدة النصرانية، ص ١٤٤، فجر الإسلام، ص ٢٨.

(٢) الفلسفة الرواقية: سميت رواية لأن أصحابها كانوا يجتمعون في رواق، وهي فلسفة أخلاقية، تقول عن الله بأنه خالق كل شيء وهو منبثق في هذا الكون. الموسوعة الفلسفية، ص ٢١٤.

(٣) الأكاديمية نسبة إلى المدرسة التي أنشأها أفلاطون، وسماها أكاديميا. وكانت تدرس الفلسفة اليونانية. الموسوعة الفلسفية، ص ٦٠.

(٤) الفيثاغورية: نسبة إلى فيثاغورس اليوناني ومدرسته فلسفية، وفيها مبادئ فلسفية تتصل بالزهد، وهم يرون تحريم أكل اللحوم، ويقولون بتناسخ الأرواح. موسوعة الفلسفة ٢/٢٢٨.

ولقد حاول أن يشرح أصل اللوجوس، فقال بأنه كان ساكناً في الله كقوة، وهذه القوة انبثقت أو خرجت من الله قبل الخليقة، ولقد قام اللوجوس بعملية الخلق، ولكي يوضح عملية انبثاق اللوجوس من الأب استعمل بعض التشبيهات والصور.

ومع أنه يعتقد بأن اللوجوس انبثق من الله، لكنه مؤمن بأنه يتمتع بوجوده الذاتي والتميز بالطبيعة عن الله السامي.

وقد كان أهم المواضيع التي عالجها موضوع اللوجوس، وفي شرحه لهذه المقيدة يرى بعض الروابط التي تربط المسيحية بالوثنية.

وعلى الرغم من دراساته العميقة ومعرفته بالكتاب المقدس فإن التعاليم الأفلاطونية تركت تأثيراً عميقاً عليه. وفي كتاباته يلحظ التأثير الوثني، لا سيما في تعليمه عن اللوجوس، وطريقة الانبثاق، فإنه خروج اللوجوس من الأب يشبه إلى حد ما خروج بعض الأرواح من الإله الأعظم في المفهوم الوثني الفنوصي.

وهو يعتقد بأن الابن أدنى من الأب، وأن الروح القدس أقل من الابن، وعندما يتكلم عن الثالوث يضع الله في المرتبة الأولى، والمسيح في المرتبة الثانية، والروح القدس في المرتبة الثالثة.

قال صاحب الكتاب في آخر حديثه عنه: ومما لا شك فيه أن الدراسات الفلسفية الكثيرة التي درسها يوستينيوس تركت في تعاليمه بعض الآثار الوثنية^(١).

تاتيانوس؛

ولد سنة ١١٠م في سورية، من عائلة وثنية، ثم ترك سورية، واتجه إلى بلاد اليونان لكي يدرس أفكارهم وفلسفتهم، وبعد أن أقام في اليونان فترة من الزمن انطلق إلى روما لكي يستقى من فلسفتها. وفي روما تقابل مع يوستينيوس، فتعلم على يديه. وقد خالف أستاذه في أنه ضرب عرض الحائط بكل العلوم

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي، ص ٤٤٤ - ٤٥٢.

والفلسفات الأخرى غير المسيحية.

آراؤه العقيدية:

من تعاليمه أن اللوجوس كان غير موجود في زمن ما، في زمن بعيد جداً في الأزل.

وفي هذا يقول القس حنا الخضرى معلقاً: وهنا نلاحظ ظهور الترية التي ستمو فيها فيما بعد أنواع كثيرة من الهرطقات المختصة بشخص المسيح وعدم أزليته.

واللوجوس عنده كان مختلفياً في الله، فقبل الخليقة كان لا يمكن تمييزه عن الله، وفي المرحلة الثانية يبدأ بالخليقة عندما يخرج اللوجوس عاملاً، ويمبوره في هذه المرحلة يصبح الخارج من الأب، وهنا يبدأ عملية في تنظيم المادة المختلطة بالعالم^(١).

أثيناغورس

كان معاصراً لتاتيانوس، ومن أبلغ المدافعين عن المسيحية، وكان يحب الفلسفة والشعر.

آراؤه العقيدية:

وعن آرائه فقد تابع يوستينيوس فيما يختص بالدور الذي قام به اللوجوس في الخليقة، وهو يحاول أن يثبت أن اللوجوس كان يعمل هو أيضاً خالقاً في أثناء الخليقة.

وقد حاول بتعاليمه أن يزيل الحاجز الذي أقامه أتباع يوستينيوس بتعليمهم أن اللوجوس هو فكرة إلهية، وأبدية الكلمة في وقت الخليقة ولأجلها، فهو يعتقد بأن اللوجوس كان منذ الأبد في الله، فهو الفكرة والقول والحكمة الذي يفهم، والإرادة والطاقة الذين ينفذ، وأن خلق العالم ما هو إلا نتيجة هذا الفكر

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي، ص ٤٥٤ - ٤٥٧.

والنشاط الإلهي.

ولقد ظل اللوجوس بعد الخليقة على ما كان عليه قبلها، أى أنه الفكر والنشاط والطاقة الإلهية الذى يحكم العالم، ويرشد البشر. يقول القس حنا الخضرى معلقاً: وهى نظرية تعرض شخصية اللوجوس للاختلاف، بل للتلاشى فى الله^(١).

ثيوفيلوس الإنطاكى

يذكر يوسيبوس فى كتابه «تاريخ الكنيسة»، أن ثيوفيلوس كان الأسقف السادس لكنيسة أنطاكيا. ولد بالقرب من الفرات من والدين وثنيين، وكانت ثقافته ثقافة يونانية وثنية، وبعد الدراسة الطويلة للكتب المقدسة، والتأمل العميق تجدد - أى دخل فى النصرانية - ويحتمل أنه توفى بعد سنة ١٨٠م.

آراؤه العقيدة:

ثيوفيلوس هو أول شخص استعمل كلمة الثالوث فى تاريخ العقيدة النصرانية، ولقد استعمل هذا الاصطلاح فى صيغة غريبة، وهى ثالوث الله، كما أنه يرى فى الأيام الثلاثة السابقة لخلق الشمس إشارة إلى الثالوث.

وهو يحاول أن يشرح بأن اللوجوس أو الكلمة كان فى الله، فى حضن الله، وفى ما يسميه الكلمة فى الداخل، أى أن اللوجوس (الكلمة) كان فى الله فى داخل الله، ولكن عندما نطق الله هذه الكلمة صار هذا اللوجوس خارجاً عنه فهو الكلمة المنطوق، أو الخارج من الله^(٢).

وهو عندما يتكلم عن طبيعة اللوجوس يثبت أن الحكمة أو الابن ولد للاشتراك فى عمل الخليقة.

كما يلاحظ فى تعاليمه الخاصة بالمسيح نوعاً من التبعية أو الثانوية -

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص ٤٥٩ - ٤٦٢.

(٢) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص ٤٦٢ - ٤٦٤.

عقيدة أن الابن أقل من الأب أو تابع له - ومع ذلك فقد قال بأن الكلمة أو اللوجوس لم يفرغ نفسه أو يخلى نفسه من اللاهوت عندما صار كلمة منطوقاً خارجاً عن الله^(١).

أكليمنديس الإسكندري

ولد في أثينا، من أبوين وثنيين سنة ١٥٠م، وتاريخ اعتناقه النصرانية مجهول. التحق في الإسكندرية بالمدرسة اللاهوتية التي كانت تدعى مدرسة التعليم المسيحي، وآلت إليه رئاسة المدرسة بعد بانتيوس.

وقد كان ملماً بعلوم الفلسفة والشعر والأثرية والأساطير والآداب، توفي سنة ١٢١٧م.

آراؤه العقيدية:

هناك تشابه كبير بينه وبين يوستينيوس، وبنوع خاص موقفهما من العلوم والفلسفات الوثنية، فإن كان يوستينيوس يؤمن بوجود بذور اللوجوس في تعاليم وفلسفات اليونان، فإن أكليمنديس قارن فلسفة اليونان بالعهد القديم نفسه عندما كانت تعد البشرية لمجيء المسيح - حسب زعمهم - وقد ركز على أن الفلسفة لا تستطيع أن تحل محل الوحي الإلهي.

وفي شرحه لعقيدة اللوجوس يبدأ بظهورات اللوجوس في العهد القديم، وقد كانت كل هذه الظهورات تعد للظهور الأعظم أى التجسد، ففى خلال فترة العهد القديم كان اللوجوس يظهر نفسه بطرق مختلفة، على أن هذا الظهور الأخير أى التجسد يختلف تماماً عن الظهورات السابقة، فهو شيء جديد من نوعه، فكما أن الله يختلف تماماً عن الظهورات السابقة، فهو شيء جديد من نوعه، فكما أن الله اختار شعباً جديداً وعهداً جديداً، فإنه يظهر هذه المرة لشعبه بطريقة جديدة.

(١) تاريخ الفكر المسيحي، ص ٤٦٢ - ٤٦٤.

واللوجوس لا يبدأ بهذه الظهورات التي يتكلم عنها العهد القديم، بل هو الذى خلق هذا العالم، كل ما يوجد فى الكون به وله قد وجد، وهو أيضاً الذى مع الأب والروح القدس يكون الثالوث الإلهى، وهو الذى عن طريقه يعرف الأب^(١).

وأكليمنديس يعترف بنوع من المساواة فى العظمة بين الأب والابن. وهو يتمسك بقول يوحنا «والكلمة صار جسداً»^(٢). وهذه الكلمة هو نفسه الذى ولد من الأب قبل كل الدهور (لوغوس) واحد مولود من الأب، وهو أيضاً صورة الأب، ولم يصبح صورة الأب بفضل التجسد وبسببه، بل منذ الأزل وقبل كل بداية كان صورة الله غير المنظور.

فأللوجوس الذى هو صورة الله، هو أيضاً سيد هذا الكون والمشرع للبشرية، كما أنه المخلص للجنس البشرى، والمعطى للحياة الجديدة.

وقد شدد كثيراً على لاهوت المسيح، ونادى بأفكار تشبه إلى حد كبير الأفكار الفنوصية ولقد تركت الرواقية تأثيراً لا يستهان به على تعاليمه، لا سيما فى مفهومه لمشكلة آلام المسيح، فهو يرى أن القوة الإلهية حلت فيه محل الدوافع البشرية، واللاهوت سيطر عليه بطريقة كلية، لدرجة أن المشاعر والمواطف والتأثيرات الحسية لم يعد لها أى سلطان عليه.

وبالرغم من تشديده على لاهوت المسيح فإنه لا يهمل الكلام عن ناسوته، فهو يؤمن بأن اللوجوس المتجسد هو الله وإنسان، بل إن اللوجوس عنده سابق لكل وجود، وهو نفسه الذى سكن فى شخص يسوع المسيح التاريخى، وهو نفسه أيضاً الذى حل فى الجسد وارتبط به.

وقد حاول أن يوفق بين التعاليم الفنوصية الوثنية، وبين الفنوصية المسيحية، وفى هذه المحاولة شدد كثيراً على اللاهوت معطياً له الأولوية العظمى.

ومما لا شك فيه أن أكليمنديس كان يحتفظ فى داخله بجزء من أكليمنديس

(١) تاريخ الفكر المسيحى، ص ٥٠٠ - ٥١٢.

(٢) يوحنا، ١ / ١٤.

الفيلسوف اليونانى الذى درس الفلسفات اليونانية الوثنية بمذاهبها المختلفة المتنوعة، وإن لم يعمم هذا على كل مبادئه^(١).

ترتليانوس؛

ولد فى حوالى سنة ١٥٥ - ١٦٠م من والدين وثنيين فى قارطجنة، وفى هذه المدينة نشأ وتردد على مدارسها، وتلمذ على أيدي معلميه، ثم توجه إلى روما ودرس الحقوق ونجح فيها نجاحاً ملحوظاً. ودرس بجانب دراسته للحقوق الآداب واللاتينية واليونانية والفلسفات المختلفة فى عصره.

آراؤه العقيدية؛

كتب الكثير عن شخص المسيح، عن (اللوجوس) عن ابن الله، مدافعاً عن الثالوث.

وكان يدافع عن عقيدة التجسد محاولاً أن يشرح هذه العملية للدخلاء من الوثنية وللوثنيين أنفسهم، وضد اليهود الدخلاء وغير الدخلاء، الذين لم يروا فى المسيح إلا مجرد إنسان، وكان يناضل ضد جماعة أخرى من اليهود رأت فى لاهوت المسيح تهديداً عظيماً لوحدة اللاهوت، وهى جماعة «وحد الله»، ولهذا السبب فقد حاول أن يبتدع مصطلحات جديدة وعديدة لكى تعبر عن تعاليمه اللاهوتية دون أن يبتعد عن المكتوب.

ونادى بوحدة الله، ولكن هذه الوحدة هى وحدة الأقانيم، فإن الله هو أب، وابن، وروح قدس، هؤلاء الثلاثة أقانيم هم إله واحد، الله الواحد المثلث الأقانيم من جوهر واحد.

فهو يقول: أؤمن بأنه يوجد جوهر واحد فى الثلاثة. وهو أول كاتب لاتينى يستعمل اصطلاح «التثليث». وفى كلامه عن التثليث كان أول شخص أيضاً استعمل الاصطلاح (PERSONA) الذى يمكن أن نسميه أقنوماً. هذا

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص ٥٠٠ - ٥١٢.

الاصطلاح الذى سيلعب دوراً مهماً جداً فيما بعد فى المناقشات والمجادلات العقائدية فى اثناء انعقاد المجالس المسكونية^(١).

وهو يعتقد بأن ظهور أو ميلاد اللوجوس بدأ بالتدرج، وهو يميز بين الميلاد الأول لهذا الأقتوم (الحكمة) قبل الخليقة، وبين الميلاد الكامل فى لحظة الخليقة، عندما نطق الله هذا اللوغوس وأصبح الكلمة، فى هذه اللحظة أصبح الكلمة منظوراً وكاملاً، فعندما قال الله: ليكن نور، كان هذا هو الميلاد الكامل للكلمة الذى خرج من الله، الذى انبثق منه، فإن هذه الكلمة كان ساكناً فى الله، كحكمة كفكر، ولكن عند عملية الخليقة خرج هذه الحكمة، وظهر هذا الكلمة للوجوس من الله، أو أن الله أخرج أو أثبت منه هذه الكلمة، فإن الكلمة قد انبثق من الله لكى يعمل معه فى خلق العالم، وبهذه العملية - أى عملية انبثاق أو خروج اللوغوس أو الكلمة من الله - أصبح الله الأب أباً، وأصبح اللوغوس المنبثق منه أو المولود منه ابناً، فهو الابن البكر، لأنه ولد قبل كل خليقته، بل إنه الابن الوحيد، إذ أنه الوحيد الذى ولد من الله، فالابن كابن ليس أزلياً.

وبما أن الابن انبثق أو خرج من الأب فهذا الأخير هو الجوهر الكامل أو الكلى، وبناء على ذلك فإن الابن سيل من هذا الكل، الأب هو كلى الجوهر بينما الابن هو جزء من هذا الكل.

وتظهر فكرة التبعية أو أولوية الأب وسموه على الابن فى التشبيهات الكثيرة التى أعطاها لشرح هذه العقيدة، فمع أنه أعطى المكانة الأولى فى الثالوث للأب، والمكانة الثانية للابن، والمكانة الثالثة للروح القدس، إلا أنه أكد كثيراً وبشدة على حقيقة أن هؤلاء الثلاثة من جوهر واحد، ويكونون الله المثلث الأقانيم.

وقد شدد بوضوح على وجود الطبيعتين فى شخص المسيح، الإلهية والبشرية، اتحاد الإلهى بالبشرى، وفى هذا الاتحاد الإلهى البشرى «اللوجوس» يسوع، احتفظت كل طبيعة بميزاتها الخاصة بها.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص ٥١٤ - ٥٢٠.

أريجانونس:

ولد أريجانونس في حوالي سنة ١٨٥م، في مدينة الإسكندرية، ولم يكن وثيقاً، فقد عرف أبوه الكتب المقدسة، وفي الوقت نفسه كان مثقفاً ومطالعاً على كتابات الوثنيين.

عين مديراً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية، ومات ودفن في صور سنة ٢٥٢م.

آراؤه العقيدية:

شدد أريجانونس على حقيقة أن الله هو الأول، فهو الخالق الذي عن طريق الكلمة خلق كل الأشياء، فهو يعمل وينتج عن طريق الكلمة أي «اللوجوس» الذي يستخدمه في عملية الإنتاج والخلق.

وعملية الخلق كما يراها أريجانونس عملية طويلة، فالله هو الأول وهو الخالق الذي كان منذ الأبد خالقاً، فكل ما هو موجود خلقه الله عن طريق كلمته أي «اللوجوس»، والله خلق في البداية عنصرين هامين جداً ساهموا في تكوين العالم، ومنهما تكوين العالم الحالي، العنصر الأول هو الأرواح، ولقد دعا هذه الأرواح للإتحاد مع كلمته، أي «اللوجوس»، وعن طريق اتحادها مع اللوجوس تتحد أيضاً مع الله. أما العنصر الثاني الذي تكون منه العالم فهو المادة، فالمادة خليفة الله.

وهو يعتقد أنه من المستحيل أن تتحد الطبيعة الإلهية بجسد بشري، ولكن تتم هذه العملية - عملية الاتحاد الإلهي البشري - كان لا بد من وجود وسيط، والوسيط الذي يلجأ إليه هو الروح البشرية والمخلوقة قبل خلق الجسد، وعملية الاتحاد التي تمت بين اللوجوس وروحه البشرية قد تمت بعد الخليقة مباشرة، وظلت هذه الروح ساكنة في السماء ومتحدة باللوجوس، ولذلك عندما جاء ملء الزمان، وعندما أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، فإن هذه الروح التي كانت متحدة باللوجوس قبل التجسد صارت روحاً للإنسان يسوع بعد الجسد.

وهذه الروح هي نفسها حلت في الإنسان يسوع، وبعبارة أخرى صارت الروح البشرية ليسوع الناصري، وهذه الروح أصبحت الوسيط بينه وبين جسد يسوع الذي سكن فيه اللوجوس^(١).

وعندما سكن اللوجوس في هذا الجسد، في يسوع الناصري، وهو إنسان كامل من ناحية تكوينه أي روح وجسد، كان «اللوغوس» ابن الله يعمل في الإنسان يسوع لكي يرفعه ويسمو به. وكان «اللوغوس» يرفع ويؤله تدريجياً الروح التي اتحد بها، وكانت الروح ترفع وتؤله هي أيضاً بدورها الجسد الذي سكنه.

ومع أنه في شرحه للنصوص يؤكد على ناسوت المسيح، إلا أنه يقول في بعض كتاباته وفي أماكن عديدة بتأليه جسد المسيح. ومن هذا يتضح كما يقول القس حنا الخضري أن المعلم الذي نشأ في بيئة تشبعت بالغنوصية كان يريد أن يعمل من الغنوصية الوثنية غنوصية مسيحية. ومع أنه يستعمل العبارة «إنسان الله» عندما يتكلم عن المسيح ليسير إلا لاهوته وناسوته، لكن وردت منه التصريحات التي تبين أنه يريد أن يرفع جسد هذا الإنسان إلى درجة اللاهوت، وهذا خطر عظيم - على حد تعبير القس -.

وفي تعاليمه لا يكاد يرى إلا اللاهوت، أو ناسوتاً في طريقه إلى التائه، وهو يرى بأن اللوجوس انبثق من الأب، وهذا الانبثاق لا يعد تقسيماً في ذات الله، بل إن هذه العملية هي عملية روحية، فالابن هو صورة الله غير المنظور، وهو أيضاً حكمة الله، وهذا الابن هو ابن أزلي لا بداية له، فإنه موجود منذ الأزل ولا يوجد وقت ما لم يكن الابن موجوداً فيه.

وبما أن الحكمة (الكلمة أو اللوجوس) انبثق من الله، فهو الله، مولود من جوهر إلهي، ولكن بمر بطريقتي صحيحة وواضحة، فقد صاغ الاصطلاح الذي لعب دوراً كبيراً في تاريخ العقيدة المسيحية، وخاصة في مجمع نيقية، وهو «أموزيوس» (Omoousios)، والذي يعني أن طبيعة الابن من طبيعة الأب، فبحسب هذا التعبير الابن من نفس جوهر الأب.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي، ص ٥٢٩ - ٥٥٠.

وهكذا أدخل أوريجانوس في التعاليم اللاهوتية الشرقية عقيدة روح المسيح، ورأى في شخص المسيح المخلص والفادي، وقد تطرف في فهم النظرية.

وخلاصة القول كما يقول القس حنا الخضرى أنه كان له تأثير عميق على كنيسة القرن الأولى^(١).

أغسطينوس:

ولد سنة ٣٥٤م في مدينة سقسطة في الجزائر، وتوفي سنة ٤٣٠م. تميزت سنوات شبابه بالصراع العقلي والأدبي فقد جذبته الفلسفة الثنائية لجماعة المانويين، وصار تابعاً أميناً للعقيدة المانوية وفلسفتها، ثم ضاق بالمانوية، وصار اهتمامه بالأفلاطونية الحديثة والذي من خلالها صار يعتبر نفسه مسيحياً، ثم خلع عنه فيما بعد حياة الجنون والفساد، واستقبل الحياة النصرانية، وبرز فيها إلى أن صار أسقفاً لهيبو في منطقة تونس، إلى أن توفي، وصار من أعظم قادة الكنيسة بعد بولس^(٢).

أثرت أفكار الأفلاطونية الحديثة على تعاليمه، كما يقول جون لوريمر، وكانت معالجته للأوجه الرسمية الخاصة بالفكر اللاهوتي متأثرة بخلفيته عن الأفلاطونية الحديثة^(٣).

رابعاً: بعض ملامح التأثير الفلسفي في العقائد النصرانية

إن تأثير الفلسفة اليونانية واضح كل الوضوح في الديانة النصرانية، وإن انتماءها إليه أكثر من انتمائها إلى المسيح ﷺ، وإن الناظر في الديانة النصرانية يتحقق من تأثير الفلسفة فيها في نواح عديدة، من أهمها:

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي، ص ٥٢٩ - ٥٦١، دراسات في الفلسفة القديمة والمصور الوسطى، ص ٢٧٣.

(٢) راجع تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ١٨٦/٣ - ١٨٩.

(٣) راجع تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ١٨٦/٣ - ٢٠٠.

أولاً: إن النصرانية اقتبست من الأديان الوثنية والفلسفات اليونانية الواسطة بين الخالق والمخلوق، وإن مما هو معلوم أن أهم مميزات الدين السماوى هو وصل المخلوق بالخالق بدون وسائط، وأهم مميزات الوثنية عموماً هو إدعاء الواسطة بين الخالق والمخلوق، ومن هنا نرى أن بولس وهو اليهودى فى الأصل قد تأثر بفيلون اليهودى فى دعوى الواسطة، فنرى التطابق بين رأيهما، فقد ادعى فيلون وسيطاً بين الإله الأعلى والإنسان، وفى ذلك يقول بولس: «يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح»^(١).

وهكذا نجد أن كل تصور عن الله أو الوسطاء فى فلسفة أفلاطون الممتزجة بالرواقية قد انتقل إلى النصرانية عن طريق بولس أو يوحنا صاحب الإنجيل فى الأعم الأغلب بواسطة فيلون اليهودى، الذى صاغ هذه الفلسفة فى صورة جديدة مبنية فى أغلب الأحيان على الرمز والتأويل بما يتلاءم والكتاب المقدس.

ودعوى النصرارى فى الكلمة أو اللوجوس بمعنى الواسطة بدا واضحاً فى الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا)، وهو قول مأخوذ من فلاسفة اليونان، فهو مزيج بين فلسفة أفلاطون، حيث يدعى أنه فى البدء جاء الصانع فصنع النفس الكلية، ومن الأخيرة صنع الإنسان وبقية الأشياء^(٢).

وهى عند الرواقيين الإله الأكبر، وهى منتشرة وحالة فى سائر المخلوقات، وهى غير مخلوقة^(٣).

فجاء فيلون اليهودى، وحاول الربط بين هذه الأشياء مع موروثاته الدينية اليهودية، فادعى أن الواسطة بين الخالق والخلق هى الكلمة واللوجوس الصادر عن الله، والذى هو صفة من صفات الله، وهو يعتبر ولد الله وابن الله، وهى عنده التى تحفظ جميع الأشياء، وهى موجودة فى ماهية الله، وتكاد تعد أقتوماً من آقانيم الله - تعالى الله عن قولهم.

(١) تيموثاوس ٢/٥.

(٢) راجع موسوعة الفلسفة ١/ ١٧٤، وأديان العالم، ص ٢١٤ - ٣١٥.

(٣) راجع موسوعة الفلسفة ٢/ ٢٢٤.

وهذا القول ظهر واضحاً في إنجيل يوحنا بإدعاء أن المسيح هو الكلمة، ودعوى أن الكلمة هي الله وابن الله وبها كان كل شيء. ولذا صرح عبد الرحمن بدوى بأن فكرة الكلمة قد لعبت دوراً خطيراً في المسيحية عن طريق الإنجيل الرابع، ولسنا ندرى على وجه التدقيق في أي وقت كتب، وإن كان الأرجح أن يكون قد كتب في القرن الثاني تحت تأثير فيلوني صرهفا^(١).

ثانياً: إن التثليث وهو رأس العقيدة النصرانية هو مزيج مستورد من الوثنية والفلسفة وخالصة الأفلاطونية، فنجد أن أفلاطون في كلامه عن الإله جعله ثلاث طبقات:

أولاً: الصور الحى بذاته.

ثانياً: الصانع الذى يصنع الوجود على غرار الصور والحى بذاته، وهو عنده النفس الكلية التى صنعها الخالق الأول.

ثالثاً: الكون أو العالم ثم أرواح الكواكب^(٢).

وهذا التثليث ظهر أيضاً بعد في كلام أفلاطين رأس الأفلاطونية المحدثة على نحو من كلام أفلاطون، فادعى التثليث، وجعل الإله ثلاثة أقانيم كما ذكرنا سابقاً.

وإذا نظرنا إلى ثالث النصارى وجدناه يحوم حول هذه المعانى التى عرضها أفلاطون، وكأنه مشتق منها، إلا أنه حددها بذوات معلومة معروفة، وخالف بين أدوارها، فعندهم الأب وهو الأصل والمبدأ، والابن وهو كلمة الله وعقل الله، وهو صادر عن الأب، وهو الذى خلق العالم وأوجده، ويتصرف فيه ويدبره. وروح القدس وهو صفة الحياة للإله الأب والابن، وهو منبثق عن الأب كما هو قول الأرثوذكس، ومنبثق عن الأب والابن كما هو قول الكاثوليك وعمله التطهير للنصارى.

(١) راجع موسوعة الفلسفة ٢/ ٢٢٣.

(٢) راجع موسوعة الفلسفة ١/ ١٨٧.

ويقرر «ليون جويته» في كتابه «المدخل لدراسات الفلسفة الإسلامية» تحت عنوان التثليث ليس من المسيحية، أن الثالث الأفلوطينى والثالوث المسيحي كلاهما يرجع إلى الفلسفة الإغريقية^(١).

وعلى هذا يكون أفلوطين هو آخر الفلاسفة الوثنيين وأعظمهم في تسويق اللاهوت النصراني، فأودعه بعد عقيدة التثليث لاهوتية العقائد الوثنية، وما أكثر الذين اهتموا به من النصارى، حتى إن أوغسطين يردد كل ما انتهجه أفلوطين.

وهي الوسع أن نقول بأنه عن طريق فيلون يوحنا وبولس وأفلوطين وأوغسطين غلب أفلوطين أرسطو، وتعمق في أغوار اللاهوت الكنسي، وأخذت الثغرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً^(٢).

ثالثاً: إن المصطلحات الدينية لدى النصارى مثل الأب والابن والروح القدس والكلمة والتجسد والصلب والفداء والتعميد فسرت بتفسيرات فلسفية، استخدم أصحابها فيها أساليب الفلاسفة ليتم إقناع الناس بتلك المصطلحات، التي لم يرد فيها عن المسيح - ﷺ - شيء البتة، مما يدل دلالة واضحة على أن الفلسفة كانت مطبوعة للنصارى في شرح ديانتهم.

كما أن استخدام الفلسفة في شرح تلك المصطلحات أدى إلى ظهور الفرق الكثيرة بين النصارى، وذلك للفتاوت الكبيرة بين تلك الشروحات، وذلك كما حدث في تفسير البتوة، حيث فسرها البولسيون بأنها بتوة حقيقة، وتعنى اتحاداً بين الأب والابن، أما الأريوسيون ففسروها على أنها بتوة النعمة، وبتوة المكانة الرفيعة لدى الأب.

ونفس الأمر حدث عند الحديث عن الروح القدس، فمنهم من ادعى أنه مخلوق، ومنهم من ادعى أنه إله ويشكل أقتوماً من أقانيم الإله لديهم، ومنهم من زعم صدوره عن الأب وحده، ومنهم من زعم صدوره عن الأب والابن معاً.

(١) راجع تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٩٧.

(٢) راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ١٧٥، عقيدتنا التثليث والصلب، ص ٢٦١.

وهكذا كانت الأراء التي خرجت وطرحت فى الجامع حصيلة آراء صاغتھا الفلاسفات المنتشرة، وكانت أهم قضية طرحت فى هذا المجال كلما أسلفنا ما يرتبط بمفردات الثالوث، وأقنومية كل فرد منها، واقترح كل مناصر رأيه فى هذا المجال فى الوصول إلى مصطلحات تؤدى الفرض الذى سمعوا إليه فى تحديد الأقنومية وطبيعتها. وقرر أنصار الثالوث أن هذا سر يصعب تمقله.

فلا شك بعد هذا كله من أن الديانة التى جاء بها المسيح - ﷺ - لم يكن فيها شىء من التعقيد والفلسفة، بل كانت دعوة بسيطة وجهها إلى بسطاء الناس من بنى إسرائيل، لأنها لا تعدو أن تكون وعظاً وتذكيراً وضرب أمثله من واقع الناس وحياتهم اليومية، فتابعه من تابعه من أولئك البسطاء، وكان جلهم من الفلاحين وصيادى السمك وفقراء الناس. وكفر به من كفر من اليهود، لأن تلك الدعوة لم تكن تدور فى فلك أهوائهم.

أما ما عليه النصرانية اليوم فهى نصرانية غاية فى العسر واستحالة الفهم، وكل من أراد أن يؤمن بها فعليه أن يلقى عقله جانباً حتى يمكنه أن يقبل ذلك المزيج بين الدين والفلسفة، والأديان الوثنية، وهو مزيج النسبة المرتفعة فيه لصالح الفلسفة الوثنية.



الفصل الثالث

أثر رجال الكنيسة في الانحراف

نشأة الكنيسة

قبل أن نتحدث عن أثر الكنيسة ورجالها في إقرار الانحراف الذي طرأ على التوحيد في النصرانية، والمساعدة على شيوعه وتميمه على النصارى في كل مكان... رأينا أن نعطي لمحة موجزة عن نشأة الكنيسة، نعرف من خلالها متى نشأ هذا النظام الكنسي الذي أصبح من حقه أن يثبت ما شاء، أو ينفي ما شاء، وأصبح من حقه إقرار العقائد وصياغتها، والتدخل في أسس العقيدة وأركانها.

ولدى مراجعتنا للمراجع التي تحدثت عن هذا الموضوع، فإننا لم نجد أحداً من النصارى قال بأن نظام الكنيسة عرف زمن المسيح - ﷺ -، كما أن النصوص الإنجيلية لم تتسب قط إلى المسيح تعبيراً على الكنيسة، إلا في مناسبة واحدة وردت في إنجيل متى: (أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي)^(١).

ومع استغلال رجال الدين النصارى لهذا النص الذي يستشهدون به على أنه كان في نية المسيح بناء كنيسة أو أنه أمر بذلك، إلا أن هذا النص بحد ذاته - إذا صح - لا يدل على الكنيسة بمعناها المعروف وإنما يشير إلى الثقة التي أعطاها المسيح - ﷺ - لتلميذه (بطرس) ويشير إلى دعوته ستقوم وتتصر بين الناس على أكتاف المؤمنين بها المخلصين أمثال تلميذه بطرس، فهو أراد أن يمتدح تلميذه (بطرس) فأعطاها لقب الصخرة كناية عن الثبات والصمود.

(١) متى: ١٦ / ١٨.

إن دعوة المسيح - ﷺ - خاصة لبني إسرائيل وهى من البساطة واليسر بحيث لا تحتاج إلى هذا التنظيم الكئسى الذى نشهده وهذه المناصب الكثيرة وإلى هذا الجهاز الضخم من الكرادلة والمطارنة والأساقفة والبطاركة والشمامسة، وغير ذلك من ألقاب ما عرفها المسيح ولا سمع بها.

ومع بداية القرن الرابع تتغير الأحوال، يقول الأستاذ (جيني بير): (إذا تأملنا المسيحية فى مقتبل القرن الرابع، فإنه يتمذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الحواريين، بدلاً من جماعة محدودة من اليهود لا يفرق بينهم وبين باقى أمتهم سوى أمل خاص.. بدلاً من ذلك نجد مجتمعاً دينياً واسع النطاق يدخل فيه - دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة - كل من يرى فى نفسه القدرة الكافية، مجتمعاً يدرك تماماً أنه يشكل وحدة متكاملة، وأنه هو الأمة المختارة أى (كنيسة المسيح)^(١).

والأستاذ (جيني بير) يتحدث إلينا عن تطور فكرة الكنيسة، وكيف نمت هذه الفكرة مع بداية القرن الثانى، حتى تجلت واضحة فى بداية القرن الرابع. فهو يقول: (إن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يردّها)^(٢)، ويؤكد هذه الحقيقة فيقول: (ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أى باحث... إن عيسى كان يترقب حلول مملكة الله الوشيك، ومن شأن هذا الأمل أن ينفى من منطقة كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوى لأتباعه)^(٣).

وهكذا يمضى عهد المسيح - ﷺ - دون أى تكبير بإنشاء مؤسسة الكنيسة، ولقد كان الحال كذلك فى عهد حواريين الذين حادوا عن طريقه، فهم كذلك لم ينشئوا كنيسة قط، يقول الأستاذ (جيني بير): (وإذا قلنا بأن المسيح صرح للحواريين الإثنى عشر بسلطة ما، وهذا محل جدل حتى اليوم، فمما لا شك فيه أن الأمر لم يتمد منحهم بعض ما أوتى هو من سلطان فى التبشير بالتوبة، وبحلول مملكة الله، ولم يصنع منهم قساوسة حيث لم يكن فى حاجة إلى ذلك،

(١) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٣٦ - ١٢٧.

(٢) نفس المرجع: ص ١٣٠. (٣) نفس المرجع: ص ١٣٠.

وعلى أى حال فإننا عندما ندرس أعمال الحواريين لا نجد أنهم فكروا فى إنشاء كنيسة^(١).

أضف إلى ذلك أن الحاجة لإنشاء الكنيسة لم تنشأ إلا عندما أريد للمسيحية أن تنتقل إلى العالم اليونانى الرومانى، وكما يقول الأستاذ (جيني بير): (يمكن القول بأن فكرة الكنيسة نشأت عن انتقال الأمل المسيحى من فلسطين إلى ربوع العالم اليونانى، وأيضاً إذا شئنا عن تطور هذا الأمل إلى العالمية)^(٢).

وقد عرفنا أن الذى قوى هذا الأمل، ونادى بعالمية المسيحية هو بولس، وفكرة بولس هذه نمت، ونجحت فى القرن الثانى، (ونعمتد أيضاً أننا إذا وقفنا على أعتاب القرن الثانى لنتأمل المسيحية سوف نجد أن فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعاً فى الله قد ثبتت تمام الثبوت)^(٣).

هكذا بدأت الفكرة (ويشير الباحثون إلى أن نظام الكنيسة، وسلطة رجل الدين قد بدا واضحاً فى القرن الرابع، حيث عدّ بابا روما رئيساً للكنائس كلها، وقد أصبح للبابوات نفوذ ضخم مع تدهور الإمبراطورية فى الغرب)^(٤).

ويشير المؤرخون إلى أن أقدم كنيسة هى كنيسة بطرس فى روما، ولقد افتقرت الكنائس تبعاً لافتراق النصارى، ولكل فرقة من الفرق الثلاث المعروفة اليوم كنيسة تعتبر أمناً للكنائس المنتشرة فى كثير من أقطار العالم.

(والكنيسة الكاثوليكية هى كبرى كنائس العالم وهى ذات التاريخ الطويل فى الدين والسياسة، وهى التى حملت لواء الحروب الصليبية، وحاملة لواء محاكم التفتيش).

هذه لمحة سريعة عن نشأة الكنيسة، أثبتنا من خلالها أن الكنيسة فى أساسها طارئة على المسيحية، وبالتالي فلا غرابة أن تقوم برفع راية الانحراف بالنصرانية عن توحيدها فى كل العصور.

(٢) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٣١.

(١) نفس المرجع: ص ١٣٠.

(٤) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ٢٠٨.

(٢) نفس المرجع: ص ١٣٢.

ونحن حينما نتحدث عن أثر الكنيسة ورجالها في الانحراف، لا بد لنا أن نتحدث عن تلك المجامع التي عقدها رجال الدين النصارى، وهم رجال الكنيسة، لأن الانحراف كله صدر عن هذه المجامع، فهي مصدر أساسى من مصادر انحراف النصرانية عن التوحيد.

المجامع

والقضية الأولى التي نود الحديث عنها حول هذه المجامع هي: أن كل مجمع منها ما عقد إلا لمعالجة مشكلة، أو مناقشة قضية كثر فيها الجدل، واحتدم فيها الصراع، ونشأ عنها الخلاف الطويل بين رجال الكنيسة أنفسهم ومن اللحظة الأولى التي ابتدأت فيها المسيحية بالانحراف عن عقيدتها الأصلية الموحدة على يد بعض رجال الدين الذين تلبسوا بالمسيحية أمثال (بولس)، من تلك اللحظة بدأ الخلاف واحتدم الجدل حول أهم أركان العقيدة النصرانية، وهو ركن الألوهية والتوحيد، وبينما كان الجيل الأول من النصارى لا يعرف غير التوحيد الخالص لله تعالى، توالت أجيال من بعده احتكت بالفلسفة الإغريقية وبالوثنية الرومانية، وأصبحت تلك النظريات الفلسفية، تشكل قواعد اللاهوت المسيحى، ومن الطبيعى أن لا يتفق الناس جميعاً على الباطل والانحراف.. وحتى المتفقون على الباطل، لا بد لهم أن يختلفوا لأن سبل الباطل متشعبة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

وتمدت الآراء حول قضية الألوهية وطرحت عند النصارى فكرة تأليه المسيح - ﷺ - تلك الفكرة التي نشأ حولها الصراع الدامى الطويل بين النصارى، وانقسم النصارى بين مؤيد للفكرة ومعارض لها، يقول الأستاذ (محمد فريد وجدى): كانت الكنائس النصرانية فى الجيل الرابع متوزعة بين حزبين: أحدهما يقر بإلهية المسيح والآخر ينكرها^(٢).

(١) سورة الأنعام: ص ١٥٢.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى: ١٠ / ٢٠٢.

ولا شك أن كل حزب من هذين الحزبين، كان يحتوى فرقاً متعددة، ونحن لن نحاول استقصاء الفرق، والآراء التى ظهرت حول طبيعة السيد المسيح، ولكننا نتحدث عن أهم تلك الفرق، أو بالأحرى ذات الأثر الكبير فى تاريخ النصرانية، وسنسلط الأضواء على الفرق الموحدة التى عارضت موجة الانحراف والتأليه، ومن خلال حديثنا عنها سنرى موقف رجال الكنيسة المعارضين لهم، وبذلك يظهر لنا دورهم فى إقرار الإنحراف.

الحركة الأريوسية

وأبرز الفرق التى عارضت تأليه المسيح، فرقة الأريوسيين التى يعتبرها النصارى فرقة خارجة عن النصرانية، ويعتبرون حركتها أخطر حركة فى تاريخ الكنيسة، ويصفونها بالهرطقة^(١).

يقول (ودل ديورانت): (أثناء حكم قسطنطين شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة، ذلك أن قساً مصريةً تقدم إلى أسقفه حوالى عام (٣١٨م) بأراء غريبة عن طبيعة المسيح)^(٢).

ونحن هنا سنقف قليلاً مع (آريوس)^(٣) لتتعرف على نشأته وأفكاره ونسير معه إلى (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م) باعتباره ما عقد إلا لأجله، وسنرى من خلال رحلتنا هذه كيف قضى رجال الدين المنحرفون على هذه الحركة بسلطتهم الدينية، تعاونهم سلطة الإمبراطور التى تدخلت فعلياً لإقرار الانحراف، والقضاء على الحركة الأريوسية، وبذلك انتصرت الكنيسة الكاثوليكية، وأقرت التثليث الذى فرض على النصارى، فقضت على الموحدين، وأحرقت كتبهم، وما

(١) الهرطقة أو الأرتقة كلمة يونانية من (artic) بمعنى الكفر تطلقها الكنيسة الكاثوليكية على كل مخالفينها.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٢.

(٣) آريوس: ولد فى ليبيا القيروان سنة ٢٧٠م ودخل فى شبابه المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية ثم رشحه البابا (بطرس) بطريرك الإسكندرية شماساً سنة ٣٠٧م ثم قساً وواعظاً وكان ذكياً فصيحاً.

انظر: تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١/ ١٥٠، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨م.

بقى للأجيال سوى عقيدة التثليث التي يؤمن بها النصارى على اختلاف فرقهم. والمراجع المسيحية كلها تتحدث عن (آريوس) عند حديثها عن الزندقة والإلحاد في المسيحية، لذلك فإن كتبه ورسائله التي بين بها آراءه قد حكم عليها بالإعدام، فلم يصلنا منها شيء، ولولا ما دون عن أخباره وأرائه في الكتب التي ردت عليه لما عرفنا عنه شيئاً.

صفاته:

ونحاول أن نتبع صفات آريوس لتتعرف من خلالها على شخصيته، يقول الدكتور (أسد رستم): (وكان آريوس فيما يظهر عالماً زاهداً متقشفاً يجيد الوعظ والإرشاد فالتفت حوله عدد من المؤمنين، وانضم إليه عدد كبير من رجال (الإكليروس) الذين وجدوا في وعظه غذاء للنفوس فاثروا الإصغاء إليه)^(١).

هذا ما وصفه به المؤرخ الدكتور أسد رستم، وهو مسيحي بل هو مؤرخ كنيسة أنطاكية.

ويصفه مؤرخ كاثوليكي وصفاً كريماً فيقول: (كان آريوس طويل القامة نحيل الجسم، وذا مظهر تبدو فيه آثار خشونة العيش، وكان معروفاً بأنه من الزهاد، وكان له بين رجال الدين عدد من المؤيدين)^(٢).

وبناء على ذلك فإن (آريوس) نشأ في بيئة مسيحية خالصة، درس اللاهوت في الإسكندرية منذ ريمان شبابه، واهتم بالمسائل الدينية، وعرف بالتحقير والزهد والتعسف، فعينته بطريرك الإسكندرية شماساً ثم قساً وواعظاً، ووصف بأنه كان ذكياً فصيحاً يجيد الوعظ والإرشاد، واستطاع بأسلوبه الحكيم، وبما أوتي من قدرة وعظمية أن يستميل لفكرته كثيراً من المؤيدين، معظمهم من رجال الدين المطلعين عليه، وإنا لنلمس من خلال هذه الأوصاف التي يصفه بها كتاب مسيحيون مناوئون له، القوة والمنطق في آرائه، فهو أولاً: رجل دين مطلع عاش

(١) كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، د. أسد رستم: ١٩٢/١، نشر دار النور - بيروت.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٢/١١.

المسألة في الكنيسة، ودرسها، وكان من الذين يجوز لهم الإطلاع على جميع الكتب الدينية الموجودة، كما عرف بزهده وتقواه، وهذا يشير إلى إخلاصه وعدم اتهامه بالزندقة وغيرها.. أضيف إلى ذلك كله صموده وصبره الطويل أمام رجل الدين المنحرفين، وأمام الإمبراطور نفسه بجبروته وعظمته. إن وقفته الصامدة ومواجهته لكل الضغوط، إنما يدل دلالة واضحة على صدق ما جاء به، ولذلك فقد كثر أتباعه وصبروا معه، ولاقوا العذاب والاضطهاد في سبيل ذلك، لأنهم يؤمنون أنهم على حق، وهذا شأن أصحاب العقائد المخلصين في دعوتهم.

إن الدارس لحركة (أريوس) وجهاده الطويل ليدرك فداحة الجريمة التي ارتكبها بعض رجال الدين الذين آثروا مناصبهم، وآثروا إرضاء الدولة الرومانية الوثنية، فباعوا دينهم بدنياهم ووقفوا ضد (أريوس)، وحركته، وهم موقنون بقرارة نفوسهم صحة آرائه.

أما عن آرائه فلقد أسلفت من قبل أن رسائله التي أوضع فيها آراءه، لم تصلنا، وما نقله المؤرخون عن عقيدته إنما كان مصدرهم فيه الكتب التي ردت عليه.

يقول الدكتور (أسد رستم): (ولسنا نعلم الشيء الكثير عن أريوس هذا.. وقد ضاعت رسائله ولم يبق منها إلا مقتطفات يسيرة، جاءت في بعض الردود عليه)^(١).

ومع ذلك فقد حوت هذه الكتب خلاصة عقيدته، وإن كنا نود لو أننا عثرنا على هذه الرسائل، لأن ما من شك أنها حوت شروحات كثيرة من عقيدته، لم تتضمنها كتب الذين ردوا عليه.

وقد لخص زكي شنودة عقيدة (أريوس) وآراءه فقال: (إنه يؤمن بآله واحد متعال، يفوق حد التصور منطوق على نفسه، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شيء له نهاية، وهو فريد لا شبيه له، أزلي لا بداية له، صالح، هو وحده

(١) الروم، أسد رستم: ٥٦/١.

سبحانه ينفرد بهذه الصفات، وعندما شاءت إرادته أن يخلق عالماً ذا نهاية احتاج إلى وسيط، ولم يكن في هذا الوسيط قوة خالقة، وإنما كان عاملاً بسيطاً علمه الأب كيفية القيام بهذه المهمة. وهذا الوسيط لم يأت من عند الأب بأن صدر عنه أو انحدر منه، بل خلقه الأب خلقاً، فهو إذن غير أزلي، وهو مخلوق مثل باقى المخلوقات، ولا يمتاز عنها إلا بكونه خلق قبلها، وبأنه كان الواسطة التى استخدمها الله فى عملية الخلق، ثم بعد ذلك فى عملية الفداء، وهو ليس مساوياً للأب فى الجوهر، بل بالعكس تتغير طبيعته مثل أى مخلوق، وهو كإى مخلوق أيضاً قادر على عمل الخير والشر.. وهو أيضاً: معرض للخطأ، ولا يستطيع أن يحيط بكل شيء^(١).

هذا ما نقله لنا صاحب موسوعة تاريخ الأقباط عن عقيدة (أريوس) وما كتبه الدكتور أسد رستم وغيره شبيه بذلك.

ولعل من تمام الفائدة أن نذكر المناظرة التى جرت بين (أريوس) وبين (أثاسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية بحضور الإمبراطور (قسطنطين) فى مجمع (نيقية سنة ٣٢٥م)، وهذه المناظرة تعتبر المصدر الأسمى الوحيد لبيان عقيدة أريوس كما يذكر الدكتور أسد رستم^(٢).

وقد أورد صاحب (تاريخ الأقباط) هذه المناظرة، وقد دارت المناقشة بعد أن رأس الإمبراطور المجمع وطلب من (أريوس) أن يشرح مذهبه فقال: (إن الابن ليس مساوياً للأب فى الأزلية، وليس من جوهره وقد كان الأب فى الأصل وحيداً، فأخرج الابن من العدم بإرادته، والأب لا يمكن أن يراه أو يكفئه أحد، ولا حتى الابن، لأن الذى له بداية لا يعرف الأزلى)^(٣).

قال أريوس هذا بوضوح وصراحة أمام مؤيديه، ومخالفيه من رجال الكنيسة، وأمام الإمبراطور نفسه، رغم أن هذه الآراء لم تُرضِ الإمبراطور إلا

(١) تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١٥١/١.

(٢) الروم، أسد رستم: ٥٦/١.

(٣) تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١٥٤/١.

انه لم يستطع الرد عليها، لقلة علمه بالنصرانية علماً، عندئذ ياتي دور المناهقين الذين يمشون دائماً على فتات موائد السلاطين لينتصروا لرأى السلطان، ولو كان باطلاً حتى لو كان ذلك على حساب دينهم.

يقول زكى شنودة: فتصدى له (أثناسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية، ودارت بينهما هذه المناظرة^(١):

أريوس: إن سليمان الحكيم تكلم بلسان المسيح قائلاً (خلقنى أول طرفة).

أثناسيوس: معنى خلقنى هنا ولدنى.

أريوس: إن الابن قال (ابى أعظم منى)^(٢)، فالابن إذن أصغر من الأب ولا يساويه فى الجوهر.

أثناسيوس: إن الابن دون الأب لكنه تجسد... أى أنه بناسوته يمضى إلى الأب الذى هو أعظم من ناسوت الابن، وإلا كيف يتكلم بلاهوته! إنه يمضى إلى الأب حال كونه فى حضن الأب.

أريوس: إن المسيح نسب لذاته لعدم معرفة ساعة الدينونة بقوله لتلاميذه: (أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد، ولا ملائكة السماوات ولا الابن إلا الأب وحده)^(٣).

فإذا كان الابن لا يعرف وقت الدينونة فكيف يكون إلهاً؟

أثناسيوس: إن المسيح قال ذلك لتلاميذه لئلا يسألوه عن هذا السر الذى لا يجوز لهم أن يطلعوا عليه.

أريوس: إن المسيح قال: (أنا لا أقدر أن أصنع مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى)^(٤)، فهو إذن عبد للأب ودونه.

أثناسيوس: إن المسيح تكلم من مواضع كثيرة بحسب كونه إلهاً صار إنساناً

(١) نفس المرجع: ١٥٥ - ١٥٦. (٢) يوحنا: ١٤ / ٢٨.

(٣) متى: ٢٤ / ٣٦. (٤) يوحنا: ٤ / ٣٤.

كقوله: (إلهى إلهى لماذا تركتني)^(١).

(إنى صاعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم)^(٢).

وبصفته إلهاً كقوله: (من رأتى فقد رأى الذى أرسلنى)^(٣).

وقوله: (أنا فى الأب والأب فى)^(٤).



هذه مقتطفات من المناظرة التى دارت بين (آريوس) وبين (أثناسيوس) رئيس شماسة الإسكندرية، ويصفه (ول ديورانت) بأنه البليغ المشاكس الذى جاء به (الكنسندر) بطريرك الإسكندرية ليقطع لسانه معارضيه^(٥).

ولا شك أنها مقتطفات مبتورة، ولا بد أنها تعرضت لشيء من التزوير، لأنها وصلت إلينا عن طريق مؤرخين مسيحيين معارضين لآريوس.

ومع هذا فإن قوة المنطق تبرز من خلال كلام (آريوس)، ولذلك فإن صاحب قصة الحضارة يشهد لإجابات (آريوس) بأنها (منطقية صريحة قاطعة، وقد سلم (أثناسيوس) بما فى تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إله واحد من صعوبة، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فى الثالث من خفاء وغموض)^(٦).

ومن خلال هذه المناظرة، وما أسلفنا من بيان عقيدة آريوس، نستطيع أن نعدد عناصر عقيدته بالأركان التالية:

١ - وحدانية الله تعالى بذاته وصفاته.

٢ - الله تعالى أزلى لا بداية له.

٣ - احتياج الله إلى وسيط ليخلق العالم.

(١) متى: ٤٦ / ٢٧ .

(٢) يوحنا: ١٧ / ٢٠ .

(٣) يوحنا: ٤٥ / ١٢ .

(٤) يوحنا: ١٧ / ٢١ .

(٥) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١ / ٣٩٥ .

(٦) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١ / ٣٩٥ .

٤ - الوسيط هو المسيح (الابن) فهو مخلوق غير أزلى غير مساوٍ للأب في الجوهر وبذلك أنكر ألوهية المسيح.

٥ - الابن عند الأب ودون لا يعرف وقت الدينونة.

وتكاد هذه العناصر بعقيدة آريوس تشابه نظرة الإسلام لشخصية المسيح - ﷺ -، والعقيدة في الله تعالى.. ولكنها تخالف الإسلام بمسألة الوسيط الذي احتاج الله إليه ليشاركه في الخلق، والإسلام نزه الله تعالى عن الشريك.

مقاومة رجال الكنيسة لآريوس:

بدأت مقاومة (آريوس) من قبل رئيس كنيسة (الكسندروس) يقول أسد رستم: (وعلم الكسندروس) بما علم آريوس ومنعه عما كان يعلم به^(١).

لكن آريوس استمر بدعوته نشيطاً، واستطاع أن يكسب أعداداً كبيرة من رجال الدين، وكثر مؤيديه من الأساقفة خارج مصر (وبين هؤلاء أساقفة كل من: نيوميدية فيصرية فلسطين، بيسان، اللد، صور، بيروت، اللاذقية، عين زبية في قنيطرة).

وتبعه عدد كبير من غير الأساقفة، وكان هذا التأييد دافعاً قوياً لآريوس للاستمرار بدعوته وحركته.

وعندما رفض (آريوس) أوامر سيده (الكسندروس) الذي نهاه عن أقواله استدعى أسقف الإسكندرية بعض الأساقفة وألقوا مجماً حرموا فيه (آريوس) ومذهبه، فقام آريوس وجمع مجماً حضره كثير من الأساقفة أثبت فيه مذهب وحرم من خالفه^(٢).

لكن يبدو من كلام (أسد رستم) أن آريوس لم يتمكن من عقد مجمعه في الإسكندرية، لأن الكسندروس تمكّن من نفيه، ونفى أسقفين وستة قساوسة وستة شمامسة معه، فقصد فيصرية فلسطين، وكان أسقفها (أفسابيوس

(١) كنيسة مدينة الله، د. أسد رستم: ١٩٢/١.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ٢٠٢/١٠.

المؤرخ) يؤيد مذهب (أريوس) لكنه لا يجاهر به، ثم ذهب أريوس إلى نيقيوميديا، وأقنع أسقفها برأيه، فمقد مجماً محلياً اتخذ فيه قراراً بوجوب قبول (أريوس) وجماعته ووجوب الكتابة إلى (الكسندروس) ليرفع عنهم الحرمان، وكلف المجمع (أريوس) أن يكتب ذلك، فكتب رسالة دعاها (التالية) ضمنها آراءه في الثالث فراجت رواجاً ملموساً^(١).

وبعثوا الكتاب إلى أسقف الإسكندرية (لكنه رفض ذلك فاجتمع بعض الأساقفة الأنطاكيين في قيصرية فلسطين، ومنحوا أريوس وجماعته حق الرجوع إلى ممارسة الأسرار)^(٢).

وهذا يدل على الرواج السريع الذي لاقته فكرة أريوس بين الأوساط المسيحية التي لازالت ليومها لم تتحرف كثيراً عن التوحيد.

ومع هذا الرواج الملموس لم تعد القضية خلافاً بين أريوس والكسندروس فحسب، بل باتت مشكلة خلافية تهدد أمن الإمبراطورية الرومانية وسلطة الكنيسة.

إن أفكار (أريوس) أدت إلى انقسامه رجال الدين إلى فريق مؤيد له ولأفكاره التوحيدية، وفريق مؤيد لألكسندروس وأرائه المؤلثة واحتدام الصراع، وترددت في المدائن أصداء الضجيج، والاضطرابات حتى كان المسيحي كما يقول (يوسيبوس): موضع السخرية الدنسة من الوثنيين حتى في دور التمثيل نفسها^(٣).

وكان هذا الخلاف موضع اهتمام الإمبراطور (قسطنطين)، الذي كان يهيمه بالدرجة الأولى أمن دولته واستقرارها. وهو الذي اعتنق النصرانية أصلاً لهذا الغرض، كما يميل كثير من المؤرخين. فهياً الأمور لعقد مؤتمر ديني كبير يضم رجال الدين من كافة أنحاء الدولة فكان (مجمع نيقيية سنة ٣٢٥م).

(١) كنيسة مدينة الله، د. أسد رستم؛ ١ / ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) نفس المرجع؛ ١ / ١٩٦.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت؛ ١١ / ٣٩٢.

وقد حاول الإمبراطور من قبل إنهاء الخلاف، فبعث إلى كل من (الكسندروس) و(أريوس) بوجوب التألف ونبذ الخصام، وكما يقول أسد رستم: (فإن الإمبراطور ألمح في كتبه إلى وجوب طاعة الرئيس، وأشار إلى أن الاختلاف العقائدي أمر فلسفي دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام)^(١).

وبذلك يصرح الإمبراطور قسطنطين أن الأمور الدينية أمور فلسفية دقيقة لا أهمية لها.

وقد عقد الإمبراطور (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م) بناء على اقتراح تقدم به (هوسيوس) أسقف إسبانيا الذي أرسله الإمبراطور لحل القضية في الإسكندرية بين أريوس ورثيسه، فلم يفلح^(٢).

وجّه الإمبراطور الدعوة إلى جميع الأساقفة في الدولة الرومانية، وعيّن نيقية مركز الاجتماع.

أما عن عدد الذين حضروا هذا المجمع فتختلف الروايات التاريخية في ذلك، فصاحب (قصة الحضارة) يذكر أن عدد الأساقفة لا يقل عن (٣١٨) أسقفاً يصحبهم حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة^(٣).

وصاحب (تاريخ الأقباط) يذكر أنه قد حضر (٣١٨) أسقفاً من كل أنحاء العالم المسيحي، وفي مقدمتهم البابا (الكسندروس بطريرك الإسكندرية) وبصحبة أثناسيوس رئيس شماسته، وأسقف إنطاكية، وأسقف قيصرية فلسطين، وأسقف القدس وحضر مع أريوس أتباعه أساقفة نيكوميدية، ونيقية، وفلقيدونية، ومعهم عدد من المفكرين والفلاسفة، وقد بلغ مجموع الحاضرين نحو الألفين^(٤).

أما المؤرخ أسد رستم فيذكر عدة روايات في عدد المجتمعين (فهم مائتان

(١) الروم، أسد رستم: ١ / ٥٧. (٢) نفس المرجع: ص ٥٧.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١ / ٣٩٤.

(٤) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١ / ١٥٤.

وسبعون من رواية (أفستاتIOS) أسقف أنطاكية، وثلاثمائة فى عرف أناسيوس الإسكندرى^(١).

كما يذكر فى كتابه «الروم»: (أنهم ثلاثمائة وثمانية عشر فى رواية القديس هيلاريوس)^(٢).

ويقول المؤرخ المسيحى ابن البطريق: (بعث الملك قسطنطين، فجمع البطارقة والأساقفة فاجتمع فى نيقية ثمانية وأربعون ألفان من الأساقفة)^(٣).

ويظهر لنا من مجموع هذه الروايات أن عدد المجتمعين كان يزيد على الألفين من رجال الدين من البطارقة والقساوسة وغيرهم.

افتتاح المؤتمر:

يذكر الدكتور أسد رستم أن المجمع افتتح فى العشرين من أيار سنة ٢٢٥م ودامت جلساته سبعة وتسعين يوماً^(٤).

واجتمع تحت رئاسة (قسطنطين)، وافتتح هو المناقشات، كما يرجع ذلك صاحب (قصة الحضارة)^(٥).

وذهب كثير من المؤرخين إلى أن الإمبراطور تدخل فى قضايا النقاش وكان يفرض رأيه أحياناً، وقد نقل ذلك (أسد رستم) عن المؤرخ (أفسابيوس) حيث يقول: (إن الإمبراطور تدخل مراراً فى البحث لإقرار السلم والوفاق) كما نقل قول (روفينوس): (إن بعض الفلاسفة الوثنيين حضروا الجلسات وناقشوا الأساقفة)^(٦).

مع أن أسد رستم المؤرخ المسيحى الذى يعتبر مؤرخ كنيسة أنطاكية لا تعجبه هذه الآراء، ويقول بأن رجال الاختصاص يردون هذين القولين)^(٧).

(١) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١ / ١٩٩. (٢) الروم، أسد رستم: ١ / ٥٧.

(٣) معاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٢٨، الطبعة الثانية ١٢٨٥هـ، مطبعة المدنى - القاهرة.

(٤) الروم، أسد رستم: ١ / ٥٧. (٥) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١ / ٣٩٤.

(٦) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١ / ٢٠١.

(٧) نفس المرجع: ١ / ٢٠١.

لكن السرد التاريخي المجرد لأحداث المؤتمر تبين لنا اهتمام الإمبراطور بما كان يدور فيه من نقاش، وأنه استعمل سلطانه كإمبراطور لفرض الآراء المؤهلة التي دافع عنها الفلاسفة الوثنيون، والتي تعتبر أقرب إلى عقيدته الوثنية.

كما أن جو الرعب والخوف من السلطان كان يخيم على هذا المؤتمر لأن الإمبراطور منذ دخوله المؤتمر أعطى جو الهيبة هذا، ويصف لنا الأستاذ (رستم) المجتمعين وهم ينتظرون وصول الإمبراطور منصتين، ثم أعطيت الإشارة بوصولها، فانتصبوا إحرام وإجلالاً، ودخل (قسطنطين) بالأرجوان والذهب ووراءه بعض الحاشية^(١).

ورغم اختلاف الروايات التاريخية في عدد الأساقفة الذين أيدوا آريوس، إلا أننا لو صدقنا بعض المؤرخين المسيحيين القائلين بأنه لم يؤيد (آريوس) سوى عشرين أسقفاً كما يقول (أسد رستم)^(٢) وسبعة عشر أسقفاً كما يقول (ول ديورانت)^(٣).

فإننا لا نعتبر ذلك دليلاً على أن جميع الأساقفة قد أيدوا التثليث، ودافعوا عنه، لأن العامل الأساسي لموقفهم هذا خوفهم من سلطان الإمبراطور. ويؤيد هذا ما أورده (ول ديورانت): «بأن خمسة من الأساقفة قد رفضوا التوقيع على الصيغة التي خرج بها الجميع، نقضوا آخر الأمر إلى اثنين»^(٤).

والسبب واضح هو الخوف من بطش الإمبراطور، ومما لا شك فيه أننا لا نتوقع من جميع المخالفين أن يصبروا، ويضحوا بأنفسهم في سبيل ما يعلمون صحته، وقليلون هم أولئك الناس الذين يزهدون بالحياة في سبيل عقيدتهم.

على أن ما يرويه المؤرخ (ابن البطريق)، يختلف تماماً عن هذه الروايات، فهو يتحدث طويلاً عن هذا المؤتمر، ويصف أحوال المجتمعين وآراءهم فيقول:

(١) نفس المرجع السابق: ٢٠٠/١.

(٢) الروم، أسد رستم: ٥٨/١.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٥/١١.

(٤) نفس المرجع: ص ٣٩٦.

(إن منهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. ومنهم من كان يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار، انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، ومنهم من كان يقول: إن مريم لم تحبل به تسعة شهور، وإنما مرّ في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب، ومنهم من كان يقول: إن المسيح قد خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبتته النعمة الإلهية، وحلت فيه المحبة والمشية، ولذلك سمي (ابن الله)... ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، ومنهم من كان يقول: بالوهية المسيح وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً^(١)).

ولقد سمع الإمبراطور كل هذه الآراء بالإضافة إلى رأى (أريوس) وأتباعه.

وعالج القضية من وجهتين:

الأولى: أن همه الرئيسي إزالة الخلاف الذي يهدد أمن الإمبراطورية.

الثانية: إرضاء غالبية شعب الإمبراطورية من الوثنيين إضافة إلى أن فكره لا يزال وثياً.

وبناء على ذلك فقد رجح رأى الذين يقولون بالوهية المسيح، فصمم على أن ينجح هذا الرأى، وينتشر، وهو صاحب السلطة، فرأى بذكائه وحنكته أن يعقد مؤتمراً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى، وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة، وهذا ما قاله مؤرخهم (ابن البطريق) حيث يقول:

(وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه، فدفعها إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتى لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه هوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية)^(٢).

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٢٨.

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٢٩.

وخرج هذا المجمع بعدة قرارات كان منها قرار (تأليه المسيح)، أو ما سمي فيما بعد (وثيقة الأمانة) أو (قانون الإيمان النيقاوى).

على أن نص قانون الإيمان المعروف عند النصارى اليوم لم يكن كله فى مؤتمر نيقية، فقد تتابعت مجامع أخرى أضافت له نصوصاً. والتثليث لم يكتمل بشكله الحالى إلا فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م وسيأتى ذكره إن شاء الله حيث كان فيه تأليه الروح القدس.

أما قرار مجمع نيقية، فهذا نصه كما أورده (الدكتور أسد رستم):

(نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، خالق كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، مولود من الأب أى من جوهر الأب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر الذى به كان كل شيء ما فى السماء وما فى الأرض، الذى لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل، وتجسد، وتانس، وتالم، وقام فى اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيجىء ليدين الأحياء والأموات وبالروح القدس)^(١).

وأقر هذا القانون وفرض على النصارى، رغم أن الذين وافقوا عليه - إرضاء للسلطان - ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، من مجموع ألفين وثمانين وأربعين كما هى رواية ابن البطريق.

ولنا أن نتساءل... ماذا كان رأى الدين لم يؤخذ رأيهم؟ (على أن الرواة يقولون: إن أريوس لما اجتمع بهم، وألقى دعوته ونحلته إليهم انضم إلى رايه من تلك النحل المختلفة)^(٢).

وبذلك حقق الإمبراطور هدفه فى التقريب بين النصرانية والوثنية وفى ذلك توحيد للأمة الرومانية كلها، وهذا ما يسمى إليه الإمبراطور.

(١) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ٢٠٢/١.

(٢) محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٤٠.

أما مصير المعارضين، بعد ذلك فيكفى أنهم أصبحوا أعداء الدولة بعد أن كانوا فقط أعداء رجال الكنيسة.

لذلك، فإن (قسطنطين) طلب من المجلس الحكم على آريوس وعلى الأسقفين اللذين رفضا التوقيع على صيغة الأمانة، (فحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى آريوس الذى لم يتزحزح عن عقيدته أو يتوب، حكم عليهم باللعنة والحرمان، ونفاهم الإمبراطور من البلاد، وصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بحرق كتب (آريوس) جميعها، ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام)^(١). شأن الطغاة فى كل عصر، يلجأون إلى القوة والبطش حين يعجزون عن مواجهة الحق بالمنطق والحجة.

واستعمل الإمبراطور كل ما يملك من وسائل القمع والإرهاب ضد الأريوسيين، وأتلف كتبهم ومنع تداولها حتى لا يطلع الناس على ما يمليه عليهم رجال الدين المنحرفون.

ورغم كل هذا فلقد بقى (آريوس) وأتباعه صامدين على عقيدتهم لهم ترهبهم قوة السطان، مع أننا لا ننكر أن لهذا المجمع أثراً عظيماً فى تثبيت قواعد عقيدة التثليث.

يقول المؤرخ (ول ديورانت): (ولكن الإمبراطور أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد، غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطأ خطوة كبيرة فى سبيل وحدة الكنيسة... وكانت الكنيسة الكاثوليكية، وكانت فى الوقت نفسه إيماناً باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعنصر القوى للإمبراطورية الرومانية)^(٢).

وبعد سنين متواصلة من مطاردة الأريوسيين، كان لآريوس فيها مؤيدون كثيرون منهم أساقفة كنائس (تمكن الأسقف الأريوسى (يوسيببوس) أسقف

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٦ / ١١.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٦ / ١١.

قيصرية فلسطين من إقناع الإمبراطور أنه لا فرق بين إيمان آريوس وإيمان المجمع، فأعاد الإمبراطور آريوس من منفاه وأرسله سنة ٣٢٠م إلى الإسكندرية^(١).

ويذكر ابن البطريق أن (يوسابيوس) استطاع أن يتقرب إلى الإمبراطور حتى جعله بطريرك القسطنطينية، فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية في الخفاء، فلما اجتمع المجلس الإقليمي في صور، وحضره هو ويطريرك الإسكندرية الذي كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو لها.. انتهز (يوسابيوس) فرصة ذلك الاجتماع، وأثار مقالة آريوس، وكان في ذلك المجمع كثير من الموحدين.. فاشتد النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولي، بل ضربوه حتى أدموه وكادوا أن يقتلوه^(٢).

وهذا يبين لنا مدى حماسة الموحدين من المسيحيين، ونشاطهم في دعوتهم، وفيه إشارة إلى أن معظم المسيحيين في ذلك العصر كانوا من الموحدين، لأن التوحيد هو الأصل، وفكرة التثليث وألوهية المسيح حديثه عهد بهم، تبنتها ودافعت عنها كنيسة الإسكندرية المتأثرة بالمدرسة الأهلوطينية الحديثة التي كانت أفكارها تسيطر على الإسكندرية في ذلك الوقت، وكانت تؤمن بنظرية التثليث الفلسفية التي تحدثنا عنها من قبل.

يقول ابن البطريق: (في ذلك العصر غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل)، ويقول: بأن الأريوسيين تقلبوا على كنائس مصر والإسكندرية ووثبوا على (أثناسيوس) بطريرك الإسكندرية (الذي كان رئيس شمامسة الكسندروس) ليقتلوه، فهرب منهم واختفى، وكذلك وثب أهل بيت المقدس ومن كان منهم أريوسياً على (كوريس) أسقف بيت المقدس ليقتلوه فهرب منهم، فصيروا (أراقليوس) أسقفاً على بيت المقدس وكان أريوسياً^(٣).

(١) الروم، أسد رستم: ٦١ / ١.

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٤٢.

(٣) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص ١٤٥.

وفاة آريوس:

(أما «آريوس» نفسه فقد عفا عنه الإمبراطور بعد النفي الطويل، وعاد إلى الإسكندرية فاستقبله الناس باحتفال عظيم، وحملوه على أكفهم، فمات فجأة وسط هذا الفرح العظيم، فاتخذ خصومه ذلك حجة على أنه مبطل^(١)).

ويذكر محمد فريد وجدى: (أن القضية فيما بعد أصبحت بين الكنائس الغربية والشرقية، حيث غلب على الغربية طابع التآليه، وعلى الشرقية طابع التوحيد، وعقدت كل من الكتيبتين مجامع محلية حرمت بها الأخرى)^(٢).

وبعد هذا الحديث عن (مجمع نيقية) ونتائجه، نود الإشارة إلى بقية المجامع المسيحية التي تلت هذا المجمع، نتبين من خلالها أسباب انعقاد هذه المجامع وخطورتها على عقيدة التوحيد، لأن هذه المجامع هي مصدر الانحراف الأساسي، فما من عقيدة يؤمن بها النصارى اليوم إلا وقد أقرت في أحد هذه المجامع وما من انحراف حدث إلا بموافقة أحدها عليه.

وما من مضايقة على الموحدين إلا وقد أقرت من قبل في مجمع منها.

ولقد كانت هذه المجامع تستعمل أداة بيد السلطان، أو رجال الدين لضرب الحركات التصحيحية في المسيحية.. فهي التي أمدت في عمر التثليث، وسيظهر لنا من خلال هذه النظرة السريعة لهذه المجامع وفي المجمع الثاني (القسنطينية سنة ٣٨١م) ألهو روح القدس، وفي المجمع الثالث (أفسس الأول سنة ٤٣١م) ثم تأليه مريم العذراء باعتبارها والدة الإله، كما أن أحد هذه المجامع (مجمع روما سنة ١٨٦٩) قرر عصمة البابا، وغيره منح الكنيسة حق الغفران والحرمان.

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى: ٢٠٢/١٠.

(٢) انظر المرجع السابق: ص ٢٠٤.

عيدة التوحيد بعد المسيح

المبحث الأول

الاضطهادات وأثرها في العقيدة المسيحية

تمهيد

أن المسيحية في عهد المسيح - ﷺ - لم تخرج عن عقيدة التوحيد التي دعا إليها المسيح، وسجلت الأناجيل الكثيرة من أقواله - ﷺ - التي التزمت بعقيدة التوحيد، وسار الحواريون على دربه وعلى نسق عقيدته، ولقد أتى القرآن الكريم على هؤلاء الحواريين، وطلب من المؤمنين أن يقتدوا بهم في نصرة دين الله قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ... ﴾^(١). وكان إيمان الحواريين يرتفع كلما بدأت علامات الكفر تظهر على أبناء البيئة اليهودية وفي عهد المسيح - ﷺ - وسجلت آيات القرآن موقف الحواريين من قضية التوحيد في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحْسَى عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٢).

وبقى هذا الإيمان بعقيدة التوحيد بعد المسيح فترة ليست بالقصيرة ولكنه كان يظهر قليلاً ويختفى كثيراً، والسبب في ذلك هو ما ذكرته المصادر العلمية، شرقية وغربية، دينية وغير دينية - من أن هؤلاء الموحدون نزلت بهم بلايا وكوارث جعلتهم يستخفون بعقيدتهم ويفرون بها أحياناً، ويصمدون للمضطهدين

(١) سورة الصف: آية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران: آية ٥٢ .

مستشهادين في سبيل بقاء عقيدة التوحيد نقية أحياناً أخرى، والذي يجب التنبية عليه أن كتبهم ورسائلهم كانت تسجل خلال هذه الاضطهادات؛ مما كان له الأثر الواضح في تغيير معالم العقيدة فيما بعد .

بداية الاضطهاد وأسبابه

لقد بدأ اضطهاد الموحدين من المسيحيين منذ عهد مبكر، وكان المسيح - ﷺ - هو ضحية هذا الاضطهاد الذي انتهى بالحادث المزعوم حادث الصلب «كما يدعون»، وقد نزل باتباعه في عهده ومن بعده ما نزل به من العنف والظلم، وكان اليهود مصدر هذه القسوة؛ لأن أتباع المسيح كانوا يريدون نشر عقيدة التوحيد، الأمر الذي لم يقبله اليهود، ولكن المسيحية بدأت على الرغم من اليهود وغلبتهم على أمرهم، وحينئذٍ تقدم أباطرة الرومان لاضطهاد المسيحيين ولكن...

ما هو سبب الاضطهاد؟

يقول الأستاذ أحمد شلبي عن سبب الاضطهاد: (إن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون الأمر الديني الجديد إلا أنه امتداد لليهودية، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنيين)^(١). ويبدو أن اليهود كان لهم في كل واد فعلية، الأمر الذي جعل الأباطرة يحذرونهم حتى ولو دعوهم إلى وحدانية الخالق.

ويذكر الدكتور توفيق الطويل سبباً آخر مبنياً في فحواه على هذا السبب، فيقول: (ومما أثار حقد الرومان على المسيحية أنها أخذت من اليهودية تمصّبها، فأعلنت - حتى في عهود ضعفها - أنها تناصب العقائد الأخرى العداء، وأنها ستعمل على إبادة المذاهب الفكرية الأخرى، وعلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية عندما تنتهي لها الفرصة)^(٢).

(١) انظر المسيحية ص ٧١ د. أحمد شلبي.

(٢) الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص ٢٢، ٢٤ د. توفيق الطويل.

ويبدو من وجهة نظرنا أن هذا السبب غير دقيق؛ لأن المسيحية حينما نعمت بطيب العيش، وتنزلت عليها سحائب الإطمئنان، لم تحطم الإمبراطورية الرومانية ولم تُبدِ المذاهب الفكرية، وإنما قبلتها وارتمت في أحضانها، وخضعت لها في كافة شعائرها وعقائدها، وسواء هذا الرأي وافقة الصواب أم لا. إلا أننا نرى أنفسنا بسبب هذا الاضطهاد أمام تحول خطير للعقيدة المسيحية جعل منها ديانة جديدة من نوع وثى روماني.

أشهر أنواع الاضطهاد ضد العقيدة المسيحية

ويتفق المؤرخون كما يقول ميشيل جرجس في كتابه «الكنيسة المصرية» أن أشهر أنواع الاضطهاد التي وقعت للمسيحيين عامة والأقباط خاصة بدأت من منتصف القرن الأول إلى أوائل القرن الرابع هي الأربعة التالية:

- ١ - اضطهاد نيرون سنة ٦٤م.
- ٢ - اضطهاد ترجان سنة ٦٠١م.
- ٣ - اضطهاد ديسيوس سنة ٢٤٩ - ٢٥١م.
- ٤ - اضطهاد دقلديانوس سنة ٣٠٢م^(١).

ومن عهد نيرون؛ يحدثنا الأستاذ زكي شنودة فيقول: (إن نيرون يضع بعض المسيحيين وهم أحياء في جلود الحيوانات ويطرحهم للكلاب تنهشهم ويطلق بعضهم بالقار، وكان يتمتع نفسه بمنظر أطفالهم والوحوش تمزقهم وتلتهم أشلاءهم^(٢)).

أما ترجان؛ (فكان يعتبر المسيحيين أنجاساً لا يسمح لهم بدخول الحمامات العامة، وكان يأمر ولاتهم بمنع المسيحيين من صلاتهم، ويجعلهم ينزلون بهم

(١) كتاب تاريخ الكنيسة المصرية، ميشيل جرجس، نقلًا عن كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ١٣٢ د. رؤوف شليبي.

(٢) تاريخ الأقباط / ١ / ١٠١، زكي شنودة.

أشد أنواع العذاب، وقد أمر ترجان بمنع الاجتماعات السرية للمسيحيين، لأنهم كانوا لا يدينون بدين القيصر^(١).

أما **ديسييوس**؛ فيقول عنه زكى شنودة نقلاً عن أوسابيوس القيصرى (إنه فى فترة من فترات عهده قتل عشرة آلاف دفعة واحدة... حتى أن السيوف من كثرة ما استعملت فى ذلك اليوم تكسرت ولم تعد تقطع.

ويقول **القديس ديونسيوس الرابع عشر** ويطريق الإسكدرية آنذاك، يقول عن ذلك **الاضطهاد**: (إنه كان من الفظاعة حتى لقد كان كفيلاً بأن يزعزع أكثر المؤمنين استمسكاً وثباتاً)^(٢). وما قاله صاحب تاريخ الأقباط عن هذا الاضطهاد يجعلنا نوافقه أن عقيدة المسيحية فى هذا العهد لا يمكن أن تستقر على المبدأ الأول الذى كانت عليه فى عهد المسيح ﷺ، وإذا سألنا عن موقف دقلديانوس تجاه هؤلاء المسيحيين فإننا نجد أدهى من سابقه: (فقد بلغت قسوته بهؤلاء المسيحيين أنه أقسم ألا يكف عن قتلهم حتى تصل دماؤهم إلى ركة فرسه، وفعلاً نفذ عزمه وراح يطوف بفرسه فى بحر من دماء الشهداء)^(٣) على تعبير زكى شنودة. ولقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم على المسيحيين حتى جاء عهد قسطنطين، فكان يمناً وبركةً على المسيحيين لا على المسيح كما سنبين إن شاء الله.

أثر الاضطهادات على العقيدة المسيحية

إن هذه الاضطهادات التى صاحبت العقيدة المسيحية فى بداية تكوينها لدليل واضح على أن المضطهدين كانت عقيدتهم هى العقيدة المسيحية وكانوا بها يتمسكون حتى ولو أدى ذلك إلى فدائها بالمهج والأرواح. ولما طردوا من أوطانهم بسببها بلغ من عشقهم لهذه العقيدة أن ينادوا بها بين أهل الرومان، ولكن الآخرين كانوا لا ينظرون إلى ديانة هؤلاء باعتبارها ديانة غريبة عن

(١) انظر الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام ص ٢٥.

(٢) انظر تاريخ الأقباط: ١ / ١٠٩.

(٣) انظر تاريخ الأقباط ١ / ١٠٥.

بلادهم فحسب، بل كانوا ينظرون إليها على أن أصحابها يهوه أو من بلاد اليهود، ومن ثم فإنهم أهل مكر وخداع ولا يقبل أن يؤخذ الدين من مآكر وخداع، بيد أن المبشرين الجدد تناسوا هذا الحقد من قبل الرومان، وبدؤوا يقبلون كل الشعائر الوثنية لتقريب الرومان إليهم، وأغلب الظن - كما يقول الأستاذ محمد مجدى مرجان -: (أن هؤلاء المبشرين كانوا حسنى النية، وقد رأوا أن هذه هي الطريقة الوحيدة لتقريب الديانة المسيحية إلى أذهان الوثنيين، ومع مرور الزمن ستظهر وتعود إلى صفاتها... ولكن الواقع الأليم أن الذى حدث هو العكس، فقد تغلبت الوثنية وطمست رسالة المسيح^(١)).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إننا نرى أن هذه الاضطهادات كانت ذات أثر واضح على المصادر المسيحية بعد المسيح، فقد كتبت الأناجيل ورسائل بولس فى هذه العهود المظلمة، الأمر الذى أدى إلى فقدان سندها المتصل برسول المسيحية - ﷺ -، وعن ضياع هذا السند يقول شارل جنيبير: (إن أولى الصعاب التى تعترض الأناجيل نجدتها فى النصوص التى تمتاز عن سائر النصوص الأخرى بضعف السند والاضطراب وعسر التحقيق)^(٢). واعترف القساوسة أنفسهم بانقطاع هذا السند؛ لأنها دونت فى هذه العصور المظلمة. يقول الشيخ رحمة الله الهندى: (طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى ثلاث مئة وثلاث عشرة سنة. وتفحصنا كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئاً غير الظن، يقولون بالظن ويتمسكون ببعض القرائن، وقد قلت: إن الظن لا يفتى شيئاً، فماداموا لا يأتون بدليل شافٍ وسندٍ متصل فمجرد السمع يكفيننا، وإيراد الدليل فى ذمتهم لا فى ذمتنا)^(٣).

(١) الله واحد أم ثلاثون؟ ص ٨٤، بتصرف.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٢٢، ترجمة د. عبد الحلیم محمود، ط دار المعارف.

(٣) إظهار الحق ٨٣/١ الشيخ رحمة الله الهندى، تحقيق د. أحمد حجازى السقا.

ومما سبق أقول: إن العقيدة المسيحية تزعزعت في نفوس معتقها، وتقلب في قلوبهم بعدما سمحوا للشعائر الوثنية بالتجول بينهم، الأمر الذي أدى إلى اختفاء عقيدة التوحيد بينهم، وحينما سجلوا كتبهم كانوا يسجلونها في غرفات مظلمة، ولا تقبل النفس عقيدة سجلت في الظلام، وقد تبين أنه لا يوجد سند عندهم لصحة العقيدة التي نادى بها المسيح. ويوجد عند المسلمين الدليل الواضح على عقيدة المسيح، وهو القرآن الكريم ذو السند المتصل بالرسول ﷺ.



المبحث الثاني

الفلسفة وأثرها على عقيدة التوحيد

بعد المسيح ﷺ

التقت المسيحية بعد المسيح بالفلسفة، ولم يكن لقاؤهما لقاءً عادواً وخصاماً، بل لقاءً محبةً وسلاماً، ولما كان الموحدون مغلوبين على أمرهم في البلاد التي تاهوا فيها فإن الفلاسفة انتهزوا الفرصة وأرادوا تلقيح الديانة المسيحية بالفلسفة لتتمخض عن عقيدة جديدة تكون بعيدة كل البعد عن عقيدة التوحيد التي نادى بها المسيح - ﷺ -، ومع مرور الزمن كان لهم ما أرادوا، وكانت الغلبة للفلسفة، والضعف والهوان لأرباب عقيدة التوحيد. وينقل الشيخ محمد أبو زهرة عن هند لبند قوله: (إن الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهديب الآراء الدينية وترتيبها، والتقدم بالشعور الديني لوجود فكرة في العالم تقنعه، فأوجدت نظماً دينيةً من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقاً يختلف قلّة وكثرة^(١)). وإذا علمنا أن الدين الذي وجد في بلاد الرومان والذي استخدمت فيه الفلسفة نظرياتها لتهديبه هو الدين المسيحي الناشئ آنذاك حق لنا أن نقول: إن المسيحية الموحدة بعد المسيح خضعت للكثير من نظريات هذه الفلسفة.

ويحكى التاريخ أن الأفلاطونية الحديثة سطت على العقيدة المسيحية، وقفزت فوق صدرها حتى أزهدت روحها، وأخرجت عقيدة التوحيد من نفوس أتباعها، وأحلت محلها نظريتها الوثنية بقيادة مدرسة الإسكندرية. ومن المعلوم أن نظريتها في الإله تختلف عن عقيدة المسيح في الإله؛ لأنها ترجع العالم في تكوينه وتدبيره إلى ثلاثة عناصر أو ثلاث مقدس: (المنشئ الأول، والمعلل الذي

(١) محاضرات في النصرانية ص ٢٤، دار الفكر العربي.

تولد منه كما يتولد الولد من أبيه، والروح الذى يتصل بكل حى ومنه الحياة. فإذا عبّرنا عن المنشئ الأول بالأب، وعن الروح بروح القدس - كما هو ثالوث النصارى الذى قررته المجامع، كما سيأتى - فإننا لا نخرج عن القول بأن المسيحية هي الأفلاطونية، والاختلاف بينهما في الاسم فقط^(١).

وبناء على هذا الرأى يرجح الدكتور على عبد الواحد وافى القول: (بأن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن التأثير بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة)^(٢). ويتأكد ذلك من خلال ما نقله الدكتور عبد الرحمن بدوى عن بوستتيوس الذى قال: (إن الأفلاطونية المحدثة موجودة في الآيات الأولى من إنجيل يوحنا، وكما أننا نجد أيضاً أن الكلمة تلقى نورها على الإنسان لمجرد ولادته سواءً أكان ذلك بعد المسيحية أم قبلها، فالكلمة إذن ظهرت قبل أن تتجسد وتأتى في صورة المسيح، وعن طريق نور الكلمة ألقى النور في الإنسان من قديم الزمان، ولو أنه كان ضئيلاً؛ لأن النور الكامل لم يظهر إلا بتجسد الكلمة في المسيح، ولهذا فإن ما قال به القدماء من أشياء صحيحة لابد أن يعد صادراً عن الكلمة، ولما كانت الكلمة هي المسيح فإن ما قالوا به جاء متفقاً مع المسيحية أو مسيحياً)^(٣).

وهذا يعنى أن المسيحية لقحت حقاً بالفلسفة الوثنية القديمة، وأن من انتسبوا إلى المسيح قديماً من أمثال يوحنا صاحب الإنجيل وغيره قد استحسنوا هذا التلقيح الذى نجم عنه تلوث عقيدة التوحيد بالميكروب الوثنى، بل وظهور محاولات إبعاده نهائياً عن المسيحية من خلال قرارات المجامع التى اعترفت بهذه الفلسفة الوثنية وادعت ألوهية المسيح والروح القدس كما سيأتى في حينه، إن شاء الله، ولكن يجب ألا نقطع بأن هذه المحاولات قد قبلها أتباع المسيح جميعاً في القرون الأولى، بل ظهرت فئات وطوائف تدعو إلى نبذ هذه الفلسفة الوثنية والتمسك بعقيدة التوحيد التى جاء بها المسيح ﷺ.

(١) محاضرات في التصرانية ص ٣٦، الإمام ابو زهرة، بتصريف.

(٢) الأسفار المقدس في الأديان السابقة للإسلام ص ١٢٩.

(٣) فلسفة العصور الوسطى ص ١، د. عبد الرحمن بدوى، ط دار القلم، بيروت.

المبحث الثالث

بولس وموقفه من عقيدة التوحيد

لا يمكن لباحث في المسيحية أن يففل عن ذكر بولس (شاؤل)، الذي رُفِّته المسيحية المثلثة إلى درجة رسول، والكثير من الباحثين يعتبره المؤسس الحقيقي للمسيحية بعد المسيح^(١)، ومن ثم فلا بد من ذكره حتى نعرف موقفه من عقيدة التوحيد التي سلمها المسيح لأتباعه من بعده، ولنترك بولس ذاته يتحدث عن..

المقطع الأول من حياته

يقول عن نفسه معرفاً: (أنا رجل يهودي، ولدت في طرسوس كيليكية، ولكن رببت في هذه المدينة مؤدباً عند رجلى عمالائيل على تحقيق الناموس الأبوي)^(٢). وهو بهذا يريد أن يُعرِّف سامعيه بأنه منذ نعومة أظفاره خاضع للناموس الذي نادى به المسيح، فهل هذا حق أم أن سيرته ستشهد على نقيض هذا الكلام؟ سنرى ويخبرنا شارل جنيبير عن طرسوس هذه قائلاً: (إنها تقع بين هضبة آسيا الصغرى والشام. وعن الأفكار التي كانت تجلب إليها بقول: إنها كانت سيلاً لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة)^(٣).

أما عن العقائد التي وجدت في هذه المدينة طرسوس فإن ول ديورانت يحدثنا عنها قائلاً: (إن طرسوس كانت كغيرها من المدن اليونانية، وبها الكثير من العقائد الخفية، فكان أهلها يمتقدون أن الإله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم، ثم قام من قبره، وأنه إذ دعى بإيمان حق وصحب الدعاء بعض الطقوس

(١) أقصد بها المسيحية المثلثة التي أرست قواعدها المجامع.

(٢) أعمال الرسل ٢٢/٣.

(٣) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٨١، شارل جنيبير، ترجمة د. عبد الحميد موسى.

الصحيحة استجاب لهم، وأنجاهم من الجحيم، وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة^(١).

وهكذا نرى المقطع الأول من حياة بولس مليئاً بالأفكار والمعائد المختلفة التى تلقاها من غير بنى وطنه، فهو فى الأصل يهودى إلا أنه تبنى تربية غير يهودية، ولكنه استطاع فيما بعد - كما يقول ديورانت أن يمزج مبادئ اليهود الأخلاقية بمعائد اليونانية فيما وراء الطبيعة^(٢).

اعتناقه المسيحية

كان بولس من ألد أعداء المسيحية كما تشهد أعمال الرسل^(٣)، وهجأة يمتنع المسيحية إثر حلم يقول إنه رآه فغير مجرى حياته كلها، وأصبح داعية المسيحية الأول، والمطوف بها شرقاً وغرباً والمتحمل فى سبيلها كل أذى واضطهاد، ويسوق أعمال الرسل حكاية اعتناقه للمسيحية فيقول: (وفى ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبفته برق حول نور من السماء فسقطت على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاول لماذا تضطهدنى؟ فقال: من أنت يا سيدى؟ فقال الرب: أنا يسوع الذى أنت تضطهده، صعب عليك أن ترفض مناخى، فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل^(٤)). ودخل على التلاميذ وهم يمرهون عداه (وحدثهم كيف أبصر الرب، وكيف جاء إلى دمشق باسم يسوع^(٥)).

والحقيقة أن هذه القصة فى ذاتها تنبئ عن عقل مريض تميز به بولس، يمكن أن يقال إن به مرض لا شفاء له. ويصف شارل جنيبير هذه القصة: (بأنها نتجت عن أزمة نفسية وانتهت بقصة الرؤيا ليسوع، وكانت هذه الأزمنة

(١) انظرة قصة الحضارة ١١ / ٢٥٢ ترجمة محمد بدران.

(٢) انظر قصة الحضارة ١١ / ٢٥٢ ترجمة محمد بدران.

(٣) انظر أعمال الرسل: ٢٢.

(٤) انظر أعمال الرسل إصحاح ٩ / ٦٠٣.

(٥) انظر أعمال الرسل إصحاح ٩ / ٢٧.

نتيجة لصراع داخلي مبهم طويل^(١). ونوافقه بأنها أزمة نفسية، ولكننا لا نوافقه أن نهايتها كانت الرؤيا، فبولس لم ير المسيح في حياته، فكيف به يراه بعد ذهابه؟ وكيف يقال إن الأزمة انتهت بالرؤيا؟ إن الأزمة بدأت في الحقيقة ببدء الرؤيا المزعومة، وكان من نتائجها ضياع ديانة المسيح، وإرساء قواعد المسيحية الجديدة باسم المسيح وحواريه، والشاهد على ذلك هو:

أعماله مع الحواريين «الموحدين»

يقول موريس بوكاي^(٢): (بعد أن غادر المسيح الأرض، وحتى منتصف القرن الثاني - أي طيلة أكثر من قرن - كانت هناك معركة بين اتجاهين، أي بين ما يمكن تسميته بالمسيحية البولسية^(٣) وبين اليهودية المسيحية، ولم يحل الاتجاه الأول محل الثاني، ولم تنتصر البولسية على اليهودية إلا بشكل شديد التدرج)^(٤).

وهذا النص يكشف لنا النقاب عن أزمة بولس النفسية التي جعلته يكون طائفة غير موحدة تهاض كافة الموحدين بعد المسيح، وبلفت الجراة ببولس أنه كان ينظر إلى الشريعة الموسوية التي احتفظ بها المسيح نظرة سخرية واحتقار.

يقول الكريديال دانهلو في مقال له: (إن اليهود المسيحيين الموحدين بسبب هذه النظرية انفصلوا تماماً عن بولس؛ لأن ديانة المعبد كانت أموراً بالية في نظر بولس وكان بولس، يرى أن المسيحية لا بد أن تتحرر من انتماؤها السياسي والديني إلى اليهودية حتى تفتح ذراعها لغير اليهود)^(٥). وبناء على هذه النظرية يقول بوكاي: (إن اليهود المسيحيين كانوا يعتبرون بولس كخائن، وتصفه

(١) انظر المسيحية ونشأتها وتطورها ص ٩.

(٢) هو طبيب فرنسي، وأحد الذين عنوا بالدراسات العلمية ومقابلتها بالكتب المقدسة.

(٣) يقصد بوكاي بالمسيحية البولسية أي التي قامت على يد بولس لا المسيح، وهي المسيحية العالمية الثالثة، أما اليهودية فهي التي تنتمي إلى الحقيقة إلى المسيح، والتي لا تتبذ شيئاً من شرائع التوراة، ولم تقبل الانفتاح على عقائد العالم.

(٤) انظر القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٧١.

(٥) انظر المصدر السابق ص ٧١، ط دار المعارف.

وثائق يهودية مسيحية بالمدو، وتتهمه بتواطؤ تكتيكي، ولكن اليهودية المسيحية كانت تمثل حتى عام ٧٠م غالبية الكنيسة^(١).

وبهذا يتبين لنا مدى الصراع الذى نشب بين بولس والموحدين، والذى لم يكن النصر فيه حليفاً لبولس، وكانت الغلبة فيه للموحدين «الحواريين».

بولس وموقفه من عقيدة التوحيد

والحقيقة أن الأزمة النفسية التى كان يمر بها بولس - رسول المسيحية فيما بعد - جعلته يتقبل بكل بساطة العقائد الوثنية التى كانت تحيط ببيئته، ويعرض بكل غرور عن عقيدة التوحيد، ورسائله شاهد إثبات على ذلك. يقرل شارل جنيبير: (إن الدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى^(٢)) تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو لأول وهلة أنها غريبة، فهى تجمع بين النصوص المقدسة القديمة وبين المفاهيم المنتشرة فى الأوساط الوثنية اليونانية، والأساطير الدينية الشرقية^(٣).

ومن المعلوم أن هذا المزج ساعدته فيه ثقافته القديمة فهو كان فى وسط يمتد بالآله الإنسان والآله المصوب.. إلخ، وهو بفكره هذا بعيد عن الوسط المسيحى الأول، ولقد وجد بولس فى شخصية المسيح وفى الجو الذى تركه من بعده ما يصلح لأن يكون منه عقيدة جديدة تخالف عقيدة المسيح وحوارييه، فوجد فى ميلاد المسيح موقفاً يلتفت له الدهر، وفى معجزاته موقفاً يناظره موقف مولده، وفى موته وقيامته موقفاً ثالثاً، ومن خلال هذه المواقف يستطيع بحكم نشأته أن يكون عقيدة جديدة لدى البسطاء من الناس، خاصة وأن لديه عقلاً يجمع بين اليهودية والرومانية، ومن خلالها يحقق ما يريد، فصور العقيدة الجديدة المناهضة لعقيدة التوحيد فى رسائله، واعتمدت المجمع المسيحية فيما

(١) انظر المصدر السابق ص ٧١، دار المعارف.

(٢) يقصد جنيبير بالرسائل الكبرى أى الرسائل التى يجمع أكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها إليه.

(٣) انظر المسيحية نشأتها وتطورها ص ٩١ شارل جنيبير، ترجمة د. عبد الحلیم محمود.

بعد اعتماداً كلياً على هذه الرسائل ومصطلحاتها الغامضة.

يقول صاحب كتاب قصة الحضارة في موسوعته هذه: (إن بولس أضاف إلى اللاهوت الشعبي الموسوى بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار (سفر الحكمة) وفلسفة فيلون^(١)، ومن ذلك قول بولس: (إن المسيح حكمة الله وابن الله الأول وبكر كل خليفة.. فإن فيه الكل... والكل به ولد قد خلق.. والذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل... وليس هو المسيح المنتظر «المسيح» اليهودى الذى سينجى إسرائيل من الأسر، بل هو الكلمة التى سينجى الناس كلهم بموته)^(٢)، وهذه الكلمات التى جمعها ديورانت من رسائل بولس، ووصفها بأنها مصطلحات غامضة جاءت إلى الناس من خلال أقوال فلسفية قديمة تكشف لنا عن هذا الفكر الذى تجول به بولس داخل العقيدة المسيحية. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى توضح لنا مدى العناد الذى يحمله بولس ضد المسيح وأقواله، فالمسيح حينما يقول: (بعث لخراف بنى إسرائيل) نرى بولس يقول: (بل للناس أجمعين)، وحينما يقول المسيح: (أنا عبد الله ورسوله وإنسان وابن إنسان)، نرى بولس يقول: (بل أنت حكمة الله وابن الله الأول وبكر كل خليفة أنت الإله وفيك الكل والكل قد خلق لك وبك.. الخ). وهو بهذا يريد أن يكون بالمسيح لا للمسيح عقيدة جديدة من نوع خاص؛ نوع فلسفى غريب على أتباع المسيح، لكنها تلبس ثوب المسيح ليتقبلها الناس فيما بعد. ولم يقتصر عمل بولس على مناهضته عقيدة التوحيد فحسب، بل حمل على شريعته وغيره وألفى الكثير، كل ذلك ليُرضى أهل الوثن على حساب الديانة الجديدة.

ويُجمل الدكتور رؤوف شلبي موقف بولس من عقيدة المسيح وشريعته فيقول: (إن بولس هذا هو الذى أخرج ملة عيسى من ثوبها الطبيعى إلى ثوب

(١) هو فيلسوف يهودى من أكبر فلاسفة اليهود ولد سنة ٢٠ ق.م انظر كتاب المسيح فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٢٠٠، الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

(٢) هذه الكلمات متناثرة فى جميع رسائله، وجمعها ول ديورانت هنا ليكشف بها موقف بولس من المسيح وعقيدته. انظر قصة الحضارة ١٢ / ٢٢٦.

جديد وهو الذى بدل وصف عيسى من ابن الإنسان الذى كان يطلقه عليه الحواريون إلى ابن الله، وهو الذى أصفى اختصاص ملة عيسى بشعبه اليهودى، وسمح للمشركين عامة بالدخول فيها، وأنه ألقى شريعة موسى فى الختان وكثيراً من الشرائع؛ إرضاءً للجدد من المشركين وبقيّة المجتمع اليونانى.. وأنه صاحب فضيحة الصلب والعشاء الربانى... إلخ^(١).

ويعد: فهذا هو بولس الذى تتخذه المسيحية الثالوثية رسولاً لها، وتؤمن بكافة أقواله ولا تعصى له أمراً، ولا أدرى لما كل هذا وهو الذى اعترف بأنه لم يقابل المسيح فى حياته ولم يتلقى على يديه مبادئ المسيحية، وأقواله مسجلة لهذا الاعتراف فى رسالته إلى أهل غلاطية: (وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذى بشرت به إنه ليس بحسب إنسان؛ لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح)^(٢).

وهو بهذا يريد أن يقول أنه تلقى التعاليم من يسوع المسيح مباشرة، ولكن قصة دخوله المسيحية - كما حكاها هو فى أعمال الرسل - كانت بعد المسيح، ولا يقبل العقل السليم القول بأن المسيح أوحى إليه، ضوكل الذى استطاع أن يقوله كتاب النصارى المنصفون للبحث العلمى من أمثال شارل جنيبير أنها أزمة نفسية، وليست قصة حقيقية، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً، ومن ثم فلا يصح التمسك بأقوال مريض نفسى، بل يجب ضربها وتحويل صاحبها إلى أقرب مستشفى عقلى إن صح التعبير، حتى لا تتماهى أقواله فى البيئة الإنسانية.

وخلاصة القول: إن بولس اليهودى النشأة، الرواقى الثقافة، الرومانى الفكرة، استطاع بكل دهاء وحيلة أن يُوجد فى المجتمع عقيدة جديدة تهاض عقيدة التوحيد فيما بعد، والناس فى عهد إزاء عقيدة التوحيد انقسموا إلى طائفتين: الأولى تؤيده، والثانية تؤيدها، فما هى هذه الطوائف؟

(١) يا أهل الكتاب تمالوا ص ١٠٦.

(٢) رسال بولس إلى أهل غلاطية عدد ١٢، ١١ الإصحاح الأول.

المبحث الرابع عقيدة التوحيد بين الفرق المسيحية قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م^(١)

بدخول آراء بولس ابن الفلسفة وإعلانه القول بالوهية المسيح انقسم المجتمع إلى طائفتين؛ الأولى: تميل إلى فكره. والثانية: تؤيد عقيدة التوحيد وترفض قوله. وسأتحدث عن الطائفة الأولى ويمكن تسميتها بـ:

الطائفة البولسية؛ وهي تمثل الفرق التالية:

- ١ - فرقة التثليث.
- ٢ - فرقة إلهان.
- ٣ - فرقة البربرانية.
- ٤ - فرقة مرقيون.

أولاً: فرقة التثليث

وهي الفقرة التي خضعت لآراء الأفلاطونية الحديثة (وذهبت إلى القول بأن الإله ثلاثة أقانيم؛ وهو الأب والابن وروح القدس، وأن الابن أو الكلمة هو المسيح، وكانت الإسكندرية من أشد الكنائس تعصباً لهذا المذهب الذي أصبح المذهب الرسمي المقرر لجميع الفرق المسيحية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م، ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م)^(٢).

(١) هذا المجمع هو الذي حوّل المسيحية الموحدة بقرار سلطاني إلى مسيحية بولس الثالثوية.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٢٣.

ثانياً: فرقة إيلان

وهذه الفرقة بعدما سمعت للشرك سمعت أيضاً إلى تكوين رأى خاص بها تخالف به كل الفرق حتى ولو كانت قرينتها فى الشرق، وهى سبيل ذلك جنحت إلى هذا الرأى الذى ذكره الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» وفيه تقول: (إن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً، لكنها مرت بها كالماء بالميزاب^(١)، وما ظهر بها شخص المسيح فى الأعين فهو كالخيال والصورة فى المرآة وإلا فما كان جسماً متجسماً كثيفاً فى الحقيقة، وكذلك القتل والصلب إنما وقع على الخيال والحسبان، وهؤلاء يقال لهم الإليانية وهم قوم بالشام واليمن وأرمينية^(٢)).

ويُفهم من كلام الشهرستانى عنها أنها انت تؤله المسيح وتجعله ابن الله، وتصور حقيقته فى هذه الصورة الخيالية وتدعى أنه لم يوجد فى الحقيقة، وإنما الذى وُجد هو خياله وصورته، ونقول لهم: بمن إذن كنتم تؤمنون - كما تدعون - بالمسيح أم بالصورة؟ إن كان إيمانكم بالمسيح فقد نقض قولكم، وإن كان بالصورة فلا إيمان لكم، وابعثوا لكم عن مسيح آخر يوجد بالحقيقة - ولنتركهم فى الخيال - لنرى.

ثالثاً: فرقة البريرانية

وهى تذهب أيضاً إلى القول بالوهية المسيح وأمه معاً، ويقرر ابن البطريق مذهب هذه الفرقة فيقول: (ومنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البريرانية ويسمون المريميين)^(٣). ويذهب الكثير من المسيحيين فى العصر الحديث إلى القول بأنه لم يقل أحد فى المسيحية عبر القرون بهذا القول، ولكن سعيد بن البطريق يرد عليهم بقوله هذا. ولقد كشف القرآن الكريم عن هذه الفرقة من خلال الحوار الذى دار بين المسيح وربيه وسجلته

(١) الميزاب: القناة يجرى فيها الماء، من وزب الماء يزب وزوبا: سال، ويُجمع على ميازيب.

(٢) الملل والنحل ٢٢ / ٢ الشهرستانى.

(٣) تاريخ ابن البطريق ١ / ١٢٦.

سورة المائدة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آتَيْتُكَ النَّاسَ لِنَاسٍ آتِخَذُونِي
وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ
قَائِلَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ
فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١)﴾.

وبذلك يكون المسيح نابذاً لهذه الفرقة، ولقد نبّه الإسلام إلى تهاافت هذه
الفكرة التي طرأت على عقيدة المسيح فبرهن على دحضها ومن خلال برهانه
حثّ العقول على دفنها فقال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ...﴾ (٢). وخليق بمن يأكل الطعام أن
يكون في احتياج إليه، فضلاً عما يعتريه منه، والإله ليس كذلك.

ويقول الأستاذ عبد الواحد واهي، وهو يؤرخ لهذه الفرقة قبل مجمع نيقية
يقول: (وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض في نهاية المرحلة التي نتحدث
عنها، وإن كان يبدو من ذكرها في القرآن الكريم أنه كان لا يزال لمذهبا أتباع
في عهد الرسول - ﷺ - (القرن السابع الميلادي) (٣)).

والناظر في أعياد وطقوس المسيحية المعاصرة يرى أن العذراء لها نصيب
من هذه الأعياد والطقوس، الأمر الذي يجعلنا نقول: إنه مازالت هناك رواسب
وآثار لهذه الفرقة في نفوسهم.

رابعاً، فرقة المرقيون

وهذه الفرقة: (تنتسب إلى مرقيون أو مرسيون وهو من رجال القرن الثاني
الميلادي، وكان قسيساً ثم حكم عليه بالطرد والحرمان، ويقوم مذهبه على
الاعتقاد بوجود إلهين؛ أحدهما: الإله العادل، أو الإله الخالق المهندس، وهو
الإله الذي اتخذ من بني إسرائيل شعباً مختاراً، وأنزل عليهم التوراة، والآخر: إله

(١) سورة المائدة آية ١١٦، ١١٧. (٢) سورة المائدة آية ٧٥.

(٣) الأسفار المقدسة للأديان المقدسة السابقة للإسلام من ١٢٢، د. على عبد الواحد واهي.

الخير الذى ظهر فى شخص المسيح، وخلص الإنسانية من خطاياها، وكان للإله الأول السلطان على العالم حتى ظهر الإله الثانى، فبطلت جميع أعمال الإله الأول وزال سلطانه^(١). ويالنظر فى أقوال هذه الفرقة يتبين لنا أنها مقتبسة فكرها من المذاهب الفارسية التى ذكرها الشهرستاني فى الملل والنحل^(٢)، ويتبين أنها تمتد بوجود إلهين أحدهما للنور، والآخر للظلمة، ومن ثم فهى متأثرة بها، والإسلام دين الرحمة ينفى وجود إلهين فى العالم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾^(٣). وقال عز اسمه: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكِ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

وإذا وجد إلهان فلا بد من وجود خلاف بينهما، ولذا لا يستقر العالم، بل يزول، ولكن العالم بقى كما هو والذى زال هو أصحاب الفرقة حيث جاء فى كتاب الأسفار المقدسة للأديان السابقة للإسلام: (إن هذه الفرقة ظلت قوية حتى منتصف القرن الثالث ثم اضمحلت فيما بعد وانقرضت انقراضاً تاماً فى القرن العشرين)^(٥).

هذه هى أهم الفرق التى استقرت تحت راية الشرك، وتناولت على مقام الألوهية، واتبعت الآراء البولسية الفلسفية، واقتبست للمسيحية آراء وثنية من هنا وهناك فجاءت فى صورة فكر مشتمت لا يستقر على مبدأ ولا يدعو لحق ولكنه يصب فى النهاية فى مصب الفكر، ولما اكتشف الموحدون فى القرون الأولى هذه الآراء الدخيلة على عقيدتهم قابلوها بنقيضها، وأحيوا معتقد التوحيد الذى جاء به نبي الله عيسى عليه السلام، وكوّنوا فى سبيل ذلك جبهة مقابلة تضم العديد من الفرق الموحدة والتى يمكن تسميتها.

(١) انظر الأسفار المقدسة للأديان السابقة ص ١٢١.

(٢) راجع آراء الديسانية والمرفيونية فى كتاب الملل والنحل للشهرستاني ١/٥٥، ٥٦، ٥٧.

(٣) سورة النحل آية ٥١. (٤) سورة الأنبياء آية ٢٩.

(٥) انظر كتاب الأسفار المقدسة ص ١٢٢، د. على عبد الواحد وا.هـ.

طائفة الموحدين

ومن أهمها:

أولاً: فرقة البوليقانيون

وكان يقود حركتهم بولس الشمشاطى، وجاء قولهم على لسان ابن البطريق: (إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصْطَفَى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشیئة؛ ولذلك سُمى ابن الله، ويقولون: إن الله جوهر واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريك أنطاكية وهم البلقانيون)^(١).

ويبدو من كلام ابن البطريق أن بولس وأتباعه لم يعرفوا عن المسيح سوى إنسان مخلوق بقدرة الله، وأن الله اصطفاه بالنبوة، وكانت تسميته بابن الله لا يقصد بها سوى التعبير المجازى وهو المحبة، وكانوا لا يعرفون عن الله إلا أنه واحد مسمى بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة التى قال بها الأليانية، ولا بروح القدس التى نطق بها أهل التثليث.

ومن الملاحظ أن مذهب هؤلاء سبق على لسان مؤرخ يؤمن بالثالوث، فجاء منطقته وتعبيره عن هؤلاء الموحدين بهذا السياق المذكور. أما إذا اتجهنا إلى ابن حزم المسلم فإنه يسوق عبارة بولس وأتباعه من الموحدين فى تعبير إسلامى واضح فيقول: (كان بولس بطريقياً بإنطاكية قبل ظهور النصرانية)^(٢)، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكْر، وأنه إنسان لا إلهية فيه، وكان يقول: لا أدرى ما الكلمة ولا روح القدس)^(٣). ولا فرق بين القولين إلا فى الصياغة.

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٣٦.

(٢) يعنى ابن حزم قبل ظهور عقيدة التثليث التى فُرت من خلال الجامع.

(٣) انظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهرى ١/ ٣٩.

ثانياً: فرقة أبيون

وهي الفرقة التي أخذت على عاتقها محاربة بولس (شاول)، الذي ألقى شرائع موسى وأدعى في نظير جمل النصرانية عالمية أن المسيح ليس هو المسيا المنتظر لدى اليهود، بل هو مخلص العالم، وهو إله وابن إله ومن ثم وقف أتباع أبيون كما جاء في كتاب الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، جبهة واحدة (تقر جميع شرائع موسى، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذي تحدثت عن أسفار العهد القديم، وتكرر ألوهية المسيح، وتعدّه مجرد بشر رسول، وكان لهذه الفرقة إنجيل خاص مدون باللغة الآرامية. وهو فيما يتعلق بشخص المسيح يتفق مع العقائد الإسلامية المستمدة من نصوص القرآن الكريم، وقد انقرضت هذه الفرقة في أواخر القرن الرابع الميلادي)^(١).

ومن المعروف أن الكثير من الأنجيل حكم عليها فيما بعد بالإعدام ومن خلال إعدامها ضاعت العقيدة الصحيحة وتخبط النصارى في التالوث المدعى.

ثالثاً: الأريوسيون^(٢)

وهي من أكبر الفرق الموحدة في العهد الأول للمسيحية، شمّرت عن ساعديها، ونصّبت نفسها محامياً عن العقيدة، وأخذت تضرب الفرق البولسية بكل ما أوتيت من الحجج والبراهين، وأخذت على عاتقها إحياء معتقد التوحيد، وطرد الأقوال الدخيلة عليه. ويوم أن بدأ مذهب المساواة بين المسيح والإله يظهر على يد أورجنيس^(٣) وظهرت بدعة حلول الجزء الإلهي في شخص عيسى

(١) انظر كتاب الأسفار المقدسة للأديان السابقة للإسلام ص ١٠٨، ١٢٤.

(٢) نسبة إلى أريوس وهو قسيس في كنيسة الإسكندرية، ليبي الأصل وعمد عام (٢٧٠ وتوفي ٣٣٦) تاريخ الأقباط ١/١٥٠.

(٣) عاش ما بين القرن الثاني والثالث الميلادي (١٨٥ - ٢٥٤)، وكان يميل في تفسيره للإنجيل إلى الأفلاطونية الحديثة: وكان يقول: إن المسيح كلمة الله، ولا يراد بالكلمة سوى العقل، فالمسيح عقل الله، والله وكلمته أزليان؛ لأن العقل الإنساني في اللحظة التي يتصور فيها وجود الله يتصور فيها وجود كلمته منه، فليس وجودها مسبقاً بفترة من الزمان، وبناء عليه فمعيى إنسان إلهى مساو للأب في الوجود، انظر الجانب الإلهى هامش ص ٧٤، وانظر ص ٧٥، ٧٦.

الإنسان، كما يقول الدكتور البهي: (وقف أريوس منكرًا أن عيسى ابن الله ومساو له، وقال: إنه إنسان محض، وقد وجدت فترة من الزمن قبل خلقه فهو إنسانٌ حادث)^(١). ومعنى هذا أن المسيح ليس أزلياً، بل هو رسول مخلوق، والمخلوق لا يكون خالقاً، وإلا لأدى ذلك إلى انقلاب الحقائق.

ويؤكد هذا المعنى ما ساقه صاحب كتاب «تاريخ الأقباط» عن أريوس الذي نادى (بأن المسيح ليس أزلياً، وإنما هو مخلوق من الأب، وأن الابن ليس مساو للأب في الجوهر. ويعنى بالابن المسيح وبالأب ذات الله. أى أن المسيح ليس مساوياً لله بل هو مخلوق)^(٢).

ويقول ابن حزم عن أريوس: (إن قوله هو التوحيد المجرد، وأن عيسى - ﷺ - عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى بها خلق السماوات والأرض)^(٣).

ويلاحظ أن أريوس حينما كان يرتفع صوته بكلمة التوحيد ونفى الوهية المسيح كان التعليل لرأيه مصاحباً له فنراه يقول: (كيف تتفق وحدة الإله مع جعل عيسى الهاً أيضاً نعم هو شبيه للإله، على معنى أنه قريب منه في الدرجة والمنزلة، ولكنه ليس مساوياً له). ولقوة رأيه في التوحيد (تبعه مشاعيون كثيرون، فكانت كنيسة أسيوط على رأيه، وعلى رأسها ميليتوس، وكان أنصاره في الإسكندرية نفسها كثيرين في المدد، أقوياء في المجاهرة بما يعتقدون، كما تبعه خلق كثير في فلسطين ومقدونية والقسطنطينية.. وعلى الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تال جهداً في محاربه ومحاربة أرائه، ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقص عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥م بطرد أريوس وكفره، وإصدار قراره بالوهية المسيح)^(٤). وبذلك يكون هذا القرار السلطاني بالوهية المسيح هو بداية التحول للعقيدة المسيحية في الإله الواحد إلى الثالث الوثى الذى قررته المجامع فيما بعد.

(١) انظر الجانب الإلهى ص ٧٧، د. محمد البهي.

(٢) تاريخ الأقباط ص ١٥٠، زكى شنودة، بتصرف.

(٣) الفصل في المل والأهواء والنحل ٢٩/١، طبعة مصطفى الحلبي.

(٤) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٢٥.

تعقيب وتعليق:

هذه هي عقيدة التوحيد مازالت حية قوية في قلوب الكثيرين من الفرق المسيحية التي لمحت الغزو الفكري قادماً إليها من كل اتجاه بقيادة فرق البست نفسها ثوب المسيحية، وتمصمت الأفكار الوثنية وصاغت بدقة فائقة، وأبرزتها في صورة جديدة عليها رداء العقيدة، وامتازت بالحبكة الفنية والصيغة الفلسفية، ثم همست في أسماع البسطاء من الناس قائلة: إن المسيح شريك لله، وأنه إله وابن إله. وللأسف مازال رنين هذه الهمسات يسمع في ديار الكثيرين من أتباعهم حتى اليوم، ونسى هؤلاء وأولئك أن ذلك رجم بالغيب، وتجاوز للحد، وتناول على مقام الألوهية بغير برهان، والعقائد لا تؤخذ من غير الأنبياء الذين حملوا الرسالة من رب السماء، وقد أفلح الموحدون حين قالوا لا إله إلا الله، وشمروا عن سواعدهم في سبيل إحيائها وإسكات أصوات الدخلاء، وقد رأينا أريوس وأتباعه كيف قاوموا الثالوث الوثني، ونازعوا هذا المبدأ الذي أبرزه بولس وفرقته، بيد أن الفرق الموحدة كانت أعلى صوتاً، وأفصح قولاً، وأقوم حجة، وأعلى مكانة، فمنهم قساوسة وعلماء وبطاركة، وكانوا جميعاً يهدفون إلى تقرير قضية واحدة وهي أن الله واحد أحد لا شريك له ولا ولد، وليس بأقنوم أو روح قدس. وإذا ما عرضنا هذه القضية التي انتهى إليها المسيحيون الموحدون على الإسلام لوجدنا أن لها قبولاً وارتياحاً، ولنرى ذلك فيما يلي:

موقف الإسلام من قضية الوحدانية في المسيحية

لقد كانت دعوة الإسلام كلها قائمة وراء هذه القضية لتقريرها وتأييدها وترسيخ أساسها في العقول والقلوب؛ وذلك لأن الله جل في علاه هو الذي شهد لنفسه بالوحدانية شهادة الذات للذات، وصدق بها الملائكة الكرام وأثني عليها أولو العلم على مر القرون والأزمان ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾^(١). ولقد تعرض الإمام ابن

(١) سورة آل عمران: آية ١٨.

جرير الطبرى لتفسير هذه الآية فقال: (إنما عنى جل ثناؤه بهذه الآية نفى ما أضاهت النصرارى الذين حاجوا رسول الله - ﷺ - فى عيسى من النبوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك من أن له شريكاً واتخاذهم دونه أرباباً، فأخبرهم الله عن نفسه أنه الخالق لكل ما سواه، رب كل ما اتخذته كل كافر وكل مشرك رباً من دونه، وأن ذلك كل ما يشهد لنفسه وتنزيهاً لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك بما نسبوا إليها، كما سن لعبادته أن يبدأوا فى أمورهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدياً خلقه بذلك) (١).

وإن المتتبع لأيات القرآن الكريم يجد أنه يرجع بالإنسان إلى وجدانه، ويعمل على إثبات الوجدانية لله رب العالمين عن طريق حسن النظام الموجود فى الكون البديع، والعناية فى تنسيقه وحسن تدبيره: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ٥٩ ﴾ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلِّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠** **أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلِّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١** **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢** **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣** **أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦٤** (٢).

هذه معارض لقدرة الله يعرض فيها ما أبدعت يد القدرة من آيات، وما أخرجت من نعم وما ثبت من مخلوقات، وقد حملت كل معروضة بين يديها لافتة تلقى كل من ينظر بهذا السؤال التقريرى من أنا؟ من صورنى وأبدع فيما صور؟ وتتلجلج السنة فلا تدرى ما تقول، وتتحرك السنة فتتطق بالحق وتلتوى السنة فترمى بالباطل، ثم تاتى هذه النداءات فى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ بَلِّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا

(١) تفسير الطبرى ٣ / ٢١٠ ط الحلبي. (٢) سورة النحل الآيات من ٥٩ - ٦٤.

يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

ولا يكتفى القرآن بهذه المعارض التي تبدأ مجهولة الصانع ثم تنتهى مضافة إلى إله واحد غير مثلث الأقانيم، بل يجيء بمعارض أخرى يبىد فيها المعبودون دون الله، وكانهم مدعوون إلى امتحان حولهم وقوتهم إلى جانب حول الله وقوته فلا يكون إلا المعجز والاستهزاء، يقول جل شأنه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلُ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾﴾

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾﴾، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴿٣﴾﴾

﴿ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾. وهكذا تتمعد معارض الامتحان التي تكشف فيها أحوال تلك المعبودات وتظهر لعابديها هي قيود المعجز والضعف.

وسبحان الواحد الذي يقول: ﴿ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسألُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ ﴿٥﴾﴾

(الحج: ٧٣)

نضى الولد عن الإله الواحد

وإذا كان الموحدون المسيحيون قد قاوموا فكرة الولد المنسوبة لله تعالى فإن

(٢) سورة يونس: الآية ٣٤.

(١) سورة القصص الآيات من ٧٠ - ٧٣.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٩٤.

(٣) سورة فاطر من الآية ٤٠.

الإسلام قد تصدى أيضاً لهذه الفكرة وحاول نفيها، وذلك من خلال الآيات الوفيرة المبثوثة في القرآن الكريم؛ لأنها فكرة وثنية تتنافى مع وحدانية الإله، يقول تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّ هَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (١).

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٢). ويقول جل شأنه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾ (٣). وكان على النصارى الذين نسبوا الولد لله تعالى ومن سار على دريهم أن يسألوا أنفسهم: لماذا يتخذ الإله ولداً؟ هل هو فى حاجة إليه؟ هل يريد منه أن يدير الملك من بعده أو يساعده فى عمله؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إن الواحد منا فى هذه الحياة يريد أن يتزوج وينجب له ولداً لكي يساعده على متاعب الدهر ومصاعب الحياة، وإذا ما مات الأب فإن الابن يدير ثروته من بعده، ويحىى له ذكره، فهل الإله الواحد الحى الذى لا يموت، القيوم على شئون خلقه، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، الفنى عن سواه، خالق الكون ومدبره، هل يريد بأن يتخذ ولداً لهذه الأمور؟ لا يرى عاقل ذلك أبداً.

إن هذه المقولة الفاجرة قدضج منها الكون بأسره؛ لأنها نسبت إلى الرحمن الرحيم ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (٤). إذن ما أكذب تلك القضية؛ أن الله له ولد، وما أصدق تلك القضية أن الله واحد لا شريك له فى الكون ولا ولد.

(١) سورة المؤمنون من آية ٩١.

(٢) سورة الإخلاص.

(٣) سورة الإسراء آية ١١١.

(٤) مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥.

المجامع المسيحية بين القول بعقيدة التوحيد وإرساء مقولة التثليث

تمهيد:

أهمية دراسة المجامع

ترجع أهمية دراسة المجامع إلى كونها نقطة البدء الحقيقية في تغير معالم الوجدانية التي عرفتها المسيحية الأولى، كما تبين لنا العوامل التي ساهمت في بناء مقولة التثليث ونشرها، خاصة (إذا علمنا أن التثليث الذي يمتقده جماهير المسيحيين أو الكثرة الغالبة فيهم - لم يعلن للناس دفعةً واحدةً، بل في أزمان متفاوتة مختلفة كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، وكان ذلك بإعلان المجامع التي كانت لعدد من الأساقفة، وفيها يقرر المجمع رأياً معيناً^(١)). ولا يهمنا من هذه القرارات إلا ما يتعلق بالعقيدة.

معنى المجمع المسيحي

يقول ميشيل جرجس: (المجامع هيئات شورية في الكنسية المسيحية رسم الرسل نظامها في حياتهم، حيث عقدوا المجمع الأول بأورشليم سنة ٥١، ٥٢م، برئاسة يعقوب الرسول؛ للنظر في مسألة الختان^(٢) عند الأمم، ومن ثم نسجت الكنيسة على منوالهم بعد ذلك^(٣)). والذي يعرف من هذا النص أن المجمع هو عبارة عن هيئة شورية. ومن هنا نسأل: هل هي شورى ملتزمة بالنص، أم مطلقة حسب منطلق العقل؟

(١) محاضرات في التصرانية ص ١٢٠، ط دار الفكر العربي.

(٢) من المعلوم أن الختان مشروع في اليهودية محرم في المسيحية، والذي حرمه بولس لا المسيح عليه السلام.

(٣) نقلاً عن كتاب يا أهل الكتاب تمالوا ص ٢٠٢، د. رؤوف شلبى.

إن كانت خاضعة للنص فلم حرّمتم الختان والنص يحلله؟ إن قلتم: إنها شريعة اليهود ولا تلزم بها الأمم، قيل لكم: لقد خالفتم النص القائل: (ما جئت لأنقض الناموس والأنبياء....)^(١)، وإن قلتم بالنسخ سلم لكم، ولكن أين دليل النسخ عندهم؟ وهل حقاً تعترفون بالنسخ؟. إننى لا أرى ذلك.

وإن كانت شورى مطلقة حسب منطق العقل قيل لكم: قد خرجتم عن الوحي والشرع، وأصبحتم فى عداد الفلاسفة، فهل حقاً تكون الفلسفة فى يوم ما منسوبة إلى وحي السماء^(٢)؟

أنواع المجامع

إن المجامع فى المسيحية نوعان كما يقول صاحب الأقباط: (مجامع مسكونية أو عالمية، ومجامع مكانية أو إقليمية)^(٣). وأول هذه المجامع مجمع نيقية، وللمجتمعين فيه يرجع الفضل فى إخراج مسرحية التثليث الهزلية، والتي جاء الفصل الأول منها باسم ألوهية المسيح.

(١) إنجيل متى إصحاح ١٧/٥.

(٢) راجع يا أهل الكتاب تمالوا ص: ٢٠٤ د. رؤوف شلبى.

(٣) تاريخ الأقباط / ١ / ١٧٠، زكى شنودة.

المبحث الأول

مجمع نيقية وألوهية المسيح ٣٢٥م

يذكر ابن حزم (أن المسيحية بقيت على التوحيد الخالص مدة لا تقل عن ثلاث مئة سنة.. إلى أن تنتصر قسطنطين الملك، فأجبر الناس على النصرانية بالسيف والعتاء، وبلغ تشجيعه للنصرانية إلى درجة قصر الولاية على من تنصر من الناس)^(١). وكان من ثمار هذا التشجيع أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين المملوءة رؤوسهم بالفكر الوثني، الذي صبغت به المسيحية فيما بعد، فتكون مزيج غير تام التكوين، غير تام الاتحاد والامتزاج بين هذه الطوائف وأصحاب عقيدة التوحيد)^(٢) على حد تعبير اتجاهات مختلفة تدعو إلى ألوهية المسيح وإرساء عقيدة التثليث.

وعن هذه المسيحية الداخلية يحدثنا صاحب كتاب «تاريخ العصور الوسطى المبكرة» فيقول: (إنها كانت تخالف المسيحية الحقيقية - مسيحية التوحيد - حيث ابتدعت أشياء لا يرضى عنها المسيحيون الأصوليون الموحدون، فزعم أتباع بولس - المدعو عندهم بالرسول - ألوهية المسيح، وكنيسة الإسكندرية وأتباعها يقولون بالتثليث، وآخرون يدعون المسيح ابن الله، وكل هذا ضلال تنتزه عنه الرسالة الإلهية، وبدأ الصراع بين المسيحية الحقيقية والمسيحية الجديدة، واعتبر في هذا الصراع المسيحيون الأصوليون متمردين، ومكث هذا الصراع حتى عقد مجمع نيقية (٣٢٥م) بدعوة من الإمبراطور قسطنطين الملك للبحث في التعاليم الأريوسية)^(٣).

(١) راجع الفصل في الملك والأهواء والنحل ٨٠٨/١.

(٢) انظر محاضرات في النصرانية ص ١٢٢.

(٣) تاريخ العصور الوسطى المبكرة ص ٧٤، إسحاق عبيد.

ومن هذا القول نفهم أن التعاليم الأريوسية - وهى لا تخرج عن التوحيد - هى الوحيدة التى تقف فى الميدان لمحاربة أتباع المسيحية الجديدة؛ لأن هذه التعاليم هى التى تحمل روح المسيحية الأصلية، والغريب العجيب أن الأستاذ زكى شنودة يسمي هذه التعاليم الأريوسية بدعة، وهذه البدعة هى التى أدت إلى عقد مجمع نيقية. وأقول للأستاذ زكى شنودة إن البدعة كما نعلمها هى أمر مستحدث يؤدى إلى ضلال، وأريوس فى تعاليمه كان يقول: (إن الأب وحده هو الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن). كما يقول ابن البطريق^(١). فهل هذا القول مستحدث وجديد على المسيحية؟ لا أرى ذلك. بدليل أنك قلت: (إن العيب ليس على أريوس، بل على فئات أخرى سبقته فى إيجاد هذه البدع فأخذ هو عنها)^(٢). وإذا كانت هذه الفئات هى التى قالت بما قال أريوس فمعنى هذا أن أريوس ليس بمبتدع، بل يسير فى طريق أسلافه من الحواريين، والمبتدع هو من قال بالوهية المسيح ولا داعى لقلب الحقائق.

صورة حية من داخل المجمع

ولما كان هذا المجمع هو الأول من نوعه الذى يريد أن يناقش التعليم الأريوسية التى تتمسك بعقيدة التوحيد الخالصة أردنا أن نعرف من هؤلاء المناقشون؟ وإلى أى دين ينتمون؟ حتى تكون لهم الصفة القانونية الشرعية لمناقشة عقيدة ورثها أريوس وأتباعه منذ أمد ليس بقريب، ولذلك سنترك المؤرخ المسيحي ابن البطريق ينقل إلينا صورة حية من داخل هذا المجمع النيقوى، يقول ابن البطريق: (بأمر من الإمبراطور اجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون ألفاً من الأساقفة، وكانوا مختلفى الآراء والأديان... فمنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة من نار انفصلت من شعار نار، فلم تنقص الأولى بانقصال الثانية فيها، وهى مقالة سابليوس، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما هو فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب،

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٢١.

(٢) تاريخ الأمة القبطية ١/ ١٧٥، زكى شنودة.

ومنهم من كان يقول إن المسيح إنسان مخلوق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم ويرون أن الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد ولا يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطى بطريك إنطاكية، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح وطالح وعدل بينهما.. ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاث مئة وثمانية عشر سقفاً^(١). هذا هو ما نقله ابن البطريرق. واللقطة الأولى تكشف عن عدد الحاضرين وهو ٢٠٤٨، ويقول ابن البطريرق: إن هؤلاء جميعاً كانوا أساقفة، ومعنى هذا أنهم كانوا على دين واحد وهو المسيحية، ولكن الرجل يتناقض مع نفسه حين قال إن هؤلاء كانوا مختلفي الآراء والأديان، ومعنى هذا أنهم ليسوا جميعاً من أتباع المسيحية، ولم يكونوا جميعاً أساقفة، وما ساقه هذا المؤرخ كشف لنا النقاب عن صدق هذا القول، فالديانة المسيحية الموحدة لم تعرف أن المسيح وأمّه إلهان، أو أنه - ﷺ - كان شعلة من نار، ولم تره في يوم ما إلهاً من دون الله، ولم يدرك أصحاب المسيح أن الإله الواحد ثلاثة هم: صالح وطالح وعدل بينهما، بل الذى أدرك هذه الأمور واعتقد بهذه الأقول هم الذين رضعوا من لبان الوثنية، وارتموا في أحضان الفلسفة قروناً من الزمان طويلة، وهؤلاء وإن خلموا على أنفسهم اسم المسيحية لم يكن لهم الحق القانوني والصفة الشرعية في مناقشة التعاليم الأريوسية، ومع ذلك فقد شهدت ساحة المجمع أكبر مناقشة عقائدية بين هؤلاء الوثنيين، خاصة من يريدون تأليه المسيح وبين الموحدين.

بين المؤلهين والموحدين

كانت مدرسة الإسكندرية هي زعيمة الفكر الوثنى الذى يدعو إلى تأليه المسيح داخل المجمع، ولذلك وقف بطريك الإسكندرية يعلن أمام جموع الحاضرين أن المسيح لم يكن بشراً رسولاً، بل كان إنساناً إلهاً. وهذا قوله الذى نقله إلينا أدولف هرنك: (دائماً إله دائماً ابن، وفي نفس الوقت أب، وفي نفس

(١) تاريخ ابن البطريرق ١/ ١٢٦.

الوقت ابن.. والابن أزلى غير مخلوق، دائماً إله دائماً ابن^(١). لقد كان هذا الرجل يعتقد بالوجود الأزلى للأب والابن، فالأب لا يمكن التفكير فيه بدون الابن الذي صدر عن الأب.

ولرد على هذه الأقوال وقف أريوس وأتباعه يعارضون، وكانت أقوالهم يغلب عليها الفكر التوحيدي من أن الإله الواحد الأحد هو الأزلى وحده، وأن الابن^(٢) ليس أزلياً، ولكنه خلق من خلق الله أوجده من العدم، وتتلخص تعاليم أريوس، وبقية الموحدين داخل المجمع - كما يقول صاحب كتاب «الدولة والكنيسة» - في الأمور التالية:

١ - (أن الأب هو الإله الحق في مقابل الابن الذي ليس إلهاً حقاً، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التمازض بين غير المخلوق والمخلوق، ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين إلهان لا متاهيان.

٢ - أن الابن ليس غير مولود وليس جزءاً من غير المولود... وأنه قبل أن ولد وخلق أو قصد لم يكن؛ لأنه كان غير مولود، وعلى ذلك فإلهه لم يكن دائماً أباً، لأنه كان وحيداً.

٣ - إن الله تعالى له قوة طبيعة ليس كمثله شيء - سرمدية - أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله وإنما هو إحدى هذه القوى... وعلاقته بالأب أنه مخلوق له^(٣). والموحدون في ذلك يتصورون أن هناك مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات، (والابن - المسيح - واحد من هذه المخلوقات، ومعرفته بالله تعالى معرفة غير كاملة، وما يراه الابن وما يعرفه فإنما هو بالنسبة لقواه، وبذلك لم يعد المسيح إلهاً حقاً، ولم يكن في يوم ما أزلياً، بل هو مولود مخلوق بكلمة من الله)^(٤).

(١) تاريخ العقيدة د. أدلف هنريك نقلاً عن كتاب طائفة الموحدين ص ١٤ المهندس أحمد عبد الوهاب.

(٢) إذا ما قال الموحدون هنا بالبنوة فإنهم لا يقصدون سوى البنوة المجازية لا الحقيقية.

(٣) راجع كتاب الدولة والكنيسة ١٦٠/٢ د. راهت عبد الحميد، ط دار المعارف المصرية.

(٤) المصدر السابق؛ بتصرف.

ولا شك أن هذا الفكر الذي اعتمد عليه هؤلاء الموحدون يصادقه الواقع الملموس للحياة اليومية فالكون كله يتحرك بدقة ونظام ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١)، ولو هناك إله يشارك الخالق في هذا الوجود لما دامت هذه الدقة، ولتخلف هذا النظام؛ ولذلك أشار كتاب الإسلام إلى هذه النقطة بالذات قائلاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢).

وبناء عليه فأقوال الموحدين كان لها النصيب الوافر من الصحة، ومع ذلك فقد سمح الملك قسطنطين بعرض جميع الآراء المختلفة، (وأخلى لجميع الحاضرين داراً يجتمعون فيها، وأمرهم أن يتناظروا لينظر من منهم عنى الدين الصحيح فيتبعه، فاتفق منهم هؤلاء الثلاث مئة والثمانية عشر أسقفاً على دين واحدٍ ورأى واحدٍ^(٣)، وهو تاليه المسيح.

تدخل الملك وإقصاء الموحدين

ولما كان من الطبيعي أن يمتد النقاش بين هذه الفرق المختلفة إلى أجل غير مسمى كان على الملك أن يتدخل لصالح الموحدين الذين كانت أهوالهم أقرب من غيرها إلى العقل والنقل، ولكن الملك خالف ما كان متوقفاً واهترب من الذين قالوا بتاليه المسيح (وهم الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً، ووضع لهم مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطهم، وأخذ خاتمة وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم: سلطنتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا، مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذُبْ عنه^(٤).

(١) سورة يس آية ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٢.

(٣) راجع تاريخ ابن البطريرق ١/ ١٢٦.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٢٧.

أهم القرارات الملكية الصادرة عن المجمع

ولم ينقض المجمع إلا بعد إصدار قرارات مهمة تحمل المرسوم الملكي إلى كافة الطوائف المسيحية آنذاك، وكان من أهم ما قرره المجمع - مجمع الثلاثئة والثمانية عشر - تكفير أريوس وبقية الموحدين، وإعلان المقولة الجديدة التي تجمل من المسيح رباً، وأنه هو ابن الله، ومساو له في جوهره.

صيغة العقيدة الجديدة

ولقد ذكرت مجلة الكرازة المرقسية الصيغة التي قررها المرسوم الملكي للعقيدة الجديدة على النحو التالي: (نؤمن برباً واحداً أب ضابط الكل، وخالق السموات والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور، إله حق مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاص نفوسنا، نزل من السماء، وتجسد في الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس، وصُلِبَ عنا على عهد بيلاطس النبطي، وتألّم، وقُبِر، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، وليس للملكه انقضاء)^(١).

وبهذا القرار الذي به صدرت العقيدة الجديدة نرى أن الخطوات العملية لإقصاء عقيدة التوحيد، التي عاشت أكثر من ثلاثة قرون في المسيحية تقاوم الوثنية، بدأت تأخذ الصفة الرسمية وتؤيدها القرارات الملكية، ولكن هل يا ترى سيقف الموحدون مكتوفي الأيدي أمام هذه العقيدة المفروضة؟ وقبل أن نتعرض للإجابة على السؤال سنظهر بعين البحث العلمي الدقيق إلى ما دار في المجمع، وما نتج عنه من عقيدة، لتبين وجهة نظرنا في ذلك.

(١) انظر مجلة الكرازة المرقسية، الأعداد من ١ - ١٠ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٨٠م إلى ١٣ فبراير ١٩٨١م، شرح قانون الإيمان.

تقييم قرارات مجمع نيقية والملاحظات عليها

لنعمس قرارات مجمع نيقية لآبد لنا من دراسة نظريتين:

الأولى: عبارة عن نظرة عامة لما كان عليه الجميع.

الثانية: عبارة عن نظرة خاصة للقرارات التي احتوت عليها العقيدة الجديدة.

أولاً: نظرة عامة إلى المجتمع

بأمر من قسطنطين كان عدد الحاضرين في المجمع ٢٠٤٨ أسقفًا، وبقرار من قسطنطين أيضاً تمثلت آراء المجمع في ٣١٨ أسقفًا فقط، وأبعدت آراء الآخرين.. وهنا لا بد من وقفة لنسأل: أين ذهبت آراء الباقين؟ ولماذا أهملت بهذه الطريقة؟ وهل يصح للكنائس المسيحية جميعاً أن تلتزم بقرارات ٢١٨ أسقفًا فقط من ٩٢٠٤٨؟ ولماذا بها تلتزم هل لأنها آراء الأغلبية أما أنها تتناسب مع العقل؟ أما إن كانت المسألة مسألة أغلبية (فإن الرواة يقولون - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة: إن أريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم انضم إلى آرائه أكثر من سبعمئة أسقف، وهذا العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المخالفة، فلو كانت النصررة بالكثرة النسبية لكان الواجب أن تكون الغلبة لأريوس الذي احتج بما تحت أيديهم من أناجيل، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح قرر تحريفها)^(١).

وإن كان الأمر متوقفاً على العقل فإن العقول السليمة لا تتصور في يوم ما أن رسولاً من البشر يرتق إلى درجة الألوهية ويملك زمام الكون، ويستطيع بقدرته أن يقرر فيه ما يشاء، وبينما هو كذلك تتاله اليد البشرية، وأى يد هي؟ إنها أقذر يد عرفتها الإنسانية، وهي اليد اليهودية، تتاوله بالضرب والسب والشتم، ثم تُثنى عليه بالقتل والتمثيل والصلب، ومع ذلك فهو مازال إلهاً. أى عقل هذا الذي يتصور إلهاً للكون بهذه الصورة المهينة؟ إن المسيح - ﷺ - لا

(١) راجع محاضراته في النصرانية ص١٢٦، ١٢٧ وأيضاً كتاب النصرانية والإسلام ص٢٥ للاستاذ محمد عزت الطهطاوى.

يمكن أن يهبط بعقله إلى هذا الدرج، ويدعو لنفسه إلى هذه الألوهية، حاشا المسيح ورسالته، وحاشا الله رب العالمين أن يكون كذلك.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو: من الذى اختلق هذه المقالة؟ ولماذا فرضها الملك على الجموع المسيحية؟ وابن البطريرق - وهو ممن يعتقدون هذه العقيدة بلا روية - هو الذى ألزم نفسه بالإجابة على هذا السؤال حين قال: (ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح، وهى مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً)^(١). وبذلك يقرر ابن البطريرق فى غفلة من قلمه أن المسيح لم يقل أنه إله، وإنما الذى قال هو بولس الرسول والثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً، أما المسيح وحواريه فهم براء من هذه المقالة، ومع ذلك فقد كان لها النصر بفضل قسطنطين وسيفه.

من هو قسطنطين وما هى عقيدته؟

ذكر ول ديورانت فى كتابه «قصة الحضارة» ترجمة لقسطنطين، هذا الذى له اليد العليا فى فرض ألوهية المسيح، وإقصاء عقيدة التوحيد فقال: (إنه ابن غير شرعى لقسطنطيوس من محظيته الشرعية هيلنا خادمة إحدى الحانات فى بثينا، فلما أصبح قسطنطيوس قيصرأ طلب إليه دقلديانوس أن ينتحى عن هيلنا ويتزوج بشيودورا ربيبة مكسيمان)^(٢). أما عن ثقافته فإن صاحب كتاب «الدولة والكنيسة» هو الذى كشف لنا النقاب عنها حين قال: (إن قسطنطين لم يكن على قدر كبير من الثقافة)^(٣). والسبب فى ذلك كما يقول ول ديورانت: (هو انخراطه فى سلك الجندية مبكراً)^(٤). وعن العقيدة التى تربي فى أحضانها هذا الملك منذ نعومة أظفاره يحدثنا الدكتور رأفت عبد الحميد قائلاً: (إنه بمولوده ونشأته الأولى كان وثنياً، وذلك بحكم بيئته التى شب فيها، فوالداه

(١) ابن البطريرق ١/ ١٢٦.

(٢) قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الثالث ص ٢٧٢، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران.

(٣) الدولة والكنيسة ٢/ ١٢٠، د. رأفت عبد الحميد، ط دارالمعارف.

(٤) قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الثالث ص ٢٧٢.

يحملان نفس العقيدة، وإن كان أبوه قد لجأ إلى صورة التوحيد الوثى حيث كان من عباد إله الشمس^(١).

هذا هو قسطنطين، وهذه هي نشأته وثقافته وعقيدته الأولى، وهي أمور لا بد من الوقوف عليها عند التعرض لهذا الملك الذى تدين بمقيدته اليوم الملايين من البشر المسيحيين. فهل كان هذا الرجل مسيحياً؟ وهل حقاً تخلص من وثنيته؟

قضية دخوله المسيحية

(لم يختلف الدارسون فى شيء كاختلافهم حول مسيحية قسطنطين، فقد أعلن هذا الرجل دخوله المسيحية، وابتعاده عن الوثنية فى خريف عام ٣١٢م، ولم يكن ذلك الاهتداء - كما يقول يوساب - على يد بشر، ولكن لرؤيا منامية بشره فيها المسيح، وأعطاه الصليب كشارة له ولجنوده)^(٢). وما أكثر الرؤى المنامية فى المسيحية: (ومع ذلك فلم يستطع قسطنطين أن يتخلص من وثنيته القديمة والدليل على ذلك أنه فى سنة ٣٢١م قرر جعل يوم الأحد عيداً أسبوعياً وسماه يوم الشمس، مؤكداً بذلك قدسيته للشمس، وظلت المعابد الوثنية فى عهده مفتوحة للعبادة العامة فى نفس الوقت الذى أصدر فيه مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية التى كانت تتمتعها الكنييسة بالهرطقة مخافة الانقسام فى الدولة^(٣)، وهذه الأمور هى التى جعلت ول ديورانت يتساءل قائلاً: (ترى هل كان قسطنطين حين تحول إلى المسيحية مخلصاً فى عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية؟ أم كان هذا العمل حركة بارعة أملتها حكيمته السياسية^(٤))، ثم يجيب الرجل قائلاً: (أكبر الظن أن الراى الأخير هو الأصوب)^(٥).

ونحن نرى مع ديورانت أن هذه الإجابة قد حالها الصواب وصادفها الواقع العملى الملموس لهذا الملك الذى قد أحاط نفسه بجماعات من الفلاسفة

(١) الدولة والكنيسة ٣ / ٢٧٢. (٢) راجع المصدر السابق ٢ / ٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٢٠، ١٢١.

(٤، ٥) قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الثالث ص ٢٨٧.

الوثنيين وقلما كان يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس، ولم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق؛ محافظة على وحدة الإمبراطورية، وكان يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون، ورأينا ذلك واضحاً داخل مجمع نيقية الذي أصدر العقيدة الجديدة للملأ، (ولو كان قسطنطين مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً وحاكماً سياسياً ثانياً، ولكن الآية انعكست كما يقول صاحب قصة الحضارة فكانت المسيحية وسيلة لا غاية)^(١).

ويقول المؤرخ أبو سيبوس الذي نقله كلامه الكيسة وتسميه سلطان المؤرخين: (إن قسطنطين عُمِدَ حين كان أسير الفراش، وأن الذي عمده ذلك المؤرخ وكان له صديقاً، والتعميد - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - هو إعلان دخول المسيحية^(٢)). وبناء عليه يتضح أمامنا أن هذا الملك لم يكن في مقدوره أن يتخلص من وثنيته حتى آخر لحظة من حياته، ويوم أن تصدى لرئاسة المجمع كان بهذه الوثنية يدين، ولذلك لم ير حرجاً في طرد الموحدين واحتضان من يقول بتاليه المسيح، لأن أراهم إلى قلبه أقرب، وهذه نقطة مهمة في حياة هذا الرجل الذي ترك بصمات واضحة على المسيحية لابد للنصارى من معرفتها حتى يمكنهم إدراك حقيقة ما به يدينون.

ثانياً: نظرة إلى الفقرات التي

احتوت عليها العقيدة الجديدة

والناظر إلى فقرات هذه العقيدة يدرك من أول وهلة الجهود المضنية التي بذلها المجمع للوصول إلى هذه العقيدة لكي يجعل فقراتها مقدسة، ومع أن الأناجيل وملحقاتها^(٣) لم يرد فيها نص أو قرار كهذا إلا أن الحاضرين حاولوا ألا يأتوا بكلمة من عندهم حتى لا يكون هناك اعتراض لمعترض، أو حجة

(١) قصة الحضارة ج ٣ من المجلد الثالث من ٢٨٧.

(٢) معاضرات في النصرانية من ١٢٨.

(٣) يقصد بها الرسائل.

لمخالف فاقتربوا من الأناجيل والرسائل، وأخرجوا إلينا هذه الفقرات على النحو التالي:

جاءت من إنجيل (يوحنا ٣/١٧)	(نؤمن بإله واحد)
جاءت الرسالة الأولى لأهل تسالونيكي ١١/٣	(أب)
جاءت من إنجيل (متى ٢٠، ٩/١٠)	(ضابط الكل)
جاءت من إنجيل (متى ٣٥/١١، خروج ١١/٢٠)	(خالق السموات والأرض ما يرى وما لا يرى)
جاءت من العبرانيين ٨/١ والرؤيا ١٦/١٩	(نؤمن برب واحد)
جاءت من (العبرانيين ٨/١٣)	(يسوع المسيح)
جاءت من (يوحنا ١٦/٣)	(ابن الله الوحيد)
جاءت من (ميخا ١٦/٥)	(المولود من الأب قبل الدهور)
جاءت من (عبرانيين ٣/١)	(نور من نور)
جاءت من (يوحنا ١١/٥)	(إله حق)
جاءت من (يوحنا ٥/١٧)	(من إله حق)
جاءت من (يوحنا ٢٦/٥)	(مولود غير مخلوف)
جاءت من (يوحنا ٣٠١/١٠)	(مساو للأب في الجوهر)
جاءت من (يوحنا ٣/١)	(الذي به كل شيء)
(هذا هو النص الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاص نفوسنا) ليس له سند من نصوص العهد الجديد، وإنما وضع بمعرفة المجمع.	
جاء من (يوحنا ١٤/١ وعبرانيين ٥٠/١)	(ونزل من السماء وتجسد)
جاء من (لوقا ٣٥/١)	(من الروح القدس ومريم العذراء)

(وتأنس) جاء من (يوحنا ٤٠/٨)
(وصلب على عهد بيلاطى النبطى) جاء من (يوحنا ١٩/١٩)
(وتالم) جاء من (الرسالة الأولى لبطرس ١١/١)
(وقبر) جاء من (أشعيا ٩، ٥٢، ومن متى ٦٠/٢٧)
(وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب). (من سفر الرويا
١٤/١٤، والرسالة الأولى لكسورتنوس ٢/١٥).

(وصعد إلى السموات) (لوقا ٥١/٢٤)
(وجلس عن يمين أبيه) (مرقس ١٩/١٦)
(وايضاً يأتى فى مجده) (متى ٢١/٢٥)
(ليدين الأحياء والأموات) (من الأولى عبرانيين ٤٢/١٠)
(الذى ليس للملكه انقضاء) (لوقا ٢٣/١)

هذه هى العقيدة الجديدة قبل تطويرها وما احتوت عليها من فقرات (ونود
أن ننبه أن هذا التخرىج ليس من عندنا، وإنما هو كما خرج عليه المؤتمرون
قرارهم وقدموه محمولاً بين يدي هذه المذكرة الإيضاحية)^(١).

والناظر إلى هذه العقيدة يرى أنها جاءت من أودية مختلفة وهى مقالات
متباينة وهى أحوال متغايرة لا يجمع بينها حال أو مقام، وإن كانت مسطورة فى
الأنجيل والرسائل والأسفار القديمة، ثم هى مع هذا أشلاء ممزقة قد انتزعت
انتزاعاً من أصولها، ثم ضرب بعضها ببعض، فكانت هذا الكائن العجيب من
أكوان النظم الكلامى، ونستطيع أن نتخذ من هذا القرار وفقراته المبعثرة وثيقة
تاريخية تدل على ما يلى:

أولاً: أن التثليث المسيحى لم يكن معروفاً إلى سنة ٣٢٥م من ميلاد المسيح،

(١) راجع فى ذلك كتاب «مناظرة بين الإسلام والنصرانية»، ط المملكة العربية السعودية الرياض ٢٠٧،
٢٠٨، وكتاب المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل، للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٢٤٩، ٢٥٠.

ولم يمتدح المؤتمر المنعقد فى هذا العام بغير الأب والابن.
ثانياً: أن التثليث المسيحى لم يكن معروفاً إلى سنة ٣٢٥م من ميلاد المسيح،
ولم يمتدح المؤتمر المنعقد فى هذا العام بغير الأب والابن.

وفى ذلك يقول الدكتور محمد جميل غازى: (إنه إلى ذلك الحين لم يكن
المسيح قد دخل بينوته فى شركة مع الله على هذا النحو الذى يجعل منه «الله»
مندمجاً فى اقنومية الآخرين: الأب وروح القدس، وغاية ما كان يتصور فى هذه
البينة أنها فرع من أصل، وأنها إن دانت لإلهٍ فلن تكون هى الإله)^(١).

ثالثاً: إن العقيدة الجديدة الصادرة عن المجمع أعلنت بكل صراحة أن الله
الأب هو خالق السموات والأرض، أما الابن فلا دخل له فى هذا الخلق، ولكن
المسيحية بعد هذا أصبحت تدين بأن الله الأب لم يخلق شيئاً، أما الابن فهو
الذى قام بعملية الخلق - وسنوضح هذه المسألة إن شاء الله عندما نتعرض
لأعمال الثالوث -، وبناءً على هذه الأمور الثلاثة يمكننا القول بأن مسيحية
التوحيد مازال أصلها ثابت وقرعها فى السماء، أما مسيحية التثليث فقد بقيت
إلى ما بعد منتصف القرن الرابع غير مكتملة فى حقيقتها، ومازال الموقف من
المسيح متارجحاً مضطرباً بين القول بالإله والقول بالإنسان، ولسد هذه الفجوة
العميقة التى تتذبذب فيها شخصية المسيح عند النصارى المؤلهين كان عليهم أن
يبادروا بمقد مجمع آخر مقدس من خلاله تحدد ملامح الصورة وتكتمل سطور
العقيدة. وقبل أن نتعرض لهذا المجمع نعروض إلى إجابة السؤال الذى عرضناه
وهو يستفسر عن موقف الموحدين إزاء العقيدة الجديدة.

(١) من مقالة د. محمد جميل غازى فى كتاب المناظرة بين الإسلام والنصرانية ص ٢٠٨، ٢٠٩.

المبحث الثانى: موقف أصحاب عقيدة التوحيد من قرارات الألوهية

إن الوجدانية التى حاول رئيس مدرسة الإسكندرية اثاسيوس وبعجواره الإمبراطور الوثنى قسطنطين إزهاق روحها والقضاء على أتباعها قدر لها الحق أن تظل حية قوية فى قلوب الكثيرين، (فقد كانت كنيسة أسيوط - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - على رأى أريوس زعيم الموحدين، وكان على رأس هذه الكنيسة ميلتوس، وفى الإسكندرية التى شبت فيها فكرة التالىه كان لأريوس العدد الوفير من الأنصار الموحدين، وكان هؤلاء كثيرين - من حيث العدد - وأقوياء - من حيث المجاهرة - بما يمتقدون كما كان لهذا الرأى أيضاً مشايمون فى فلبيطين ومقدونية والقسطنطينية)^(١). ويوم أن أعلن قسطنطين ألوهية المسيح بكل صراحة وأمر بنفى أريوس وإحراق كتبه أعلن الكثيرون من القساوسة اعتراضهم على هذا الرأى ليس فى هذه البلاد فحسب بل فى كثير من البلاد الآسيوية، (حيث أظهر بعضهم - كما يقول ول ديورانت - عطفاً على أريوس، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا فى الولايات الآسيوية، وتردد فى المدائن أصداء الضجيج والاضطراب.. حيث كان الدين المسيحى - كما يقول يوسبيوس: (مؤرخ وعالم مسيحى معاصر للجميع) - موضوع السخرية من الوثنيين حتى فى دور التمثيل نفسها)^(٢).

وبهذا نعلم أن عدد الموحدين فى كافة الأقطار ليس بالعدد اليسير، وكذلك كان الحال داخل المجمع، وفى عقبه. ولا يتمثل سبب انتشار رأى الموحدين فى العطف والشفقة على أريوس كما قال ديورانت، بل فى قوة الدليل، وقوة تصور

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٢. بتصرف.

(٢) انظر قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الثالث ص ٢٩٢، ول ديورانت.

العقيدة، وقوة الاقتناع بها، وسهولة دخولها إلى العقل واستساغته لها، ولذلك لم يكن في مقدور اثناسيوس - المؤيد بمرسوم ملكي - القضاء على عقيدة الوحدانية، بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سبباً في شدة الاستمساك بها والمبالغة في المحافظة عليها مما يراد بها، ومن ثم نشط الموحدون في كل مكان ضد عقيدة الشرك، وقاموا بمقد عدة مجامع كان الهدف من ورائها إلغاء القرار النيقوي، وعزل اثناسيوس الذي تزعم الموقف في مجمع نيقية، وكان أحد الأسباب في إقرار هذه العقيدة. كما قاموا بسن عدة قوانين إيمانية تخالف قانون الإيمان، النيقوي وتقف مع مبدأ التوحيد وهذه المجامع هي:

١ - مجمع صور ٣٢٥م. ٢ - مجمع إنطاكية الأول ٣٤١م.

٣ - مجمع سيرميوم ٣٥٧م. ٤ - مجمع ريمنى وسلوفية ٣٥٩م.

٥ - مجمع إنطاكية الثاني ٣٦١م. ٦ - مجمع القسطنطينية ٣٦١م.

وكانت هذه المجامع بمثابة رد فعل عملي ضد من قال بغير التوحيد وهذه هي:

خطوات الموحدين في المجامع

أولاً: مجمع صوريرفرض بالإجماع

عقيدة الشرك سنة ٣٢٥م

لم يستسلم الموحدون إلى العقيدة الجديدة التي أصدرها مجمع نيقية، ولكنهم صمموا على المقاومة حتى استطاعوا في عام ٣٢٨ جعل الإمبراطور يعيد أريوس وأشياعه إلى كنائسهم، في ذلك الوقت كان اثناسيوس قد تولى كرسي كنيسة الإسكندرية^(١)، ولما كان هذا الرجل هو المتزعم للمعتقد القائل بالوهية المسيح بعد الكسندروس كان من الطبيعي أن تشتد الأزمة بينه وبين الموحدين، الأمر الذي جعل الإمبراطور قسطنطيوس ابن الإمبراطور قسطنطين السابق لم ير أمامه من حل سوى عقد مجمع من الأساقفة كما

(١) طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص ٢١، مهندس أحمد عبد الوهاب.

يقول القس سليم سليمان في قيسارية عام ٢٢٤م، ودعا اثنا سيوس للاشتراك فيه، فلم يحضر، وأخيراً قرر الإمبراطور قسطنطيوس عقد مجمع في صور ٣٢٥، وحتم على اثنا سيوس حضوره فحضر، وكذلك حضره كثيرون من الأساقفة الذين حضروا مجمع نيقية المسكونى الأول^(١)، وكان من بينهم أوسابيوس الموحّد، أسقف نيقوميديّة الذي ذكر عنه ابن البطريق أنه انتهز فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس ورأيه في المسيح وإنكار ألوهيته وكان بجواره الكثيرون من الموحدين المتمسكين بمقيدتهم، ولم يكتفوا بالنقاش القولى، بل امتدت الأيدي إلى بطريك الإسكندرية، وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها فضربوه حتى أدموه، وكادوا أن يقتلوه لولا تدخل ابن أخت الملك الذى كان حاضراً ذلك الاجتماع^(٢)، ثم اختتم المجمع جلساته (وأصدر المجتمعون قراراتهم بخلع اثنا سيوس من منصبه وقبول الملتين طائفة من النصارى تؤيد رأى أريوس وآتباعه - فى الكنيسة، وقد أعدوا العدة لدفن قرارات مجمع نيقية)^(٣)، والمودة بالمسيحية مرة أخرى إلى عقيدة التوحيد على أيدي الأريوسيين.

ثانياً: الموحدون داخل مجمع أنطاكية عام ٣٤١م

(ثم اشتد نفوذ الموحدين فى عهد قسطنطيوس الذى وافق على طلبهم بتعيين جريجوريوس أسقفاً على الكرسي الإسكندري، وقد اضطر اثنا سيوس إلى الهرب إلى روما عام ٣٤٠م)^(٤).

ويذكر الأستاذ كامل نغله: (أن الإمبراطور قسطنطيوس، خضع إلى رأى أخيه قسطنس وحكم بإعادة اثنا سيوس إلى الكنيسة مرة أخرى، وأخذ يدعو بين الناس بتعاليمه التى تنحصر فى ألوهية المسيح (والتي لا تتفق مع العقل والمنطق)، مثل قوله: الأب إله، والابن إله والروح القدس إله ولكن ليسوا ثلاثة

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية ٤٦/١، تأليف القديس منليم سليمان، دار الكتب تحت رقم ٢٣٥.

(٢) راجع فى ذلك تاريخ ابن البطريق ١٣١/١، محاضرات فى النصرانية ص ١٣٠.

(٣) مختصر فى تاريخ الأمة القبطية ٤٦/١، وكتاب الدولة والكنيسة ٢/٢٤١، د. رافت عبد الحميد.

(٤) طائفة الموحدين ص ٢٥ - أحمد عبد الوهاب.

آلهة، بل إله واحد، كذلك الأب رب، والابن رب والروح رب ولكنهم ليسوا ثلاثة أرباب بل رب واحد، لهذا في جميع الأمور المذكورة ينبغي أن يعبد الثالث في وحدانية، والوحدانية في ثالث، فمن أراد أن يخلص فعليه أن يعبد الثالث هكذا بالثالث، عندئذ اجتمع في إنطاكية سبعة وتسعون أسقفًا وسنوا مجموعة من القوانين تتفق مع التعاليم الأريوسية، وترفض أفكار اثناثاسيوس الوثنية والتي لا تخضع لأي منطلق سليم.

الثالث: الموحدون في مجمع سرميوم ٣٥٧م

وفي عام ٣٥٧م عقد الأريوسيون - كما يقول الأستاذ كامل نخلة -: (مجمعاً في مدينة سرميوم في جنوبي فرنسا برئاسة الأسقفين الفرييين أورزاس وفالانس، وحضره الإمبراطور قسطنطينوس بنفسه، وقد وضع ذلك الجمع صورة إيمان جديدة أنكر فيها مساواة الابن لأبيه في الجوهر)^(١). وما ساقه الأستاذ كامل نخلة هنا يدل على أمرين:

الأول: أن عصا الموحدين كانت ثقيلة آنذاك وأصواتهم كانت مرتفعة، الأمر الذي أهلك الإمبراطور، وجعله يحضر هذا المجمع ولعقيدتهم ينصت ويستمع.

الثاني: أن هؤلاء كانوا يعترفون بأن الله جوهر ولذلك أنكروا مساواة الابن لأبيه في الجوهر، ومع أننا سنناقش هذه القضية فيما بعد إلا أننا نتبه أن هؤلاء الموحدين لم يطلقوا على الله هذا الاسم في يوم ما؛ لأن المسيح - ﷺ - لم يقل إن الله جوهر، وهم على درب المسيح يسيرون، وحسبنا أن الكاتب نفسه ممن يؤمن بفكرة الجوهر التي تطلق على الله تعالى. ونكتفي هنا بتتبع خطوات الموحدين في المجمع.

(١) تاريخ اثناثاسيوس ص ٨٢.

رابعاً؛ إعلان لواء التوحيد فى المسيحية

بعد مجمعى ريمنى وسلوقية ٣٥٩

ولما ازدادت صيحات الموحدين النابعة من الفطرة بمقيدة لا إله إلا الله وعيسى رسول الله فى العالم المسيحى بأسره تحرك الإمبراطور قسطنطينوس - كما يقول صاحب تاريخ اثاسيوس - لتهدئة الأوضاع واستقرار الأمور (فمقد سنة ٣٥٩م مجمعين؛ أولهما فى مدينة رمنى وخصه بالفريين، والثانى فى مدينة سلوقيا بسوريا، وحضره من أساقفة مصر الأريوسيين عشرة وخصه بالشرقيين، ولقد أسفر كلا المجمعين عن قرارات تؤيد الأريوسية كل التأييد... وهكذا باتت الكنيسة الغربية كلها أريوسية)^(١).

ومعنى هذا أن قرارات مجمع نيقية التى تحمل عقيدة الشرك أخذت تلقى خلف الظهور بفضل الموحدين الذين انتشروا فى العالم كله، ولذلك يقول القس سليم سليمان: (إن مجمع ريمنى قد تسبب فى تحريف الإيمان النيقوى، وجر الهرطقة الأريوسية على العالم بأسره)^(٢). وأقول لهذا القس أنك صدقت حين قلت إن الموحدين قد استولوا على العالم بأسره؛ لأنهم مؤيدون بالمنطق السليم والعقيدة الصحيحة، وكذبت حين سميتهم هراطقة؛ لأن معنى هذه الكلمة أنهم زائفون عن طريق المسيح، ومبتدعون لأقوال تخالف أقوال الأنبياء، وهذا هو ما ينطبق عليكم أهل الثالث لا عليهم.

خامساً؛ الموحدون فى مجمع إنطاكية الثانى ٣٦١م

ولتثبيت قرارات مجمعى ريمنى وسلوقية قام الموحدون فى إنطاكية ٣٦١م بمقد مجمع للأساقفة لطمس عقيدة الشرك، وعن الذى دار فى هذا المجمع يحدثنا صاحب كتاب «مختصر تاريخ الأمة القبطية» قائلاً: (لقد حقق الأريسيون نجاحاً كبيراً فى هذا المجمع، وصاغوا قانوناً إيمانياً ينص على أن

(١) تاريخ اثاسيوس ص ٨٤، كامل صالح نغله.

(٢) مختصر تاريخ الأمة القبطية ص ٣٦٣، القس سليم سليمان.

الابن غريب عن أبيه مختلف عنه في الجوهر والمشيئة^(١). كما قام الموحدون بنشر هذا القانون في جميع الكنائس بعد أن تمت لهم الرئاسة على جميع الكنائس في العالم بمقتضى قانون مجمع ريمنى ٣٥٩م.

سادساً: قرارات الموحدين في المجمع القسطنطيني الأول ٣٦١م

والمتتبع لتاريخ المجمع في المسيحية يرى أن الكثير من الباحثين يطلقون على المجمع المنعقد في القسطنطينية ٣٨١م: المجمع القسطنطيني الأول. وهو إطلاق أخذه الكتّاب المسلمون من النصارى، علماً بأن هناك مجمع عقد عام ٣٦١م في القسطنطينية - والذي نحن بصدد الحديث عنه - أخفت الأعلام المسيحية الكثير من قراراته، ويكمن ذلك من وجهة نظرنا في أن هذه القرارات كانت على يد الموحدين ومن ضمنها قراران هما من أهم القرارات التي تقيد البحث العلمى ضد المسائل العقديّة في المسيحية المزيفة.

القرار الأول: تثبتت قرارات مجمع إنطاكية المنعقد عام ٣٦١م، والتي تنص على أن الابن غريب عن أبيه مختلف عنه في الجوهر.

القرار الثاني: وضع الموحدون سبعة عشر قانوناً إيمانياً أبعدت النصارى عن قانون الإيمان النيقوى، وعن هذين القرارين يتحدث القس سليم قائلًا: (ولقد شجع الظفر الأريسيين ففقدوا مجعماً آخر في إنطاكية ٣٦١م، أمضوا فيه سورة إيمان جديدة تعلم أن الابن غريب عن أبيه، مختلف عنه في الجوهر والمشيئة، وقد تثبتت هذه العقيدة الكفرية في مجمع انعقد بالقسطنطينية في نفس تلك السنة ثم انتشرت في أنحاء العالم، وهكذا وضع الأريسيون سبعة عشر قانوناً للإيمان، أبعدهم عن الحقيقة الأرثوذكسية المسطرة في قانون الإيمان النيقوى)^(٢).

وكنا نود من هذا القس الذي يسجل لنا قلمه عداءه الشديد للموحدين،

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية من ٤٦٢، القس سليم سليمان.

(٢) مختصر تاريخ الأمة القبطية من ٤٢٦، القس سليم سليمان.

خاصةً حينما سمي عقيدة التوحيد التي يحملونها وعندها يدافعون عقيدة كفرية أن يسجل لنا بقلمه أيضاً السبعة عشر قانوناً بتفصيلاتها حتى نعرف ما هي، ولكن الرجل لا يذكر هذه القوانين إلا على سبيل الإجمال، ويشايعه في ذلك الأستاذ كامل نخلة^(١) فيذكر العدد إجمالاً لا تفصيلاً.

ولا نرى قلماً واحداً يفصح عن هذه التفصيلات في كافة المكتبات المسيحية في مصر^(٢).



(١) راجع تاريخ الشاسيوس ص ٨٨، كامل صالح نخلة.

(٢) راجعنا في ذلك على سبيل المثال - مكتبة دار الكتب، ومكتبة كنيسة الفرنسكانى، ومكتبة دير الآباء الدونيمكان بالقاهرة.

وقفه للمراجعة والتقرير

إن حق لنا أن نقف قليلاً لمراجعة العقائد المسيحية فى تلك الفترة الحاسمة، والتي استغرقت أكثر من النصف الأول للقرن الرابع الميلادى، والتي انعقد خلالها عدد ليس بالقليل من المجامع المسيحية لحسم الصراع الدائر بين الموحدين والقائلين بالوهية المسيح كان علينا أن نقرر الأتى:

أولاً: إن عقيدة التوحيد التي حمل لواءها الأريسيون عقيدة قديمة قدم المسيحية، وهي تتلخص ببساطة شديدة فى أن الله تعالى واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وأن المسيح مخلوق غير أزلى صاحبه النعمة الإلهية. وهي عقيدة سهلة واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد، بعكس عقيدة الشرك التي نادى بها المجمع النيقوى، وصاح بها اثناسيوس داخل وخارج المجامع المختلفة.

ثانياً: إن إثناسيوس هذا - والذي (يرجع إليه الفضل كما يقول ديورانت إلى تمسك الكنيسة بعقيدة التثليث وألوهية المسيح)^(١) - هو ثالث ثلاثة قاموا بخراب العقيدة المسيحية الصحيحة بعد بولس وقسطنطين، بل هو رأس الأمر كله، وتذكر عنه المصادر المسيحية بأنه كان بطريكاً لكنيسة الإسكندرية، وكانت الإسكندرية فى يوم ما تتغنى شعابها بفلسفة التثليث القائلة: (بأن العالم يوجد فى قمته ثلاثة أشياءهم الواحد والعقل والنفس)^(٢)، والتي عبر عنها اثناسيوس بالأب والابن والروح القدس، ومعنى هذا أن ذلك الرجل يوم أن نصب نفسه محامياً لألوهية المسيح لم يكن حماسه هذا ناجماً عن حبه للديانة المسيحية، بل عن عشقه لفلسفة الإسكندرية، وهذا هو المفتاح الحقيقى لعقيدة هذا الرجل الذي يدين له أهل الثالوث بالفضل والمنة.

(١) قصة الحضارة ج٤ من المجلد الأول ص ٢٠.

(٢) تاريخ الفلسفة ص ٦٥، د. إبراهيم مدكور.

ثالثاً: إن الموحدين عقب مجمع نيقية ومن قبله لم يكونوا فى قلة، بل كانوا هم الأكثرية الواضحة فى كل المؤتمرات وأصحاب الكلمة الصادقة هى كافة الجلسات؛ ولذلك كانت دائماً، أبداً آذان الجماهير لهم صاغية، وقلوبها لعقيدتهم واعية، وقد تنبه الموحدون إلى هذا الأمر، فتعقبوا اثاسيوس فى كل مكان وبارزوه بالفكر فى كل ميدان، ويوم أن رأوا أن آذان الملوك بدأت تنصت إلى آرائه وتميل قلوبهم إلى عقيدته، زلزلوا الأرض تحت أقدام الملوك وقاموا بصحبة الجماهير الموحدة بمقد عدد وغير من المجمع كانت بدايتها فى صور سنة ٣٢٥م. وفيه رأينا مدى القوة التى يتمتع بها هؤلاء الموحدون، الأمر الذى جعل الإمبراطور يخضع لقراراتهم، وينفى إثاسيوس خارج الدولة المسيحية، ويتولى كرسي كنيسة الإسكندرية جريجوريوس الموحد، (بل يصل الأمر إلى أن كثيراً من الكنائس الأخرى - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - كان عليها رؤساء موحدون يتمسكون بالتوحيد ويحثون عليه، وكلما ولى أثقف غير موحد ثاروا عليه وهموا بقتله)^(١). ثم أكد هؤلاء الموحدون قوتهم فى مجمع إنطاكية ٣٤١م، وسنوا حشداً هائلاً من القوانين التى تحطم عقيدة الشرك، وبعد ذلك تجولوا فى أنحاء أوروبا ففقدوا فى فرنسا ٣٥٧م مجمع سرميوم، والذى كان من أهم قراراته مخالفة الابن للأب فى الجوهر، ولما غفل الملوك فترة عن قراراتهم صاحوا وهاجوا فى كافة أقطار العالم يرددون لا إله إلا الله عيسى رسول الله، وعلى هذه الصيحات استيقظ قسطنطينوس الملك فعقد مجمعاً ريمى وسلوقية، وما هى إلا سويصات معدودة من عقد هذين المجمعين حتى سادات كنائس العالم عقيدة التوحيد بفضل هؤلاء الموحدين.

ولما كان الحق هو الذى يحرك فقد جمعوا حشودهم فى إنطاكية والقسطنطينية ٣٦١م، وقاموا بمظاهرة واسعة النطاق ضد من يقول بالوهية المسيح، ووقتها أعلن الموحدون سبعة عشر قانوناً تخالف بأسرها قانون الإيمان النيقوى. وأمام هذه الانتصارات الزاحفة للموحدين (يقف الملك قسطنطينوس

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٢١، الأستاذ محمد أبو زهرة.

متأملاً في مذهب أريوس وبقية الموحدين ويبحث بنفسه - كما يقول صاحب قصة الحضارة - بنوة المسيح، ويخرج من هذا البحث معلناً اعتناقه لمذهب أريوس^(١)، ولم يقف الرجل عند هذا الحد فحسب، بل يرى أن واجبه الأدبي يحتم عليه أن يمرض هذه الآراء على جميع كنائس العالم المسيحي. ولا شك أن اعتناق هذا الملك لمقيدة أريوس ستؤدي إلى ازدياد قوة الموحدين، وقد كان ذلك حقاً، الأمر الذي جعل ول ديورانت يقول: (إنه أتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاج لها فيه أنها ستؤمن بالتوحيد، وتتخلى عن ألوهية المسيح، وقد كان إثناسيوس في هذه الأيام العصبية يقول عن نفسه إنه يقف وحده في وجه العالم كله)^(٢).

وأرى أن ما ساقه ديورانت يعني أن المسيحية انقطعت في فترة ما عن التوحيد، ويعنى أيضاً أن القول بالوهية المسيح هو الأصل وعقيدة التوحيد هي المعارضة. وحسبنا أن الكاتب مسيحي وهو يريد أن يؤيد ما يعتقد.

وأقول: إن عقيدة التوحيد لم تفب عن قلوب العامة أو الخاصة لحظة واحدة، ودليلنا على ذلك هذه المجامع التي عقدها الموحدون والتي أسلفنا لها ذكراً، والكاتب ذاته لم يُنكر أن إثناسيوس كان يقف وحده في وجه العالم كله، وهو الذي ينادى بالوهية المسيح وحده، فهل من المعقول أن يكون العالم كله قد ذهب فكره وطار عقله وبقي إثناسيوس وحده هو العاقل الوحيد في هذا العالم؟

ولا يسمنى إلا أن أقول: إن عقيدة التوحيد هي الأصل، ولذا بقيت حتى ذلك الحين حية قوية في قلوب الكثيرين، أما ألوهية المسيح فهي المعارضة والدخيلة على عقيدة التوحيد.

(١) انظر قصة الحضارة ج٤ من المجلد الأول ص ٢٠٠، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران.

(٢) قصة الحضارة ج٤ من المجلد الأول ص ٢٠٠.

المبحث الثالث: المجمع القسطنطيني الثاني ٣٨١م وتقرير ألوهية الروح القدس

لقد اسلفنا الذكر بأن مسيحية التثليث لم يكتمل لها البنيان إلى ما بعد منتصف القرن الرابع الميلادي، وما كان ذلك إلا بفضل مقاومة الموحدين للقرار النيقوي الذي يتضمن إلغاء عقيدة التوحيد وتقرير ألوهية المسيح، أما الروح القدس فلم يكن قد اتخذ في شأن ألوهيته قرار آنذاك، وظل الأمر هكذا مجهولاً حتى قويت شوكة مدرسة الإسكندرية مرة أخرى بفضل الأباطرة، فأبرزت على السطح فكرة ألوهية الروح القدس ليكتمل بها بنيان الثالوث في المسيحية.

موقف الموحدين من هذه الفكرة

ولم يكن الموحدون الذين سهرت أعينهم في حراسة العقيدة التوحيدية في غفلة من الأمر، فتحركوا في كل مكان لهذه الفكرة يرحمون، ولذلك المعتقد عن قلوب الناس يُبعدون، (وقام من بينهم رجلٌ يسمى مقدونيوس يجاهر أمام الملأ بأن الروح القدس ليس بإله، ولكنه مخلوق مصنوع، وشاعت مقالته بين الناس، ولم يجدوا فيها نكراً ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية)^(١). ويذكر الأستاذ أحمد شلبي أن مقدونيوس لم يكن وحده في الميدان، بل ناصره في ذلك الكثير من القساوسة، من بينهم (الأسقف أو ساببوس، الذي أعلن إنكار وجود الأقانيم الثلاثة، وقال: إن للثالوث ذاتاً واحدةً وأقنوماً واحداً، وكان ذلك الخلاف داعياً لعقد مجمع جديد بيت في الأمر، فعقد الإمبراطور تشاوديوس الكبير مجمع القسطنطينية ٣٨١م، ولم يحضره إلا مئة وخمسون أسقفاً)^(٢).

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢٢، الأستاذ أبو زهرة.

(٢) المسيحية ص ١٥٢ د. أحمد شلبي.

ويذكر صاحب كتاب «النصرانية والإسلام أن المجمع قرر ما يلي:

١ - (حرمان الأسقف مقدونيوس والأسقف أوسابيوس وإنسقاط كلاً منهما من رتبته.

٢ - تقرير ألوهية الروح القدس. وبذلك اكتمل بنيان الثالوث في نظرهم وصار الأب ويعنون به الله والابن ويعنون به المسيح، ثم الروح القدس وكل من هذه الثلاثة أقتوم (أى شخصى) إليه^(١).

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو:

من الذى قرر ألوهية الروح القدس؟

إن ابن البطريرق - وهو المؤرخ المسيحي المعروف لدى مؤرخي المسيحية - هو الذى نصب نفسه للإجابة على هذا السؤال. فنذكر أن ثيموثاوس - بطريرق الإسكندرية، والذى لم يكن له فضل الصدارة في رئاسة المجمع، بل كان له فضل القيادة في القول والرأى العام؛ بسبب مساندة السلطة الحاكمة آنذاك - هو الذى قرر ألوهية المسيح حين قال: (ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حى، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن)^(٢).

نظرة عاجلة إلى هذه الأقوال

وينظرة عاجلة إلى هذه الأقوال نراها عبارة عن ضرب من الهلوسة الفكرية التى لا تصل بالعقل إلى منطوق سديد، فضلاً عن عقيدة صحيحة، وما كان ذلك كذلك إلا بسبب أن المقدمة التى ساقها بطريرك الإسكندرية والتى تقول بأن روح القدس هو روح الله مقدمة ساقطة خاطئة لا أساس لها من الصحة، ولا

(١) النصرانية والإسلام ص ٤٥، الأستاذ محمد عزت الطهطاوى.

(٢) تاريخ ابن البطريرق ١ / ١٤٥.

يستطيع هو نفسه أن يقيم عليها دليلاً؛ لأن الأمر متعلق بذات الله تعالى، والإنسان حتى يوم الناس هذا لم ولن يستطيع أن يصل إلى معرفة روحه التي بين جنبيه، فكيف استطاع ذلك الرجل أن يرتقى إلى ذات الله تعالى، ويكشف لنا النقاب عن كنهها ويحدد لنا حقيقتها؟ إن هذا إلا إهك مفترى.

(والحقيقة السائدة والصحيحة هي أن روح القدس خلقه الله واتخذهُ ليكون رسولاً بينه وبين من يريد أن يلقي عليه وحيّاً من خلقه أو امرأً كونياً^(١)). ولكن المجمع لم يكن ليفكر ولم يجتمع ليناقدش، بل ليتخذ قراراً مبيتاً بليل، فيه يعلن الوهية الروح القدس، ولعن كل موحدٍ يقول بغير ذلك، وسرعان ما اتخذ القرار.

ويقول ابن البطريرق في بيان قرار المجتمعيين: (زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً - الذين اجتمعوا في نيقية - الإيمان بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب... وأثبتوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص)^(٢).

ومن كلام ابن البطريرق هذا نعلم أن العقيدة المسيحية التي بنيت على الثالوث هي من صنع البشر. والسماء منها براء، وإلا فما معنى قول ذلك الكاتب بأن هؤلاء زادوا في الأمانة؟ إن الزيادة تعنى أن هذه الأمانة التي تشيّد عليها عقيدتهم كانت ناقصة، ثم قدر لها أن تكتمل على يد هؤلاء المجتمعيين في القسطنطينية ٣٨١م، وإذا كان الأمر كذلك فما هو حكم من وضع أساس هذه الأمانة وهم الثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً المجتمعون في نيقية ٣٢٥م؟ إن بطريك الإسكندرية هو الذي يكشف النقاب عن هؤلاء وعقيدتهم في قوله الذي نقله ابن البطريرق والذي جاء فيه: (إن من لا يؤمن بكون روح القدس إلهاً يستحق اللعن، ويحكم عليه بالكفر)^(٣). وهو بهذا - في غفلة من أمره - يبين أن هؤلاء كفارٌ يستحقون اللعن والطرْد.

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢٢.

(٢) ابن البطريرق ١/١٤٦.

(٣) راجع المرجع السابق ١/١٤٥.

وأقول إذا كان هؤلاء كفاراً وهم الذين وضعوا لكم اللبنة الأولى للثالوث،
والتي تقول بأن المسيح إله فمعنى ذلك أن من يقتدى بهم ويسلم بصحة أقوالهم
هو أيضاً فى عداد الكافرين، وبذا تكون العقيدة الثالوثية التي أرسيت قواعدها
سنة ٣٢٥م فى نيقية، وتم بناؤها عام ٣٨١ فى القسطنطينية كانت من بدايتها
إلى نهايتها تحت رعاية الكفار، والمسيح منهم براء.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن أمامنا هو: ما هى أدلة القوم على الوهية
المسيح والروح القدس؟



المبحث الرابع: ما هي أدلة القوم على ألوهية المسيح والروح القدس؟

يرى بعض المسيحيين أن الذين تم على أيديهم إرساء عقيدة التثليث في القرن الرابع الميلادي كانت لديهم أدلة كافية شافية على ألوهية المسيح والروح القدس سواء من الكتاب المقدس أم من واقع كلام المسيح ومعجزاته ونحن هنا سنذكر بعضها والرد عليها.

أولاً: ألوهية المسيح والأدلة عليها

١ - ما ذكره متى في إنجيله بأن رئيس الكهنة سألت السيد المسيح قائلاً: (أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله الحي؟ قال له يسوع: أنت قلت)^(١).

٢ - ما ذكره يوحنا أيضاً في إنجيله: (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان، والكلمة صار جسداً، وحل بيننا، ورأيناه مجده مجدداً)^(٢).

٣ - ميلاد المسيح بغير أب دليلاً عندهم أيضاً على ألوهيته، يقول صاحب كتاب «المسيحية في الإسلام»: (أخذت المسيحية منذ بداتها الميلاد العجيب للمسيح برهاناً على لاهوته)^(٣).

٤ - معجزات السيد المسيح التي صاحبته في حياته يقول عنها صاحب كتاب «هل تجسد الله؟»: (إنها هي برهان قاطع على ألوهيته)^(٤). تلك هي أهم

(١) إنجيل متى إصحاح ٢٦/٦٤، (٢) إنجيل يوحنا إصحاح ١/١، ٢، ١٤.

(٣) المسيحية في الإسلام ص ١٤٩ إبراهيم لوقا.

(٤) كتاب هل تجسد الله ص ٤٠ الكنيسة الإنجيلية بقصر الدويارة جاردن سيتي.

الأدلة على أساسها قرر المجتمعون في نيقية سنة ٣٢٥م ألوهية المسيح، ونبد
عقيدة التوحيد.

نقد ومناقشة هذه الأدلة

أولاً: بالنسبة لما رواه متى أو يوحنا لا يمكن أن يساق كدليل على ألوهية
المسيح، خاصة إذا علمنا أن هذه الأناجيل هي من صنع متى أو يوحنا أو من
صنع الأجيال المتعاقبة ثم نسبت إليهم، ولا يستطيع النصارى أن يقيموا دليلاً
واحداً على أن الصلة بين هذه الأناجيل وإنجيل عيسى، أو بين هذه الأناجيل
وأصحابها لم تكن مقطوعة في يوم ما. وبناء عليه فالاعتماد على الأناجيل
لإثبات ألوهية المسيح عمل بعيد عن الصواب، ويؤكد ذلك ما ذكره الكاتب
الكبير كالزوف Kalthoff الذى نقل إلينا الدكتور أحمد شلبي قوله: (بأن صورة
المسيح بكل معالمها وملامحها أعدت قبل أن يكتب سطر واحد من الأناجيل، وأن
هذه الصورة هي من إنتاج الفلسفة العقلية (الميتافيزيقية) التى كانت إذ ذاك
مسيطرة، وكانت آراؤها شائعة، وتكاد تكون عامة أو عالمية)^(١).

ثانياً: وبالنسبة إلى النص الذى ساقه يوحنا فى البدء كان الكلمة... إلخ
فإن دعاء الثالث يفهمون منه أن الكلمة هي الله، وأن الله هو الكلمة، وأن هذه
الكلمة، تجسدت وكانت المسيح، ومن ثم فالمسيح عندهم هو الله.

مناقشة النص ذاته

ومفهوم هذا النص لا يُسلم به على هذا الوجه إلا كل إنسان قد اختل
عقله، فهناك مثلاً:

أ - كلمة (فى البدء) أى بدء تعنى؟ ما حده الزمنى؟ وإذا كان له حد زمنى
فهل يكون له متعلق بالله؟ وهل ذلك يليق بكمال الله الذى لا يحده زمان
أو مكان.

(١) المسيحية ص ١٤٧، د. أحمد شلبي.

ب - (وكان الكلمة الله). والكلمة كان في البدء، فهل يعقل عاقل أن لله بدء؟ وماذا كان قبل البدء. إن الله تعالى كما يعرفه كل الموحدين أول بلا ابتداء.

ج - (والكلمة كان عند الله) ماذا تعنى كلمة العندية هنا؟ وكيف يتفق أن تكون الكلمة بدءاً يعنى الأولوية المطلقة ثم توصف بأنها كانت عند الله؟ ثم كيف ترتفع هذه العندية ويكون الكلمة هو الله لا عند الله؟

ومع هذه التناقضات الواضحة لذلك النص اليوحانى والتي بدورها تحطم قرارات المجمع النيقوى فإن هؤلاء يتمسكون بأن المسيح هو الكلمة، وأن الكلمة قد تجسدت ولتنظر هذه القضية أيضاً:

المسيح الكلمة وقضية التجسد

(إن الكلمة التي تعنيها المسيحية هنا ليست من كلمات الله التي خاطب بها انبياءه أو خلق بها مخلوقاته بل هي - كما يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب - فكر الله أو عقله، فالمسيح هو منتج هذه الكلمة، بل هو الكلمة ذاتها حل في جسد بشرى، اتخذ من عذراء طاهرة وتجسد فيها)^(١). والسؤال الآن لماذا دعى المسيح (كلمة الله)؟ يقول القسيس منصور - صاحب رسالة التثليث والتوحيد - مجيباً: (وقد دعى المسيح كلمة الله استعارةً وتشبيهاً بالكلمة التي نتفوه بها وقت التكلم والكلمة هي:

أولاً: إعلان المتكلم (أى إظهارها)؛ لأنها ترجمان أفكاره وتبيان مقاصده ودليل على سجاياه، فكذلك المسيح هم إعلان الله للناس وبدونه لا نعرفه.

وثانياً: هي قوة المتكلم، فكذلك المسيح هو قوة الله الذي به خلق العالم.

وثالثاً: الكلمة هي ذات وجود دائم ملازم للماقل الناطق فكذلك المسيح موجود أزلياً مع الأب، لذلك لقب بكلمة الله)^(٢).

(١) المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل ص١٤٦، الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

(٢) رسالة التثليث والتوحيد ص١٧٤.

وأقول للقس يسى منصور صاحب هذه الأقوال إن سياقك لا أساس له من الصحة ويوم أن نقارن بين كلام الله وكلام البشر فاعلم أن ذلك تجديف في حقه تعالى؛ لأنه يؤدي إلى الخلط بين المخلوق والخالق، وإذا كنت تقول بأن الكلمة هي إعلان عن المتكلم وترجمة لفكره فاعلم أن هذه الكلمة عبارة عن كيان منفصل عن ذات المتكلم، فالمتكلم شيء والكلمة شيء آخر، وواقع الحال يشهد بصحة ما تقول وفساد ما تقول. وقولك بأن الكلمة هي الذات بدليل أن من ينفخ في المصباح ليطفئه لا يقال عنه بأن نفخته هذه هي ذاته حتى وإن كانت هذه النفخة هي القوة التي نفذت بها إرادته، والخطأ الظاهر قول ذلك القس بأن الكلمة هي ذات وجود دائم ملازم للماقل الناطق؛ لأن ذلك لا دليل عليه، والصواب يتمثل في كون الكلمة عمل متخلق من إرادة الإنسان يستدعيها فتستجيب له، وليست ذاتاً حالة فيه ومتلبسة به، وإلا لحصل كون وجود ذاتين في ذات واحدة، وبناء على ما سبق يتبين لنا أن كلمة الله لست هي الله.

هذا والقرآن الكريم حين ذكر كون المسيح كلمة الله لم يقصد مقصد النصراني، وإنما كونه خلق بكلمة الله كسائر المخلوقات، وقد تعرض الشيخ محمد رشيد رضا إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَتِهِ﴾ (آل عمران: ١٥)، قائلًا: (بأن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه وهي كقول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرني بها، بمعنى أخبرني خبراً فرحت به)^(١). ويقول فضيلة الشيخ الشعراوي: (إن البشارة كانت بالكلمة لأن الله تعالى يزاوِل سلطانه في الملك بالكلمة؛ لا بالعلاج)^(٢). وبناء على ذلك فالكلمة قد تطلق على بشارة المسيح لمریم بالميلاد، وقد تطلق على المسيح الكلمة هو الله. وأصحاب المسيحية الأولى الذين وجدوا قبل مجمع نيقية ومنهم القديس إثناسيوس المولود سنة ٢٩٧م كانوا يتصورون الكلمة بأنها مخلوقة لا خالقة، يقول هذا القديس: (وعندئذ يمكننا أن ندرك أن تجديد الخليقة كان من عمل نفس الكلمة التي خلقها الله

(١) انظر تفسير المنار ٢/ ٢٥٠ الشيخ محمد رشيد رضا.

(٢) مريم والمسيح ص ٣٦، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوي.

في البداية^(١)، وصريحُ هذا النص ينطق بأن الكلمة مخلوقة لله كسائر كلماته،
جل في علاه.

ومع ذلك قالوا بأنها هي الله متجسد في المسيح، ولنتناقش الآن.

قضية التجسد

ونسأل: لماذا تجسدت هذه الكلمة بالذات في شخص المسيح وما هي غاية هذا التجسد؟ يحاول العقل المسيحي الذي أله المسيح الإجابة على هذا السؤال قائلاً: (لم تكن غاية الله من التجسد أن يوفر الفداء لبنى البشر فحسب، بل ليعلن عن ذاته للبشر بصورة أكثر كمالاً)^(٢) ويقول القس يسي منصور: (والمسيح هو إعلان الله للناس وبدونه لا نعرفه)^(٣). وبذلك نعلم أن السبب الأساسي الذي به تجسدت الكلمة هو إعلان الله تعالى عن ذاته، أما الفاية الكبرى فهي الفداء من الخطيئة التي وقع فيها آدم عليه السلام، وهنا يقفز سؤال:

لماذا يعلن الله عن ذاته؟

هل لأنه كان مجهولاً في يوم ما؟ وهل من المعقول أن تصير الخلائق قروناً من الزمان طويلة لا تدرى من خالقها ورازقها؟ لا تدرى من يحرك الكون ويسير السحاب ويسخر الأنهار؟ وإذا كان الأمر كما تدعى المسيحية صحيحاً فمن إذن عرف آدم ونوحاً وإبراهيم وداود وسليمان وأيوب وبقية الأنبياء بخالقهم؟ وإذا كانت المسيحية تقول بأن آدم عصى ربه ولم يتب فإن ذلك يعني أن ربه كان إليه معلناً ومعروفاً، وإلا فليخبرنا هؤلاء أي رب هذا الذي عصاه آدم؟ وأي إله أوحى إلى موسى بالتوراة وأسفارها التي توجد بين ظرائفهم؟ حتى وإن سلمنا جدلاً بأن الله لم يعلن إلا حينما جاء المسيح فكم كانت المدة التي استعلن فيها؟ إن أصحاب كتاب «هل تجسد الله» يقولون: (ولمدة ثلاث وثلاثين سنة استمر ذلك

(١) تجسد الكلمة من ١٨ للقدس إيسابوس الكبير، تريب مرفس داود، الكنيسة الأسقفية.

(٢) هل تجسد الله؟ ص ٥٦ أصدرته الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة جاردن سيتي، مصر ١٩٨٧م.

(٣) رسالة التثليث والتوحيد ص ١٧٤، التمسيس منصور.

الوصول بين الله والطبيعة البشرية بصورة بدت فيها الطبيعة البشرية واضحة جلية^(١). ومعنى ذلك أن فترة الإعلان لم تستغرق سوى ثلاث وثلاثين سنة هي مدة حياة المسيح، وبعد ذلك عاد الأمر كما كان، وغاب الإله عن البشر، ونحن نتساءل أيضاً: ما حكم من لم يروا الإله منذ ذلك الحين إلى يوم الناس هذا؟ إنهم بلا شك قوم لا يعرفون لهم خالقاً، ومن ثمّ فلا يصح أن يدعوا أن هناك إلهاً، وهذا الحكم صادر عليهم من أصحاب قضية التجسد وليس منا. هؤلاء القوم الذين كان عليهم إن لم ينتبهوا إلى هذه الأمور، أن ينتبهوا إلى تلك السطور التي وضعت في كتبهم، وهي بدورها تمنع رؤية الله متجسداً عن البشر. وأين؟ وفي إنجيل يوحنا الذي أثار قضية التجسد جاء فيه: (الله لم يره أحد قط... والابن الوحيد الذي في حضن الأب هو خير)^(٢). يعني هو رسول.

والإسلام يبين أن الجريمة الكبرى هي رؤية الله جهرة، قال تعالى لرسوله محمد - ﷺ - عن بنى إسرائيل: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾^(٣). ويوم أن طلب نبي الله موسى رؤيته تعالى منعه وقال: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنَيَّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤). وما كان ذلك كذلك إلا لأن هذا الإنسان الضعيف لا يستطيع بتكوينه البشرية تحمل الأنوار الإلهية.

إن العلم الحديث يثبت أمامنا أن الأجهزة الكهربائية - كالتلفاز مثلاً - إذا ما زادت عليه قوة التيار الكهربائي وصل إلى درجة الاحتراق؛ لأنه معد لقوة معينة على قدر حجمه، وهو مصنوع بيد الإنسان الذي لم يستطيع أن يقاوم بعينه ضوء الشمس، كيف به يقاوم ضوء الله خالق الشمس؟ وكيف به يستطيع أن يرى الله جهرة؟ إن العقلية المسيحية التي تؤمن بتجسد الإله لا أراها إلا أحط عقلية عرفتها البشرية، إن عقلية الرجل العربي البدوي الصحراوي التي

(١) هل تجسد الله؟ ص ٥٩.

(٢) يوحنا ١ / ١٨.

(٣) سورة النساء آية: ١٥٢.

(٤) الأعراف آية: ١٤٢.

نشأت بين الرمال والأحجار لا بين الكنائس المزخرفة والفرش المبسوطة كانت أرقى درجة من العقليّة المسيحية، لأن العريى كان لا يتصور أن يبعث الله بشراً رسولاً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(١)، وهؤلاء يتصورون أن الإله ذاته أكل الطعام ومشى فى الأسواق وهدى البشرية من نفسه، وتلك أيضاً قضية كاذبة.

قضية الفداء قضية كاذبة

لأن الله تعالى تاب على آدم - ﷺ - قال عز شأنه: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). ومن المغالطة الواضحة القول بأن الله لم يتب على آدم؛ لأنه هو التواب الرحيم، ومن كان هذا وصفه فإن باب رحمته لا يفلق أبداً، ولكن القوم أصروا على الصاق الخطيئة بأدم - ﷺ - وغلق باب التوبة أمامه ووصل بهم الأمر أن يجعلوا حبل الخطيئة معلقاً فى أعناق ذريته إلى مجيء المسيح - ﷺ - الإله ذاته المتجسد عندهم فيصلب من أجل غفران هذه الخطيئة وفداء البشرية، وسجلوا ذلك فى كتبهم المحرفة ظانين أنهم على حق فى أقوالهم، وأن هذا شرف لإلههم، علماً بأن هذه الحادثة إن صحت فهى وصمة عار تلحق بهم وبإلههم؛ لأنه لا يتصور كون إله خالق قادر يُقْتَلُ وَيُصَلَّبُ، وكتبهم ذاتها تعلن بأن كل من صلب على خشبة فهو ملعون.

والقرآن الكريم قد ناقش القضية ويُنَبِّه أن هناك حادث صلب قد وقع، ولكن ليس للمسيح والمسيح رُفِعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. قال جلا فى علاه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾^(٣). وإذا كان حادث الصلب فى حد ذاته أسطورة فإن ما يترتب عليه أسطورة أخرى، تلك هى أسطورة (ابن الله الفادى) أو المخلص لأبناء لأدم من خطيئة أبيهم، هذه المقولة غير المعقولة لا تصلح أساساً للتعامل

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٧.

(١) سورة الفرقان الآية: ٧.

(٣) سورة النساء الآية: ١٥٧.

البشرى، إذ إنها تنفى (المسؤولية الشخصية)، فكيف ارتضاها الله سبحانه لكى تكون سنته فى التعامل مع البشر؟ وإذا افترضنا أن واحداً من البشر ذهب إلى المحكمة متلبساً بجريمة قتل، يده ملوثة بالدم، وثبتت إدانته من كل وجه، أيق له أو لحاميه أن يدافع قائلاً: أنا قتلت ولكن زيدا من الناس سيتحمل عنى هذه المسئولية فحاكموه هو؟ فإذا كان ذلك لا يجوز فى عرف ومنطق البشر فكيف به يصح أمام عدالة الله القائل: ﴿الْأُتْرُوقُ وَالزَّرُّ وَالزَّرُّ وَالزَّرُّ أَخْرَى (٢٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١). والتوراة التى توجد بين يدى القوم تؤكد ذلك قائلة: (لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطئنه يقتل). وبناء عليه فقضية فداء المسيح - المدعو لها سنة ٣٢٥م - للبشرية قضية كاذبة خاطئة لا يرضى بها الواقع ولا تسلم بها الأديان الصحيحة.

ثالثاً: وبالنسبة لميلاد المسيح فقد عقدنا له فصلاً فى صدر الرسالة، وبيننا أنه لا يصلح أن يتخذ كدليل على الوهية المسيح.

رابعاً: أما بالنسبة لمعجزات المسيح التى صاحبت دعوته فتحن فى الإسلام لا ننكرها؛ لأن المعجزة هى: (الأمر الخارق للعادة الذى قصد به إظهار صدق مدعى النبوة)^(٢). والمسيح النبى الرسول كانت له كما يقول الشهرستانى: (آيات ظاهرة وبيانات باهرة)^(٣) جاء ذكر بعضها على لسانه فى سورة آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٤). ولم تكن هذه المعجزات بمثابة التدليل على الوهية، ولكنها بالتحقيق لصدق رسالته.

(١) سورة النجم الآية ٢٨.

(٢) محاضرات فى التوحيد ص٩، للشيخ صالح شرف.

(٣) المل والنحل ص٢٩ للشهرستانى.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٤٩.

ولقد نظر بعض القساوسة - كما ذكر ابن الخطيب - إلى هذه الآية الكريمة (وقالوا: إنها تدل على أن المسيح كان يعمل أعمال الله تماماً، ولذلك فهو الله)^(١)، ونسى هؤلاء أن أعمال الله في الخلق تختلف عن أعمال المسيح، فالله تعالى حين يخلق يخلق من عدم، والمسيح يوم أن خلق خلق من الطين، والطين مادة موجودة أمام عينيه، فلو كان هو الله لخلق الطين أولاً، ومنه خلق الطير، وساعة أن نفخ الروح فيما صور قال: إن ذلك بإذن الله لا بإذني. وإنجيل يوحنا أكد ذلك على لسان المسيح القائل: (أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً)^(٢)، فهل من المعقول أن ينسب الإله إلى نفسه عدم القدرة؟ فمن إذن يملك هذه القدرة إذا كان رب العالمين لا يملكها؟ نبئونا بعلم إن كنتم صادقين؟

أما مسألتنا شفاء المرضى وإحياء الموتى فإنهما أيضاً لا يدلان على الوهية المسيح، وإذا كان لوقا ذكر (أن هناك صبياً قد تمصصه الشيطان فانتهم يسوع الروح النجس وشفى الصبي وسلّمه إلى أمه فهبت الجميع من عظمة الله)^(٣)، وإذا كان لوقا قد ذكر أيضاً (أن هناك عشرات المرضى شفوا من البرص على يده مرة واحدة)^(٤) فإن التوراة أخبرت أن نبي الله يشع برئ على يديه نعمان السرياني الذي كان مريضاً بالبرص، كما أبصر عيني صبي أعمى)^(٥)، وإذا كان يوحنا أخبر (أن المسيح أحيا العاذر صديقه بعد أربعة أيام من موته)^(٦)، ولذلك فهو إله، فإن سفر الملوك الأول يروي أن نبي الله اليا (إلياس) أحيا ابن الأرملة ولم تقل له أم الصبي الآن علمت أنك الله، بل قالت: (الوقت علمت أنك رجل الله، وأن كلام الرب في فمك حق)^(٧)، أما نبي الله حزقيال فقد جاء في سفره أنه (أحيا جيشاً عظيماً جداً)^(٨)، فلو كان كل من شفى مريضاً أو أحيا ميتاً من

(١) راجع كتاب هذا هو الحق رداً على مقتريات كاهن كنيسة ص ٧٧، لابن الخطيب.

(٢) يوحنا ٣٠/٥. (٣) انظر إنجيل لوقا ٩/٢٧ - ٤٣.

(٤) انظر إنجيل لوقا إصحاح ١١/١٧ - ١٦.

(٥) راجع سفر الملوك الإصحاح/ الخامس والسادس.

(٦) راجع يوحنا إصحاح/ ١١. (٧) سفر الملوك الأول إصحاح ١٧/٢٤.

(٨) انظر حزقيال إصحاح ١/٢٧ - ١٠.

الأنبياء إلهاً لكثير في الكون تعدد الآلهة، ولما استطاع العقل الإنساني أن يقر لواحد منهم بالوحدانية. وإذا كان عبّاد المسيح قد فتتوا بمعجزات المسيح ومن أجلها دعوة إلهاً فلماذا لم يفتتوا بإبراهيم جد المسيح يوم أن قطع الطير ودعاه فجاءه سعيماً؟ قال عز شانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَن قَال بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخَذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِنَّكَ تُمْ أَجْعَلُ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جِزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١). ولم لم يفتتوا بموسى الذى أخبر عنه فى سفر الخروج: (بأنه أخذ من النهر وسكب على اليابسة فصير الماء الذى أخذه من النهر على اليابسة دماً) (٢)؟ وهل كانت أعينهم فى غطاء عن يد موسى الذى قال له الرب: (أدخل يده، فر عبه، ثم أخرجها وإذا يده برصاء كالثلج، ثم قال له: رد يدك إلى عبك، فرد يده إلى عبه وإذا هى قد عادت مثل جسده) (٣)؟ لماذا افتتن هذا بالمسيح ومعجزاته ولم يفتتوا بموسى كليم الله ورسوله؟ الذى أمره رب العالمين أن يلقي عصاه التى هى يده: ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَىٰ ۗ﴾ (٤) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَمِيَّةٌ تَسْعَىٰ (٥) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (٦) العصى الجامدة حولت بقدره رب العالمين إلى حية تسعى أمام أعين الناظرين، ولم يقل أحدغ أن موسى إله من دون الله، علماً بأن الأمر لا يقل فى روعته عن إحياء الميت، فلماذا يستحق المسيح الألوهية دون موسى؟ إن صاحب «كتاب الحق» هو كاهن مسيحي ناقشه ابن الخطيب فى كتابه «هذا هو الحق» وأدحض حججه أراد أن يبرهن على ألوهية المسيح بطريقة أخرى فقال: (إن المسيح يعلم كل شىء، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (٧) (ال عمران: ٤٩)، ثم قال معجباً طرباً: (لك المجد أيها المسيح إلهنا الذى كل شىء عريان ومكشوف لديك) (٨). وبذلك ظن ذلك الرجل المخمور أن المسيح استحق الألوهية؛ لأنه ينبئ قومه بما يأكلون ويدخرون

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٠. (٢) سفر الخروج ٧/٢٠.

(٣) سفر الخروج ٤/٧٦٦. (٤) سورة طه الآيات: ١٩ - ٢١.

(٥) كتاب الحق ص ١٢٦ تقرأ عن كتاب «هذا هو الحق» ص ٨٤ لابن الخطيب.

ونسى أن يوسف - ﷺ - كانت لديه تلك الخاصة تماماً حين قال لصاحبيه في السجن: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١)، ولم نر أحداً يعبد يوسف من دون الله، ولعل رجال التزوير المفنطيسى، ورجال الفلك فى زماننا يستحقون العبادة أيضاً؛ لأنه يمكنهم أن يصلوا إلى كثير من هذه الأشياء، وليس هذا طعناً فى المعجزات أو انتقاصاً من شأنها، ولكنه لبيان أن كل خارق للعادة إذا استوجب التقدير فلا يستوجب العبادة، حتى وإن ارتفعت هذه المعجزات إلى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير وكشف بعض الغيبات، مادام القائم مستعنياً بالله، وإذا أراد النصرارى إلزام الناس بتصديق معتقدهم فى المسيح فإننا نلزمهم بأن يأتوا إلينا بهذه المعجزات أمام أعيننا لنراها؛ لأنها معجزات حسية مرئية، ولكنهم لا يستطيعون؛ لأن المعجزة فى الأزمنة السابقة للإسلام كانت تنتهى بإنهاء زمانها، أما الإسلام فمعجزته باقية بقاء الأزمنة وهى تتمثل فى القرآن الكريم، ولا تتمثل فى نبع الماء من بين أصابع النبى - ﷺ - ولا فى حنين الجذع ولا فى تسبيح الحصى.. إلخ؛ لأن هذه معجزات موقوتة بزمانها ونحن نصدقها، ولا نلزم الناس جميعاً بالقرآن الكريم، ولولا أنه تحدث عن بعض معجزات المسيح الرسول ما صدقنا إنجيلاً واحداً؛ لأنها أناجيل تحوم حولها الشكوك من كل جانب، فضلاً عن أن المعجزات ذاتها معجزات وقتية، وبذلك نكون قد بيننا أن المسيح الرسول لم يكن إلهاً فى يوم ما.

ثانياً: أدلة القوم على ألوهية الروح القدس

لقد حاول أصحاب الثالث أن يقيموا أدلة على ألوهية الروح القدس المزعومة (سنة ٢٨١م) من كتبهم، ظانين أن هذه الفكرة أيضاً لها جذور فى اليهودية، ولذلك أكدت عليها المسيحية، يقول حبيب سعيد: (لعل فكرة ألوهية الروح القدس من أبرع الفكر التى اقتبسها علم اللاهوت المسيحى عن العهد القديم.. ثم يسوق قول المرنم: (أين أذهب من روحك ومن وجهك، أين أهرب).

(١) سورة يوسف الآية ٢٧.

(مزموذ ١٣٩ / ٧). ثم يقول إن هذه الآية تؤكد ألوهية الروح القدس^(١). وينهض القديس إمبروسيوس إلى العهد الجديد فيسوق قول الرسل: (لأنه قد سر الروح القدس ونحن). (أعمال الرسل ١٥/٢٨). ثم يقول: وعندما يقول أى الرسل (قدس) فهم يشيرون ليس فقط إلى فاعل النعمة، بل أيضاً إلى مصدر تنفيذ ما أوصى به، وما قرأنا عن الروح القدس أنه سر، كذلك قيل عن الله؛ لأننا نقرأ عن الله أنه سر، فالروح القدس هو الله الذى له مسرة خاصة وسيادة على قوته^(٢).

نقد ومناقشة هذه الأدلة

إن ما ذكره حبيب سعيد لا يدل من قريب أو بعيد على أن العهد القديم فيه كلمة واحدة تدل على ألوهية الروح القدس، ويوم أن تعرّض العهد القديم للروح القدس أعطاه معانٍ مختلفة من أهمها: أنه سفير الإله وحامل كلام الله إلى الرسل والأنبياء، يقول سفر الخروج:

أ - (ها أنا مرسلٌ ملاكاً أمام وجهك ليحفظك فى الطريق، وليجىء بك إلى المكان الذى أعددت، اختر زمنه واسمع لصوته، ولا تتمرد عليه؛ لأنه لا يُفصح عن ذنوبكم؛ لأن اسمى فيه)^(٣). والعرف الدولي فى زماننا هذا يتفق على أن السفير هو ممثل الدولة ولرئيسها بالذات، وعلى ذلك فإن أى مساس بالسفير يعنى المساس برئيس الدولة. (فتعبيرات اسمى فيه) يعنى أنه يقوم مقام السفير بين الله سبحانه وتعالى، وبين خلقه ولم يكن إلهاً.

ب - وجاء أيضاً فى سفر صموئيل الأول: أن الله غضب من شاول بفارقه روح الرب إذ يقول: (وذهب روح الرب من عند شاول ويغته روح ردىء من قبل الرب)^(٤). وهنا نجد أن روح القدس يحل على الإنسان المطهر النقى، أما إذا أغضب ذلك الإنسان ربه فإن الروح القدس يفارقه ويصيبه روح شرير.

(١) الروح القدس فى المصر الحديث ص ٢٢ حبيب سعيد.

(٢) الروح القدس الكتاب الثانى ص ٥٦، للقديس إمبروسيوس، تعريب د. جورج بباوى.

(٣) سفر الخروج ٢٣ / ٢٠ - ٢١

(٤) صموئيل الأول ص ١٤/١٦٥.

من هذا نرى داود يصلى داعياً ربه قائلاً: (قلباً تقياً اخلق فى يا الله، وروحاً مستقيماً جدد فى داخلى. لا تطرحنى من قدام وجهك، وروحك القدس لا تتزعه منى)^(١). وهذا كله لا يعنى أن الروح القدس إلهاً، بل يعنى أنه خلق الله ينفذ أوامر خالقه ويتنزل بأمر الله على ما يشاء من عباده.

ج - وإذا نظرنا إلى ما ساقه القديس إبيروسوس من العهد الجديد فإنه يعنى به أن الروح القدس والمسيح شيء واحد لا اختلاف بينهم، ومن ثم فالروح القدس إلهاً، وهذا خطأ فاحش قامت عليه العقيدة المسيحية التى تؤمن بالثالوث، وكتبهم تشهد بأن الروح القدس شخصية مختلفة عن المسيح وخالقه، فهذا هو إنجيل لوقا يقول: (لما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً، وإذا كان يصلى انفتحت السماء، ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة)^(٢).

وإذا كنا قد علمنا فى السطور السابقة أن الروح القدس كان مع أنبياء العهد القديم فإننا نراه هنا مع المسيح عند المعمودية، وهو معه فى التجربة، فالروح القدس ليس ثابتاً فى أحد، ولكنه يأتى للأنبياء حسب متطلبات الأحوال، وهذا يعنى أن ذات المسيح شيء وذات الروح القدس شيء آخر، يؤكد ذلك ما ذكره مرقس على لسان المسيح: (الحق أقول لكم إن جميع الخطايا تغفر لبني البشر والتجديف التى يجدهونها، ولكن من جدد على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد)^(٣). كل ذلك يؤكد أن الروح القدس شخصية تختلف عن المسيح، ولم تصل فى يوم ما إلى درجة كونها إلهاً. والآن نبين:

المفهوم الإسلامى للروح القدس

لقد جاءت عبارة الروح القدس فى القرآن الكريم، وقصد بها جبريل - عليه السلام -، قال جل شأنه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾^(٤). وهذا

(١) مزمو ١٠/٥١، ١١.

(٢) إنجيل لوقا ٣/٢١ - ٢٢.

(٣) إنجيل مرقس ٣/٢٨ - ٢٩.

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٢.

يؤيد رسالة عيسى - ﷺ -، وجاء أيضاً ما يؤيد رسالة محمد - ﷺ - قال عز شأنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١). وكلها تفسر بجبريل - ﷺ - (قال ابن عباس - % - : وتأيبده بروح القدس وهو جبريل - ﷺ - ليدلهم على صدقه فيما جاءهم به، وقال محمد بن إسحاق: ... إن نقرأ من اليهود سألوا الرسول ﷺ، قالوا: أخبرنا عن الروح، فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتيني؟ قالوا: نعم»^(٢). والتوراة آيدت كون القدس جبرائيل ﷺ، يقول سفر زكريا: (الوحى الذى ارسله الله بروحه عن يد الأنبياء)^(٣). أى بواسطة روحه وهو جبريل ﷺ.

مما سبق يتبين لنا أن الإسلام لا يعنى بالروح القدس إلا جبريل ولم يكن ذلك الروح الهاً، ولو كان الهاً لكان له منهج وشرع معلوم به أوامر ونواهي، فهل يخبرنا أهل الثالوث عن المنهج الذى أمر به الروح القدس الإله عندهم كافة خلائجه من البشر ليسيروا عليه؟ أم أنه إله بدون منهج خلق الخلق وتركهم فى الظلمات يتخبطون؟ تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً.

(١) سورة النحل آية: ١٠٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير لسورة البقرة الآية ٢٥٢، وسورة النحل الآية ١٠٢.

(٣) سفر زكريا ١٢/٧.

الفرق النصرانية وأثرها فى تحريف النصرانية

تمهيد:

لقد بدأت العوامل المؤثرة فى ظهور الفرق فى النصرانية منذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وكان كل منها يرى فى العقيدة رأياً يخالف الأخرى، وكانت شخصية المسيح نفسها هى موضوع الخلاف ومحوره.

فقد ظل الكثيرون بمد رفع عيسى - ﷺ - على إيمانهم بطبيعة المسيح كما عرفوه من قبل بشراً رسولاً، لم يرفعوه عن هذا المقام، وكان من هؤلاء «الجماعة الأولى» التى تحدثنا عنها، وأتباع آريوس وغيره من الداعين إلى التوحيد.

ويذكر بعض الباحثين أنه قد وجد فى حياة المسيح من حاول أن يرفعه عن هذا المقام - مقام الرسالة البشرية -، بالنظر إلى الخوارق والمعجزات التى جاء بها.

وكان المسيح - ﷺ - سأوره الشك فى بعض الأتباع من غير الحواريين فى فهمهم لحقيقته وحقيقة دعوته فقال لهم يوماً: «وأنتم من تعرفون أنى هو؟ أجاب بطرس: أنت المسيح»^(١).

وقد ورد فى أعمال الرسل ما يؤكد وجود هذه النزعة المغالية من تأليه الأفراد لما يجرى على يديهم من خوارق المعجزات: «فالجُموع لما رأوا ما صنع بولس رفعوا أصواتهم قائلين إن الإلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فلما سمع

(١) متى ٢٩/٨، طبعة الأرثوذكس.

الرسولان برنابا ويولس مزقاً ثيابهما ووثباً نحو الجميع صارخين وهائلين: أيها الرجال لماذا تصنعون هذا نحن بشر نقبل الآلام مثلكم ونحن نبشركم بأن ترتدوا عن هذه الأباطيل إلى الله الحي الذي صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها^(١).

وهكذا ذهب بعض الكتاب إلى أنه قد شاعت بعد رفع المسيح - ﷺ - فكرة تأليهه عند بعض الفرق، ووضعت البذور الأولى لهذه الفكرة في حياة المسيح، وإذا كانت قد وجدت البذور الأولى في حياة المسيح - ﷺ - وواجهها، فإنها - وبعد رفعه - وجدت ما ينميا ويبرزها^(٢)، فظهرت إلى الوجود، بدءاً بما نادى به يولس من ألوهية المسيح وبنوته لله، وما تبع ذلك من العتائد المختلطة بالوثنية في البلاد التي دعا فيها إلى النصرانية مما يتواءم مع ديانتها.

ومهما يكن فإن ديورانت يقرر أن النصرانية مضى عليها نصف قرن من الزمان لأح فيها أنها ستؤمن بالتوحيد، وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح^(٣). يقصد بذلك أيام آريوس ودعوته.

كان لتمسك هؤلاء الموحدين الأثر الأكبر في شدة الاختلاف بين طوائف النصرانية الأولى، حيث تباعدت شقة الاختلاف بينهم وبين غيرهم من غير الموحدين تباعداً شديداً.

وكان الخلاف يدور حول هوية المسيح؛

أهو رسول من عند الله فقط من غير أن تكون له منزلة أكبر من شرف السفارة بين الله وخلقته؟ أم له بالله صلة خاصة يكون فيها أكبر من مجرد رسول، بحيث يكون فيها من الله بمنزلة الابن لأنه خلق من غير أب؟ أو يكون ابناً لله له صفة القدم كما لله تلك الصفة؟ وكل يزعم أن نحلته هي النصرانية

(١) أعمال الرسل ١٤ / ١١ - ١٥، طبعة الأرثوذكس.

(٢) راجع إنجيل برنابا بين الإسلام والنصرانية، ص ٨٩، دعوة التوحيد، ص ٢٣٨.

(٣) راجع قصة الحضارة، ٢٠ / ١٢.

الصحيحة التي جاء بها المسيح - ﷺ - ودعا إليها تلاميذه من بعده^(١).

ونتيجة لهذه الاختلافات وتباين تلك العقائد والمذاهب التي استمدها كل مذهب من بيئته انتشر الشقاق بين النصارى وتشعبت نظرتهم منذ العصور الأولى^(٢).

ما كان من أمر الخلاف بين بولس والجماعة الأولى بعد مجمع أورشليم، واستمرت الخلافات وتطورت وإن كانت بقيت في أكثر الفترات كامنة لا تظهر إلا في حالات فردية في فترات الاضطرابات والكوارث التي نزلت بهم، ولا ننسى في هذا المقام ما كان من بولس وأتباعه فيما بعد من إعراض عن الجماعة الأولى ومبادئها، وبالتالي إعراض عن النصوص التي بين أيديهم شفوية كانت أم مكتوبة.

وما لاح القرن الثاني حتى كانت قد فشلت في النصرانية آراء ملتوية ومذاهب شاذة حادت عن الرسالة المسيحية الأولى وجوهر الإنجيل^(٣).

ولم توجد الكتب التي تعين على تصوم هذه المقالات، وكل نحلة تروج بين الناس بقوة الداعي وحجته، لا سيما أنه كان قد رسخ في أذهان الناس تعظيم المسيح - ﷺ - ثم انتقلوا من التعظيم المعقول إلى الفلو المردول^(٤).

وهكذا كثرت الفرق والمذاهب في القرون الثلاثة الأولى بعد رفع المسيح ﷺ، فتكونت نتيجة لهذه الاختلافات والفرق المجمع المسكونية - التي بدأها قسطنطين بمجمع نيقية سنة ٣٢٥م وما تلاه - وأصبحت تمثل ركناً من أركان التنظيم الكنسي^(٥).

(١) راجع معاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص١٢٢، باختصار، دعوة التوحيد، ص٢٢٢.

(٢) راجع الاضطهاد الديني، ص٤٩، دعوة التوحيد، ص٢٢٢.

(٣) في موكب التاريخ عشرون قرناً، حبيب سميد، ص١٩، دعوة التوحيد، ص٢٢٢.

(٤) راجع معاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص١٥٤، ص١٥٥.

(٥) راجع دعوة التوحيد، ص٢٢٤.

وإن كان د. رؤوف شلبي يرى أن المجمع وما نتج عنها كان سبباً في تأصيل ظهور الفرق المسيحية وتبلورها^(١).

أما القضايا المعقدة التي دارت حولها اختلافات الفرق - وكانت من أهم العوامل في تكوين تلك الفرق والتي لعبت بها الأهواء والفلسفات المختلفة دوراً كبيراً - فتركز فيما يأتي:

١ - ظهور فكرة الإله المثلث الأقانيم ومحاولة تأصيل مفردات الثالوث الأقتومى عند بعض الفرق.

٢ - النزاع حول هوية المسيح من حيث ولادته وفاته.

٣ - النزاع حول ألوهية الروح القدس.

٤ - النزاع في طبيمة المسيح ﷺ، ودعوى الناسوت واللاهوت.

٥ - النزاع حول انبثاق الروح القدس.

٦ - قضية الصلب وأنها من صميم العقيدة النصرانية.

عصور ظهور الفرق في النصرانية

ويمكن أن نقسم عصور النصرانية إلى ثلاثة عصور من حيث ظهور الفرق ونشورها:

١ - عصر التوحيد: والدعوة إلى التوحيد ظاهرة في بدء دعوة المسيح - ﷺ - إلى رفعه، ثم بدأ ظهور الخلاف والانحراف بعد رفعه - ﷺ - ابتداءً من دخول بولس النصرانية حتى انعقاد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. وقد كان للتوحيد في هذه المرحلة ظهور واضح، كما أن بذور الفرق والانحرافات قد انفرست في ذلك العصر.

٢ - عصر التثليث: وبدايته من إقرار مجمع نيقية لألوهية المسيح ﷺ، ثم ما تلا ذلك بفترة وجيزة من إقرار ألوهية الروح القدس في مجمع القسطنطينية (١) راجع أضواء على المسيحية، ص ١٢١.

سنة ٢٨١م، وما تلاه من المجامع التي أقرت وثبتت التثليث في قراراتها.

٢ - العصر الأخير: (عصر الانقسام) ويبدأ بانعقاد المجمع الثامن:

- المجمع الثامن الغربي اللاتيني المنعقد سنة ١٢٦٩م.

- المجمع الثامن الشرقي اليوناني المنعقد سنة ٨٧٩م واللذان تولد عنهما انقسام

الكنائس إلى كنيسة شرقية وأخرى غربية^(١)، وأصبح لكل كنيسة طائفة تابعة لها تتادى بأراء معينة تخالف بها الطائفة الأخرى كما سنوضح في هذا الفصل:

أولاً: عصر التوحيد؛

لقد نشأ الصراع في هذا العصر حول قضية ألوهية المسيح، وانقسم النصارى بين معارض لهذه الفكرة وهم الموحدون وبين مؤيد لها وهم المنحرفون^(٢).

ويشمل كل من الفريقين جملة من الطوائف، وذلك على النحو التالي:

الموحدون

كان التوحيد هو الطابع العام للنصرانية في أول أمرها كما ذكرنا آنفاً. فقد كان هو عقيدة الجماعة النصرانية الأولى. وتشير المصادر النصرانية إلى أسماء أشخاص موحدين عرفوا بإنكارهم لألوهية المسيح - ﷺ - وقولهم بالتوحيد، وإن ورد في معتقداتهم بعض الأقوال المختلفة لكي يجمعهم إنكار ألوهية المسيح ومنهم: كورنثوس، أمونيوس السقاص، كبروكراتس، بالجيسوس. حيث وردت أسماؤهم في الرسائل^(٣).

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص ١٢١، ومعاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٤٩.

(٢) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ص ٢٠٢/١٠، «النصرانية من التوحيد إلى التثليث»، ص ١٦٦م، «الدين والدولة» لابن الطبري، ص ١٩٩، ٢٠٠، «الرد على النصارى» للجعفرى، ص ٧١، ٧٢، «الفكر الإسلامي مناهبه وآثاره»، ص ٣٩ - ٤١، «كشاف اصطلاحات الفنون»، ١٣٨٥/٣، «المنفى»، ٨١/٥ - ٨٥، «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، ص ٢٠، «البدء والتاريخ»، ٤٢/٤ - ٤٦.

(٣) راجع تفصيل أقوالهم في دعوة التوحيد، ص ٤٢٨ - ٤٢٥، تاريخ الكنيسة يوسيبوس ١٥٧/٣، تاريخ الأقباط ١٤٣/١.

أما بالنسبة للفرق الموحدة فقد ظهرت في العقود الأولى بمض الفرق الفائلة بالتوحيد المجرد وإن لم يبلغوا حد الشهرة، وقوة النفوذ ونقاء المعتمد، فعندها جانب من الانحرافات التي شاعت أو كانت شائعة بالنسبة لقصورهم عن فهم دعوة المسيح ﷺ، ولكنهم رغم ذلك يجمعهم القول بالتوحيد ونفى تاليه المسيح^(١). وقد كانت هذه الفرق امتداداً للجماعة الأولى - كنيسة بيت المقدس.

ومن أهم هذه الفرق:

١- الأبيونيون

وقد عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل «أبيونيم» والتي ربما تعنى الأغمار لأنهم كانوا من نكرات اليهود، وقيل إن هذا الاسم هم الذين أطلقوه على أنفسهم بمعنى أنهم الفقراء إلى الله^(٢).

وزعم صاحب كتاب «تاريخ الكنيسة» أنهم سمووا بالأبيونيين لأنهم اعتقدوا في المسيح اعتقادات فقيرة، فهذا الاسم يعبر عن فقرهم في التفكير^(٣)، وليس «أبيون» اسم زعيم هذه الفرقة فتسبب إليه كما ذهب د. وافى^(٤). فإن زعيمها يدعى «سيرنيش الفريسي»^(٥).

ورث الأبيونيون الجماعة الأولى في الشام والعراق، وهناك تشابه كبير بين هذه الجماعة وجماعة وادي قمران كما تدل عليه مخطوطات البحر الميت، وقد استدل بهذا كثير من الباحثين على أن جماعة الفقراء هذه قد مثلت الحق وهي البقية الصالحة مما كان عليه النصارى في أول أمرهم^(٦).

وقد ظهرت هذه الفرقة بعد خراب أورشليم سنة ٧٠م، وقيل ظهرت في

(١) يجب ملاحظة أن المعتمد في الحديث عن هذه الفرق من حكاية خصومهم عنهم واحتمال الكذب والافتراء وارد هنا.

(٢) راجع الموسوعة النقدية، ص ٤٢. (٣) تاريخ الكنيسة، يوسبيوس، ص ١٥٥.

(٤) الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٢٤. (٥) الموسوعة النقدية، ص ٤٢.

(٦) مذكرات الأديان.

أواخر القرن الثانى الميلادى^(١). وقد رفضوا القول بالوهية المسيح وقالوا: إن المسيح ليس سوى نبي.

وأطلق على هذه الجماعة أتباع كتيسة الختان لرأيهم فى وجوبه، وقد أخذت هذه الفرقة على عاتقها محاربة بولس، وقد أقرروا جميع شرائع موسى، واعتبروا عيسى المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم.

وقد انتشرت أفكارهم فى فلسطين والأقطار المجاورة ومراكز الشتات بل وبلغت روما، ثم انقرضت فى أواخر القرن الرابع الميلادى - أى بعد مجمع نيقية - بقوة الحكم والسلطات.

وتعتمد هذه الجماعة إنجياً غير الأناجيل الأربعة التى اعتمدت فى هذا المجمع يقال له: «إنجيل العبرانيين» أو «إنجيل الأبيونيين»^(٢).

٢ - جماعة «الموحدين لله»

وهم جماعة موحدة، والفرق بينهم وبين الجماعة السابقة أنهم كانوا يستخدمون اليونانية، وكانوا يواجهون النصارى المبتدعين الذين تأثروا بالديانة والثقافة اليونانية، ولذلك كانت هذه الجماعة أكثر انتشاراً فى بلاد الشام وما جاورها.

ظهرت هذه الجماعة فى أواخر القرن الثانى وبدايات القرن الثالث، وقالوا بأن الملك لله تعالى الواحد وليس معه ثان. وقد سماهم مخالفون براضى الكلمة لأنهم رفضوا أن يكون الكلمة أى المسيح - ﷺ - إلهاً، لكنهم أقرروا بأنه - ﷺ - كلمة من الله ولدته البتول، ورفضوا دعوى المؤلهين بأن الكلمة والروح القدس إلهان، وأكدوا وحدانية الخالق.

(١) الكنيسة المسيحية فى عصر الرسل، ص ٢٦٦ نقلًا عن رسائل الرسل.

(٢) راجع محمد فى التوراة، الطهطاوى، ص ٨٦، اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص ٢٩٧، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ٨٦، ٨٧، الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٠٨، ١٢٤، المسيح فى مصادر العقائد المسيحية، ص ٣٧.

وأهم ممثليها أرتييون (ت ٢٢٠م) في روما وثيودوتس (ت ٢٢٠). وقد ذكر أرتييون أن عقيدة النصرانية الأصيلة الإقرار بعقيدة التوحيد الذي أنكره المبتدعون. وذكر أن جميع الأساقفة كانوا على القول بالوحدانية إلى أيام فكتور (١٨٩ - ١٩٩م)^(١).

٣- الشمشاطيون

وهم أتباع بولس الشمشاطي، كان أسقفاً لأنطاكية سنة ٢٦٥م^(٢)، من أتباع أرتييون، وكانت عقيدتهم التوحيد الخالص، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وأنه إنسان لا إلهية فيه البتة^(٣). ويضيف النشار في عقيدة بولس الشمشاطي، أنه كان يرى أن الله كرمه وسماه ابنه على التبنى لا على الولادة والاتحاد^(٤). وأن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، وهو وأتباعه لا يؤمنون بالوهية الكلمة ولا بالوهية الروح القدس.

ويسمون عند بعض المؤرخين بالبوليقانيين. وابن البطريق عندما يشرح مذهب بولس الشمشاطي يؤول كلامه بما يوحي أنه من المثلثين^(٥). وإن كان كلام الشمشاطي لا يوافق عقيدة المثلثين بحال. وقد تعرض في تاريخ الكنيسة للاتهام بأنه من أكبر هراطقة الكنيسة في العصور الأولى^(٦).

وقد عقد في أنطاكية ثلاثة مجامع في الفترة من سنة ٢٦٤م إلى سنة ٢٦٩م للنظر في أمره، وقررت هذه المجمع حرمانه وطرده، لكن بقي مذهبه

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، ص ١٠٥.

(٢) راجع محمد في التوراة، الطهطاوي، ص ٨٦، اليهودية والمسيحية، الأعظمي، ص ٣٩٨، الملل والنحل، ص ١١٢، ١١٣، الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٢٤.

(٣) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥١، الفصل، ص ١٠٩، ١١٠.

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، النشار، ص ٩٧، نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٢.

(٥) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥١.

(٦) تاريخ الكنيسة، ص ٣٧٩.

وأتباعه حتى انقضوا في القرن السابع الميلادي^(١). بعد أن أصبحت عقيدة التثليث عقيدة النصراني بصفة عامة. كما سنرى فيما بعد .

٤ - الأريوسيون

وهم أتباع أريوس (٢٥٠م - ٣٣٦م) المشهور بالموحد، كان قسيساً في الإسكندرية في بداية القرن الرابع الميلادي، وعرف بنشاطه الديني، واعترف به الأسقف الجديد «إسكندر» الذي تولى - رئاسة كنيسة الإسكندرية - عام ٣١٢م. وكان اعتقاده بأن المسيح مجرد بشر وليس إلهاً وابناً لله^(٢). ونقل أحمد عبد الوهاب: أن أريوس قد حاول أن يثبت أن المسيح هو الكلمة - كلمة الله - وبناء عليه فإنه لا يشارك الله في وجوده الحقيقي، إنه من جوهر مختلف عن جوهر الله الأب، فهو ليس أزلياً مع الأب، وهو مخلوق رغم أنه أول المخلوقات وأرقاها، وقد كان هناك زمن لم يكن الابن فيه موجوداً.

وينقل عنهم مخالفوهم أن الأريوسية ترى أن المسيح أرقى المخلوقات، به خلق كل شيء، وله علاقة خاصة مع الله فهو مخلوق رباني، ولكن العلاقة بينه وبين المخلوقات تتوقف على العطاء الإلهي، والروح يقف بجانب الابن كجوهر ثان مستقل^(٣).

وقد خلف «أثاسيوس» «إسكندر» في رئاسة كنيسة الإسكندرية، وقد خالف أريوس في عقيدته حيث ذهب إلى أن المسيح إله غير مخلوق يشارك الله في أزليته، وكذلك الروح القدس فالأب إله والابن إله والروح القدس إله، فمن أراد أن يخلص نفسه - حسب زعمه - فعليه أن يعتقد بالتالوث^(٤).

(١) راجع محمد في التوراة، ص ٨٦.

(٢) راجع مختصر تاريخ الكنيسة ١/ ٢٧٦ - ٢٨١، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ٢٨٧/٢.

(٣) راجع طائفة الموحدين، ص ١٠، ١١، ١٦، فلسفة الفكر الديني ٢٨٧/٢، تاريخ الأقباط، ص ١٥٠ بتصرف، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ٨٨، رسائل الرسل، ص ١٦٢ - ١٧، History of dogma p8 - 20.

(٤) راجع نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٢، ٤٣.

وقد تشيع لأريوس الكثيرون في الإسكندرية وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية وحصلت افتراقات عدة داخل كنيسة الإسكندرية في تلك الفترة، وفي سنة ٣٢٥م. حكم مجمع نيقية بطرد أريوس من الكنيسة وكفره وأصدر قراره بالوهية المسيح، فبدأت فرقته في الانفراض^(١).

ولم يكن أريوس أول من دعا إلى هذه العقيدة، فبعض المصادر النصرانية تذكر أن مرقس كان ينكر الوهية المسيح^(٢).

وبعد أريوس كان ملتوس قسيس كنيسة أسيوط، ذهب مذهب أريوس في عقيدة التوحيد، وقد انقرضت الفرقة الأريوسية ومن تبعها بعد مجمع نيقية^(٣).

ثانياً: المنحرفون

في هذا العصر وبجوار الموحدين، وجدت آراء من دخلوا في النصرانية وفيهم بقايا وثنية، ففهموا النصرانية على ضوء ما عرفوه وما استقر في نفوسهم من آراء ومعتقدات سابقة، وهذه الفرقة هي:

١- البولسية:

نسبة إلى بولس (شاؤول اليهودي) ويعتبر وهو أتباعه أول طائفة ظهرت في مقابل الجماعة الموحدة الأولى.

وقد عقدنا كتاباً خاصاً للحديث عن انحرافات بولس وتحريفاته التي أدخلها على عقيدة التوحيد في النصرانية وأشاعها بين أتباعه «نشر دار النافذة». وتعتبر الفرق الخارجة عن التوحيد في هذا العصر من ذبول جماعة بولس الأولى.

(١) راجع محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، الطهطاوي، ص ٨٧، أضواء على المسيحية، ص ١٢٢، طائفة الموحدين، ص ١٢، ١٣.

(٢) نشأة الطوائف المسيحية، ص ٢٩، ٣٠.

(٣) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، الطهطاوي، ص ٨٧.

٢- الغنوصية الباطنية

ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي، ويذكر الباحثون أنها مهدت السبيل للنصرانية الهلينية، وكان ظهورها في الإسكندرية، ويرجع الباحثون أصلها إلى يهودا حادوا عن الطريق الصحيح. وتتسبب إلى سيمون الساحر السامري الذي واجهه يعقوب وبطرس وقد زادت فتنتهم بعد سنة ١٢٥م وكانت تهدف إلى فصل النصرانية عن اليهودية وإلباسها ثوباً هليينياً، فأدخلوا الفلسفة الهلينية عليها، واشتهروا بطقوس الإباحية والفحشاء، ورفض التشريع.

وقد قالوا بالهين إله الخير ويقابله إله الشر خالق المادة والشر. وتدعى العالمية وترفض حصر الدعوة في بني إسرائيل، وقد اندثرت هذه الطائفة ومن ينتسب إليها، ولكنها مهدت قبل اندثارها لتحريف النصرانية الحقبة وظهور النصرانية المثلثة^(١).

ومن العلماء من ذهب إلى أن المذهب الغنوصي ظهر أو يعود إلى «ساتورنيوس» الذي كان يعلم في أنطاكية زمن تراجان، وقد ذهب إلى أن العلم نشأ بواسطة سبعة ملائكة أحدهم كان إله اليهود، وهذا العالم يحتوى على شعلة الحياة من الأب، ولقد نزل المخلص الذي لم تكن له ولادة بشرية ولا جسماً بشرياً لمساعدة الطيبين الذين لم يكونوا يملكون هذه الشعلة، ويكون الخلاص من خلال الزهد والتسك ونجحت هذه التعاليم بصورة محلية في سوريا، ثم انتقلت إلى أبعد من ذلك.

ومن الغنوصيين في الإسكندرية «باسيليديس» وكان يدرس في الإسكندرية ١٢٠م، اعتمد على مذهب الرواقية، فعنده أن الله الأعلى هو عدم الوجود، وأسفل منه توجد ٣١٥ سماء، والتي نشأت منه والتي لا نرى منها إلا أدنى سماء وأخرها، وهذا هو موطن الملائكة الخالقة التي منها يعتبر إله اليهود هو (١) راجع A study of early christianity، ص٣١٦، ٣١٧، نشأة الطوائف، ص٤٠، History and thought of the early church، ص٤٥.

الرئيسى، وهذا الهبوط من عدم الوجود إلى العالم المادى لم يكتمل دون عواثق، ودخلت الفوضى. والهدف إعادة الإنسجام ومع هذا الهدف نزل الإنجيل المتطابق مع الأعلى وحل فى يسوع ابن مريم وهكذا، ثم أخذ يسوع الذى أوحى إليه دون معاناة لأنه عند الصليب كان سيمون السريانى هو الذى مات فى الحقيقة.

وقد ألف باسيليديس أربعة كتب من التفاسير حول الكتاب المقدس، وكان أول نصرانى يسجل اسماً فى شرح فلسفة الدين المرتكز على النصرانية والمستمد من مصادر يهودية وثنية^(١).

وأعظم شخصيات المذهب الفنوصى «فالنتينوس» والذى كان يعلم لروما أثناء حكم أنطونيوس، أى زمن كتابة راعى هيرمس^(٢). كان فالنتينوس: أكثر تأثيراً من «باسيليديس» (ت ١٦٥م) وكان يرى مثل «باسيليدس» أن الله كائن فردى متعال لا يمكن معرفته، لكنه لم ينشأ من العدم التام، وقد احتفظ هو وأتباعه بإطار يهودى إلى حد كبير فى أسطورتهم فى الخلق^(٣).

٢- المرقيونية

وتنسب إلى مرقيون (٨٥ - ١٦٠م)، وكان من أهم زعماء الفنوصية الباطنية التى تحدثنا عنها آنفاً، وكان مرقيون قسيساً من رجال القرن الثانى الميلادى، اعتقد بوجود إلهين: أحدهما عادل اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً له وأنزل عليهم التوراة، والإله الآخر إله الخير ظهر متمثلاً فى المسيح وخلص الإنسان من الخطايا وأبطل أعمال الإله الأول، وذهب د. أحمد شلبى والشيخ أبو زهرة إلى أنه كان يقول إن الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينهما^(٤).

وبناء على هذا فإن هذه الطائفة لم تكن ترى قدسية لكتب العهد القديم بل

(١) The rise of christianity، ص ٢٠٥.

(٢) History and Thought of the early church، ص ٤٨، ٤٩.

(٣) The rise of christianity، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٤) أضواء على المسيحية، ص ١٢٢، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٢، ١٥٣.

ترفضها جميعاً، ولا تعتمد إلا على إنجيل خاص بها وهو إنجيل (مرقيون) وقد اقتريت هذه الطائفة من ديانة زرادشت بقولها بوجود إلهين وانقرضت في القرن العاشر الميلادي^(١).

وذكر صاحب كتاب نشأة الطوائف المسيحية أن مارسيون أو مرقيون صنف أول قائمة بالكتب وأعطاهم لقبها الرسمي قائمة رسمية للأسفار المقدسة (Canon)، التي عتبرت بأن لها سلطان الرسل، وفي نهاية القرن الثاني ظهرت قائمة (Canon)، تتضمن معظم كتب العهد الجديد كما هي اليوم^(٢).

٤- البريرانية

وهي فرقة كانت تعتقد أن المسيح وأمه إلهان من دون الله، أطلقوا على أنسهم المريميين، وقد ظلت حتى القرن السابع الميلادي^(٣).

٥- فرقة إيلان

ذهبت إلى القول بأن المسيح إله وأنه ابن إله مر في البطن كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة الابن دخلت من إذنها وخرجت لتوها من حيث يخرج الولد، وإن ما ظهر في شخص المسيح وقتله وصلبه في أعين الناس هو خيال شبيه بالصورة التي تظهر في المرأة، وقد انقرضت هذه الفرقة بعد القرن الثالث عشر الميلادي وكان لها أتباع في اليمن والشام^(٤).

(١) الميزان في مقارنة الأديان، ص ١٠٤، الفهرست، ص ٤٨٤، اليهودية والمسيحية، الأعظمى ص ٣٩٦، نشأة الفكر الفلسفي، ص ١٨٩، واهي، ص ١٢٢، وقد ذكر أنها انقرضت في القرن العشرين.

(٢) نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٠، ٤١، وانظر المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ٨٤، History and Thought of the early church ص ٥١.

(٣) اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص ٣٩٦، الميزان في مقارنة الأديان، ص ١٠٤، أضواء على المسيحية، ص ١٢٢، الفصل ٤٨/٢، والمسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ٨٢، ٨٤.

(٤) اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص ٣٩٦، الميزان في مقارنة الأديان، ص ١٠٤، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ٨٢، ٨٢، محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٢.

تلك كانت أهم الفرق التي حادت عن طريق التوحيد - وإن ظهرت في عصره -، وخرجت بالنصرانية عن طابعها الأصلي فجاءت في صورة فكر مشتت لا يستقر على مبدأ.

والناظر في تاريخ ذلك العصر يجد أنه أفرز فرقاً كثيرة وخطيرة جداً على ديانة المسيح - ﷺ -، حيث غيرت ديانته وظهرت المذاهب والأقوال العديدة في المسيح وتعاليمه^(١).

وهي هذا يقول «سلسس» ساخراً: إن المسيحيين تفرقوا شيعاً كثيرة حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزياً^(٢).

واستطاع إيرينيوس أن يحصى عام ١٨٧م عشرين شيعاً مختلفة من النصراني. وأحصى إيفانيوس في عام ٢٨٤م ثمانين^(٣).

وقد كان ظهور الفرق المنحرفة في أواخر هذا العصر إرهاباً لظهور الفرق في عصر التثليث.

ثانياً: عصر التثليث

بعد مجمع نيقى أبعده التوحيد رسمياً من الديانة النصرانية، إلا أن الحكومة الرومانية لم تستطع أن تقضى على التوحيد بذلك المجمع، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرئاسة في الكنائس، وبكل الوسائل حتى حيل بين العامة وبين صوت التوحيد، وعندئذ كانت الفرق التي تظهر بعد ذلك كما يقول الشيخ أبو زهرة في ظل ألوهية المسيح في الجملة إن استثنينا مقدونيوس وفرقته^(٤).

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي ٢٩٦/١، تاريخ الكنيسة جون لوريمر ١٢٠/١، ١٠٢/١ - ١٢٣ - ٤٩٠/١ - ٤٩٧، ٥٩٢ - ٦٢٠.

(٢) قصة الحضارة ١١ / ٢١٤.

(٣) قصة الحضارة ١١ / ٢١٤.

(٤) راجع محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٦، ١٥٧.

١ - الأبوليناريون

وهم أتباع مقدونيوس. وكانوا أول فرقة ظهرت في ذلك العصر، أنكرت أن يكون روح القدس إلهاً وقاومت فرض الألوهية، ويذكر ابن حزم عن مقدونيوس أنه كان يقول بالتوحيد المجرد، وأن عيسى - ﷺ - عبد مخلوق إنسان نبي رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، والله خلق كل ذلك^(١).

يقول الشيخ «أبو زهرة»: ولعل مقدونيوس كل من الموحدين فهاله أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح، ويشنون بتأليه روح القدس فجاهر بإنكار الثاني.

قال «وأنه»: ارتبط اسمه بمذهب القدس على الرغم أنه لا علاقة له بذلك، وكان الرأي الذي نسب إليه امتداد للعقيدة الأريوسية فيما يتعلق بالكلمة لكي يجعله يشمل قضية الروح، ووفقاً لذلك لا يمكن الاعتقاد بأن الروح من نفس الجوهر مع الإله الأعلى لأنه مخلوق، وأفضل شيء اعتقده المقدونيون عن الروح أنه ملك أعلى، ولهذا فإن كثيراً ما يطلق عليهم اسم مقاتلون ضد الروح^(٢).

وفي الوقت الذي أنكر فيه مقدونيوس ألوهية روح القدس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت في مجمع عام، ولعله كان موضع حديث البطارقة كون روح القدس إلهاً فتصدى لإنكار ذلك، وتلقى الناس كلامه بالقبول، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنوات^(٣).

٢ - النسطورية

نسبة إلى نسطور الذي كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨م^(٤)، أي أنه ما بين القرن الرابع والخامس كما ذهب إليه أكثر المؤرخين خلافاً لما ذهب إليه (١) راجع الفصل في الملل / ١ / ١١٠.

(٢) History and Thought of the early church، ص ١٨٧، وذكر واند أن الأبولينارية هم أتباع أبوليناريوس والذي ركز على الطبيعة البشرية للإنسان، ص ١٨٨ - ٣٦٥.

(٣) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٦، ١٥٧، أضواء على المسيحية، ص ١٢٣.

(٤) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٥، المنجد في الإعلام، ص ٧٠٨.

الشهرستاني أنه ظهر في أيام المأمون^(١)، وما ذهب إليه النشار أنه ظهر في أوائل القرن الثاني الميلادي^(٢).

ويصور الشيخ أبو زهرة مذهب نسطور بأنه ذهب إلى القول بأن عيسى لم يكن إلهاً في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة أو هو ملهم من الله وأنه فوق الناس^(٣).

وعنده أن الأقتوم الثاني وهو الابن لم يكن إلهاً تجسد ولدته مريم - كما يرى ذلك من يراه من المثليين - بل كان يرى أن مريم ولدت الإنسان ثم اتحد الأقتوم الثاني به بعد ولادته وليس ذلك الاتحاد اتحاد مزج وجعلهما شيئاً واحداً، فليس اتحاداً حقيقياً بل اتحاداً مجازياً، لأن الإله منحه المحبة فصار بمنزلة الابن، ومعنى ذلك أن المسيح لم يكن فيه عنصر إلهي قط، فليس إلهاً ولا ابن إله، وهذا ما تقرره صاحبة كتاب «تاريخ الأمة القبطية» وهو أن كلام نسطور يلزم منه إنكار الوهية المسيح^(٤). وهو ما يؤكد أحمد شلبي أيضاً حيث أكد أن مذهب نسطور كان محاولة للعودة إلى التوحيد^(٥).

ويصور النشار مذهبه أنه ناقش فكرة الجوهر والأقانيم نقاشاً عقلياً، وانتهى إلى أن المسيح إنسان وولد إنساناً، ثم حدثت النعمة الإلهية التي نزلت على الرسل من قبل فاتصل اللاهوت بهذا الإنسان ولكن صلته بالمسيح أكثر دواماً واستقراراً فيه ولذلك سمى الابن الوحيد. وقد تمّ هذا الاتحاد كإشراق الشمس في الكوة أو على بلور أو كظهور النقش في الخاتم، وإشراق الشمس في الكوة لم يجعل الكوة شمساً ولا ظهور النقش في الخاتم جعل الخاتم نقشاً،

(١) الملل والتعل / ١ / ٢٢٤. (٢) نشأة الفكر الفلسفي ١/ ٩٦.

(٣) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٥.

(٤) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٥ - ١٥٧، وراجع أضواء على المسيحية، ص ١٢٣، النصرانية من التوحيد، ص ٢٠٢، تاريخ الأقباط، ١/ ١٧٧، مختصر تاريخ الكنيسة ١/ ٣٢٨، ٣٢٩، فلسفة الفكر الديني ٢/ ٢٩٠ - ٢٠٢، نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٧، ٤٨.

(٥) المسيحية، شلبي، ص ١٨٩.

إنما هو صدور عن المشيئة الإلهية، وهو يرى أن القتل فيما يزعمه النصارى وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته^(١).

ونقل في فلسفة الفكر الدينى أنه كان يقول بأقنومين لا بأقنوم واحد وأن المسيح يقوم بهما، وينسب إليه القول جهراً بالإثنية الأقتومية فى المسيح وتبادل العمل بين طبيعتى اللاهوت والناسوت وكأنه يقول بالاتحاد عن الطبيعتين^(٢).

ولعلّ لويس جرديه يصور مذهب نسطور بما آل إليه أمر النساطرة من بعده كما سنوضح.

وللقضاء على مذهب نسطور^(٣) لأنه كان يقول بأقنومين لا بثلاثة، عقد مجمع لأجل محاكمته فى أفسس سنة ٤٣١م، فقرروا فيه إبعاد نسطور عن منصبه ونفيه إلى مصر، واتفقوا على لعنه ولعن أتباعه. ويرى د/ عمر الفاروق أستاذ الأديان أن هذا كان أول افتراق بين الثالوثيين والكنيسة النسطورية، لكن النسطوريين الذين جاؤا من بعده انحرفوا عن مبادئه، وقالوا بامتزاج اللاهوت بالناسوت امتزاجاً حقيقياً لا مجازياً^(٤).

٣- اليعقوبيون أو اليعاقبة

نسبة إلى يعقوب البرازعى الذى انتحل مذهب القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة وهى التقاء اللاهوت والناسوت فى المسيح، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت.

ونسبة هذه الفرقة إلى يعقوب البرازعى لأنه أنشط الدعاة إلى هذا المذهب لا لأنه مبتدعه ومنشؤه، فإن هذا المذهب أسبق من يعقوب وأول من أعلنه بطريرك الإسكندرية فى منتصف القرن الخامس الميلادى، أما يعقوب فقد وجد فى القرن السابع الميلادى.

(١) نشأة الفكر الفلسفى ١/٩٦. (٢) راجع فلسفة الفكر الدينى ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٥.

(٣) الأفكار المقدسة، واهى، ص ١٣٣.

(٤) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٧. ١٥٩، الأسفار المقدسة، واهى، ص ١٣٤.

وكان أن عقد النصرارى مجمعاً فى أفسس سنة ٤٣١م، وقرروا فيه القول بالطبيعة الواحدة، ثم رفض ذلك القرار فى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، وتسبب ذلك فى تمسك الكنيسة المصرية برأى بطريركها والانفصال عن الكنيسة الرومانية^(١)، وهو مذهب الأقباط فى مصر.

٤ - الملكانيون:

نسبة إلى الملك والمملك بالأرامية «ملكاً» أى قيصر الروم^(٢) لا على أنه نسبة إلى شخص اسمه ملكاً الذى ظهر بأرض الروم كما ذكر الشهرستاني^(٣).

والملكانيّة مذهب من وافق القيصر فى مجمع خلقدونية الرابع، حيث قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتذرعت بناسوته، فهو عندهم له طبيعتان لاهوتية وناسوتية، وأن الله عبارة عن ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، وهم جل النصرارى، وقد انقسموا إلى طوائف منهم:

ثالثاً: عصر الانقسام

١ - المارونية:

أتباع يوحنا مارون الذى قال بالمشيئة الواحدة لله مع القول بالطبيعتين، وكان قوله هو السبب فى انعقاد المجمع السادس عام ٦٨٠م، والذى قرر نفي يوحنا ولعنه وإقرار مشيئتين لله^(٤). ولكنه استمر على قوله والتزم قوله أتباعه، وكونوا بذلك الكنيسة المارونية.

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص ١٢٣، نشأة الفكر الفلسفى ١/٩٧، ٩٨، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٩، ١٦٠ - ١٧٥، النصرانية من التوحيد، ص ٢٠٣، نشأة الطوائف، ص ٤٩ حيث أشار إلى طوائف أخرى ذهبت إلى هذا القول بالاتحاد بين الطبيعتين.

(٢) ذكر ابن كثير أن الملكية نسبة إلى دين الملك وهو قسطنطين. انظر البداية والنهاية، ٢/١٥٤.

(٣) الملل والنحل ١/٢٢.

(٤) الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٣٤، أضواء على المسيحية، ص ١٢٣.

٢- الكاثوليك

وكيستهم تسمى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية، ومعنى الكاثوليكية، أى العامة، وسميت غربية أو لاتينية لإمتداد نفوذها إلى الغرب اللاتين خاصة، وإن كان لها أتباع فيما عدا ذلك من البلدان، وسميت الكنيسة البطرسية أو الرسولية لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها الأول هو بطرس كبير الحواريين، والبابوات فى روما خلفاؤه.

والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوى، ويرأسه البابا والكرادلة، وهم أصحاب الحق الأول والأخير فى تنظيم الكنيسة.

وأهم ما يتميزون به:

١ - قولهم بأن الروح القدس انبثق من الأب والابن معاً.

٢ - يبيحون أكل الدم المخنوق.

٣ - أن البابا فى الفاتيكان هو الرئيس العام على جميع الكنائس الكاثوليكية.

٤ - تحريم الطلاق بتاتاً حتى فى حالة الزنا.

٣- الأرثوذكس

وتسمى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية أو اليونانية، لأن أكثر أتباعها من الروم الشرقيين ومن البلاد الشرقية على العموم كروسيا، والبلقان واليونان. كان مقرها الأصلى القسطنطينية. وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية عام ١٠٥٤م، وهى الآن مؤلفة من عدة كنائس مستقلة.

وأهم ما يتميزون به:

١ - أن الروح القدس انبثق عندهم من الأب فقط.

٢ - تحريم الطلاق إلا فى حالة الزنا فإنه يجوز عندهم.

٣ - لا يجتمعون تحت لواء رئيس واحد بل كل كنيسة مستقلة بنفسها^(١).

(١) دراسات فى الأديان، الخلف، ص٢٣٨.

٤ - البروتستانت

وهم أتباع مارتن لوثر الذى ظهر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى فى ألمانيا، وكان ينادى بإصلاح الكنيسة وتخليصها من الفساد الذى صار صيغة لها.

وأهم ما يتميز به أتباع هذه الطائفة:

١ - أن صكوك النقران دجل وكذب، وأن الخطايا والذنوب لا تفقر إلا بالندم والتوبة.

٢ - أن لكل أحد الحق فى فهم الإنجيل وقراءته، وليس وفقاً على الكنيسة.

٣ - تحريم الصور والتماثيل فى الكنائس باعتبارها مظهراً من مظاهر الوثنية.

٤ - منع الرهبنة.

٥ - أن العشاء الربانى تذكار لما حل بالمسيح من الصلب فى زعمهم، وأنكروا أن يتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح ﷺ.

٦ - ليس لكنائسهم رئيس عام يتبعون قوله.

وقد انتشرت هذه الطائفة فى ألمانيا كما ذكرنا وبريطانيا وكثير من بلاد أوروبا وأمريكا الشمالية^(١).

تلك كانت أهم الفرق التى ظهرت فى تاريخ النصرانية والتى كان لها دور بارز فى تحريف عقائدها.

ويمكن إبراز أهم نتائج ظهور الفرق فيما يأتى:

أولاً: لقد أدى ظهور الفرق إلى تحريف النصرانية وعقائدها، وذلك بترك عقيدة التوحيد التى بنيت عليها النصرانية، والتى بقيت عدة قرون يدعو إليها المخلصون من النصارى، ويدافعون عنها سواء كانوا أفراداً أو جماعات.

(١) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٦١ - ١٦٤ - ١٨٠، دراسات فى الأديان، الخلف، ص ٢٣٩.

ويتضح تحريف هذه الفرق لعقيدة التوحيد فيما تبنته من عقائد وثنية أو مثلثة، وما اختلفت فيه من الآراء في شأن طبيعة المسيح ومشيئته، حيث ذهب بعضها إلى القول بوحدة هذه الطبيعة أو المشيئة أو بتعددتها، وحيث اختلفوا في طبيعة العلاقة بينه وبين الله على نحو ما ذكرنا عن أصحاب وأتباع الفرق السابقة، متأثرين في تحريفهم للعقيدة النصرانية بالوثنيات والثقافات التي كانوا عليها قبل تنصرهم، والتي كانت لا تزال محيطة بهم في مواطن النصرانية.

ثانياً: قام أرباب هذه الفرق بتحريف الأناجيل الكثيرة التي كانت شائعة في ذلك العصر، بحيث تتفق نصوصها مع عقيدة تلك الفرق.

ثالثاً: أدى ظهور الفرق النصرانية إلى انعقاد المجمع لحسم الخلاف الناتج عن تعدد العقائد المحرفة فيما بينها، مما نتج عنه أحياناً انفصال بعض الكنائس عن بعضها، وإقرار العقائد المنحرفة واستبعاد النزعات التوحيدية.

رابعاً: لدى أدى افتراق الطوائف النصرانية في عقائدها كما رأينا، وما تبعه من الصراع الطائفي فيما بينها - لقد أدى كل ذلك إلى ظهور اضطهاد الطوائف النصرانية بعضها لبعض، سواء كان ذلك الاضطهاد بين الأفراد أو الجماعات. وهكذا كان ظهور الفرق النصرانية والاختلاف فيما بينها عاملاً مهماً من عوامل تحريف العقيدة بكل ما ترتب على هذا التحريف من نتائج.

المجامع النصرانية وأثرها في تحريف العقيدة

تهميد:

المجامع في النصرانية هي كما يقول علماءهم جماعات شورية^(١) في الكنيسة تبحث في الأمور المتعلقة بالديانة النصرانية وأحوال الكنائس.

ويرى النصارى أن تلاميذ المسيح هم الذين رسموا نظام هذه المجامع في حياتهم، حيث عقدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة، وقرر هذا المجمع كما رأينا، عدم التمسك بالختان، بل زاد على ذلك عدم التمسك بمحرمات التوراة، إلا تحريم الزنا وأكل المخنوق وأكل الدم وأكل ذبائح الأوثان، ويقرر علماءهم أن التلاميذ بهذا المجمع الذي بينه سفر الأعمال في إصحاحه الخامس عشر قد سنوا للنصارى سنة جمع المجامع لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة.

والمجامع عندما قسمان: مجامع عامة أو على - حد تعبيرهم - مجامع مسكونية: أي تجمع الكنائس النصرانية من كل أنحاء المعمورة المسكونة. ومجاميع محلية أو مكانية - على حد تعبيرهم - وهي التي تعقدتها كنائس مذهب أو أمة في دواثرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها إما لإقرار عقيدة أو لرفض عقائد أخرى^(٢). إلى غير ذلك من الشئون المحلية للكنائس.

(١) يقول الدكتور سمود الخلف معلقاً: هكذا يزعم النصارى أنها هيئات شورية والناظر في تلك المجامع خاصة التي بعثت في العقيدة يجد أنها تنتهي ولم يتفق المجتمعون على الأمور التي بحثت فيكون هناك جبر وموافقة قسرية على قول من تلك الأقوال، وإن لم يكن جبر يحدث الانقسام بأن تذهب كل مجموعة بقولها الذي جاءت به وهو ما يتنافى مع كونها شورية إلا أن يقال أنها هيئات شورية إلزامية. دراسات في الأديان، ص ١٥٢.

(٢) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٢٠، ١٢١، النصرانية والإسلام، الخلف، ص ١٩١، =

وفيما يتعلق بالمجامع المسكونية - وهي موضوع حديثنا - يقول د. عمر استاذ الأديان: «لم يتحقق في المجامع شرط المسكونية أبداً، وإنما يقال لها مسكونية على فرض حضور جميع أساقفة العالم، ولعل القول إنها عامة أقرب إلى الصواب».

وكلامنا هنا سيقصر على المجامع المسكونية - كما يسمونها - سواء وافق على قراراتها جميع الحاضرين فيها، أو لم يوافق عليها بعضهم. وذلك في حدود الدراسة لهذه المجامع، من مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، إلى مجمع القسطنطينية الخامس سنة ٨٧٩م، والذي انقسمت بعده الكنائس إلى شرقية وغربية.

وقد كانت تلك الفترة وما عقد فيها من مجامع هي التي تقررت فيها العقائد النصرانية عند معتقياها، وهي التي رسمت التقاليد الكنسية القائمة في الكنائس إلى الآن، وأقرت كل ما طرأ على النصرانية من تحريفات عقدية وتشريعية.

ونبدأ بأول هذه المجامع وأعظمها أثراً في تاريخ العقيدة النصرانية - وهو مجمع نيقية سنة ٣٢٥م^(١).

١ - مجمع نيقية سنة ٣٢٥م

وقد انعقد هذا المجمع بسبب التعارض والاختلاف العقدي الموجود في الكنيسة في تلك الأزمان، وذلك أنه ما إن توقف الاضطهاد الواقع على النصارى من قبل الرومان بمرسوم ميلان^(٢). حتى ظهر على السطح ذلك

= المسيحية، شلبى، ص ١٩٧، وأضواء على المسيحية، ص ٩٤، ٩٥، وراجع دائرة المعارف البريطانية ٥٨٧/٦، ٥٨٨، دائرة معارف الدين والأخلاق حيث تقسم المجامع إلى عشرة أنواع نقلاً عن دراسات في النصرانية، مزروعة، ص ١٣٨، ١٣٩.

(١) نيقية مدينة في تركيا تسمى الآن «أرنك». نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٤.

(٢) مرسوم ميلان أصدره الإمبراطور قسطنطين ليسيئوس سنة ٣١٣م، ويقضى بإعطاء النصارى الحرية في الديانة وإرجاع أملاكهم المفتسبة وإقرار حرية الأديان عموماً. انظر نص المرسوم في كتاب تاريخ أوروبا للمصور الوسطى، ص ٥٠، تأليف، د. الباز العريضي.

الخلاف العمقى الكبىر بىن طوائف النصارى، والذى كان يخفىه من قبل الاضطهاد الواقع على طوائف النصارى والذى كان من أسباب رسوخ هذه الانحرافات العمقىة كما سىتبىن.

وكان أبرز وجوه الاختلاف؛ ذلك الخلاف والتعارض بىن دعوة كنيسة الإسكندرىة التى تتادى بالوهىة المسىح على مذهب بولس، و بىن دعوة الأسقف اللىبى «أرىوس» فى الإسكندرىة أىضاً. الذى وُصفَ بأنه عالم مثقف، وواعظ مفوه، وزاهد متقشف، وعالم بالتفسىر، حىث أخذ ىنادى بأن الله إله واحد غیر مولود أزلى، أما الابن فهو لىس أزلياً و غیر مولود من الأب وأن هذا الابن خرج من العدم مثل كل الخلائق حسب مشىئة الله وقصد^(١).

وشایع أرىوس فى دعوته العمدى من الأساقفة، منهم أسقف نىقومىدىة المسمى أوسابىوس و غیره.

وكان الإمبراطور «قسطنطىن» فى ذلك الوقت قد أبدى تعاطفاً قویاً تجاه النصارى ورفع عنهم الاضطهاد وأهتم بشئونهم^(٢)، فهاله ما رأى من انقسام النصارى، وأدرك خطورة تلك الانقسامات على دولته، والتى كان أخطرها ما كان بىن أسقف كنيسة الإسكندرىة الكسندروس وأرىوس وأتباعه.

وكان الخلاف قد تطور بىنهما وذلك بأن طلب أسقف الإسكندرىة عقد مجمع - محلى - فى الإسكندرىة للنظر فى قضىة أرىوس ودعوته، فقرر ذلك المجمع طرد أرىوس من الخدمة، وقد أدى هذا إلى خروج «أرىوس» من كنيسة الإسكندرىة مجمعاً - محلياً - قررَ فىه قبول أرىوس وأتباعه وكتابة طلب إلى (١) راجع كتاب «تارىخ الفكر المصىهى» ١ / ٦١٩.

(٢) ىرج المؤلف هـ. فىشر: أن أهداف قسطنطىن فى ذلك التقرب للنصارى كانت أهدافاً سىاسىة حىث رأى أن الدىانة النصرانىة تتشر على حساب الأدیان الأخرى، كما أنه أراد أن یكونوا عوناً له فى القضاء على إمبراطور بىزنطه لىسینوس. وهذا ما تحقق له فىما بعد وكان قسطنطىن یعتبر نفسه الكاهن الأعظم للدىانة النصرانىة وهو فى نفس الوقت یجمع بىن عبادة الشمس والانتساب للنصرانىة، ولم یسمع بتممىده إلا وهو على فراش الموت على مذهب أرىوس وذلك سنة ٣٣٧م. راجع، تارىخ أوروبا فى العصور الوسطى تألیف هـ. فىشر ترجمة محمد زیادة، ص ٧٠، ٧١.

أسقف الإسكندرية برقع الحرمان الذى قرروه عليه^(١).

فهذا ما جعل الإمبراطور «قسطنطين» يدعو إلى مجمع عام فى نيقية سنة ٣٢٥م لبحث هذه القضية.

ومما نوقش فى هذا المجمع مسألة الكتب المشكوك فى قداستها سواء تلك التى زادت بها الترجمة السبعينية لأسفار التوراة على الأصل العبرى، أو غيرها من أسفار النصارى أنفسهم^(٢).

وقد اختلف كلام النصارى فى ذكر عدد المجتمعين فى هذا المجمع فالبعض يرى أن عدد المجتمعين كان ٢١٨ أسقفاً فقط، وبعضهم يرى أنهم ما بين ٣٠٠ - ٥٢٠^(٣). ويذكر مارى سليمان فى كتاب «المجدل» وكذلك ابن البطريق أن عددهم كان (٢٠٤٨) أسقفاً^(٤).

أما مذاهب الحاضرين فكانت متباينة تبايناً شديداً - كما يقول ابن البطريق - لأنهم كانوا مختلفين فى الآراء والمعتقدات:

- فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البريرانية.

- ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها وهى مقالة سابليوس.

- ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب.

- ومنهم من كان يقول: إن المسيح مخلوق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وأن الابن من مريم، ويرون أن الله جوهر قديم واحد واقتوم واحد ولا

(١) انظر: تاريخ الفكر المسيحى (١/٦٢١، ٦٢٢).

(٢) فى مقارنة الأديان، الشرقاوى، ص ٢٢.

(٣) راجع تاريخ الفكر المسيحى (١/٦٢١، ٦٢٢) وتاريخ الكنيسة - لجون لوريمر (٣/٤٢).

(٤) راجع كتاب أخبار بطاركة المشرق من كتاب المجدل، ص ١٥، وكتاب يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، ص ٢١٢. وينقل هذا عن ابن البطريق زكى شنودة فى تاريخ الأقباط.

يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية.

- ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تنزل: صالح، طالح، وعدم بينهما. وهى مقالة مرقيون وأصحابه.

- ومنهم من كان يقول: بالوهية المسيح، وهى مقالة بولس ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً^(١).

ويعد أن تداول المجتمعون الآراء فى ذلك المجمع خرجوا بتقرير الوهية المسيح - عيسى - وبنوته لله - حسب زعمهم -^(٢) وأنه مساو لله جلا وعلا^(٣)، وأنه مولود منه غير مخلوق - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً..

كما قرروا أن هذا الإله تجسد بصورة البشر لخلاص الناس، ثم ارتفع إلى السماء بعد قيامته من الموت، وهذا ما تضمنه قانون الإيمان النيقوى، حيث جاء فيه: «نؤمن بياله واحد الله الأب كلى القدرة، خالق كل شيء، ما يرى وما لا يرى» (١) كتاب محاضرات فى النصرانية، ص ١٢٤، حيث ينقل عن ابن البطريق، وكذلك نقلها زكى شنودة فى كتابه «تاريخ الأقباط» ونقلها عنه، د. رؤوف شلبى فى كتابه يا أهل الكتاب تمالوا إلى كلمة سواء، ص ١٢٢.

(٢) يلاحظ هنا أن نص قانون الإيمان الذى قرروه فى ذلك المجمع هو النص الذى قدمه أسقف الإسكندرية القائل بالوهية المسيح، والبعض يذكر أن كلمة «أن الابن من نفس جوهر الأب»، وهى التى كان يدور حولها الخلاف الكبير بين أولئك المجتمعين كانت من اقتراح الإمبراطور قسطنطين. راجع تاريخ الكيسة (٤٨/١) ومن المعلوم أن قسطنطين كان فى ذلك الوقت لا يزال وثنياً، ثم يعلن دخوله فى النصرانية، وهذا يدلنا على مستوى تلك الموافقة الظاهرية التى وقعت فى ذلك المجمع وأنها إنما كانت ترؤس الإمبراطور ذلك المجمع وتدخله المباشر فيه. وخطورة تلك الإضافة التى ركز عليها فى ذلك المجمع أنها نقلت المسيح من أن يكون بشراً مخلوقاً إلى إله خالق، وأورثت النصرانية كل الانحرافات التى حدثت بعد ذلك والجدل الطويل حول المسيح والمجمعات الكثيرة التى انمقدت حول ما تفرع عن الكلام حول المسيح وطبيعته، كما جعل النصرانية تتقل من صف الدين السماوى الموحد إلى صف الدين السماوى الموحد إلى صف الأديان الوضعية التى تقوم على تعدد الآلهة وعبادة غير الله. راجع النصرانية والإسلام، الخلف، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٣) قال فى البحث الصريح: الاعتقاد بأن سيدنا عيسى مساو لله فى الجوهر هو بدعة حديثة مستجدة فى الديانة النصرانية سنة ٣٦٠م انظر مخطوطة البحث الصريح، لوحة: ٤.

يرى، ونؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله، المولود من الأب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، من ذات الجوهر مثل الأب، به خلق الكل، ما فى السموات وما على الأرض، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسد وعاش بين الناس، الذى تألم وهى اليوم الثالث قام، وصعد إلى السموات، ويأتى ليدين الأحياء والأموات»^(١).

كما تقرر فى هذا المجمع لعن أريوس ومشايغيه، وحرقت كتبه، وقد قرر هذا المجمع كذلك أن تعاليم الدين لا يمكن تلقيها من الكتب رأساً، بل من أفواه العلماء ورجال الكهنوت وأن أقوالهم حجة^(٢).

وقد وقع كثير من المجتمعين على هذه القرارات المناصرة قسطنطين لها، ويرى ابن البطريق أن (٢١٨) أسقفاً فقط هم الذين أظهروا هذا القول ووقعوا عليه وخالفهم بقية الأساقفة^(٣)، والبعض الآخر يرى أن الجميع وقعوا عليها ما عدا «يوسابيوس» أسقف «نيقوميديا» فى قول بعضهم وشخص آخر، فقد رفضا التوقيع على ذلك النص^(٤).

وهكذا انتصر القائلون بالوهية المسيح بمساندة وتأييد الإمبراطور، حيث ينص المؤرخون على ترأسه لذلك المجمع^(٥).

(١) تاريخ المسيحية ٤٨/١.

(٢) راجع الكتب السماوية، ص٣٤، قصة الحضارة ١١/٣٨٧.

(٣) راجع محاضرات فى النصرانية، ص١٢٤.

(٤) راجع مجموعة الشرع الكنسى، ص٤٣، تاريخ الكنيسة، ص٤٩.

(٥) راجع النصرانية والإسلام، الخلف، ص١٩٧، ١٩٨، تاريخ أوروبا فى المصور الوسطى، فيشر، ص٨، تاريخ أوروبا للمصور الوسطى، الباز المرينى، ص٧٤، وانظر مجمع نيقية مجموعة الشرع الكنسى، ص٤١ وما بعدها، نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٤، ٤٥، المسيحية بين التوحيد والتثليث، عبد المنعم عثمان، ص٩٦ - ١٠٦، ١٠٦ - ١٠٧، أضواء على المسيحية، ص٩٦ - ١٠٠، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٢٨ - ٣٨، أهم عوامل انحراف النصرانية، ص١٨٤ - ١٨٩، مختصر تاريخ الكنيسة، ص٢٨٢ - ٢٨٤، الأسفار المقدسة، ص١٢٥، ١٢٦، المسيحية، شلبى، ص١٤٦ - ١٤٩ - ١٩٨، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٥٧ - ١٨٢، لمحة تاريخية عن الإنقسام الكنسى إبراهيم خليل أحمد، المنهل، عدد ٥، حمادى الأولى، سنة ١٣٩٨، إبريل، مايو ١٩٧٨، =

ومما يدل على أن القول بالوهية المسيح لم يكن مجعماً عليه ما يذكره القس «حنا الخضرى» - بعد ذكر الانتصار الذى حققه مشاييمو مقولة بولس - قال: «ولكن للأسف الشديد كانت الحقيقة الواقعة تختلف الاختلاف كله عن القرارات الجمعية، فقد رجع الأساقفة بعد مجمع نيقية إلى أبرشياتهم والقسوس إلى كنائسهم وبدأ كل منهم يعلم ما كان يعلم به قبلاً. بل إن البعض تطرف فى الهرطقة التى فاقت هرطقة «أريوس» نفسه. فمع أن أريوس وبعض أتباعه نقوا، إلا أن الأريوسية بنت عشها فى حدائق كثيرين من الأساقفة والرعاة»^(١).

ومن الجدير بالذكر أن الأناجيل التى اختارتها الكنيسة كانت مجهولة لدى النصارى ولم تعرف إلا فى عصر متأخر حتى قيل: إنه لم يكن معترفاً بها قبل إقرار الكنيسة. ويذكر بعض المؤرخين أنه لا توجد إشارة إلى إنجيل متى ومرقس ولوقا قبل آخر القرن الثانى أو ابتداء القرن الثالث، وأول من ذكرها أرينيوس عام ٢٠٩م وأورد بعض الدلائل على عدها، ثم قرر أنها مجرد صور لإنجيل واحد، ثم جاء أكليمنس الإسكندرى ٢١٦م فاجتهد وقرر أن الأربعة واجبة التسليم واعترف بصحتها^(٢).

ويعزو ابن البطريق إلى هذا المجمع اعتماد الأناجيل الأربعة وإلغاء ما عداها^(٣).

قرر هذا المجمع (نيقية) وجوب تسليم سفر (يهوديت) فقط ويظهر ذلك من المقدمة التى كتبها جيروم على هذا السفر، فضلت الأسفار الأخرى المشكوك فيها كما هى غير مسلمة من علماء مجمع نيقية^(٤).

= مجلة الأزهر، ٤٤، السنة ٥٧، ربيع الآخرة، ١٤٠هـ، ١٩٨٥م، محمد الحديدي الطبر، الأزهر، ٢. سنة ٢٨، صفر ١٣٨٦، مايو ١٩٦٦، دين الله ودين القوة، أحمد حسن الزيات، والله واحد ام ثالث، ص٢٥.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٦٤٢. وانظر مقالة «هورمانس موريس»، ص٥، مجلة إسلاميات مسيحيات، روما، ١٩٧٦م، المعهد البابوى للدراسات الإسلامية.

(٢) راجع: الإنجيل والصليب، ص١٤ - ١٩.

(٣) راجع: الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، عبد القادر شبية الحمد، ص٤٢.

(٤) ثم انعقد مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤م فأقر حكم المجلس الأول وزاد عليه وجوب تسليم سبعة =

ولما كان قرار مجمع نيقية بألوهية المسيح فرض بقوة السلطان فإن السلطان وهو الإمبراطور رجع فيما بعد عنه وأمر بعقد مجمع صور سنة ٢٣٤م وقرر فيه إعادة «أريوس» إلى الكنييسة، وخلق «أيناسيوس» أسقف الإسكندرية. أحد أكبر المدافعين عن عقيدة ألوهية المسيح^(١).

ويذكر ابن البطريق هذا المجمع بقوله أن أوسابيوس أسقف نيقوميديا كان موحداً من أنصار أريوس، تقرب إلى قسطنطين لتزال عنه اللعنة، وجعله بطريك القسطنطينية، وما إن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية في الخفاء فكان المجمع الإقليمي في صور، وهو مجمع لا يذكره النصارى تصريحاً، وإن كانت كتاباتهم لا تستطيع إغفاله^(٢).

وهكذا يتبين أن هذا المجمع الذي يعد من أخطر المجامع كانت ألوهية بيد الإمبراطور الذي كان وثياً ولم يكن من أهل تلك الملة وقت تراسه ذلك المجمع، كما أن المجتمعين لم يكونوا يعتمدون على نصوص متفق عليها مقبولة لدى الجميع وإلا لثم الإذعان لدلولها، وإنما كانوا يعتمدون على تصوراتهم أو تصورات أسفار: سفر استير، رسالة يعقوب، رسالة بطرس الثانية، رسالة يوحنا الثانية، رسالة يهوذا، رسالة بولس إلى العبرانيين. وقرر هذا المجمع إبقاء سفر رؤيا يوحنا مشكوكاً فيه وغير مسلم من الكنييسة. ثم انعقد مجمع قرطاج سنة ٢٩٧ وأعيد انعقاده عام ٤١٩م، برئاسة أوغسطس وأقر حكم المجالس السابقة بشأن الأسفار المقدسة المعتمدة والشكوك فيها وزاد عليها وجوب تسليم سبعة أسفار أخرى: الحكمة، طوبيا، باروخ، إيكليزيا ستيكس، المقايين الأول، المقايين الثاني، رؤيا يوحنا. وقد عد سفر باروخ جزءاً من سفر أرميا لأن باروخ كان بمنزلة نائب أرميا وخليفته فلم يكتب اسم سفر باروخ على حده في فهرست أسماء الأسفار. راجع مقارنة الأديان، الشرقاوى، ص ٢٢، ٣٤، محاضرات في الأديان إبراهيم خليل، ص ١٢ - ١٧.

قال في علم اللاهوت النظامي: وأما زعم البعض أن مجمع لاودكية ٣٦٤م عين قانونياً الأسفار القانونية فقير صحيح والصواب هو أن ذلك المجمع إنما ذكر فهرس الأسفار التي كانت مقبولة. ولا ريب أنه لما كانت أسفار العهد الجديد قد كتبت وأرسلت في أول الأمر إلى أفراد وكنائس متفرقة في أقطار العالم خلافاً لأسفار العهد القديم اقتضى وقت طويل لإذاعتها ولعرفتها أنها قانونية، ص ٩٧.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي ١/٦٥٠، تاريخ الكنييسة ٢/٥٩، دراسات في الأديان، الخلف، ص ٩٩.

(٢) راجع دراسات في الأديان، الخلف، ص ١٩٨، محاضرات في النصرانية، ص ١٢٩، كتاب يا أهل الكتاب، ص ٢١٧، ٢١٨، المسيحية بين التوحيد والتكثيث، ص ١٠٨، ١٠٩.

أمثالهم من الناس فلهذا وقع الإعراض عنها بعد عودتهم إلى كنائسهم^(١).

وقد استمر نشاط الموحدين بعد هذا المجمع ونفوذهم وعقدت مجامع عدة كان للموحدين فيها أصوات مرتفعة، وقد دلت المصادر على أنهم لم يكونوا قلة بل كانوا هم الأكثرية^(٢).

٢ - مجمع القسطنطينية ٣٨١م

دعا الإمبراطور «ثيودوسيوس» سنة ٣٨١م إلى عقد مجمع القسطنطينية لمواجهة دعوات كانت منتشرة بين الكنائس، منها:

- دعوة «مقدونيوس» الذي كان أسقفاً للقسطنطينية، الذي نادى بأن الروح القدس مخلوق وليس إلهاً.

- ودعوة «سابيلوس» الذي كان ينكر وجود ثلاثة أقانيم.

- دعوة «أبوليناريوس» الذي كان أسقفاً على اللاذقية والشام والذي أنكر وجود نفس بشرية في المسيح.

فحضر ذلك المجمع مائة وخمسون أسقفاً. قرروا فيه الوهية الروح القدس، ولعن وطرد من خالف ذلك مع إثباته لعقيدة نيقية^(٣)، فاكتمل بذلك ثالث النصارى بهذا المجمع الأب والابن والروح القدس ووضع المجمع تكملة قانون الإيمان النيقوي حيث زادوا الإيمان بالوهية الروح القدس^(٤).

(١) راجع دراسات في الأديان، الخلف، ص ١٩٩.

(٢) راجع المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ١٠٩ - ١١٥، ملأفة الموحدين، ص ٢٥، قصة الحضارة ٢٠/٤٥.

(٣) راجع مجموعة الشرح الكمسي، ص ٢٤١ وما بعدها، تاريخ الكنيسة (٣/١٠٤ - ١١١)، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص ١٨٣، تاريخ المسيحية حبيب سميد، ص ١٥٣، محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٢، نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٥، ٤٦، الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٢٦، ١٢٧، المسيحية، شلبي، ص ١٥٦، ١٥٧، ١٩٩، عقيدتنا التثليث والصلب، ص ٤٠، ٤١، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢١٨ - ٢٢٢، أضواء على المسيحية، ص ١٠٠، ١٠١، المجامع النصرانية، ص ١٠٧، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ١١٦ - ١١٨.

(٤) المجامع النصرانية، ص ١٠٨.

وكما هو ظاهر فإن هذا المجمع عقد بدعوة من الإمبراطور «ثيودسيوس»
الذى أمر بانعقاده لمصلحة القائلين بالوهية المسيح والمثلثين من النصارى^(١).

وقد عقد عام ٣٩٢ فى روما^(٢) مجمع آخر زعم البعض أنه مسكونى، وفى الواقع أنه لم يكن كذلك، ولم يرد ضمن مجموعة الشرع الكنسى أنه من ضمن المجمع المسكونية، وكان انعقاده لترتيب الأسفار، والذى قرر أن تكون أسفار العهد الجديد على الترتيب التالى: الأناجيل الأربعة، رسائل بولس الأربعة عشر، رؤيا يوحنا وأعمال الرسل، الرسائل الكاثوليكية أو الجامعية وعددها سبعة رسائل.

٣- مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م

وقد انعقد هذا المجمع لمواجهة قول «نسطور» أسقف القسطنطينية، بأن المسيح له طبيعتان إلهية وإنسانية بشرية^(٣) وأن مريم والدة الإنسان وليست والدة الإله.

فقد المجمع فى أفسس سنة ٤٣١م بحضور مائة وستين أسقفاً، وقرر فيه أن المسيح إله وإنسان ذو طبيعة واحدة وأقنوم واحد، وأن مريم أم الإله وحكم على «نسطور» بالطرد من الكنيسة^(٤).

(١) راجع النصرانية والإسلام، ص ٢٠٠، ومعاول الهدم والتدمير، ص ٥١.

(٢) ذكر الطهطاوى أنه تم اعتماد الأناجيل الأربعة سنة ٣٢٥م، راجع محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، ص ٩٥. وهو أمر ليس له ما يؤيده.

(٣) راجع كتاب تاريخ الفكر المسيحى، ١٧٠/٢، تاريخ الكنيسة جون لوريير، ٢١٥/٢، ويذكر البعض أن نسطورا كان يرى أن المسيح لم يكن لها وإنما هو إنسان مملوء من البركة والنعمة. راجع كتاب النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص ١٨٤.

(٤) راجع، مجموعة الشرع الكنسى، ص ٢٨٨، تاريخ الكنيسة جون لوريير (٢١٩/٣)، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص ١٨٥، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٥، كتاب يا أهل الكتاب تاملوا، ص ٢٢٢ - ٢٢٦، محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، ص ٩٠، ٩١، المسيح، عبود، ص ٩٠، الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٢٢، نشأة الطوائف المسيحية ٤٨، مختصر تاريخ الكنيسة ص ٣٤٦، المسيحية، شلبس، ص ١٩٩، أضواء على المسيحية، ص ١٠٢ - ١٠٤. عقيدتا التثليث والصلب، ص ٤٤ - ٤٦، المجمع النصرانية، ص ١١٠ - ١١٤، دراسات فى الأديان، ص ١٦١.

وبعد مجمع أفسس عُقدت مجامع عديدة^(١) كلها تبحث عن طبيعة المسيح -
عقيدته - منها:

٤ - مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م

وفى هذا المجمع عادوا للبحث فى طبيعة المسيح وقرر المجتمعون فيه: أن المسيح له طبيعتان إلهية وبشرية. وقد قال ابن البطريرق فى بيان قرار هذا المجمع قالوا: إن مريم العذراء ولدت إلهاً ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبقة الإلهية ومع الناس فى الطبقة الإنسانية وشهدوا أن المسيح له طبيعتان وأهتوم واحد ووجه واحد ولعنوا نسطوريوس ومن يقول مقالته^(٢).

وكان المناصرون لهذا القول هم الأساقفة الفرييون (الكاثوليك) الذين لعنوا وطردوا من لا يقول بهذا القول. ولم توافقهم الكنائس الشرقية على هذا وقد أصروا على قرارهم السابق فى مجمع «أفسس» بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية وبشرية^(٣). وهذا من أهم الفوارق بين الكاثوليك القائلين بالطبيعتين، والأقباط والأرمن والسريان القائلين بالطبيعة الواحدة^(٤).

(١) انظر: كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢٢٦، عقيدتنا التثليث والصلب، ص ٤٧، نشأة الطوائف المسيحية، ص ٤٩، ومن هذه المجمع مجمع اللصوص، سنة ٤٤٩. والذى سمي بذلك لطبيعة إجرائه، وأفسس الثانى، المسيحية، شلبى، ١٩٩، النصرانية من التوحيد، ص ١٨٥، قصة الحضارة، ١٤ / ١٠٢.

(٢) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٨.

(٣) مجموعة الشرع الكمى، ص ٣٦٤، وما بعدها، المجمع النصرانية، ص ١١٤ - ١١٧، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢٢٧ - ٢٩٩، المسيح، عبود، ص ٩٠، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ١٨٥، ١٨٦، عقيدتنا التثليث والصلب، ص ٤٧، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص ١٨٦، المسيحية، شلبى، ص ١٩٤، نشأة الطوائف المسيحية، ص ٥١، ٥٠، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٣٧، الأسفار المقدسة، وافى، ص ١٢٢، أضواء على المسيحية، ١٠ - ١٦، دراسات فى الأديان، ص ١٦٢.

(٤) يلاحظ أن لازم ذلك هو أن المسيح - تعالى الله عن قولهم - كان إلهاً وهو فى بطن أمه، وأمّه مريم حملت بالإله، فهى بهذا عندهم والدة الإله - تعالى عن قولهم وقاتلهم الله أنى يؤفكون - وهذا الكلام كما أنه لا دليل شرعى عليه، فهو مرفوض عقلاً، ولا يمكن بحال تصوره، كما أنهم لا يستطيعون أن يقيموا على هذا أدنى دليل. وإن دل ذلك فإنما يدل على فساد عقولهم وعظيم انحرافهم وتغلغل الوثنية فيهم.

وهنا نرى انشقاقاً بين النصرانية المثلثة، واختلافاً سيكون بعيد المدى في الأجيال المقبلة، وهو أساس اختلاف الكنائس إلى يومنا الحاضر، فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان أحدهما إنسانية يشارك فيها الناس والأخرى لاهوتية، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين، وهو بذلك يخالف النسطوريين القائلين أن أقنوم الابن لم يكن من العنصرين، بل من العنصر الإنساني وحده، ويخالف قرار أفسس الثاني الذى يقول إن المسيح له طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى من الروح القدس ومن مريم العذراء، مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة.

وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة. فقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان، فثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطريركاً بعين على غير مذهبهم، وغلى غير رغبتهم، فصاروا يتحينون القرص، كلما لاحت لهم.

وظهر للمذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى المعارضة، بليغ الأثر، اسمه يعقوب البرادعى، وقد أخذ يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكتيسة المصرية، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون إلى أن للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البرادعى زعيم هذا الحزب.

ولكن من الخلط الكبير عزو هذا المذهب إلى يعقوب لأن هذا المذهب نشأ قبله وهو أخذ به ودعا إليه^(١).

وعلى هذا استقرت عقائد كل من مصر والحبشة وأثيوبيا ومعظم مناطق أفريقيا على أن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، والعذراء تدعى والدة الإله.

ومذهب الكاثوليك: يقضى بأن للمسيح طبيعتين فألمسيح أقنوم إلهى بحت له طبيعة إلهية وطبيعة بشرية. ومن الملاحظ فى هذا المذهب أنه بنى فى شكله

(١) راجع المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص ١٨٦، ١٨٧.

على مذهب نسطور الذى قال بطبيعتين فى المسيح، إلا أن روح هذا المذهب الكاثوليكي تختلف عن مذهب نسطور، ووجه الاختلاف فى أن نسطور كان يرى بأن المسيح إنسان قد اتصل به اللاهوت بعد ولادته وأفاض عليه، ولذلك فإن مريم لم تكن إلا إنساناً.

أما الكاثوليك فيرون أن مريم ولدت الاثنتين جميعاً فهي قد ولدت يسوع الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشيتتان وأقنوم واحد.

ويبدو أن الانقسام حول طبيعة المسيح الغير مفهومة فى العقيدة الجديدة لم تتوقف عنه هذا الحد فحسب، بل بدأ يتجول داخل أصحاب المذهب الواحد، ولذلك تراجعت بعض الصفوف فى الكنيسة الأرثوذكسية عن مذهبها فى المسيح، منها كنيسة أورشليم، وهى من الكنائس الشرقية التابع للأرثوذكس، والتي ارتضت قرارات خلقدونية - القائلة بالطبيعتين - التى رفضتها الكنيسة المصرية القبطية^(١).

وهكذا كانت هذه المجامع الأربعة السابقة هى التى أقرت بها العقيدة النصرانية الحاضرة. فأولها قرر ألوهية المسيح، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله لا الإنسان فقط وإن مريم ولدت الاثنتين، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين لا طبيعة واحدة محددة.

والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة - وإن كانت لم تتحقق فيها صفة العمومية، أما المجمع الرابع فهو ليس مجمماً عاماً فى نظر المصريين والكنائس التى تهج كنيستهم.

والمجامع التالية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه النصراني بأنه

(١) راجع المسيحية، بين التوحيد والتثيبت، ص ١٨٧ - ١٩٠، المجامع، ص ١٢٤، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢٤٢.

مجمع مسكونى كما يعبرون، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها عن كنيسة روما أو انشقاق كنيسة روما عنها.

٥- مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٢م

وقد حضره مائة وأربعمون أسقفاً وكان سبب انعقاده كما يقول ابن البطريق أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح حتى قال بعضهم إنه ليس هنا قيامة. وزعم بعضهم أن شخص المسيح لم يكن حقيقياً بل كان خيالياً^(١). وقرر هذا المجمع فساد هذه العقيدة وبطلانها وأكدوا أن القيامة حق والبعث حق والحساب حق والجزاء حق كما قرروا حرمان أولئك الذين نادوا بتناسخ الأرواح^(٢).

بينما ترى دائرة معارف الدين والأخلاق أن عقده كان للدفاع عن النسطورية وتأكيداً للقول بالطبيعة الواحدة للمسيح^(٣).

ويرفض د. رؤوف شلبى الرأى الذى يقول إنه عقد لإقرار ما توصل له مجمع خلقدونية، ويرى أن المجتمعين قد أيدوا مذهب الطبيعة الواحدة ولعنوا أصحاب فكرة تناسخ الأرواح وطردوهم وأثبتوا أن عيسى كان شخصية حقيقية ولعنوا كل من قال إنه خيال^(٤).

مجامع بعد بعثة النبى - ﷺ - عام ٦١٠م:

(١) راجع المجامع النصرانية، ص ١١٧.

(٢) راجع معاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٤٢، ١٤٣، المسيحية، شلبى، ١٩٩، أضواء على المسيحية، ص ١١٠، عقيدتنا التثليث والصلب، ص ٥٢، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ٢٣١ - ٢٣٤، المجامع النصرانية، ١١٧ - ١١٨.

(٣) ١٩٢، ١٩١/٤.

(٤) راجع كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢٣٢، المجامع النصرانية، ١١٨، ومجموعة الشرع الكنسى، ص ٤٤٦، وما بعدها.

٦- مجمع القسطنطينية الثالث ٦٨٠م

نادى يوحنا مارون بسوريا أن يسوع ذو طبيعتين طبيعة إلهية وطبيعية ناسوتية وهو ذو مشيئة إلهية واحدة، فانعقد المجمع بمدينة القسطنطينية لبحث هذا القول وقرر أن يسوع ذو طبيعتين طبيعة إلهية وطبيعة ناسوتية وذو مشيئتين مشيئة إلهية ومشيئة ناسوتية، إلا أن السوريين تشبثوا بقول يوحنا مارون السابق وخرجوا منفصلين عن الكنيسة الأم منشئين الموارنة بالشام على أساس المشيئة الإلهية الواحدة^(١).

وهو ما يعنى انقسام الكنيسة المملكانية أو الكاثوليكية القائلة بالطبيعتين، حيث فارقت الكنيسة المارونية - بعد هذا المجمع - الكنيسة الأم وقالت بالمشيئة الواحدة لطبيعتي المسيح، خلافاً لمن قال بالطبيعتين والمشيئتين^(٢).

٧- مجمع نيقية الثاني ٧٨٧م

دعا الإمبراطور قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤م إلى عقد مجمع بمدينة القسطنطينية، دعا فيه إلى تحريم اتخاذ الصور والتماثيل، وحرم طلب الشفاعة من المذراء، وقد اعتذر عن حضور هذا المجمع بطاركة أنطاكية، وبيت المقدس، والإسكندرية، ولم يحضره سوى ٣٤٠ أسقفاً، برئاسة بطريرك القسطنطينية، ولهذا لم يعتبر هذا المجمع مسكونياً على الحقيقة.

ولأجل هذا انعقد مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧م، وكان مجمعاً مسكونياً حضره ٢٧٧ أسقفاً، وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين وعبادتها.

وقد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبروه عاماً، وخالفته أخرى فلم

تعتبره كذلك^(٣).

(١) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٤٢، ١٤٤، الأسفار المقدسة، وافي ١٣٤. المسيحية، شلبى، ١٩٥، ٢٠٠، أضواء على المسيحية، ص ١١١، عقيدتا التثليث والصلب، ص ٥٢، كتاب يا أهل الكتاب تمالوا، ص ٢٢٤ - ٢٢٥، المجمع النصرانية ١١٨ - ١٢٠، مجموعة الشرع الكسبي، ص ٤٨٦، وما بعدها.

(٢) المجمع، ص ١٢٤.

(٣) راجع محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٤٤، ١٤٥، مختصر تاريخ الكنيسة، ٣٩٥، ٣٩٦ =

٨- مجمع القسطنطينية الرابع عام ٨٦٩م

وقد انعقد بسبب الخلاف بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما في الروم القدس هل انبثق من الأب فقط وهو زعم كنيسة القسطنطينية، أم من الأب والابن معاً كما هو زعم كنيسة روما؟

حيث نادى الأسقف «فوسسيوس» أسقف القسطنطينية بأن الروح القدس منبثق عن الأب فقط، وقد قرر هذا المجمع أن الروح القدس منبثق عن الأب والابن وهو قول كنيسة روما. كما قرر حرمان فوسسيوس وتقيمه من البلاد^(١).

٩- مجمع القسطنطينية الخامس سنة ٨٧٩م

لم تكد تمضى عشر سنوات على المجمع الأخير حتى استعماد الأسقف فوسسيوس مكانته وانعقد هذا المجمع وأصدر قراراته ببطلان قرارات المجمع السابق المنعقد عام ٨٦٩م، وأكد أن الروح القدس منبثق من الأب فقط، ونجم عن هذا انشطار الكنيسة إلى الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك فظهرت كنيسة الروم الأرثوذكس بالقسطنطينية في الشرق، وكنيسة الروم الكاثوليك في الغرب، ونشأ كرسي البابوية في الشرق نظير كرسي البابوية في الغرب، ونجم عن ذلك عدم الاعتراف ببابا روما على الإطلاق مع اختلافات جوهرية عقديّة بينهما^(٢).

وهكذا كان هذان المجمعان هما السبب في انقسام الكنيسة إلى شرقية يونانية وغربية لاتينية، وتسمّى البطرسيّة لكون مشايعها يعتقدون أن مؤسسها

= كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ٢٢٥ - ٢٢٩، أضواء على المسيحية، ص ١١١، قصة الحضارة، ١٤/١٢، وقد ذكر في قصة الحضارة أن عدد الأساقفة فيه ٢٥٠، المجمع النصرانية ١٢٠ - ١٢١، مجموعة الشرع الكنسي، ٧٦١، وما بعدها.

(١) راجع، النصرانية والإسلام، الخلف، ص ٢٠٢، محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٤٥، الأسفار المقدسة، وإفي، ص ١٢٥، المسيحية، شلبس، ٢٠٠، مجموعة الشرع الكنسي ٧٦١، وما بعدها.

(٢) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ١٤٦، الأسفار المقدسة، وإفي، ص ١٢٥، المسيحية، شلبس، ص ٢٠٠، أضواء على المسيحية، ص ١١٢، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢٤٠ - ٢٤٢، مجموعة الشرع الكنسي، ٨٤٦، وما بعدها.

الأول هو بطرس الرسول في زعمهم وأنه كبير الحواريين ورئيسهم، وتسمى الغربية لكون سلطاتها في بلاد الغرب.

وأما الكنيسة اليونانية ويقال لها أيضاً كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية فأكثر مشايعها في الشرق وسلطانها منه، وهي تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية في كثير من التقاليد النصرانية، ولكنها تخالفها في انبثاق الروح القدس فتقول إنه من الأب فقط كما بينا، ولا تعترف إلا بالمجمع السابقة على المجمع الذي أوجد الانفصال - السبعة التي سبقت مجمع القسطنطينية الأخير - كما لا تعترف لبابا رومية بالسيادة أو الرئاسة.

ولكن لمرور الزمن وما أحيط به من تقديس بين مشايعهم وعند الملوك وكثرة معتنقى مذهبه تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم بالسلطان، ويليه في الرتبة بطريرك القسطنطينية والمشايمون لها في بلاد روسيا واليونان والمغرب وكثير من جزر البحر الأبيض وغير هؤلاء^(١).

وهكذا تقرر الانفصال بين الكنائس على النحو التالي:

- ١ - الكنيسة المصرية بالإسكندرية وحدها، ومقر رئاستها القاهرة، وقد انشقت عام ٤٥١م حيث لم توافق على قرارات خلقدونية.
 - ٢ - الكنيسة المارونية في سوريا وانشقت عام ٦٨٠م، حيث لم توافق على قرارات مجمع القسطنطينية الثالث.
 - ٣ - الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية وحدها، ومقر رئاستها القسطنطينية.
 - ٤ - الكنيسة الغربية البطرسية البابوية وحدها، ومقر رئاستها روما.
- وقد تلا هذا المجمع عدة مجامع أخرى ساهمت في تقرير بعض العقائد لدى النصارى من أهمها:

(١) راجع محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص ١٤٦، ١٤٧.

١٠- المجمع التاسع (مجمع لاتران^(١) الأول) عام ١١٢٢م

وقد انعقد في روما. ومن أهم قراراته أن تعيين الأساقفة من شأن البابا لا من شأن الحكام.

١١- المجمع العاشر عام ١١٣٩م

وقد انعقد في روما كذلك لإزالة الخلافات بين الكنيسة، لكنه فشل في التوصل إلى حل الخلافات بين الكيستين الشرقية اليونية والغربية اللاتينية.

١٢- المجمع الحادى عشر (مجمع لاتران الثالث) عام ١١٧٩م

وفيه توصلوا إلى انتخاب البابا بثلى عدد الكرادلة، والسكوت عما شاع من استحالة الخبز والخمر في العشاء الربانى إلى جسد ودم المسيح.

١٣- المجمع الثانى عشر (مجمع لاتران الرابع) عام ١٢١٠م

وقد انعقد في روما. وتقرر فيه أن العشاء الربانى يتحول إلى جسد ودم المسيح، وأن الكنيسة البابوية تملك الففران وتمنحه لمن تشاء، وهو ما تطور فيما بعد إلى وثائق تباع عرفت باسم صكوك الففران كما ذكرنا.

ثم توالى المجمع على شكل هذه المجمعيات إلى أن احتدت المنازعات بسبب ظهور البروتستانت، فكان أهم المجمع بعد ذلك المجمعين التاسع عشر والعشرين.

١٤- التاسع عشر: من عام ١٥٤٢ إلى عام ١٥٦٣م

ثم انعقاد هذا المؤتمر المتواصل انعقاده من عام ١٥٤٢ إلى عام ١٥٦٣م للرد على الأفكار التى نادى بها البروتستانت، وكان مكان الانعقاد فى مدينة (ترانتو) شمال إيطاليا.

(١) لاتران: قصر فى روما كان مقاماً للباباوات مدة عشرة قرون تقريباً. انظر المنجد، ص ٦٠٦.

١٥ - العشرون « الفاتيكان المسكون الأول » عام ١٨٦٩م

وقد انعقد فى روما . ويسمى «مجمع الفاتيكان المسكونى الأول». وقد انعقد لمواجهة العصر الحديث وعلومه، والاكتشافات العلمية التى تقطع بعدم مصداقية الأناجيل من الناحية التاريخية أو العلمية، وأهم ما جاء فى قراراته أن البابا معصوم، الأمر الذى أدى إلى انقسامات وخلافات جديدة بين الكنائس^(١).

١٦ - مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى ١٩٦٢ - ١٩٦٥م

والذى يعمده الباحثون أول مجمع يتخذ خطأ هجومياً على كافة المستويات باتخاذ قرارات لا سابقة لها فى التاريخ تتلخص أهمها فى:

- فرض العقيدة الكاثوليكية على العالم أجمع.
- الإجهاز على النظام الشيوعى بزعم إلحاده.
- تبرئة اليهود من دم المسيح رغم كل النصوص وكل أقوال المسيح التى تدين ذلك.

- الإجهاز على الإسلام والمسلمين تحت ستار إقرار مبدأ الحوار مع الديانات غير المسيحية.

كما قام هذا المجمع بمناقشة القضايا التالية والبت فيها:

- مفهوم الله والإنسان المسيحى الحالى.
- البنية الداخلية للكنيسة وبخاصة دور البابا الرئاسى المتسلط فيها وعليها.
- الأحداث السياسية لهذا العصر.
- التوترات القائمة فى قلب الفاتيكان.
- تكوين القساوسة ووحدة رجال اللاهوت.
- الاستمانة بالعلمانيين كأدوات استشعار لرجال الكهنوت والمبشرين.

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص ١١٦، المسيحية، شلبى، ٢٠٠، تصدير العالم، ص ٧٥.

- دور العذراء فى الكنيسة.

- النشاط التبشيري لغير المسيحيين.

وإن ظل أخطر قراراته هو تصير العالم. لذلك قام بإنشاء «المجلس الدائم لأساقفة الكنيسة العالمية»، الذى تتلخص مهمته فى إعلام وإرشاد مقر العمليات العالمى الخاضع للبابا.

أما عبارة تحديث الكنيسة التى ابتدعها المجمع فتعنى إعادة صياغة العقيدة بكل ما فيها من لا معقول وتقديمها بعبارات ومفاهيم يقبلها العصر الحديث أو تتمشى مع عقليته، أى أن الكنيسة ناقضت موقفها السابق من العصر الحديث وبدأت تتحايل لتتمشى معه. ويمكن القول أن كل ما يتخذ من خطوات يتواكب من أجل تنفيذ مخطط تصير العالم^(١).

- والواقع أنه من خلال دراستنا للمجامع المسكونية وما تقرر فيها يتبين لنا أن النصارى لا يملكون أدلة صحيحة صريحة يستندون إليها فى عقائدهم، لهذا اختلفوا تلك الاختلافات الخطيرة التى تمس جميع جوانب العقيدة لديهم على نحو ما هو واضح فيما قدمناه.

- وما يستند إليه النصارى ويتحمسون له لا يعدو أن يكون فهماً خاصاً يسمى أصحابه لتثبيته عن طريق تلك المجامع، ولا يخلو الأمر من الأهواء والأغراض الخاصة من حب الرئاسة وفرض السيطرة.

- ولم تكن هذه المجامع فى يوم من الأيام هيئات شورية يتبادل فيها المساواة الأراء تبادلاً حراً، ويتوصلون فيها إلى الحق بأدلتها، بل كانت تعقد فى أغلب الأحيان لفرض رأى أو تصور معين، وبقوة السلطان أو قوة الكنيسة.

ولقد كانت تلك المجامع أداة بيد الأباطرة الرومان يسخرونها لرغباتهم فى التوسع والسيطرة أو تحقيق أغراض سياسية.

- ولقد رأينا فيما سبق كيف أن المجامع قررت قرارات عقدية معينة، وعلقت

(١) تصير العالم، ص ٧٥، ٧٦.

وحرمت من لم يقل بها، وقررت أن سبيل النجاة هو اعتقاد تلك العقائد، وهنا سؤال يطرح نفسه: ما هو حال حوارى المسيح وأوائل النصرارى الذين لم يكونوا يمتدنون تلك العقائد، ولم يتكلموا فيها بكلمة واحدة كالتثليث وطبيعة المسيح وانبثاق الروح القدس من الأب أو الابن ومعاً إلى غير ذلك.

- لقد صاغت المجامع العقائد بكل تفاصيلها، دون أن يكون لها أصول نصية شرعية، مما يجعلنا نقرر أنها ليست إلا عملاً بشرياً.

ونبرز فيما يلى أهم ما كان لهذه المجامع من آثار فى تحريف العقيدة النصرانية:

أولاً: نمت البذرة التى وضعها بولس فى الانحراف بالنصرانية عن عقيدة التوحيد، فقررت هذه المجامع ألوهية المسيح، مع ما وقع بين هذه المجامع المتتابعة من تضارب فيما قررته بشأن طبيعة المسيح، وهل هو ذو طبيعة واحدة ومشئمة واحدة، أو ذو طبيعتين ومشئتين.

ثانياً: تقرر فى هذه المجامع عقيدة التثليث بعد أن تقرر تأليه روح القدس، بالإضافة إلى الأب والابن منحرفة بذلك عن مسار التوحيد، وقد غلبت هذه العقيدة على الديانة النصرانية منذ بداية القرن الرابع، متأثرة فيما قررته بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والتى تزعمها أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى وإليه تنسب الأفلوطينية الحديثة وكانت أراء هذه المدرسة تتلخص فى الآتى:

- أن الله منشئ الأشياء ولا يحتاج إلى موجد.

- أن العقل هو أول شيء صدر عنه كأنه يتولد منه.

- ومن العقل انبثقت الروح التى هى وحدة الأرواح.

فمن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه تولد كل شيء. وقد نشأ بطريرك الإسكندرية الذى كان له الدور الأكبر فى مجمع نيقية فى هذه البيئة التى انتعش فيها مذهب أفلوطين، لذلك لم يكن عجباً منه عند تواجده فى مجمع نيقية أن يكون من المدافعين بشدة عن عقيدة التثليث وتكرر منه ذلك فى المجمع

القسطنطيني الأول، حتى صارت عقيدة وقراراً لكل من المجتمعين سرت بعد ذلك إلى جميع الكنائس النصرانية.

أما عن السر في ميل أباطرة الرومان إلى عقيدة الوهية المسيح والموت والقيامة فيوضحه ما جاء في كتاب «مصادر المسيحية» نقلاً عن تاريخ سوريا للمطران «يوسف الدبس»: أن القديس يوستيوس قال في عريضته للقيصر أدريان أنطونيوس:

«إننا إذ نقول إن الله خلق ونظم العالم لا نقول إلا ما قاله أفلاطون، وإن قلنا بعد الموت حياة أخرى يعاقب فيها الأشرار ويثاب الأبرار فلا نقول إلا ما قال شعراؤكم وفلاسفتكم، وإن قلنا إنه لا يلزم أن نسجد لعمل اليدين فهذا قول شعراؤكم، وإن قلنا إن الكلمة أو ابن الله البكر قد تجسد بنوع خارق للطبيعة وعلق على الصليب ثم قام وصعد إلى السماء فلا يحق لكم أن تستفربوا هذا المقال لأنكم تمزون هذه الأمور إلى من تدعون أنهم أبناء المشتري وإلى بعض ملوككم»^(١).

ونستخلص من كل ذلك أن الوثنية وقد كانت غالبية على أهل الأرض دفعت المتأثرين بها والذين اعتنقوا النصرانية إلى أن يستمدوا مما رسخ في أذهانهم واستقر في خيالهم من أمور الشرك ما طمسوا به الحق السماوي الذي جاء به المسيح - ﷺ - من عقيدة نقية في التوحيد المجرد لله وحده، وأنه إنسان مرسل بالحق طبقاً لما ورد في الإصحاح الثامن من العدد ٤٠ من إنجيل يوحنا مخاطباً اليهود قال: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله» فمسخوا ذلك بعقيدتهم الحالية التي تركز على التثليث كما قدمنا سالفاً.

ثالثاً: فتحت هذه المجامع الباب على مصراعيه للخصوم والشقاق بين النصراني في البلاد المختلفة، وتحول الانحراف عند الطوائف إلى عقائد ثابتة تأكدت في وثائق مجمعة تعتبر ملزمة ومعترف بها.

(١) تاريخ سورية، ٤٣/٢.

رابعاً: تتحمل المجامع - ولا سيما مجمع نيقية - مسئولية ضياع النسخة الأصلية للإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وذلك بما قرره ودعت إليه مما هو خلاف العقيدة المنزلة على عيسى عليه السلام. وإذا أخذنا بكلام ابن البطريق وكذلك عبد الأحد داود بعده، ثابت من قرارات مجمع نيقية اعتماد الأناجيل الأربعة المعروفة وحرق جميع ما سواها، فيتربط على ذلك أن المجمع كان سبباً مباشراً في ضياع الإنجيل الصحيح وفقدانه للأبد.

خامساً: لقد كانت المجامع من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف بين الكنائس النصرانية، ذلك أن المجتمعين في تلك المجامع لم يخرجوا في واحد منها متفقين على عقيدة واحدة، بل كلما اجتمعوا في مجمع يزداد اختلافهم، وبالتالي انقسامهم، وبذلك انقسمت الكنائس فيما بينها بسبب اختلاف موقفها فيما تقرره أو ترفضه المجامع من العقائد.

سادساً: لما كانت المجامع تتكون من أساقفة الكنائس، وكانت تجتمع إما تلبية لأمر الإمبراطور ليفرض عن طريقهم ما يريد من عقائد ترتبط بحاجاته السياسية، أو استجابة من الإمبراطور لرغبتهم، وانعقاد هذه المجامع ليفرضوا عن طريقها من العقائد ما يريدون، بغض النظر عن مدى صحتها، ومدى مطابقتها للنصوص العقيدية - لما كانت المجامع بهذه المثابة فإنها كانت في الواقع تمثل سلطة مطلقة تفرض على النصارى ما تشاء من العقائد، ولا تدع لأى نصرانى حرية استقاء العقائد من النصوص المقدسة على الوجه الصحيح، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قرره أحد المجامع من عصمة البابا، فإن ذلك يعنى تقرير سلطانه المطلق في أمر العقيدة.

وقد ساعد كل ذلك على فرض ما يريده الأساقفة والبابوات من عقائد محرفة ليس بينها وبين العقيدة التوحيدية الأولى أدنى صلة.

ولعل هذا يوضحه ما قرره مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م، والذي قرر أن تعاليم الدين لا يمكن تلقيها من الكتب رأساً، بل من أفواه العلماء ورجال الكهنوت، وأن أقوالهم حجة.

ومن قبله ما كتبه الأسقف «أجناسيوس» أسقف أنطاكية سنة ١٠٧م إلى
النصارى في «سمرنا»:

«عليكم جميعاً أن تطيعوا آباء السماء كما أطاع عيسى آباءه، اطيعوا أئمتكم
الروحانيين كما تطيعون الرسل، ولا يبأشر أحد منكم شأنًا من الشئون التي
تقوم بها الكنيسة كالتمعيد والزواج وحضور الموت والصلاة بدون حضور آباء
الكنيسة، وأنى يوجد الأسقف فإن حضوره يُعدّ حضوراً للمسيح نفسه تبعاً
لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية».

«الأب والأئمة الروحانيون لهم سلطان لقيادتنا وإرشادنا باسم المسيح، فمن
أيديهم نتلقى حياة الطهر عن طريق التعميد، وهم الذين يعطوننا الخبز
المقدس في العشاء الرباني، وهم الذين يربوننا لنصبح أبناء الله، وهم عوض
عيسى وآباؤنا الروحانيين، فعلياً أن نتعمق في احترامهم وحبهم وطاقاتهم».

«وكل رجال الكنيسة العظام من الأب المقدس إلى الأساقفة يصدر
الأوامر لتنظيم الكنيسة ولسلامة المسيحيين من الذنوب والهموم النفسية
وتشجيعهم على فهم الحياة الكنسية».

«والمسيحيون أعضاء يتكون منهم جسد عيسى المقدس فعلياً أن يمتثلوا
لأوامر الأساقفة وأن يسلموا أنفسهم للآباء الروحانيين»^(١).

وهكذا فإن الجامع النصرانية هي المصدر الحقيقي للديانة النصرانية
المحرفة، لأن تلك الفهوم التي كانت تقرر وتصدر وفقها القرارات لم تكن تعتمد
على نصوص قطعية واضحة، بل أحياناً كانت تعتمد على نصوص متشابهة وكلام
محتمل لأكثر من معنى ويكون من أقلها احتمالاً المفهوم الذي تدعيه الكنيسة.

سابقاً: كان تقرير الجامع لعقيدة التثليث، أو العقائد المحرفة عموماً يقترن
دائماً بلعن دعاة التوحيد أو المخالفين عموماً لقرارات الأغلبية في الجامع
واضطهادهم وإعلان طردهم من الكنيسة، وقد أدى هذا الموقف إلى تثبيت العقائد

(١) راجع المسيحية، شلبي، ص ١٥١.

المحرفة على حساب عقيدة التوحيد الصحيحة فى عقول النصارى وقلوبهم.

ثامناً: كان نتيجة لانقسام الكنائس أن فسدت الكنيسة بشقيها الشرقى والغربى، وامتد فسادها إلى خارج حدودها داخل المجتمع النصرانى. ودخلت الخرافات والأساطير والتقاليد الوثنية فى صلب عقائدها وتعاليمها وطقوسها، وامتزج كل ذلك بالتفسيرات المتناقضة لنصوص الأناجيل، وقد ظهر هذا فى مجامع لاحقة عقدت فيما بعد بشأن الطقوس الدينية، وهو ما اختلفت فيه الكنائس أيضاً.

ومن أمثلة ذلك:

مسألة الاستحالة أو العشاء الربانى:

وقد ذكرنا عقيدة النصارى فى ذلك ولكن الجديد هنا أنها أصبحت شعيرة لها سماتها، حيث يفتقد النصارى بتحول الخمر إلى دم ويستحيل الخبز إلى لحم، لحم شخص معروف، بل إله معبود لدى القوم.

وقد ثبت من نصوص العهد القديم والجديد ما يدل على بطلان هذه الحادثة من أساسها. ومن ثم فالنص المعتمد عليه فى مسألة الاستحالة نص باطل وكاذب، وكان على الكنيسة أن تفكر قبل أن تشرع ولكنها كما يقول الشيخ أبو زهرة: «فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته وإلا عرضوا للطرد والحرمان...»^(١).

أما المسألة الثانية:

فهى مسألة امتلاك الكنيسة حق الفجران للمسيء فى الدنيا، وهى من المسائل التى أبرزتها الكنيسة إلى حيز الوجود بدون دليل أو برهان حتى تعطى لنفسها قوة تفوق قوة أى سلطان، ومن ثم تكون باسم الثالوث صاحبة الأمر والنهى، وعقدت لهذه المسألة المجمع الثانى عشر، والذى ضرب بسيف الحرمان على كل من كان له اعتراض على هذا القرار.

(١) معاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٧١.

ثم تبع ذلك الاعتراف بالذنب امام القساوسة وما كان يحدث فى خلوات الاعتراف من فضائح. تلا ذلك ما روجته الكنيسة من عصمة البابا وذلك فى بيان عام لتابعيها، وجعل طاعة آباء الكنيسة كطاعة عيسى عليه السلام.

وهكذا بعدت النصرانية بعداً تاماً عن تعاليم المسيح - عليه السلام - وظهرت على السطح باسم الثالث نصرانية جديدة فاسدة تسمى نصرانية القساوسة.

ويصدق عليهم فيما يدعونه من عقيدة ويشرعونه للناس أنهم جعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله يحلون ويحرمون فينطبق عليهم قول الله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴿ (التوبة: ٣٠، ٣١).

حالة الفرق والمذاهب المسيحية بعد خلقيدونية النساطرة

مدرسة نصيين مركزاً للنسطورية. أساقفة نسطوريون: ١ - برصوما. ٢ - نرسييس. ٣ - باباي الأكبر. مآل النساطرة.

النساطرة

راى النساطرة فى مجمع خلقيدونية انتصاراً لمذهبهم الذى حُرِّمَ، وكُفِّرَ فى أفسس سنة ٤٣١. وأما أتباع القديس كيرلس الشديدي والتمسك بصيفه العقديية، فانخدعوا عن أمرهم، وظنوا أنهم ظلموا. وقد وُلِدَ هذه العقيدة النفسية عندهم فَهْمُهُم الضيق للصيغ الإسكندراية أولاً، وهتافات النصر التي صدرت عن خصومهم النساطرة ثانياً، فاعتقدوا أن ما تقرَّرَ فى خلقيدونية إنما كان عدولاً عما تمَّ الإجماع عليه فى أفسس سنة ٤٣١، حيث كُفِّرَ نسطور، وحُرِّمَ، تمَّ تثبيت عقيدة المذرداد أمَّا لله. وخرج هؤلاء وأولئك بتعاليم يختلف بعضها عن بعض، ولم يجمع بين الطرفين سوى اليقين بأن كلاً منهما هو الذى أصبح الزائد عن حرمة العقيدة المسيحية القويمية. ثم جاءت غايات السياسة وأغراضها، وتَزَيَّتْ النزعة القومية تلك الصيغ العقديية المختلفة التي أخذ أصحابها يلجؤون إليها، لا لشيء، إلا ليحققوا استقلالهم عن بيزنطة^(١).

مدرية نصيبين مركزاً للنسطورية

بعد أن أغلقت مدرسة الرها فى سنة ٤٨٩، انتقل أساتذتها وطلبتها المتأثرون بتعاليم نسطور إلى مدرسة نصيبين، وكانت يومئذٍ جزءاً ممَّا كان

(١) غ وق، الفكر الدينى، ج٢، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

يُسَمَّى بسورية الشرقية (العراق)^(١). كان هؤلاء الأساتذة يترجمون ما يتلقونه من علماء أنطاكية إلى لغتهم السريانية، ولاسيما مؤلفات تيودوروس المصيصى، وهو من الذين رفضوا عقيدة أم الله وصفاً للعذراء مريم، كما رفضوا أن يكون المسيح ابن الله حقاً وطبعاً^(٢). ويبدو أن العامل القومى هو الذى كان وراء استخدام هؤلاء الأساتذة للغة السريانية وحدها فى شعائرتهم الدينية ومؤلفاتهم العقديّة، وبذلك انفصلوا انفصلاً تاماً عن اللغة اليونانية، وعن كل صلة لهم ببيزنطة^(٣).

أساقفة نسطوريون

كان من أشد المهاجرين النساطرة من الرها إلى نصيبين تحمّساً للمذهب رجلاً كانا هما المؤسسان الحقيقيان للمدرسة الجديدة وهما برصوما ونرسيس. وكانا قد غادرا الرها إلى نصيبين سنة ٤٥٧. ثم إنهما هما اللذان ضمنا للنسطورية الانتشار فى الكنيسة الكلدانية، وحملنا هذه الكنيسة على الانشقاق نهائياً عن أنطاكية، ومن خلالها عن بيزنطة^(٤).

١ - برصوما

أما برصوما، فكان قد عُيِّن أسقفاً على نصيبين، وتوفى سنة ٤٩٠، وهو الذى أسس المدرسة، ووضع لها قوانينها وسلّم إدارتها لنرسيس، ثم ناشد ملك الفرس المجوسى فيروز شاه (٤٥٧ - ٤٨٤)، أن يقبل النساطرة وحدهم مسيحيين فى

(١) كانت سورية فى ذلك الزمان تمتد من سواحل البحر المتوسط إلى مرتفعات إيران، وكان أهلها يتكلمون اللغة السريانية، ثم إنهم كانوا يميزون فيها ثلاثة أقسام: سورة الغربية وعاصمتها أنطاكية، وسورية الوسطى أو الفراتية وعاصمتها مدينة الرها، ثم أخيراً سورية الشرقية، وكانت تمتد من المنطقة الواقعة شمال نهر دجلة إلى مصبه فى الجنوب، وكانت عاصمتها (أردشير) أو (سلوقية ائتيزيفون) نحو الجنوب بقليل من المكان الذى بنى فيه فيما بعد العباسيون مدينتهم بغداد (غ و ق، الفكر الدينى، ج ٢، ص ٢٢٢).

(٢) غ و ق، الفكر الدينى، ج ٢، ص ٣٠٣. (٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٤.

(٤) غ و ق، الفكر الدينى، ج ٢، ص ٢٢٤.

بلادهم، (وكان الرومان قد تنازلوا للفرس عن سورية الشرقية منذ عام ٣٦٣)، وصوّر له الفرق المسيحية الأخرى تأتمر به مع بيزنطة. فنصبوا أسقفاً نسطورياً على أردشير، عاصمة سورية الشرقية، وتبعه سائر أساقفة البلاد في مذهبه. وبذلك تم انشقاق الكنيسة الكلدانية نهائياً عن الكنيسة الكبرى^(١).

٢- نرسيس

أما نرسيس، فبقي حتى موته (٥٠٧)، أي سنة ٥٠ سنة؛ روح مدرسة نصيبين ورأسها المدبّر. وهو الذي جعلها مركزاً لإشعاع النسطورية وانتشارها.

كان أولو الأمر في المدرسة، إبّان نشأتها، قد تقيّدوا بالصيغة العقديّة التي انعقد عليها الإجماع سنة ٤٣١، (وهي الصيغة القائلة بأن المسيح أقنوم واحد في طبيعتين)^(٢).

لكنهم لم يلبثوا أن تخيلوا في هذه الصيغة شيئاً من اللبس (منشؤه الخلط بين مفهومي الأَقنوم والطبيعة). وأخذوا، تحت تأثير نرسيس، يتجهون إلى القول بالإثنيّة الأَقنومية (مما يعني أن اللاهوت والناسوت في المسيح، كلاً منهما، منفصل عن الآخر وأن العذراء ليست أمّ الله)^(٣).

٣- باباي الأكبر

كان باباي رئيساً على دير إبراهيم في الجبل المعروف اليوم باسم «طور عبيدين»، فوق نصيبين، في شمال سورية الشرقية. وقد قام بالدور الحاسم في توحيد صفوف النساطرة من الناحية العقديّة والسياسية، فاشتهر عندهم باسم باباي الأكبر. أما من حيث العقيدة، فإنه لم يزل بخصوصها يتتبعهم في الأديرة

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) نذكر أن الأَقنوم هو ما يقوم في ذاته ولذاته، على حين أن الطبيعة لا تقوم بذاتها، بل هي جزء من كل أو جزء في كل. ولذلك لا يصحّ من وجهة نظر مسيحية قديمة، أن تكون الطبيعة أقنوماً - الكاتب.

(٣) غ وق، الفكر الديني، ج ٢، ص ٣٢٥.

وخارجها، ويستمين عليهم حتى بضباط البلاط الفارسي. وقيل إنَّ أنتخب رئيساً على أساقفة النساطرة في أردشير، فرفض حتى يستطيع أن يتفرغ لمهمته التي كانت تتطلب منه تجولاً مستمراً وتقللاً من مكان إلى آخر. مات الرجل في ٦٢٧، وخلف آثاراً كثيرة أهمها كتابة «في الاتحاد»^(١).

في هذا الكتاب يمتدح بابي بأن المذراء أم الله. ويلجّ على إثبات وحدة الأقتوم في المسيح. لكنه، من ناحية ثانية، ينسب للمسيح طبيعتين كاملتين. كل منهما قائمة في ذاتها وبذاتها، مما يجعل اعترافه بأن المذراء أم الله لا ينهض على أساس. وبذلك يخرج عما أجمع عليه الآباء في مجمع أفسس وخلقيدونية^(٢).

مآل النساطرة

بهذه العقيدة، انفصل النساطرة عن الكنيسة الأم، وانسحبوا إلى مناطقهم من بلاد فارس وسورية الشرقية (العراق)، داخلين في نفوذ الفرس، وكانت الحيرة، الواقعة في جنوبي الكوفة، عاصمتهم الكبرى بين العرب اللخميّين. على أن قوماً من المونوفيزية (القائلين بالطبيعة الواحدة) كانوا هم أيضاً، ومنذ القرن السادس، قد استوطنوا هذه المدينة. لكنهم كانوا لجؤوا إليها فراراً من اضطهاد بيزنطة، ريثما يتوصل أئمتهم، بدورهم، إلى الاستقلال في القرن السابع بمصر ويقسمى سورية الغربية والفراتية. والواقع أن هؤلاء الأئمة استطاعوا، في نهاية الأمر، أن يفصلوا هذه الأقطار من القومية البيزنطية والثقافة اليونانية، لاجئين في صوغ شعائرهم الدينية، مثلما فعل النساطرة، إلى اللغة القبطية في مصر، واللغة السريانية في سورية^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٧.

ب- حالة الفرق والمذاهب المسيحية بعد خلقيدونية؛ المونوفيزية

تبيّن معنا، فيما تقدم، أن الإشكالية الكبرى التي نشأت عنها المذاهب والفرق المسيحية ترجع إلى تحديد ماهية العلاقة بين اللاهوت والناسوت في المسيح: هل هو أقنوم واحد في طبيعتين أم هي كينوتة في أقنومين؟

وبما أن الأقنوم هو ما يقدم في ذاته وبذاته مستقبلاً عن كل شيء سواه، فإن قول النساطرة بأن المسيح ذو أقنومين معناه اللاهوت والناسوت، اللذين اجتمعا في المسيح، منفصلين أحدهما عن الآخر انفصلاً تاماً، ينتج عنه أن الذي صُلب، ومات، إنما هو يسوع الإنسان لا يسوع ابن الله، وتالياً إن الله وكِدته العذراء إنما هو أيضاً يسوع الإنسان/ وإن السيدة العذراء ليست أم الله، بل أم يسوع الإنسان.

في الطرف المقابل مما ذهب إليه النساطرة، قام مذهب المونوفيزية، وهم أصحاب الطبيعة الواحدة في المسيح، وكأنه رجّع معاكس على ما قال به الأوّلون. ولعل أشد غلاة المونوفيزية أفتيخيس الذي ذهب إلى أن المسيح كان قبل التجسد ذا طبيعتين، لكنه بعد التجسد تلاشت الطبيعة البشرية أمام الطبيعة الإلهية، ولم يبق غير هذه الأخيرة، وقد مرّ معنا أن أفتيخيس قد كُفّر، وحُرم.

على أن الذي ضبط المونوفيزية المعتدلة في سورية بصيغتها النهائية، كما أخذ بها من عرفوا باليعاقبة فيما بعد، هو سفيروس الأنطاكي الذي اعتلى سدة بطريركية أنطاكية ٥١٢ إلى ٥١٨.

ويقوم مذهب الرجل على أن المسيح طبيعة واحدة أو أقنوم واحد، وهو الكلمة الذي تجسّد، لا ليصبح شيئاً آخر، بل ليكون موجوداً على وجه آخر^(١).



(١) غ و ق، الفكر الديني، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

لا يمكننا القول إن الاختلافات المذهبية أو العقديّة لم تكن شعاراً لتطلعات قومية كانت ترمي إلى الاستقلال عن هيمنة بيزنطة واللغة اليونانية على المسيحية المشرقية. وقد اشتدّت هذه الميول عندما تدخل الإمبراطور يوستيفانوس في المسائل اللاهوتية، جاعلاً من نفسه حكماً فيها، محاولاً التوفيق بين مقررات مجمع أفسس وخلقيدونية، لكن هذه المحاولات لم تتجح إلا في تنظيم كنيسة مونوفيزية في سورية الغربية والفراتية على رأسها يعقوب بن عداي؛ ومن هنا عُرف أتباعها باليعاقبة الذين اعتمدوا السريانية لغة لاهوتية وطقسية لكنيستهم. ومثل ذلك فعل المصريون، إذ تمذهبوا بالمونوفيزية، واعتمدوا اللغة القبطية في طقوسهم^(١).



ظهور هرطقة جديدة تتزامن مع ظهور الإسلام: القول بالمشيئة الواحدة في المسيح

القول بالمشيئة الواحدة في المسيح إنما جاء من قبل بطريرك القسطنطينية سرجيوس (٥٢١ - ٦٢٨)، في محاولة منه لكسب ولاء المونوفيزية، أقباطاً ويعاقبة، لبيزنطة التي كان يتهدد إمبراطوريتها العرب من الجنوب والفرس من الشرق. وقد عُرف أتباع هذا المذهب «بالمونوتيلية»، أو أصحاب المشيئة الواحدة، وكان منهم الموارنة^(٢). وهذا القول يؤدي إليه المونوفيزية، الطبيعة الواحدة، مثلما تؤدي المقدمات إلى النتائج. لقي هذا القول مقاومة من القديس سفرونيوس، أسقف أورشليم الذي سلّم مفاتيح القدس إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فكتب سرجيوس إلى البابا هونوريوس (٦٢١ - ٦٢٨) مبيّناً له ضرورة الأخذ بهذه النظرية تجنباً للفتنة التي كانت تذرّ بقرنها في الجانب المشرقي من الإمبراطورية. وافقه البابا على ما ذهب إليه، وتأسيساً على هذه

(١) غ وق، الفكر اللدني، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٤١.

(٢) انظر أديب نصر الدين، البنايع في المسيحية والإسلام، بيروت ١٩٩٤، ص ١٧٤ وما بعدها.

الموافقة، أصدر الإمبراطور هرقل مرسوماً تضمن الصيغة التالية: «إننا نمتترف بمشيئة واحدة فى ربنا يسوع المسيح الإله الحقيقى»^(١).

وفى جواب البابا إلى سرجيوس جاء قوله: «إننا نمتترف بمشيئة واحدة فى ربنا يسوع المسيح، لأنه واضح أن اللاهوت تولّى ناسوته بكل ما فيه ما عدا الخطيئة»^(٢). أى أن الناسوت يخضع للاهوت بمثل ما يخضع الجسد للنفس... لكن البابوات الذين خلفوا هونوريوس ارتدوا عمّا ذهب إليه - الأمر الذى أحدث انشقاقاً بين بيزنطة والكثيسة الكاثوليكية بروما انتهى إلى عقد مجمع مسكونى هو الثالث فى القسطنطينية بين ٦٨٠ و ٦٨١ برعاية الإمبراطور قسطنطس الرابع (٦٦٨ - ٦٨٦)، والبابا القديس أغاثون (٦٧٨ - ٦٨١)، وفيه تقرر وجوب الإيمان «بأن فى المسيح فعاليتين طبيعيتين، حقيقتين، بدون تقسيم، ولا استحالة، ولا تفريق، ولا امتزاج، وهاتان المشيئتان الطبيعيتان الحقيقتان، لا تضادٌ إحداهما الأخرى».. بل «كلتا الطبيعيتين فى المسيح تعمل، بالاشتراك مع الأخرى، ما هو خاص بها»^(٣).



(١) غ و ق، الفكر الدينى، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) غ و ق، الفكر الدينى، ص ٢٤٧.

(٣) غ و ق، الفكر الدينى، ص ٢٤٩.

عقيدة النصارى فى الحلول والاتحاد

أ - معنى الحلول والاتحاد

١ - معنى الحلول

الحلول لغة: النزول. و«حلَّ بالمكان يَحُلُّ حَوْلًا، ومحلًا، ومحلًا، وحلًا وحلًا، وذلك نزول القوم بمحلة. وهو نقيض الارتحال قال الأسود بن يعفر:

كما فاتتى من كريم كان ذا ثقة يذكى الوقود بجَمْد ليلة الحَلل

وحلَّ واحتل به، واحتله نزل به»^(١).

وجاء الحلول فى القاموس المحيط بمعنى النزول أيضاً^(٢).

«وحل غضب الله على الناس: نزل، وفى التنزيل العزيز:

﴿فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾^(٣).

والمكان وبه - حلوًا: نزل به. وفى التنزيل العزيز: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن

دَارِهِمْ﴾^(٤). ويقال: حلت بهم، وحلت عليهم. و - البيت سكنه. فهو حال جمع

حلول وحلَّال وحلَّال^(٥).

وجاء فى التعريفات للجرجاني: «الحلول السُرِّياني - بفتح السين المشددة

والراء المهملة - عبارة عن: اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما

(١) ابن منظور/ لسان العرب/ ج ١١ ص ١٦٢ فصل الحاء باب اللم.

(٢) للفيروز آبادى ج ٢ ص ٣٥٩ فصل الحاء باب اللام.

(٣) سورة طه/ آية ٨١. (٤) سورة الرعد / آية ٢١.

(٥) المعجم الوسيط ج ١، ص ١٩٢.

انظر كذلك محمد فريد وجدى / دائرة معارف القرن العشرين ج ٣ ص ٤٧٩.

إشارة إلى الآخر، كحلول ماء الورد في الورد. فيسمى السارى حالاً، والمسرى محلاً.

والحلول الجوارى، عبارة عن: كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر، كحلول الماء في الكوز.

ولعل الجرجاني يقصد به اتحاد الجسمين، حصول أحدهما في الآخر، واختصاصه به، وإلا فهناك فرق بين حلول الشيء في الشيء، وبين اتحادهما معاً، بحيث يصيران شيئاً واحداً، كما سنذكره بعد قليل في تعريف الاتحاد عند الجرجاني نفسه.

والحلول نوعان:

حلول عام؛ ومعناه - عند القائلين به - حلول الله في الكون فيصبح الكون كله بكل جزئياته محلاً له سبحانه وتعالى. وهو قول غالب متعبدة الجهمية^(١). الذين يقولون: «إن الله بذاته في كل مكان، ولا يخلو منه مكان».

وحلول خاص؛ ويقصد به حلول ذات الله، أو صفة من صفاته في جسد إنسان معين من خلقه، أو روحه، أو في أى مكان آخر حياً كان أو جماداً. بحيث يصبح هذا الشخص المعين، أو الكائن المعين محلاً للإله ومظهراً له.

وهذا النوع من الحلول هو الذى تقول به النصارى، حيث يقولون: إن ذات الله حلت في عيسى وتدرعت^(٢) به، كحلول الماء في الإناء.

وكلا النوعين باطل في حق الله - سبحانه وتعالى: لما يترتب عليه من المحالات في حقه عز وجل^(٣).

(١) أتباع جهم بن صفوان.

(٢) تدرع الرجل لبس الدرع، وتدرعت المرأة لبست الدرع. وكون ذات الله تدرعت بالمسيح - على حد قول النصارى - أى اتخذته درعاً كما يتدرع الإنسان قميصه. فاللاهوت تدرع الناسوت. تعالى الله عن قولهم.

(٣) انظر ابن تيمية مجموع الرسائل والمسائل ج١ ص ٩٧/٩٨ ط ١.

وانظر كذلك مجموعة الرسائل الكبرى ج٤ ص ٢٤، ٢٥.

وعلى العموم فلفظ الحلول «لفظ مجمل يراد به معنى باطل»، ويراد به معنى حق - كما سيأتى - وقد جاء فى كلام الأنبياء لفظ الحلول بالمعنى الصحيح، فتأوله من فى قلبه زيغ كالنصارى وأشباههم عن المعنى الباطل، وقابلهم آخرون أنكروا هذا الاسم بجميع معانيه، وكلا الأمرين باطل^(١).

٢- معنى الاتحاد

الاتحاد لغة صيرورة الشيئين واحداً. و«أحد الاثني» أى صيرهما واحداً^(٢).

ويقول الجرجانى فى تعريفاته: «الاتحاد هو تصيير الذاتين واحدة، ولا يكون إلا فى العدد، من الاثني فصاعداً»^(٣).

ويقول أيضاً: «الاتحاد هو امتزاج الشيئين، واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحداً»^(٤).

والاتحاد نوعان:

اتحاد عام: وهو اتحاد الذات الإلهية مع جميع الكائنات فتصبح عين وجودها. وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أن ذات الإله سبحانه هى عين وجود الكائنات.

اتحاد خاص: وهو اتحاد الذات الإلهية ببعض الناس المخصوصين، وامتزاج هذه الذات مع الإنسان فى شخص واحد، كما تقول بذلك فرق النصارى، حيث يقولون باتحاد اللاهوت والناسوت معا، وامتزاجهما فى شخص المسيح ﷺ.

وكلا النوعين باطل فى حق الله عز وجل؛ لما يترتب عليهما من المحالات فى حقه سبحانه وتعالى^(٥).

(١) ابن تيمية/ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح/ ج٢ ص ١١٧ / ١١٨ .

(٢) انظر الإمام السيد محمد مرتضى الزبيدي/ تاج العروس ج٢ ص ٢٨٨ فصل الهمزة باب الدال. وانظر كذلك الجرجانى فى تعريفاته ص٦ .

(٣) الجرجانى فى تعريفاته: صفحة ٦ .

(٤) المرجع السابق.

(٥) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى/ ج٢ ص ١٧١ بتصرف.

٣- العلاقة بين الحلول والاتحاد

الاتحاد مبنى على الحلول، فالقائلون بالاتحاد قد تدرجوا من القول بالحلول أولاً، ثم ارتقوا إلى القول بالاتحاد. ففى الحلول بقاء الأثنينية، بمعنى أن يحلّ أحد الشئيين فى الآخر، مع احتفاظ كل منهما بذاته.

أما فى الاتحاد فنقاء اللاتينية، بحيث تصبح الذات الإنسانية، والذات الإلهية شيئاً واحداً، فلا اثنينية بين ذات الإله، وذات الإنسان حينئذٍ.

وعقيدتا الحلول والاتحاد انتهت ببعض الفرق إلى القول بوحدة الوجود. حيث يقولون: لا حلول ولا اتحاد، بل ليس إلا موجود واحد.

وفى الحقيقة «يعتبر القول بالحلول والاتحاد خطوات أولى فى طريق القول بالوحدة، ويعتبر القول بوحدة الوجود ترقياً للقول بالاتحاد، وإمعاناً فى محو الأثنينية فى الوجود»^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى بيان معنى وحدة الوجود - عند القائلين بها:

«أنّ الوجود عندهم واحد، وهم يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات، منفصل عنها أصلاً، بل عندهم ماثمّ غير الخالق، ولا سواء. ولهذا قالوا: أنّ آدم من الله بمنزلة إنسان العين من العين»^(٢).

وهمؤدى مذهب وحدة الوجود: أن لا موجود غير الله، وكل ما فى الكون مما سواء ليس إلا مظاهر صفاته، وأسمائه، فهو الأول، والآخر والظاهر، والباطن. ولا وجود بحق إلا له، فهو قيوم كل شىء، منه مادته، وروحه معاً»^(٣).

إنّ فالقول بوحدة الوجود يعنى: أنّ وجود المخلوقات عين وجود الخالق، لا

(١) د. حسين جابر موسى/ تنزيه الله فى الفكر الإسلامى ص ٢١٧ (رسالة دكتوراه).

(٢) مجموع الفتاوى ج ٢ ص ١١٢ وكذلك الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صفحة ٨٢، ٨٣.

(٣) محمد فريد وجدى/ دائرة معارف القرن العشرين/ ج ١٠ ص ٧٦٤.

فرق بينهما من حيث الحقيقة، أمّا ما يظن أنه فرق بين وجود الخالق، ووجود المخلوق، فإنما هو - في نظر أصحاب وحدة الوجود - أمر يقضى به الحسن الظاهر، والمقل القاصر عن إدراك الحقيقة على ما هي عليه في ذاتها، من وحدة ذاتية تجتمع فيها الأشياء جميعاً.

ب- عقائد فرق النصارى في حلول الإله في المسيح واتحاده به؛ تمهيد:

قبل الكلام عن عقائد الفرق المسيحية فيما يتعلق بحلول الإله في المسيح، واتحاده به - كما يزعمون - نعبأ أن نقرر أنه كانت بين المسيحيين فرق تقول بتوحيد الله وتنزيهه، وتكر القول بالوهية المسيح، وما بنى عليه هذا القول من حلول الله فيه، واتحاده به، وإذا كانت هذه الفرق قد انقرضت وبادت أمام قوة السلطان، وإرهابه للموحدين، وأمام تيار الإنحراف الدينى الذى عمّ الكنائس المسيحية. فقد بقى تيار التوحيد عبر القرون عند قلة من المسيحيين كما سنفصل ذلك فيما بعد ومن هذه الفرق الموحدة التى انقرضت:

(١) «فرقة أبيون» التى تتكر الوهية المسيح، وتعتبره مجرد بشر رسول، وقد انقرضت فى أواخر القرن الرابع الميلادى.

(٢) فرقة بولس الشمشاطى^(١) الذى أنكر هو الآخر الوهية المسيح، وقرّر بشريته. وقد انقرضت هذه الفرقة فى القرن السابع الميلادى.

(٣) فرقة الأريوسيين؛ التى كانت تقاوم كنيسة الإسكندرية، فيما تذهب إليه من القول بالوهية المسيح، وبنوته. فقرر أريوس أن المسيح ليس لها، ولا ابن إله، وإنما هو بشر مخلوق. وقد انقرضت هذه الفرقة فى أواخر القرن الخامس الميلادى^(١).

(١) بعض المراجع تذكر أنه بولس السميشاطى. انظر بطرس البستانى فى دائرة معارفه/ المجلد الخامس ص: ٧٠٤.

(٢) انظر الدكتور على عبد الواحد واھى/ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام/ ص: ١٠٢/١٠٠ بتصرف.

لم يكتب لهذه الفرق البقاء - كما ذكرنا آنفاً - ولم يبق إلا الفرق القائلة بالحلول والاتحاد، على اختلاف بينها في التفاصيل، كما سنرى.

وكبار الفرق المسيحية - التي عنى ابن تيمية بالرد عليها - ثلاث: النسطورية، واليعقوبية، والمكانية.

وقبل أن نتكلم بالتفصيل عن هذه الفرق، وما يتمثل في عقائدها حول المسيح من الحلول والاتحاد، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ما ذهبت إليه من هذا الحلول والاتحاد لم يبدأ بتكوّن هذه الفرق في عصورها المختلفة، وإنما بدأ القول به على يد بولس الذي أشاع بأقواله بين المسيحيين عقيدتا الحلول والاتحاد في المسيح منذ سنوات المسيحية الأولى. لقد كان بولس كما قيل عنه: «ذا لسانين، وذا وجهين».

وهكذا انتشرت عقيدتا الحلول والاتحاد بين فئات كثيرة من المسيحيين اعتنقوها وهم الذين تكونت منهم فيما بعد الفرق المسيحية التي تدين بها، والتي سنشرح عقائدها الآن، ونرتّب الحديث عنها حسب ظهورها الزمني كما قلنا من قبل.

١ - عقيدة النسطورية في الحلول والاتحاد

تسبب النسطورية إلى نسطور، الذي كان بطريركاً للقسطنطينية سنة ٤٢٨م^(١). والذي ذهب إلى القول بأن مريم العذراء لم تلد الإله بل ولدت الإنسان فقط؛ لأنّ ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً؛ ولأن المخلوق لا يلد الخالق. وعلى هذا، فمريم لا تسمى والدة الإله، بل والدة المسيح الإنسان، وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته، أي اتّحد عيسى بعد الولادة بالأقنوم الثاني اتحاداً مجازياً، فمنحه الله المحبة، ووهبه النعمة، فصار بمنزلة الابن^(٢).

(١) ذكر الشهرستاني في الملل والنحل، أنها تسبب إلى نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون (٢٤ من ٦٤)، وهذا خطأ. والصحيح أنها تسبب إلى نسطور الذي كان بطريركاً للقسطنطينية. كما ذكر ذلك ابن حزم في كتابه «الفصل» (ج ١ ص ٤٩)، وسائر كتب الفرق.

(٢) انظر الدكتور أحمد شلبي/ المسيحية ص ١٨٩ / ١٩٠.

ومذهب نسطور على هذا محاولة للقرب من التوحيد، وإن كان قد وضع بقوله: «باتحاد الكلمة بجسد المسيح بعد الولادة» الأساس للقول بطبيعتين للمسيح، وهو القول الذى قال به النساطرة فيما بعد.

ولهذا الاتجاه التوحيدي عند نسطور، انعقد مجمع أفسس الأول سنة (٤٣١م)، وقرر: لمن، وطرد نسطور، الذى ينكر ألوهية المسيح.

ويصوّر الشهرستانى مذهب النساطرة على النحو الأتى:

«قال (أى نسطور): إن الله - تعالى - واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هى هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى - ﷺ - لا على طريق الامتزاج - كما قالت الملكانية - ولا على طريق الظهورية - كما قالت اليعقوبية - ولكن كإشراق الشمس فى كوة، أو على بلور، أو كظهور النقش فى الخاتم..»

ويعنى بقوله: هو واحد بالجواهر، أى ليس مركباً من جنس، بل هو بسيط واحد.

ويعنى بالحياة والعلم، أقتومين، جوهريين، أى أصليين مبدئين للعالم، ثم فسر العلم بالنطق والكلمة.

ويرجع منتهى كلامه إلى إثبات كونه تعالى موجوداً، حياً، ناطقاً، كما تقوله الفلاسفة فى حدّ الإنسان. إلا أن هذه المعانى تتفاير فى الإنسان؛ لكونه مركباً، وهو - أى الله - جوهر بسيط غير مركب...

وزعمت النساطرة أن الابن (الكلمة) لم يزل متولّداً من الأب، وإنما تجسد، واتحد بجسد المسيح حين ولد. والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت فهو إله إنسان اتحداً. وهما جوهران، اقتومان، طبيعتان: جوهر قديم، وجوهر محدث، إله تام وإنسان تام، ولم يبطل الإتحاد قدم القديم، ولا حدوث المحدث، لكنهما صارا مسيحاً واحداً، مشبّهةً واحداً^(١).

(١) نجد أن الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة =

وأما قولهم في القتل والصلب، فيخالف قول الملكانية واليعقوبية حيث يذكرون (أى النساطرة): أن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته، ولا من جهة لاهوته؛ لأن الإله لا تحله الآلام...^(١).

وينقل ابن حزم عن النساطرة تصورهم لكيفية اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح بأنهم يقولون: «إن الإله اتحد مع إنسان، بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً، كإتحاد الماء يلقي في الزيت، فكل واحد منهما باق بحسبه»^(٢).

ومعنى ذلك أن نسطور يذهب إلى القول بطبيعة واحدة للمسيح، وبالتالي بمشيئة واحدة له، ولكنه إذ قال باتحاد اللاهوت به بعد ولادته، وضع الأساس الذي تطور به أتباعه فيما بعد، حيث قالوا بطبيعتين للمسيح، وإن بقوا على الإحتفاظ بقوله بمشيئة واحدة له.

وسوى نرى أن النساطرة بهذا الرأي قد جمعوا بين قولى زعيمهم نسطور ومخالفيه من الملكانيين، فتابعوا الملكانيين في القول بالطبيعتين، وتابعوا نسطور في القول بالمشيئة الواحد، وسوف يتضح لنا ذلك عند عرضنا لعقيدة الملكانية. والنساطرة بهذا كما هو واضح قد انفصلوا عن زعيمهم نسطور حيث تطوروا بمذهبه على هذا النحو، وانفصلوا عن الكنيسة الشرقية، صاحبة القول بالطبيعة الواحدة - كما سيأتى - وأصبحت لهم كنيستهم الخاصة.

وليس من غرضنا التاريخ لهم وكنيستهم ولا لوضعهم المعاصر وعلاقتهم بالكنيسة الغربية. وحسبنا ما قدمناه عن مذهبهم الذى يتصل بغرضنا فى هذا الفصل.

= للإسلام، ص ١١١ قد ذكر أنه لم يقل بالمشيئة الواحدة إلا المارونيون، وهذا يخالف ما نقلناه هنا عن الشهرستانى، فالمارونيون مسبوقون بالقول بالمشيئة الواحدة على ما نقله الشهرستانى عن النساطرة بأنهم قالوا بالمشيئة الواحدة أيضاً.

(١) الملل والنحل/ ج ٢ ص ٦٤، ٦٥.

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ج ١ ص ٥٣.

(٢) عقيدة اليعقوبية في الحلول والاتحاد

تسبب إلى يعقوب البرادعى، لا كمؤسس لمذهبها، وإنما كمجدد له في القرن السادس الميلادى (٥٤٢م)، حيث «نشأ هذا المذهب قبل ظهور يعقوب البرادعى بأمد طويل، ولا أدل على ذلك من أنه قد أخذ بهذا الراى - وهو أن للمسيح طبيعة واحدة - معظم المجتمعين في مجمع أفسس الثانى الذى انعقد في منتصف القرن الخامس الميلادى»^(١).

فقد أعلن بطريرك الإسكندرية «البابا كيراس» بأن للمسيح طبيعة واحدة، ومشيئة واحدة. وعقد لهذا الغرض مجمع أفسس الثانى^(٢) بالأناضول سنة ٤٤٩م (عقد بطريرك الإسكندرية آنذاك البابا ديسقورس) واتخذ قراراً يوافق عقيدة البابا كيرس حول طبيعة المسيح. ثم كان مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م رداً على قرارات هذا المجمع ورفضها.

واليعاقبة إذ يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح الناشئة من اتحاد الأقتوم الثانى به (أى بالمسيح) يقررون بذلك أن مريم ولدت إلهاً، ولم تلد إنساناً عادياً، بل ابن الله المتجسد، لذلك هى حقاً أم الإله. يقول الشهرستانى فى تصوير مذهب اليعاقبة هذا:

«اليعقوبية قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة (الأقتوم الثانى) لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده، بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(٣). فمنهم من قال المسيح هو الله، ومنهم من قال ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح، مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة بل صار هو هو. وهذا كما يقال: ظهر الملك بصورة إنسان، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان. كما أخبر

(١) د. على عبد الواحد واهى الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص ١٠٩.

(٢) سماه الكاثوليك - تكهماً - مجمع اللصوص؛ لأنه - فى نظرهم - مجمع غير شرعى.

(٣) سورة المائدة، آية ٧٢.

التزليل عن جبريل - ﷺ - : ﴿ فَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾^(١).

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد، أقنوم واحد، إلا أنه من جوهرين وربما قالوا: طبيعة واحدة من طبيعتين، فجوهر الإله القديم، وجوهر الإنسان المحدث تركيباً كما تركيب النفس والبدن فصارا جوهرًا واحدًا أقنومًا واحدًا، وهو إنسان كله وإله كله، فيقال للإنسان صار إلهًا ولا ينعكس، فلا يقال الإله صار إنسانًا كالفضحة تطرح في النار فيقال صارت الفحمة نارًا، ولا يقال صارت النار فحمة وهي في الحقيقة لا نارًا مطلقًا، ولا فحمة مطلقًا، بل هي حجرة، وزعموا (أى اليعاقبة) أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئي لا الكلي. وربما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج، والإدراع، والحلول كحلول سورة الإنسان في المرأة المجلوة...

واليعقوبية لما اعتقدت أن المسيح هو جوهر من جوهرين وهو إله وهو المولود. قالوا: إن مريم ولدت إلهًا - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيراً - وكذلك قالوا في القتل: وقع على الجوهر، الذي هو من جوهرين. وقالوا: ولو وقع على أحدهما لبطل الاتحاد، وزعم بعضهم: أنا نثبت وجهين للجوهر القديم.

فالمسيح قديم من وجه، محدث من وجه. وزعم قوم من اليعقوبية: أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً، لكنها مرت بها كالماء في الميزاب^(٢).

وينقل ابن حزم عن اليعاقبة مذهبهم في المسيح - ﷺ -، وتصورهم لكيفية اتحاد اللاهوت بالاناسوت به حيث يقولون: «إن الإله اتحد من الإنسان بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً كاتحاد الماء يلقى في الخمر، فيصيران شيئاً واحداً»^(٣).

وليس من غرضنا أن نؤرخ لنشأة الكتيبة اليعقوبية، ولا أن نتبع الوضع المعاصر لهذه الكتيبة واتباعها، وإنما الذي نريد أن نقوله: إنها نشأت في أول

(١) سورة مريم آية: ١٧.

(٢) الملل والنحل ج٢ ص ٦٦ / ٦٧.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ ص ٥٢.

أمرها في أحضان الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية، وأن زعيمها (يعقوب) قام مجدداً لما تقرر في مجتمعي تلك الكنيسة (مجمع أفسس الأول والثاني) من القول بالطبيعة الواحدة للمسيح والمشيئة الواحدة له. وقد ظل هذا القول هو عقيدة كنيسة القسطنطينية حتى تسمت باسم الكنيسة الأرثوذكسية (أي الكنيسة المستقيمة الرأي) وانفصلت بذلك عن الكنيسة الغربية في روما. وذلك في الربع الأخير من القرن التاسع. فالمذهب الأرثوذكسي المعاصر يقول بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح.

(٢) عقيدة الملكانية في الحلول والاتحاد

أصحاب هذا المذهب يقولون بأن للمسيح طبيعتين:

طبيعة إلهية، وطبيعة ناسوتية، فهم يتفقون مع النساطرة في القول بأن للمسيح طبيعتين، لكنهم يختلفون عنهم في أنهم يقولون إن مريم ولدت الإله والإنسان معاً. فهي قد ولدت يسوع الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، مع الناس في الطبيعة الإنسانية. بينما قال النساطرة: إن مريم ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد به اللاهوت بعد الولادة - كما ذكرنا من قبل - وقد تقرر هذا المذهب بصورة قاطعة في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي عقد للرد على القائلين بالطبيعة الواحدة في مجمع أفسس الثاني، وتقرر فيه (أي في مجمع خلقيدونية) طرد نسطور القائل بولادة مريم لجسد المسيح فقط.

ويلخص (ابن البطريق) قرار مجمع خلقيدونية هذا إذ يقول:

قالوا: إن مريم المذراء ولدت إلهاً ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية. وشهدوا أن للمسيح طبيعتين، وأقنوم واحد، ووجه واحد.. ولعنوا المجمع الثاني الذي كان بأفسس^(١).

وقد انتصر لهذا المذهب الإمبراطور الروماني آنذاك، وحضور مجمع

(١) انظر الدكتور على عبد الواحد واهي/ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١١٠.

وراجع أيضاً كتاب الدكتور أحمد شلبي / المسيحية ص ١٩١، ١٩٦.

خلقيدونية هو وزوجته الملكة؛ لذلك سمي هذا المذهب بالمذهب الملكاني^(١).

ويقول الشهرستاني في بيان آراء هذه الفرقة:

«قالوا (أى الملكانية): إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت يناسوته، ويمنون بالكلمة أقتوم العلم، ويمنون بروح القدس أقتوم الحياة. ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابناً، بل المسيح مع ما تدرع به ابن. فقال بعضهم: إن الكلمة ما زجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن. وصرحت الملكانية: بأن الجوهر غير الأقانيم، وذلك كالموصوف والصفة.. وقالت: إن المسيح ناسوت كلى لا جزئى، وهو قديم أزلى من قديم أزلى، ولقد ولدت مريم عليها السلام لهاً أزلياً. والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عز وجل، وعلى المسيح...»^(٢).

ويقول ابن حزم في بيانه مقاله الملكانية:

«إنهم قالوا: إن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس. كلها لم تزل، وإن عيسى - ﷺ - إله تام كله، وإنسان تام كله، لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما معاً شيئاً واحداً»^(٣).

وينقل عنهم ابن حزم كذلك قولهم:

«إنَّ الإله اتَّحد مع الإنسان بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً، كاتحاد النار في الصفيحة المحماة»^(٤).

فالمذهب الملكاني إذن يقول بطبيعتين ومشيتين للمسيح ﷺ. إلا أنه - وكعادة المسيحيين في مخالفة بعضهم بعضاً ولعن بعضهم البعض - قد ظهر في

(١) ينسب الشهرستاني في الملل والنحل (ج٢ ص ٦٢) هذا المذهب إلى شخص اسمه ملكاً. وقد أخطأ في ذلك، وراجعه في هذا الخطأ الدكتور على عبد الواحد وافى في الأسفار المقدسة ص ١١٠.

(٢) الملل والنحل ج٢ ص ٦٢.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ ص ٤٩.

(٤) المرجع السابق ج ١، ص ٥٢.

القرن السابع الميلادي (٦٦٧) شخص يدعى (يوحنا مارون). فخالف هذا الاتجاه، وذهب إلى أن المسيح مع أنه ذو طبيعتين، إلا أن له مشيئة واحدة، وإرادة واحدة هي المشيئة الإلهية، والإرادة الإلهية؛ لإلتقاء الطبيعتين في أقتوم واحد. ولكن بطارقة الكنيسة الغربية في روما لم يرق لهم هذا الرأي ولم يقبلوه، وأشاروا على الإمبراطور أن يعقد مجمعاً ليقرر أن للمسيح طبيعتين، ومشيئتين، بعد أن عرفوا أنه يشاركهم الرأي، فعقد مجمع القسطنطينية السادسة سنة (٦٨٠م)، وقرر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ولعن طرد (يوحنا مارون)، ومن تبعه، وكفر من يقول بالمشيئة الواحدة^(١). وجاء في قرار المجمع ما يلي:

«إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد هو الكلمة الأزلية الدائم، المستوى مع الأب الإله في أقتوم واحد ووجه واحد، يعرف تاماً بناسوته، تاماً بلاهوته في الجوهري الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين، ومشيئتين في أقتوم واحد... فهو يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمل في طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمل في طبيعته... وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبها بمشيئتين غير متضادتين»^(٢).

وهكذا نجدهم دائماً يجتمعون على الضلال، ويفترقون على اللعن.

فالقول بالطبيعتين، والمشيئتين، هو قول الكنيسة الغربية منذ بداية الأمر، وحتى بعد أن تميّزت عن غيرها من الكنائس، في أواخر القرن التاسع باسم الكنيسة الكاثوليكية^(٣) (أي العامة أو العالمية). وبذلك يكون المذهب الكاثوليكي المعاصر، هو امتداد للمذهب الملكاني، على نحو ما يعبر عنه المؤرخون الإسلاميون.

(١) انظر الدكتور/ عبد الواحد وافي/ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١١١.

وانظر كذلك الدكتور أحمد شلبي/ المسيحية ص ١٩٢ ط ٥.

(٢) نقلاً عن كتاب الدكتور على عبد الواحد وافي / الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١١١.

(٣) في أواخر القرن التاسع الميلادي (٨٧٩) حينما حصل انفصال مذهبي بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، تسمت الكنيسة الشرقية بالأرثوذكسية التي يقول بالطبيعة الواحدة، والمشيئة الواحدة للمسيح، ويانبطاق روح القدس عن الله الأب فقط. وتتبع نظام الإكليروسى، الذي يبدأ من البطريرك، ثم المطارنة، ثم الأساقفة... إلخ.

ج - إبطال ابن تيمية لعقيدة النصارى فى الحلول والاتحاد

تناول ابن تيمية شبهات النصارى التى يستدلون بها على عقيدتهم فى الحلول والاتحاد - تناول تلك الشبهات بالردود المطولة عليها بما يبطلها خلال كتابه الجواب الصحيح، ويمكننا أن نستخلص من تلك الردود الطويلة أن شبهات النصارى فى الحلول والاتحاد يمكن وضعها تحت نقاط كلية يحاولون بها تصحيح ما يذهبون إليه من الحلول والاتحاد - كما يزعمون - وأن ردود ابن تيمية لا تنحصر فى تلك النقاط الكلية، بل يضيف ابن تيمية إلى إبطال شبهاتهم المندرجة تحت هذه النقاط أدلة أخرى يبطل فيها عقيدة الحلول والاتحاد عندهم. وهذه الوجوه يمكن حصرها بالتالى فى وجوه كلية تدرج تحتها تلك الأدلة.

وابن تيمية لم يعمد إلى هذا التسيق المنهجى لردوده على النصارى وأدلته على بطلان عقائدهم، بل كان يسرد هذه الردود والأدلة سرداً دون تبويب. إلا أننا وجدنا أن مثل هذا التسيق والتبويب لشبهات النصارى وردود ابن تيمية عليها، وأدلته التى يبطل بها عقائدهم يعين على الإحاطة بالموضوع من جميع وجوه إحاطة منظمة مع توضيح تلك الوجوه التى تدرج تحتها الشبهات والردود عليها والأدلة المبطله لتلك العقائد.

ويمكن ذكر مجمل الوجوه التى تدرج تحتها شبهات النصارى على عقائدهم فى الحلول والاتحاد وبالتالى تتوجه إليها أجوبة ابن تيمية فيما يأتى:
أولاً: استدلال النصارى على عقائدهم فى الحلول والاتحاد بالنصوص المقدسة عندهم. وردود ابن تيمية على ذلك.

= وتمت الكنيسة الغربية بالكاثوليكية، وذهبت إلى القول بالطبيعتين للمسيح، وبالمشيتين، وبانبثاق روح القدس عن الأب والابن معاً، وبالنظام البابوى الذى يرأسه البابا، والكرادلة.. انظر الدكتور أحمد شلبى المسيحية ص ٢٢٧ / ٢٢٨ ط ٥.

ثانياً: استشهاد النصارى بمعجزات المسيح وأعماله وفضائله وما يقتضيه ذلك من فضله على جميع مَنْ سواه مِنَ الأنبياء فى نظرهم - استشهادهم بكل ذلك على ما يزعمونه من حلول اللاهوت فيه واتحاده به، وأنه ليس كغيره مِنَ البشر. وردود ابن تيمية على ذلك.

ومن وجهة ابن تيمية فإنه يضيف إلى ردوده على عقيدة النصارى من الوجهين السابقين - يضيف إلى ذلك إبطاله لتلك العقيدة من وجهين آخرين:

أولاً: ما يثبته - ابن تيمية - من تناقض القول بالحلول والاتحاد عند النصارى مع العقيدة الصحيحة فى الله.

ثانياً: ما يرتبه - ابن تيمية - على القول بالحلول والاتحاد من استلزامه للمحال العقليّة التي لا يجوز فى حق الله عز وجل أو التي تتناقض مع البدائنه العقليّة السليمة.

وسوف نمرض فيما يلى إبطال ابن تيمية لعقيدة الحلول والاتحاد عند النصارى من جميع هذه الوجوه. وذلك بإيراد نصوص كلامه فى هذا المقام لما تتميز به تلك النصوص من الوضوح والقوة.

أولاً: إبطال ابن تيمية لاستشهادات النصارى بكتبهم المقدسة على الحلول والاتحاد

لقد كثرت النصوص التي يستشهد بها النصارى فى كتبهم المقدسة - فى زعمهم - على صحة ما يعتقدونه من حلول اللاهوت فى الناسوت المسيحى واتحاده به وتجسده فيه. وقد أبطل ابن تيمية استشاداتهم بتلك النصوص إما بإثبات زيورها وتحريفها، ومن ثم لا يصح الاستشهاد بها فى باب العقائد، وإما ببيان عدم دلالتها على ما يعتقدونه إذا فهمت على وجهها الصحيح - وذلك على فرض صحتها ولوجدها - وبيان أنهم يحملون ألفاظها من الدلالات مال تحتمله.

وسوف نختار من هذه النصوص الكثيرة أهم ما يستشهدون به على

عقيدتهم في الحلول والاتحاد. مع عرض ردود ابن تيمية عليها:

١ - يستشهد النصراني بما نقلوه عن أرميا من قوله عن ولادة عيسى:

«يقول لداود ابن، وهو ضوء النور يملك الملك، ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلص من آمن به من اليهود، ومن بنى إسرائيل وغيرهم، ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل، ويسمى الإله»^(١).

ويرد عليها ابن تيمية بقوله:

«... أما قول أرمياء: «واسمه الإله» فهذا يدل على أنه ليس هو الله رب العالمين، وإنما لفظ الإله اسم سمي كما يسمى موسى إلهاً لفرعون عندهم في التوراة، إذ لو كان هو الله رب العالمين لكان أجلّ من أن يقال «ويسمى الإله» فإن الله تبارك وتعالى لا يعرف بمثل هذا، ولا يقال فيه: إن الله يسمى الإله...»

وقال: «يملك الملك» ورب العالمين مازال ولا يزال مالكا للملك سبحانه. وأيضاً فإنه قال: «يقوم لداود ابن هو ضوء النور» ومعلوم أن الابن الذي من نسل داود الذي اسم أمه مريم هو الناسوت فقط فإن اللاهوت ليس من نسل بشر، وقد تبين أن هذا الناسوت الذي هو ابن داود، ويسمى الإله، فلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق لا للإله الخالق.

وأيضاً، فإنه قال: «وهو ضوء النور» فلم يجعله النور نفسه، بل جعله ضوء النور، والله تعالى منور كل نور، فكيف يكون هو ضوء النور، والله تعالى قد سمي محمداً - ﷺ - سراجاً منيراً، ولم يكن بذلك خالقاً، فكيف إذا سمي ضوء النور؟ وأيضاً فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود، وابن داود مخلوق، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشري لبيّن (أرمياء) وغيره من الأنبياء ذلك بياناً قاطعاً للعذر، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التي هي إما صريحة أو ظاهرة في نقيض ذلك، أو مجملة لا تدل على ذلك، فإنه من المعلوم أن أخبارهم بإتيان بنى من الأنبياء أمر معتاد

(١) سفر أرمياء ٣٣: ١٥ - ١٦.

ممکن، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة. وأما الأخبار بمجيئ الرب نفسه وحلوه، أو اتحاده بناسوت بشرى فهو: إما ممتع غير ممكن كما يقوله أكثر العقلاء من بنى آدم.. وإما ممكن - كما يقوله بعض الناس - وحينئذٍ فإمكانه خفى على أكثر العقلاء وهو أمر غير معتاد، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل رسول ونبي، ولا سيما إذا كان إتيانه باتحاده ببشر لم يظهر على يديه من الآيات ما يختص بالإلهية، بل لم يظهر على يديه إلا ما ظهر على يد غيره من الأنبياء ما هو مثله أو أعظم منه والله تعالى لما كان يكلم موسى، ولم يكن موسى يراه ولا يتحد لا بموسى ولا بغيره، ومع هذا فقد أظهر من الآيات على ذلك، وعلى نبوة موسى ما لم يظهر مثله ولا قريب منه على يد المسيح.

فلو كان هو بذاته متحداً بناسوت بشرى لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخباراً صريحاً بيناً لا يحتمل التأويلات، ولكان الرب يظهر على ذلك من الآيات ما لم يظهر على يد رسول ولا نبي، فكيف والأنبياء لم ينطقوا فى ذلك بلفظ صريح، بل النصوص الصريحة تدل على أن المسيح مخلوق ولم تأت آية على خلاف ذلك، بل إنما تدل الآيات على نبوة المسيح فقط،^(١).

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج٢ ص ١٨٧ - ١٨٩.

الفرق المسيحية التي كانت موجودة عند ظهور الإسلام

- المذاهب الرئيسية: الأريوسية والنساطرة واليعاقبة والملكانية:

بزغ فجر الإسلام والمسيحيون مختلفون فيما بينهم، ومتفرقون إلى كنائس عديدة منقسمة إما على أساس عرقى، أو على أساس مذهبى، والذي يهمنا - هنا - هو الانقسامات المذهبية؛ حيث يمكن إجمال المذاهب المسيحية المختلفة، المنتشرة فى العالم المسيحى إبان طلوع فجر الإسلام؛ أى فى مطلع القرن السابع الميلادى، فى أربعة اتجاهات أو مذاهب رئيسية هى: المذهب الأريوسى (أو الأريانى)، والمذهب النسطورى، والمذهب اليعقوبى، والمذهب الملكانى.

وفيما يلى شرح موجز لقصة نشأة هذه المذاهب وموضوع اختلافها:

كان أساس ومحور الاختلاف الذى فرَّ المسيحيين فرقاً متازعة هو اختلافهم حول تفسير طبيعة السيد المسيح ﷺ: هل هو بشر مخلوق كسائر المخلوقات؟ أم هو الله المتجسد الذى تأنَّس فظهر بصورة عيسى؟

صحيح أن المسيحيين الأوائل اختلفوا - فيما بينهم - فى مسائل عديدة، لكن أياً منها لم يكن له أهمية اختلافهم بشأن طبيعة المسيح (إله أم بشر)، وصله الجانب البشرى فيه مع الجانب الإلهى (عند مَنْ قال بالهَيْتَة)؛ لأنَّ هذا الاختلاف كان أساس نشأة الفرق المسيحية القديمة المتعادية والمتخاصمة.

ويرى المُتتَبِع للأفكار المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى، التالية لصُعود المسيح ﷺ، أن التيار الذى غلب وساد تدريجياً حتى صار كأنه هو الأصل، كان تيار القباطين بأن عيسى ابن مريم كان ابن الله حقيقةً، على معنى تألهى لهذه

النبوة؛ أى أنه إله حقيقى من جنس وجوهر أبيه الله، وأنه تجسد وتأنس ظاهراً فى صورة عيسى الذى ولد بنفخ الروح القدس من مريم العذراء عليها السلام. ولقد مالت الأثرية إلى هذا التصور عن شخص المسيح؛ بسبب الإنبهار بمُعجزاته الخارقة؛ لاسيما إحياء الموتى، وشفاء الأكمه والأبرص.. إلخ، بالإضافة لحياته الفائقة الرحمة بينهم، وكلماته الريانية عظيمة التأثير فيهم، فصاروا يشعرون كأن الله نفسه كان حاضراً بينهم، ويعمل بتأثيره فيهم، وقد ساعدت الثقافة اليونانية الهيلينستية السائدة فى منطقة الشرق الأدنى فى ذلك الحين، والتي كانت تؤمن - أصلاً - بتجسد الآلهة، وأن لبعض الآلهة أبناء يتجسدون ويظهرون على الأرض بشكل عُظماء وفاتحين ومُخلصين^(١)، ساعدت على انتشار وغلبة هذا التصور المبالغى بشأن شخص عيسى ابن مريم؛ معتبرين إياه: الله الذى حضر بنفسه.

وقد ساد هذا الاعتقاد تدريجياً، فى الفترة الأولى، بشكله البسيط، دون أن يخاض فيه، فى مباحث وتممّقات مثل أنه: هل الله الابن مساو لله الأب فى الدرّجة والجوهر؟ أم الأب أعظم منه؟ وأنه كيف امتجزت الألوهية بالبشرية فى الابن الإله المتجسد؟ ونحو ذلك من المباحث والتممّقات التى كان لابد لها أن تتطرح أمام الفكر فيما بعد. ومن الجهة الأخرى كان هناك تيار توحيدى، لاسيما بين المسيحيين من أصل يهودى، كان ينفى قدم المسيح وإلهيته، ويؤكد مخلوقيته وحدوثه، ويؤمن بتفرد الله الأب تعالى وحده بالإلهية، وينظر إلى المسيح كظئره إلى أنبياء الله العظماء أمثال إبراهيم وموسى وداود، ولم يكن هذا التيار بقوة الأول، لكنه استمرّ تياراً موجوداً له أنصاره وأتباعه، وتذكر المراجع التاريخية النصرانية، التى تتحدث عن تاريخ الكنيسة المبكر، أسماء عدة فرق فى القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تُتكر التثليث وإلهية المسيح مثل: الإيبونيّين Ebionites (فرقة من المسيحيين الأوائل من أصل يهودى ظلوا

(١) انظر تفصيل ذلك فى «المسيحية وأساطير التجسد فى الشرق الأدنى القديم اليونان» - سورية - مصر، دانييل إ. باسوك دار الأوائل، ط١، ٢٠٠٢.

متمسكين بشريعة التوراة) والموناركيانيين Dynamic Movarchians (اتباع الأسقف بولس الشمشاطى)، والغنوصيين Gnostics، والباسيليديين Bas-lildians، والكاربوهراطيين Ansita Carpocr، (والأخيران من فروع الغنوصيين)، والآريوسيين أو الأريانيين (اتباع الأسقف آريوس الإسكندرى)^(١).

ومن أشهر الأساقفة أو البطاركة المسيحيين الكبار القدماء - كما تذكره مصادر تاريخ المسيحية - الذين ثبتوا على التوحيد ونفى التثليث ناهين ألوهية المسيح أو بنوثة الحقيقة لله بمعنى الانبثاق من الله والمساواة فى الجوهر له): ديودوروس Diodore أسقف طرسوس، ويولس الشمشاطى Ssataomaspaul of أسقف وبطربرك أنطاكية، الذى كان يشرح بنوثة المسيح لله على معنى مجازى يرى بأن الله اتخذ يسوع الإنسان المخلوق كابن له؛ أى تبناه، لا أن المسيح مولود أو منبثق من الله، فالبنوة - على قوله - بنوة مجازية لا تقيد أكثر من شدة القرب والاتصال والحظوة والمكانة للمسيح لدى الله تعالى. ومنهم الأسقف لوسيان الأنطاكى أستاذ آريوس (توفى ٢١٢م) والأسقف الليبى الأصل الشهير: آريوس Arius أسقف كنيسة بوكاليس فى الإسكندرية (٢٥٠ - ٢٢٦م) والذى نالت آراؤه شهرة وانتشاراً كبيرين، وصار له أتباع كثيرون، وبقيت آراؤه حية بين الكثيرين لعدة قرون، ثم ألت للإنقراض، ثم أعيد إحيائها أثناء حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر، والأسقف يوزيبوس النيقوميدي Co-medialnus of ibesue (توفى ٢٤٢م) أسقف بيروت، ثم نقل لنيقوميديا قرب القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية، وكان من أتباع لوسيان الأنطاكى، ومن أصدقاء آريوس^(٢).

(١) كتاب "The Early Church" اى الكنيسة الباكرة، تاليف: Henry Chadwick، طبعة جديدة، نُشر 1990، Penguin Books، (لندن/ إنجلترا) من ٨٤ - ٩٠، ١٣٣ - ١٣٦.

(٢) المصدر السابق.

- الأريانية أو المذهب الأريوسى

(نسبة لأسقف الإسكندرية أريوس)

درس أريوس فى مدرسة لوسيان اللاهوتية فى أنطاكية، حيث كان يدرس عديد من اللاهوتيين الذين يحملون نفس عقيدة أريوس أيضاً. وبعد أن تم ترسيمه قسيساً فى الإسكندرية عام ٣١٩م، اختلف أريوس مع أسقف الإسكندرية حولى إلهية المسيح. وأظهر عقيدته التى مُودأها نفى إلهية المسيح، واعتباره مخلوقاً. وقد نُفى أريوس عام ٣٢٥ إلى الليريا Airylll، بسبب عقيدته تلك، إلا أن عقيدته كان لها أنصار ومؤيدون يُشاطرونه فيها الرأى، فاستمروا على الإعلان بذلك، مما أثار معارك من الجدل فى جسد كل الكنيسة، وهزأها لمدة أكثر من نصف قرن. وعلى الرغم من أن عقيدة أريوس تم تحريمها على مستوى الإمبراطورية الرومانية من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٧٩، إلا أنها استمرت فى البقاء لقرنين تاليين بين قبائل البرابرة فى أوروبا التى كانت قد اهدت إلى المسيحية عبر أساقفة أريوسيين.

كان أريوس يعلم أن الله لا يمكن أن يُولد؛ لأنه بلا بداية. وبناءً على ذلك، فيما أن الابن؛ أى الشخص الثانى من الثالث، مولودٌ، فلا يمكن أن يكون إلهاً بنفس مُستوى أو معنى الوهية الأب. وبالتالي؛ فإن الابن لم يتولد من نفس الجوهر الألوهى للأب، ولم يوجد منذ الأزل، بل خلقه الله من لا شيء، كما خلق سائر المخلوقات، فالابن موجود بإرادة الأب ومشيبته. وبكلمة أخرى: فإن علاقة الابن بالأب ليست علاقة انبثاق جوهرى أو ولادة حقيقية، بل هى علاقة خالق بمخلوق، والبنوة بين الأب والابن هى بنوة بالتبنى. وقد كان أريوس يسمى - عبر هذا التعليم - إلى الحفاظ على التفرد والعُلُو الإلهيين المطلقين، والذى رأهما مهددين بالأفكار اللاهوتية التى كانت تطرح فى عصر كالأفكار الموناركيانية (Movarchianism)^(١).

(١) المصدر السابق، وموسوعة إنكارتا الأمريكية: مادة الأريانية Aryanism، ومادة أريوس Arius.

أدى اللفظ وتصارع الأراء الذى أثاره تعليم آريوس إلى عقد أول مجمع مسكونى فى نيقية عام ٣٢٥م، والذى حضره ٢١٨ سقفاً، ذهب أكثريتهم إلى النص على العقيدة التى اشتهرت باسم العقيدة النيقاوية، وصارت دستور الإيمان المسيحى الأرثوذكسى، ونصها هو التالى:

«يسوع المسيح (هو) ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مُساو للأب فى الجوهر، الذى به كل شيء، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس وصدب عنا على عهد بيلاطس البنطى، وتألّم، وقبر، وقام فى اليوم الثالث»^(١).

وأهم ما فى هذه العقيدة أنها أكدت أن ابن الله لم يخلق، بل ولد Tob-egotten nedem؛ فهو من نفس جوهر الأب؛ أى مساو له فى الألوهية، فالابن جزء من الثالوث، وليس جزءاً من المخلوقات. وكانت هذه أول عقيدة يتم فرضها على جميع الكنائس، ولم تكن هناك عقيدة شمولية قبلها، وأزفق تثبيت هذه العقيدة بتحريم تعليم آريوس، واعتباره هرطقة.

لكن؛ على الرغم من إدانة تعليم آريوس إلا أن تعليمه لم يمت. فقد تابعه الكثيرون الذين كانوا يعتقدون بقوله، ورفضوا قرار مجمع نيقية، بل إن الإمبراطور قسطنطين الأول وتحت تأثير المؤرخ الكنسى الإغريقى يوسيبوس القيصرانى Eusebius of Caesarea قام باستدعاء مهمتان تؤيدان آراء آريوس: الأولى هو الإمبراطور قسطنطينوس الثانى Constantinus II خليفة قسطنطين الأول، والشخصية الثانية هى الأسقف واللاهوتى يوزيبوس النيقوميدي Eu-sebius of Nicomedia والذى أصبح - فيما بعد - بطريرك القسطنطينية، وصار أحد قادة العقيدة الأريوسية.

بحلول عام ٣٥٩م، كانت الأريوسية (أو الأريانية Arianism) قد سادت فى (١) كتاب سوسنة سليمان فى أصول العقائد والأديان، لمؤلفه النصرانى: نوفل أفندى نوفل، طبع المطبعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٢٢، ص ١٣٧.

ربوع الإمبراطورية، وأصبحت تمثل العقيدة الرسمية لها، إلا أن الأريانيين سرعان ما اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا إلى حزبين: الأول أطلق عليهم أنصاف الأريانيين The Semi - Arins كانوا أساقفة شرقيين محافظين، قبلوا بالعقيدة النيقاوية، لكنهم تحفظوا على عبارة «هوموأوسوس» Homousios والتي تعنى من نفس الجوهر، أو «من نفس الطبيعة» المستخدمة بحق المسيح بشأن مساواته مع الله في الجوهر والطبيعة؛ لأنهم كانوا يرونها مخالفة لنصوص الإنجيل؛ مثل قول المسيح: «أمضى إلى الأب؛ لأن أبى أعظم منى»، (يوحنا ٢٨/١٤)، ونعوه من النصوص، والحزب الثانى هم الأريانيون الجدد الذين لم يترددوا في التأكيد على مخلوقية الابن، وأنه من طبيعة مختلفة مع الأب تماماً. وهؤلاء الأخيرون كانوا - أيضاً - من القائلين بأن الروح القدس هو مخلوق كذلك مثله مثل الابن، وأن الأولية والأزلية؛ أى الإلهية خاصة بالأب الواحد الأحد؛ أى كانوا نفاةً للتثليث.

على أثر وفاة الإمبراطور قسطنطينوس الثانى عام ٣٦١م، وحكم «فالينس» Valens، الذى قام باضطهاد الأريانيين، تمهد الطريق لانتصار العقيدة النيقاوية، التى أعاد الإمبراطور ثيودوسيوس عام ٣٧٩، تأكيدها في المجمع المسكونى الثانى (مجمع القسطنطينية الأول) المنعقد عام ٣٨١م.

ومع ذلك؛ فإن الأسقف القوطى «يولفيلاس» Ulfilas كان قد نشر الإيمان المسيحى التوحيدى طبقاً للعقيدة الأريانية بين شعبه، الذين أصروا على المحافظة على هذه العقيدة كميّز لهويتهم القومية. ولقد أبدى الملك ثيودوريك، ملك الأستروقوطيين Ostrogoths ومؤسس المملكة الأستروقوطية فى إيطاليا، تسامحاً كبيراً تجاه رعاياه من أتباع العقيدة الأرثوذكسية، فى حين قام الملك فنداس' Vansals الأريوسى باضطهاد أتباع العقيدة النيقاوية اضطهاداً قاسياً بعد أن سيطر على الأقاليم الرومانية فى أفريقيا. ولم يتم تحوّل جميع الشعوب الجرمانية إلى العقيدة النيقاوية إلا فى أواخر القرن الميلادى السادس^(١).

(١) موسوعة إنكارنا الأمريكية، مادة الأريانية Aryanism.

المذهب النسطوري

بعد المجمعين المسكونيين الأوليين مجمع نيقية الذي حكم بالهية الابن ومساواته الثأمة للأب ومجمع القسطنطينية الذي حكم بالهية روح القدس ومساواته للأب أيضاً، بقى الخلاف فى طبيعة المسيح، وكيفية اتحاد اللاهوت - المزعوم فيه مع الناسوت - يتفاعل، إلى أن خطب أحد القسوس فى القسطنطينية، ويقال له: أنتهاسيوس خطبة أنكر فيها تلقيب العذراء المباركة بوالدة الإله، وقال: إنما هى أم المسيح، وليست أم الله، فتابعه على ذلك بطريك وأنطاكية نسطوريوس، وتابعه فى الأمر الأسقف بيلاجيوس، وكثير من نصارى المشرق، فانعقد لهذا السبب المجمع الثالث فى مدينة أفسس سنة ٤٣١م، بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، ورئاسة «كيرلس» بطريك الإسكندرية، وكان أعضاؤه نحو ٢٠٠ أسقفاً، وكان انعقاده لأجل دحض تعليم نسطوريوس وبيلاجيوس، وتم ذلك تحت رئاسة كيرلس بطريك الإسكندرية قبل وصول الأساقفة الشرقيين الذين - عند وصولهم - اجتمعوا تحت رئاسة يوحنا الأنطاكى، وعزلوا كيرلس الإسكندري، فارتفعت الدعوى إلى الإمبراطور الذى ختم مع رأى الأكثرين ضد نسطوريوس، أما هذا المجمع؛ فحكم بوجود اتحاد جوهرى بين الطبيعتين فى المسيح، وبأن الإله والإنسان فى المسيح هما واحد، وبأن مريم والدة الله، فرفض البطريرك نسطوريوس ذلك المجمع، وبقى على عقيدته التى أتبعه عليها الكثيرون فى المشرق، وعُرف مذهبهم باسمه: أى النسطوريون، أو النساطرة، وهو مذهب يؤكد على التمايز والفصل بين الطبيعة الإلهية للمسيح والطبيعة البشرية، فالمسيح ليس طبيعتين فحسب، بل أقتومين؛ أى شخصيتين متمايزتين أيضاً، وهما شخصية عيسى المسيح الذى كان بشراً، وهذا البشر هو وحده الذى ولد من مريم العذراء، وبالتالي؛ فمريم هى والدة يسوع، وليست والدة الله، وكذلك هذا البشر هو الذى حسب اعتقادهم - تألم، وصلب، ومات على الصليب، وليس الله، لأن الله حى لا يموت^(١).

(١) المصدران السابقان.

المذهب اليعقوبى (الأخليدوني) والمذهب الملكانى (الخليدوني)

بعض دحض الكنيسة الرومانية لتعليم أريوس، ثم تعليم نسطوريوس، ظهر «أفتيخيوس» فى القرن الخامس الميلادى أيضاً، وأراد أن يبقى ذاته من آراء النساطرة المذكورين، وكان رئيس دير، فأخذ يُعلِّم بأن المسيح حين تجسّد لم يكن له إلا ذات واحدة وطبيعة واحدة، وأيد ذلك «ثيودوسيوس الثانى» إمبراطور القسطنطينية بمجمع عقده فى أفسس سنة ٤٤٩م، تحت رئاسة «ديسقوروس» بطريرك الإسكندرية، وكان أعضاؤه ١٣٥ أسقفاً، حكموا بأن المسيح ذا طبيعة واحدة، مثبتين بذلك قول الراهب «أفتيخيوس»، ومن هنا؛ تسمى القائلون بهذا المذهب؛ أى مُقلِّدو «ديسقوروس» بطريرك الإسكندرية، بالمونوفيزية، يعنى القائلون بوحدة الطبيعة فى المسيح، وبعد نهاية هذا المجمع الأفسسى ثار أوباش الرهبان على فلافيانوس بطريرك القسطنطينية، وضربوه، حتى مات.

لكن؛ بعد ذلك بسنتين، انعقد مجمع آخر فى خلقدونية عام ٤٥١م، بأمر الإمبراطور مرسيانوس، وكان أعضاؤه ٥٢٠ أسقفاً، كلهم من أساقفة المشرق، ما عدا اثنين كانا من أساقفة أفريقية، وأربعة من المغرب من طرف ليون، وكان انعقاده ضدّ الراهب «أفتيخيوس» وطريرك الإسكندرية «ديسقوروس»؛ حيث أبطل تعليمهما بوحدة طبيعة المسيح، واعتبر المجمع الأفسسى الأخير مجعماً باطلاً، وسمّاه مجمع اللصوص، وفصل بطريرك الإسكندرية «ديسقوروس» المذكور عن البطريركية، وعلم بأنّ للمسيح ذاتاً واحدة، ولكن؛ بطبيعتين اثنتين: طبيعة لاهوتية، وطبيعة ناسوتية.

شكلت قرارات هذا المجمع الرابع الخليدوني، لاسيما قرار عزّل بطريرك الإسكندرية «ديسقوروس»، الذى كانت له مكانة عظيمة لدى الأقباط المسيحيين، الأرضية التى أدت إلى حدوث أحد أهمّ الانشقاقات فى جسد المسيحية؛ حيث رفض الأقباط قرارات مجمع خلقيدونية، وأصرّوا على بطركية

«ديسقوروس»، وعلى عقيدتهم المونوفيزية (أى القائلة بوحدة طبيعة المسيح)، فانعقد مجمع خامس تال فى القسطنطينية، سنة ٥٥٢م، سُمى بالمجمع القسطنطينى الثانى، بأمر الإمبراطور «يوستيانوس» ضد «أوريجانوس»، وضد معلمى الطبيعة الواحدة، فلم يعد أمام الأقباط وسائر القائلين بالطبيعة الواحدة من مسيحى المشرق من حل سوى إعلان الانفصال عن الكنيسة العامة، وبهذا؛ نشأت الكنيسة الأرثوذكسية القبطية، التى مركز كرسى بطركيتها «الإسكندرية»، وتبعتها الكنيسة الحبشية والأريتريّة، كما انفصلت كذلك الكنيسة القريفورية الأرمنية؛ لأنها كانت تؤمن بالطبيعة الواحدة أيضاً، كما ظهر فى شمال سورية الأسقف «يعقوب البرادعى» أسقف أورفا، فشرح العقيدة المونوفيزية بصورة جديدة غير صورتها الأولى، وأخذ يجمع فروع هذا المذهب، إلى أن مات فى سنة ٥٧٨م، فتبعه كثير من مسيحيى الشام. وصار مذهبهم يُعرف باسم المذهب اليعقوبى الذى كان مذهب الكنيسة الأرثوذكسية السريانية (أى السورية) التى كان كرسى بطركيتها فى «أنطاكية».

أما بقية المسيحيين الذين أخذوا بقرارات المجمع الخلقيدونى حول المسيح ذى الطبيعتين الإلهية والبشرية؛ فسموا بالملكانيين؛ نظراً لأنهم أخذوا برأى ملك (أى إمبراطور) الروم البيزنطى الذى ناصر فكرة الطبيعتين كما مرّ^(١).

وهكذا؛ علاوة على انفصال الأريوسيين السابق، انقسم بقية المسيحيين إلى ثلاثة مذاهب هى:

(١) النماطرة؛ وكانوا أقلية قليلة العدد فى سورية الطبيعية وتركيا وشمال العراق، وسموا كذلك بالآشوريين، ومن العراق انتشروا نحو فارس والهند؛ حيث لا تزال توجد منهم أقلية فى شمال غرب إيران تدعى بالآشوريين، وأقلية بالهند، وهم يعتبرون خلافهم مع الكنيسة الأرثوذكسية (الخلقيدونية) خلافاً لفظياً، وقد نجحت البعثات التبشيرية الكاثوليكية باستمالة العديد منهم إلى المذهب الكاثوليكي.

(١) المصدران السابقان، وكتاب معاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) الهعاقبة: القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهو مذهب السريان الأرثوذكس فى بلاد الشام، ونحوه مذهب الكنيسة القبطية فى مصر التى مركزها الإسكندرية، وتتبعها كنيسة الحبشة وأريتريا، كما هو مذهب أكثر الأرمن. وهذان هما من الذين لم يعترفوا بقرارات مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م.

قلت: وفى هؤلاء جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧). وقوله سبحانه كذلك: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

(المائدة: ٧٢)

(٣) الملكانيون: وهم نصارى مصر وسورية الذين خضعوا لمقرارات مجمع خلقيدونية، الذى حرم المونوفيزية عام ٤٥١م، مؤكداً على أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية. وقد دعاهم المونوفيزيون بهذا الاسم على سبيل السخرية، لأنهم انحازوا فى موقفهم هذا إلى الإمبراطور البيزنطى الذى أعلن قبوله تلك المقررات. وفى العام ١٧٢٤، انضوى فريق من الملكيين تحت لواء الكتكعة، فى حين صدف فريق منهم عن ذلك، فعرّفوا بالروم الأرثوذكس.

والواقع أن مع هذه الفرق المسيحية الثلاثة اتفقت على أن المسيح بشرٌ وإلهٌ بنفس الوقت! وإنما اختلفت مع بعضها فى مدى تأكيدها وإبرازها لأحد الجانبين الإلهى أو البشرى فى المسيح؛ أى اختلفت فى الأولويات، وليس فى أصل المسألة، فاليعاقبة يؤكدون الجانب الإلهى أكثر، وعلى عكسهم النساطرة الذين يبرزون أكثر الجانب البشرى. فى حين يطرح الجمهور الأعظم رؤية متوازنة ومتعادلة للجانبين الإلهى والبشرى، دون ترجيح أو أولوية لأى منهما على الآخر.

هذا؛ ولما كانت الدولة الرومية البيزنطية تحتل بلاد سورية الطبيعية ومصر، فقد قاموا بمحاولات قوية، وباستخدام التهيب والترغيب لتحويل النساطرة واليعاقبة إلى مذهبهم الملكاني أو الخليقدوني، فلم يكونوا يعينون في المناصب الكنسية إلا من تحول إلى مذهبهم، وكانوا يقرّبون من صار ملكانياً، ويبعدون من يرفض ذلك من أصحاب المذاهب المحلية، ولعل ذلك كان من البيزنطيين بدافع امتزجت فيه السياسة مع الدافع الدينى. ذلك لأن تحول نصارى المشرق للمذهب الذى يدين به إمبراطور بيزنطة كان وسيلة لضمان ولائهم له وخضوعهم وطاعتهم له، أكثر مما لو بقوا على مذاهبهم المخالفة لمذهب الإمبراطور. ومن هنا؛ فقد كان مسيحيو بلاد المشرق متبرمين بالحكم البيزنطى، ومتأذّين من التمييز والاضطهاد المذهبى الذى تعاملهم به الدولة الرومية المحتلة، مما جعل كثيراً منهم يتساهلون ويتوانون عن الدافع عن تلك الإمبراطورية البيزنطية أمام الفتح العرسى الإسلامى، أملاً بأن يرفع عنهم العرب المسلمون الاضطهاد المذهبى؛ إذ طالما أنهم غير نصارى، فلن يتدخلوا فى خصوصياتهم المذهبية. وكان هذا أحد العوامل الهامة التى ساعدت فى سرعة فتح بلاد الشام والعراق ومصر من قبل العرب المسلمين.

القول بالمشيئة الواحدة للمسيح والكنيسة المارونية:

المارونيون طائفة مسيحية كاثوليكية شرقية، ترجع هى جذور تأسيسها إلى أوائل القرن الخامس للميلاد إلى ناسك سورى ظهر فى وادى نهر العاصى هو مار مارون (أى القديس مارون) المتوفى حوالى العام ٤١٠م، كما أنها تتنسب كذلك إلى القديس «يوحنا مارون» بطريرك أنطاكية فى الفترة ما بين ٦٨٥ - ٧٠٧م، والذى تمكّن المسيحيون المحليون تحت قيادته من هزيمة جيوش الإمبراطور البيزنطى «جوستينيان الثانى» الفازية، سنة ٦٨٤م، مما أعطى للمارونيين - حينذاك - استقلالية عن الدولة البيزنطية.

على الرغم من أن المارونيين اليوم يؤكدون أنهم كنيسة كاثوليكية متعددة مع الكرسي البابوى فى روما وتابعة له، إلا أن هناك شواهد تؤكد أنهم كانوا -

لقرون عدة - مونوثيليتين؛ أى قائلون بالمشيئة الواحدة للسنيد المسيح: بمعنى أنه كان للسيد المسيح مشيئة إلهية فقط، ولم تكن له مشيئة بشرية. وهذه العقيدة كانت الكنيسة التقليدية قد اعتبرت عقيدة هرطقية عقدت لأجلها المجمع المسكونى السادس، أى مجمع قسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م، بأمر الإمبراطور يوغاناقوس، الذى دعا لعقده لمناقشة دعوى بطريرك القسطنطينية «سرجيوس»، الذى أكد بأن المسيح، وإن كان له طبيعتان إلهية وبشرية، إلا أن له مشيئة واحدة فقط هى المشيئة الإلهية فحسب. وكان القديس «يوحنا مارون» يتفق مع هذه العقيدة. وقد خرج ذلك المجمع، والذى بلغ عدد المجتمعين له ٢٨٩ أسقفاً، بقرارين هاميين:

١ - إن المسيح له طبيعتان، وله مشيئتان كذلك.

٢ - لعن وطرده كل من يقول بالطبيعة الواحدة، أو يقول بالمشيئة الواحدة.

وبحسب ما يذكره الأسقف ويليام من أهل صور، سعى البطريرك المارونى إلى الاتحاد مع البطريرك اللاتينى لأنطاكية عام ١١٨٢م، إلا أن الاتحاد التام بين الكنيسة المارونية الشرقية واللاتينية الغربية لم يتحقق بالفعل إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، وذلك بفضل المساعى الحثيثة للراهب اليسوعى «جورج إيليانو»، وهكذا، وفى عام ١٥٨٤م، أسس البابا غريغورى الثالث عشر، الكلية المارونية فى روما، والتي بقيت مزدهرة تحت الإدارة اليسوعية إلى القرن العشرين، وأصبحت مركز تدريب هاماً للأساقفة والزعماء الدينيين.

يوجد الموارنة اليوم فى لبنان؛ حيث يؤلفون كبرى طوائف المسيحية؛ كما يوجد أقليات قليلة منهم فى سورية وقبرص، وقد هاجر كثير منهم إلى عدد من المفتريات الأمريكية؛ حيث يبلغ عددهم فى الولايات المتحدة وحدها ما يربو على ١٥٠.٠٠٠، كما يوجدون فى المكسيك وكندا وغيرها من مناطق القارة الأمريكية. أما رئيسهم الروحى؛ فهو بطريرك يُمرق باسم «بطريرك أنطاكية وسائر المشرق»، وكُرسية فى (بكركى) بلبنان، وهم يتلون طقوسهم بالسريانية

والعربية، وفي طقوسهم - أيضاً تأثر بالطقوس اللاتينية^(١).

الخلاف بشأن تقديم الأيقونات والتماثيل والصور:

منذ القرون الأولى للمسيحية كان هناك خلاف بين المسيحيين حول تقديم التماثيل والصور، أو ما يعرف بالأيقونات، وجواز احترامها والتماس البركة منها، وهل يدخل ذلك تحت نوع من أنواع الوثنية أم لا؟ وقد احتدم هذا الخلاف في القرن الثامن الميلادي - ربما تحت تأثير الأفكار الإسلامية التوحيدية المجاورة المشددة على التوحيد ورفض عبادة التماثيل والصور. كما يرى بعض المؤرخين - ووصل الخلاف إلى أوجه في عام ٧٥٤م، حين تم عقد مجمع بأمر الإمبراطور قسطنطين الخامس ليقرر تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة، وتحريم طلب الشفاعة من مريم العذراء. فأوقعت هذه القرارات معركة من الآراء بين مخالف وموافق، مما أدى إلى عقد المجمع المسكوني السابع في نيقية عام ٧٨٧م، الذي كان مجمع نيقية الثاني، وذلك بأمر الملكة إيريني، وذلك للنظر في قرارات مجمع الملك قسطنطين الخامس الذي انعقد في عام ٧٥٤م، وكان عدد المُجتمعين لهذا المجمع ٢٧٧ أسقفاً. وخرج بقراراتٍ نقض فيها قرارات المجمع الذي سبقه، وأكد على:

١ - تقديم الأيقونات: أي صور المسيح والقديسين.

٢ - وضعها في الكنائس، والأبنية المقدسة، والبيوت، والطرق، لأن النظر إلى ربنا يسوع المسيح - على حد قولهم - ووالدته، والقديسين يُشعرنا بالميل إلى التفكير فيهم^(٢).

(١) الموسوعة البريطانية: مادة المارونيون Maronites، ومادة الكنيسة المارونية Maronite

Church وكتاب «أضواء على المسيحية»، أحمد يوسف شلبي، ص ١١١.

(٢) كتاب: «أضواء على المسيحية»، أحمد يوسف شلبي، ص ١١١ - ١١٢.

انقسام الكنيسة حول فهم الثالوث وما ترتب على ذلك

لم يكن تقرير التثليث في المسيحية سنة ٢٨١م كمقيدة جديدة على الوجه الذي بيّناه عملاً سهلاً بل كان عملاً معقداً سبّب كثيراً من الاختلافات والاتجاهات، لا بين من قالوا به وبين من أنكروه فحسب، بل بين الجماعات التي اتفقت على المبدأ واعتنقته، ثم عادت تفكر فيه، وعلى هذا كان عرض المقيدة الجديدة على العقل البشري مجالاً للتفريق بين أصحابها.

أسباب الانقسام

يرى مؤرخو الأديان أن أسباب الانقسام بين المسيحيين تنحصر في هذين السؤالين:

١ - هل المسيح ذو طبيعة واحدة لأنه إله أم ذو طبيعتين: إلهية لأنه الله، وإنسانية لأنه ابن مريم (ومريم من البشر)، فيكون بذلك اجتمع فيه اللاهوت والتناسوت على حد تعبيرهم؟

٢ - هل الروح القدس منبثق من الأب أم من الأب والابن معاً؟

وقد ولد السؤال الأول عقب إعلان نسطور رأيه في المسيح سنة ٤٣١م، أي بعد أكثر من نصف قرن من إعلان التثليث كمقيدة رسمية، فما هو مذهب نسطور في المسيح.

مذهب نسطور في المسيح وطبيعته

لقد كان نسطور هذا بطرياً للقسطنطينية سنة ٤٣١م، ويعتبر مذهبه كما يقول الدكتور أحمد شلبي: (محاولة للعودة إلى التوحيد)^(١). ويؤكد ذلك بما نقله ابن البطريق عن نسطور الذي قال: (إن هذا الإنسان الذي يقول: إنه المسيح بالمحبة متحد مع الأب ويقال إنه الله أو ابن الله ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة)^(٢).

وبهذا القول يريد نسطور أن يرجع بالناس إلى المسيحية الأصلية ومنبعها الصافي المتمثل في تفرد الإله بالوحدانية، واعتبار المسيح ابناً لله مجازاً كسائر الخلائق الأخيار، ثم أخذ يبرهن على مذهبه في المسيح المدعو إلهاً بقوله: (إن مريم لم تلد إلهاً؛ لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً؛ ولأن المخلوق لا يلد الخالق، فمريم ولدت إنساناً، ولكنه كان إلهاً وعلى هذا فمريم لا تسمى والدة الإله بل والدة المسيح الإنسان وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته، أي اتحد عيسى بعد الولادة بالأقنوم الثاني اتحاداً مجازياً فمنحه ووهبه النعمة)^(٣).

ولا شك أن هذا الرأي الذي أدلى به نسطور في المسيح وطبيعته منطقياً ومقبولاً، فالتمادي بالقول بألوهية المسيح قد يؤدي حتماً إلى إعلان ألوهية مريم والدة المسيح، ومن ثم تلتبس العقائد على الخلائق، ويتكاثر في الكون عدد الآلهة، وتتحول المسيحية إلى تريبع بعد تثليث، ولا ندري كم سيصل عدد الآلهة في المسيحية مع مرور الزمن وتعاقب السنوات، لأن ما يسرى على مريم قد يسرى على أمها وأبيها وبقية أحوالها، وبناء على هذا الاستنباط يكون نسطور من منكري ألوهية المسيح ومن أنصار عقيدة التوحيد، وهذا يعني أن الموحدين مازالوا يتجولون بعقيدتهم في ربوع المسيحية حتى وإن قرر التثليث كعقيدة رسمية.

(١) المسيحية ص ١٨٩، د. أحمد شلبي.

(٢) تاريخ ابن البطريق / ١٥٦١.

(٣) تاريخ الأقباط ج ١ ص ١٥٩، زكي شنودة.

موقف أصحاب عقيدة التثليث من مذهب نسطور سنة ٤٣١م

وكالمادة هرع أصحاب الثالوث إلى المجمع لنصرة عقيدتهم وإسكات من يحاول أن يرجع بالمسيحية إلى التوحيد، فأمر الملك تاوديوس الصغير بعقد مجمع في مدينة إفسس بالأناضول سنة ٤٣١م للنظر في رأى نسطور، حضره نحو مئتان من الأساقفة، وبلا تعقل ولا روية قرروا - كما يقول ابن البطريق - : (أن مريم المذراء والدة الإله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد في الأقتنوم، وهو خلاف المحبة، ثم أعلنوا نفى نسطور إلى صعيد مصر)^(١). ولا شك أن هذا المجمع وقراراته يوضِّح لنا عدة أمور منها:

أ - أن نسطور لم يكن وحيداً فريداً في الميدان، بل كان له مشايخون وأنصار كثيرون يقولون برأيه في المسيح، ويناصرون عقيدة التوحيد، وإذا كان الشيخ محمد أبو زهرة قد ذكر: (أن نسطور كان ينصره بطريق أنطاكية فقط ولم يحضر المجمع لعلهم بما دُبِّرَ لهما)^(٢) فإن زكى شنودة قد ذكر: (أن نسطور جاء ومعه أربعمون أسقفاً من أشياعه وبذلك كل جهد في إثبات كل معتقداته)^(٣). وهذا هو الأقرب إلى الصواب لأمرين:

الأول: أن كاتبه مؤرخ مسيحي.

والثاني: أنه لا يمكن للملك أن يأمر بعقد مجمع ثم يحضره مئتان من الأساقفة من أجل نسطور فقط، وهذا يؤكد قولنا بأن نسطور لم يكن وحيداً.

ب - أن هذا المجمع قرر طبيعتين للمسيح، ثم تضمن القرار ألوهية مريم والدة المسيح، وبهذا تكون المسيحية المثلثة قد تطورت كما استتبطننا من مذهب نسطور سابقاً من تثليث إلى ترييع سنة ٤٣١م في إفسس. حتى وإن أنكر

(١) تاريخ ابن البطريق / ١ / ١٥٧ .

(٢) راجع محاضرة في النصرانية ص ١٣٦، الشيخ/ محمد أبو زهرة.

(٣) تاريخ الأقباط / ١ / ١٦ .

أصحاب المسيحية ذلك، وقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى القول بالوهية مريم فقال عز شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١). ومنطوق الآية الكريمة يعنى أن المسيح الذى يقرر الآن مجمع إفسس التصديق على الوهية وأمه وتحديد طبيعته لا علم له بما يجرى تحت سقف هذا المجمع، ولا علم له أيضاً بأن البشر عبده واتخذوه إلهاً من قبل، وإله لا يعلم أن البشر عبده لا يصح أن يتخذ فى شأنه قرار، ولا داعى لصحص طبيعته، ومع ذلك فقد قرر هؤلاء تاليه أمه وتحديد طبيعته، ثم نفوا نسطور الذى قرر بشريته. (إلا أن هذا النفي لم يمت مذهب نسطور، وأحياء من بعده عالم مسيحي اسمه «برصوما»... ومن ثم انتشر فى الشرق، ولا يزال حتى الآن شائعاً فى العراق والموصل والجزيرة) (٢). والسؤال الآن هل القول بطبيعتين للمسيح يوافق عليه أصحاب عقيدة التثليث قاطبة أم لا؟

أعاصير الخلاف بين أصحاب الثالث

سنة ٤٤٩م حول طبيعة المسيح

يذكر ميشيل جرجس فى كتابه «الكنيسة المصرية»: (أن أوطاخى رئيس دير بالقرب من القسطنطينية قد تطرق فى الجدل مع الأريوسيين فقال: إن طبيعة المسيح الناسوتية اندمجت فى اللاهوتية - أى أن المسيح ذو طبيعة واحدة.. فقد له مجمع فى إفسس سنة ٤٤٩م بأمر من الإمبراطور.. وتولى رئاسته ديسقورس بابا الإسكندرية، وحضر يوليوس نائباً عن أسقف روما، وناقش المجمع أوطاخى، فاعترف بتمسكه بقانون الإيمان النيقى، فحكم الجمع ببراءته) (٣).

(١) سورة المائدة الآية: ١١٦. (٢) المسيحية ص ١٩. د. أحمد شلبى.

(٣) كتاب الكنيسة المصرية، ميشيل جرجس نقلاً عن كتاب (يا أهل الكتاب تمالوا) ص ٢٢٦. د. رؤوف شلبى.

مجمع خلكدونية سنة ٤٥١م وتحقق الانقسام الكنيسى

ولحاجة فى نفس أسقف روما قد تكون متمثلة فى السيطرة على العالم المسيحى بما فيه كنيسة الإسكندرية أخذ يسمى لعقد مجمع لا مناهضته نسطور وأشياعه هذه المرة، بل مناهضة رئيس كنيسة الإسكندرية (ديسقورس) الذى صادق أوطاخى، وأعلن فى مجمع إفسس الثانى أن للمسيح طبيعتين فى طبيعة واحدة أى اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت، فعقد مجمع خلكدونية سنة ٤٥١م. (وكان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية، كما تقول مؤلفة كتاب «الامة القبطية» هو: انسحاب ديسقورس بطريك الإسكندرية، فلما سئلوا عن الباعث كان الجواب أنه لم يستأذن الكرسي الرسولى فى عقد المجمع السابق، ويقصد بالكرسي الرسولى بابا القسطنطينية، ولكن المجمع قرر بقاء ديسقورس إلا أنه على غير كرسي الرئاسة..)^(١).

نتائج المجمع

وبعد مناقشات حادة بين جموع الحاضرين جاءت نتائج المجمع كالاتى:

(١) للمسيح طبيعتان منفصلتان لا طبيعة واحدة، فالألوهية طبيعة والناسوتية طبيعة التقيا فى المسيح.

(٢) لعن ديسقورس وكل من يشايعه فى مقالته ونفيه إلى فلسطين.

(٣) إبطال قرارات مجمع إفسس الثانى المنعقد بتاريخ ٤٤٩م^(٢).

ولما كانت هذه النتائج موافقة لمزاج رئيس كنيسة روما وقص لها طرياً بيد أن المصريين حينما سمعوا بما وقع لرئيسهم ثاروا وغضبوا وأعلنوا رفضهم لقرارات هذا المجمع. ومن هنا دب الانفصال اليقيني بين أصحاب الثالوث.

وانقسمت الكنيسة آنذاك إلى شرقية وغربية حول طبيعة المسيح ولذلك

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٨ الشيخ. محمد أبو زهرة، بتصرف.

(٢) يا أهل الكتاب تمالوا ص ٢٢٨، د. رؤوف شلبي.

يقول المؤرخ بورى Bury: (هذه المشكلة استمرت قائمة تمثل سبباً للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب. ويقول دوش Doch: نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائماً من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية)^(١).

وأقول: إن هذه الفجوة لا يمكن أن تمحى من جبين المسيحية: لأن السبب الرئيس فى بقائها إن لم يتمثل فى العوامل النفسية لرؤساء الكنائس والمتضمنة حب السيطرة فهو يتمثل فى عدم فهم الثالوث وحقيقته: لأن شرعية هذا الثالوث الذى اتخذ كعقيدة رسمية لم تكن بوحى من السماء، وإنما بقرارات أرضية قذف بها البشر فى المجامع المسيحية، وأمرٌ كهذا لا بد أن يحدث بسببه خلاف وسيستمر هذا الخلاف بين الكنيستين إلى قيام الساعة: لأن كليهما على باطل، ولو كان أحدهما على حق لظهر فى يوم ما: لأن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾^(٢). هذا وقد أطلق على الكنيسة الغربية اسم الكاثوليك والشرقية اسم الأرثوذكس^(٣).

وبذلك نرى أن:

١ - مذهب الأرثوذكس

(يقضى بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشئنة واحدة وذاتاً واحدة أقتنومية، اتحدت مع الجسد، وصارت بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج، ولذلك فالمعذراء تدعى بحق والدة الإله)^(٤). وعلى هذا المذهب تستقر عقائد كل من

(١) يا أهل الكتاب تعالوا: ص ٢٢٧، د. رؤوف شلبى.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٨.

(٣) كلمة كاثوليك Ctholique مأخوذة من كلمة يونانية Ktholikos بمعنى العام أو العالمى. أى إنها الديانة العامة أو العالمية. وكلمة أرثوذكس Orthodox مأخوذة من كلمتين يونانيتين وهما: Or- thos بمعنى الحق أو المستقيم، و dox بمعنى الرأى أو المذهب، فمعناها المذهب الحق أو المستقيم، (انظر الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص ١٢، د. على عبد الواحد وفى).

(٤) راجع تاريخ الأقباط ص ١٦، زكى شنودة.

مصر والحبشة وأثيوبيا ومعظم مناطق إفريقيا، وهذا هو ما جاء في كتاب «تاريخ المسيحية في مصر»: (كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم؛ أقتوم الأب وأقتوم الابن وأقتوم الروح القدس، وأن الأقتوم الثاني، أى أقتوم الابن، تجسد من الروح اقدس ومن مريم العذراء، فصير هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزه عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا صار الابن المتجسد طبيعة، واحدة من طبيعتين ومشئنة واحدة)^(١).

٢- مذهب الكاثوليك

يقتضى بأن للمسيح طبيعتين ومشئنتين، فالمسيح أقتوم إلهي بحت، ولكن له ذاتين وكيانين هما الإله والإنسان. ومن الملاحظ على هذا المذهب أنه بنى في شكله على مذهب نسطور الذي قال بطبيعتين في المسيح، إلا أن روح هذا المذهب الكاثولوكي تختلف عن مذهب نسطور، ووجه الاختلاف في أن نسطور كان يرى بأن المسيح قد اتصل به اللاهوت بعد ولادته، وأفاض عليه برحمته ولذلك فمريم لم تلد إلا إنساناً، أما الكاثوليك فيرون أن مريم ولدت الاثين جميعاً، فهي قد ولدت يسوع الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية. ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشئتان، وأقتوم واحد ولقد ذكر الدكتور على عبد الواحد وافى (أن مذهب الطبيعتين أخذت به جميع الكنائس الأخرى)^(٢) أى الكنائس الغربية.

انقسام الكنيسة الأرثوذكسية

ويبدو أن الانقسام حول طبيعة المسيح اللامفهومة في العقيدة الجديدة لم يتوقف عند هذا الحد فحسب، بل بدأ يتجول داخل أصحاب المذهب الواحد. ولذلك

(١) محاضرات في الناصرة ص ١٤١، الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٣٢، د. على عبد الواحد وافى.

رأينا تراجع بعض الصفوف في الكنيسة الأرثوذكسية عن مذهبها في المسيح.

يقول شعادة ونقولا خورى في كتاب «كنيسة اورشليم الأرثوذكسية»: إن هذه الكنيسة تعترف بقرارات خلقيدونية وهذا قولهما: (ومات بطرس أسقف القبائل العربية مخلقاً إفسكولاروس ثم يوحنا الذي صحب «يوفيناليوس» مع عدة أساقفة من فلسطين، لحضور المجمع المسكونى الرابع، الذى عقد فى خلقيدون سنة ٤٥١م على عهد الإمبراطور «ماركيانوس» ضد هرطقة افتيشيسى وديسيقورس، القائلين بأن فى المسيح طبيعتين فقط، وكان عدد آبائه ستمئة، فعلموا أن فى المسيح طبيعتين متحدتين بدون اختلاط ولا انفصال، وقد تقرر فى هذا المجمع بطريكية أسقف اورشليم، وتأيدت سائر مطالبه: المذكورة آنفاً.. وتولى يوفينا ليوسى الكرسى الأورشليمى)^(١).

فتبين بهذا أن كنيسة اورشليم وهى من الكنائس الشرقية التابعة للأرثوذكس تقول بالطبيعتين. وهو بخلاف ما عليه بقية الكنائس الشرقية.

انقسام الكنيسة الكاثوليكية

وقد انقسمت أيضاً الكنيسة الكاثوليكية القائلة بالطبيعتين يوم أن أعلن الأسقف يوحنا مارون سنة ٦٦٧م مذهبه الجديد الذى يتضمن: (أن المسيح ذو طبيعتين: طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت فى شخصه، ولكنه ذو مشيئة واحدة هى مشيئة الله)^(٢). إلا أن هذا المذهب لم يرق لكثير من البطارقة، فأوعزوا إلى الإمبراطور أن يجمع مجعاً عاماً فى زعمهم ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين وذو مشيئتين، فعقد لهذا السبب مجمع القسطنطينية عام ٦٨٠م وحضره نحو تسعة وثمانون ومئتى أسقف، وقد كان من عمله لعن وطرده كل من يقول بالمشيئة الواحدة، كما لعن وحرم وكفر كل من قال بالطبيعة الواحدة وقرروا الأتى كما جاء فى تاريخ ابن البطريق: (نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذى

(١) يا أهل الكتاب تعالوا ص ٢٢، د. رؤوف شلبى.

(٢) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص ٢٥٤، ط الرياضى.

هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الأب الإله في أقنوم واحد ووجه واحد يعرف تماماً بناسوته تماماً بلاهوته في الجوهر الذي هو رينا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيتين في أقنوم واحد... إله وإنسان وبهما يكمل قول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتهما فتعملان بمشيئتين غير متضادتين^(١). وقرروا لمن كل من يذهب مذهب مارون، إلا أن أتباعه تكاثروا عقب هذا القرار وكونوا لهم طائفة، وعنها يقول محمد أبو زهرة: (إن هذه الطائفة مازالت متوطنة بجبل لبنان، ولها بطريك خاص، وإن كانت تقر بالرياسة لبطريك روما)^(٢).

من أي الأقانيم جاء انبثاق الروح القدس؟

هذا هو السؤال الذي جاء عقب السؤال عن طبيعة المسيح، وبسببه اتسعت هوة الخلاف بين أرباب الكنيسة. والملاحظ أن ميلاد هذا السؤال كان في القرن الثامن الميلادي، أي بعد أن عمل الفكر الوثني بمعوله في العقلية المسيحية عدة قرون، وقد أخذ بطاركة الكنيسة في الإجابة على هذا السؤال، فذهب فوسسيوس بطريك القسطنطينية إلى القول: (بأن الروح القدس انبثق عن الأب الأقدم الأول وحده، وعلى العادة خالفه بطريك روما وقال: إن انبثاق الروح القدس كان من الأب والابن معاً، فاجتمع نفر من الأساقفة في القسطنطينية سنة ٨٦٩م للنظر في هذه المسألة بعد أن احتالوا على عزل فوسسيوس وأتوا بآخر يميل معهم ويرى ما يرونه)^(٣)، ثم عقدوا مجمعاً جاءت قراراته على النحو التالي:

١ - إن انبثاق الروح القدس في الأب والابن معاً.

٢ - إن كل من يريد المحكمة في أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى

إلى الكنيسة بروما.

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ٢١٠.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ١٦٠ / الشيخ محمد أبو زهرة.

(٣) يا أهل الكتاب تعالوا ص ٢٤١، د. رؤوف شلبى.

٣ - إن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التي يقوم بها رئيس كنيسة روما.

٤ - لمن البطريرك المعزول فوسيسوس، وحرمانه هو وأتباعه. وقد استطاع فوسيسوس هذا أن يعود إلى منصبه، ويردد رأيه في الروح القدس^(١).

والناظر في هذا القرارات يجد أن كنيسة روما الكاثوليكية كانت تملك آنذاك عضلات قوية بها تحكمت في المجمع، فجاءت قراراته موافقة لرأيها عكس الكنيسة الأرثوذكسية. هذا ويطلق على الكنيسة الكاثوليكية اسم الكنيسة البطريرسية، وعنها يقول صاحب سوسنة سليمان: (وهي تدعى أنها أم الكنائس ومعلمتهن، وربما حق لها ذلك لجهة التفاسير التي تبني عليها أصولها التقليدية ونظامات المجمع وترتيبها وهي أيضاً تأمر بها. وتمتد شوكتها عنى الخصوص في بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، وشعوبها منتشرة في أقطار الأرض)^(٢). ولأن الخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس حول انبثاق الروح القدس لا يعتمد على دليل منطقي أو برهان ساطع لطائفة منهما بات واضحاً لدينا أن الخلاف سيستمر إلى ما شاء الله، ولذلك يقول الأستاذ العقاد: (وقد استقر الرأي على ذلك مع خلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية في موضوع الروح القدس وعلاقته بالأب والابن، فإن الكنيسة الشرقية تقول: إنه يصدر من الأب وحده، والكنيسة الغربية تقول: إنه يصدر من الأب والابن على السواء)^(٣). وقد ترتب على هذا الانقسامه في فهم الثالوث بروز عقائد وشعائر جديدة غريبة عن المسيحية الأولى، وقبل أن نتحدث عن هذه العقائد والشعائر نقف قليلاً أمام هذه الآراء الكنيسة التي دارت حول طبيعة المسيح وانبثاق الروح القدس.

(١) محاضرات في النصرانية ص١٤٦، الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) سوسنة سليمان ص١٥٤، ١٥٥، نوفل نعمة الله.

(٣) الله وهو كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص١٦٨، الأستاذ العقاد.

نظرة فاحصة لهذه الآراء الكاثوليكية الأرثوذكسية

والناظر في هذه الآراء الكاثوليكية والتي دارت حول عقيدة التثليث يرى أن أصحابها اتفقوا على اسم الثالوث، ولكنهم حينما تعرضوا لشرحه كانوا شركاء متشاكسون لا يقفون عند رأى موحد، ولا يتمسكون ببرهان قويم. ومن ثم نادى كل طائفة برأى يخالف به الأخرى؛ (فالكاثوليك نادوا بعقيدة تعدد الآلهة، وادعوا أن المسيح إله من آلهة ثلاثة، وهو ذو طبيعتين ومشيتين: طبيعة لاهوتية كاملة، وناسوتية كاملة والروح القدس منبثق من الأب والابن معاً. أما الأرثوذكس فقد نادوا بعقيدة تجسد الإله، وأن المسيح عندهم ذو طبيعة واحدة حيث حل الإله كما يقولون في بطن مريم، ثم اتحد وخرج إنساناً هو المسيح يسوع^(١)). وبناء عليه فالمسيح في معتقدهم مرّ عندهم بمراحل ثلاث هي الحلول ثم الاتحاد ثم خروجه في صورة إنسان، وأطلقوا عليه لفظ الألوهية، ويرون أن الروح القدس منبثق من الأب وحده. ولقد ندد القرآن الكريم بمذهب الكاثوليك والأرثوذكس معاً، وقال مقالة تحمل التهديد، فقال جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٢).

ومنطوق هذه الآية الكريمة يعني: لا تقولوا ثلاثة آلهة متعددين، أو ثلاثة مراحل للإله الواحد. ثم رد على الكاثوليك بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣). ورد على الأرثوذكس بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(٤). ثم تصدى علماء الإسلام لإبطال القول بالحلول والاتحاد للإله الواحد في المسيح والذي نجم عن هذه الآراء الكاثوليكية والأرثوذكسية.

(١) مقدمة كتاب الأعلام ص ٢٧، ٢٨ للإمام القرطبي، بتصريف سير.

(٢) سورة النساء آية ١٧١. (٣) سورة المائدة آية ٧٣.

(٤) سورة المائدة آية ٧٢.

إبطال الحلول والاتحاد عند أصحاب هذه الأراء

يقول صاحب المقاصد: (لو حلَّ الواجب في جسم، فلو قبل المحل الانقسامه للزم انقسامه الواجب وتركبه واحتياجه إلى أجزائه، وأيضاً لو حل في جسم كانت ذاتيته قابلة للحلول في الأجسام لعدم وجود مخصص وهو ضروري البطلان والتالى فيما تقدم باطل. فالقول بالحلول على الله تعالى محال، وإذا كان من المحال حلول ذاته تعالى في غيره فكذلك من المحال حلول صفته في غيره؛ لأن انتقال الصفات محال، إذ الانتقال من خواص الذوات المتميزة والأجسام^(١)). ويقول الإمام الجويني: (لو حل أقتوم الكلمة (الابن) في جسد المسيح أو خالطه فهو في حال الحلول إما ذات وإما صفة، فإن كان أقتوم الكلمة في حال الحلول ذات فإن فارقت الأب لزم التعدد؛ لأن الانتقال يقتضى الاستقلال في الصفات والذات، وتعدد الآلهة محال ببرهان التوارد والتمانع^(٢)). كما يلزم أيضاً انتفاء الذات بانتفا جزئها المتنقل، وإن لم يكن يفارق الأب لزم وجود ذات واحد في مكانين مختلفين، وشغلها حيزين متباينين في زمن واحد وهو محال. وإن كان أقتوم الكلمة في حالة الحلول صفة؛ فإن فارقت الأب فقد بقى الله بدون كلمة وهو نقص لا يليق به تعالى، كما يلزم عليه انتقال وهو محال، لأن انتقال من خواص الذوات والأعراض والصفات، وإن لم تفارقه لزم قيام الصفة الواحدة بمكانين مختلفين في وقت واحد وهو محال^(٣)).

(١) شرح المقاصد ج ١ ص ٦٨ سعد الدين التتازانى. يجب أن يعرف أن كلمة واجب لا يطلقها على الله إلا الفلاسفة أما في لغة الشرع فلا لإنها لم ترد فيه.

(٢) وبرهان التوراة تقريره أن يقال لو وجد إلهان وأرادا، أى اتفقا على إيجاد شيء، فإما أن يوجداه معاً بالاستقلال... فيلزمه وقوع أثر واحد بمؤثرين وهذا محال، وإما أن يوجداه معاً متعاونين... وهذا محال أيضاً لما يلزمه من كون كل إله منهما عاجز وفي حاجة إلى معاونة الآخر... وإما أن يوجداه أحدهما فقط، وهو أيضاً محال لما يلزمه من عجز الآخر... أما برهان التمانع فحاصله أنه لو وجد إلهان متصفان بكمال القدرة وسائر صفات الإله، وتعلقت إرادة أحدهما بشيء، كحركة الجسم مثلاً - أى اختلفا في إيجاداه - فإما يتمكن الآخر من إرادة ضده أو لا يتمكن. والتالى بقسميه باطله، فبطل التعدد وثبتت الوحدة لله تعالى. (راجع معاضرات في التوحيد، المفيدة، الفكر الحديث) د. محمد شمس الدين ص ٥١، ٥٢.

(٣) الشامل للجويني ص ٥٨٢، ٥٨٣. وراجع إظهار الحق ١/٢٧٧ للشيخ رحمة الله الهندي، دار التراث.

وأقول: إن قضية الحلول هذه لم يدل عليها عقل ولا نقل ولا نطق بها نبي من الأنبياء مدعياً أن الله يحل في بشر، ومن ثم فمسألة حلول الله في المسيح مسألة باطلة لا أساس لها في النقل، ولا برهان لها عند العقل، وإن اجتمع الكاثوليك والأرثوذكس على القول بأن هناك اتحاد بدون حلول قلنا لكل طائفة منهما ما قاله القائل: «ليس هذا بعشك فادرجي». وما ذلك إلا (لأن بعض العلماء - كما يذكر أستاذنا محمد شمس الدين إبراهيم - يرى أن الحكم بامتناع الاتحاد حكم بديهى لا يحتاج إلى دليل، والبعض الآخر يمنعه بدليل: حاصله أنه لو اتحد شيء بآخر فإن بقي لكل منهما وجوده الخاص له فلا اتحاد، بل هما اثنان، وإن وُجد أحدهما وانعدم الآخر فلا اتحاد أيضاً؛ إذ لا معنى لإتحاد المعدوم بالموجود، وإن انعدما ووجد ثالث فلا اتحاد أيضاً؛ لأن الثالث غيرهما وهذا الدليل يمنع اتحاد الاثني مطلقاً^(١).

وبناء عليه أقوال إن اللاهوت - كما يزعم هؤلاء - إن اتحد بناسوت المسيح، فإن بقي اللاهوت لاهوتاً والناسوت ناسوتاً فلا اتحاد؛ لأن كلاً منهما له ما يميزه، وإن انعدم الناسوت وبقي اللاهوت فلا اتحاد؛ لأن المعدوم يستحيل أن يقال إنه موجود وإلا فما معنى كونه معدوماً، والنصارى لا يتراجعون عن القول بوجود الناسوت، فالمسيح بشر كسائر البشر، وتبطل عقيدة الطائفتين في الوهية المسيح وإن انعدما معاً ووُجد ثالث فلا معنى للإتحاد؛ لأن الثالث غيرهما. وإن أصر هؤلاء على أن اللاهوت والناسوت اتحدا حقاص.

ويعد هذه البراهين العقلية التي تبطل الاتحاد هبني أقول: إن هذا الاتحاد لا بد أن يغير من صفة اللاهوت والناسوت، فلم يبق حينئذ اللاهوت لاهوتاً ولا الناسوت ناسوتاً، بل صارا جوهرًا ثالثاً. وبناءً عليه فالمسيح غير الله، والله غير المسيح فذاك مخلوق كسائر الخلائق، ولذا قال سبحانه وتعالى في حقه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢). والله الخلاق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

(١) محاضرات في التوحيد والعقيد، الفكر الحديث ٤١/١، د. محمد شمس الدين إبراهيم، دار الأنوار.

(٢) سورة الزخرف آية ٥٩.

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(١). ويستحيل أن يتحدد المخلوق الفاني بالخالق الباقي، إلا أن أصحاب هذه الأراء قالوا: إن الاتحاد لا يعنى شيئاً ثالثاً؛ لأنه جاء على جهة الظهور، كظهور كتابة الخاتم إذا وقع على طين أو شمع، أو كظهور صورة الإنسان في المرآة. وقد أجاب الشيخ رحمة الله الهندي قائلاً: (إن هذا القول لا يثبت الاتحاد الحقيقي، بل يثبت التقاير؛ لأنه كما أن كتابة الخاتم الظاهر على الطين أو شمع غير الخاتم وصورة الإنسان في المرآة غير الإنسان، فكذلك يكون أقتوم الابن المسيح عليه السلام الناسوت، بل غاية ما يلزم أن يكون ظهور أثر صفة الأقتوم فيه أكثر من ظهوره في غيره، كما أن ظهور تأثير شعاع الشمس في بعض الأحجار التي تتولد منها الجواهر المعروفة أزيد من تأثيره في الأحجار التي هي غير تلك الأحجار)^(٢). وبذلك تبطل أهوالهم وتتلاشى حججهم، ولا يصح أن يقولوا إن اللاهوت حلٌّ أو اتحد بالناسوت. والآن نسأل؟

ما هي مصادر هذه الأراء؟

يرى أصحابها أن مصدرها الأناجيل، وخاصة إنجيل يوحنا الذي جاء فيه: (أنا الأب واحد)^(٣). وهذا يعنى عندهم أن الله اتحد بناسوت المسيح، وحلَّ فيه. وهذا القول لا نصيب له من الصحة؛ لأنه من سبيل المجاز، فالمسيح يقصد ما يقصدون؛ بدليل أن يوحنا نفسه ذكر نصاً آخر على لسان المسيح صرح فيه بالحلول له ولغيره: (من يعترف أن يسوع ابن الله قاله حالّ فيه، وهو أيضاً حالّ في الله)^(٤). فلو كان المسيح يقصد أن كل من حلَّ فيه الإله فهو إله لكان معنى ذلك أن يوحنا أيضاً إله، وكل من آمن ببنوة المسيح إله، ولكن المسيح لم يقصد إلا البنوة المجازية، أى القرب من جنبات الله بالكلية، ويوحنا وسائر التلاميذ - إن كان هو منهم - فهموا ما قصده المسيح.

(١) سورة الشورى آية ١١.

(٢) إظهار الحق من ٣٣٧، الشيخ رحمة الله الهندي.

(٣) إنجيل يوحنا إصحاح ١٠/٣٠. (٤) إنجيل يوحنا إصحاح ٤/١٥.

وإذا كان الأرثوذكس والكاثوليك ومن سار على دريهم يريدون أن يلجوا أعناق الحقيقة، ويثبتوا أن قضيتي الاتحاد والحلول تكتسبان شرعيتهما من كتبهم، فإن ذلك لا يمنع القول بأن أصل مقولة الاتحاد والحلول التي ولدها العقل المسيحي لم تكن مسيحية في أصلها. والبيروني^(١) في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» (يذكر أن أصل فكرة الحلول هندی، وأن هذه الفكرة دخلت إلى أعماق المسيحية، وكذلك فكرة الاتحاد، فالهنود منشأ هذا القول، وأنهم يذهبون في الوجود إلى أنه شيء واحد، وينقل البيروني نصوصاً من كتبهم المقدسة تقول: إن جميع الأشياء عند التحقيق إلهيا؛ لأن بشن - أي الله - جعل منه أرضاً يستقر الحيوان عليها، وجعل من الأرض ماء ليتغذى الحيوان، وجعل منها نراً وريحاً لينميه وينشئه، وجعل قلباً لكل حيوان... ففى الناس جميعاً قوة إلهية بها تعقل الأشياء بالذات^(٢). ويصدق الدكتور على سامى النشار على كلام البيروني قائلاً: (ولا ينكر أحد أبداً أن فكرة الحلول والاتحاد منشؤها الهند، وأثبت البحث العلمى الأوربى أن جانباً كبيراً من تعاليم المسيحية فى الحلول إنما منشؤها هندی)^(٣). ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة: (والهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت فى إنسان اسمه كرشنه، والتقى فيه الإله بالإنسان أو حل فيه اللاهوت فى الناسوت فى كرشنه، كما يعبر المسيحيون عن المسيح، ويصفونه بأنه البطل الوديع المملوء الوهية)^(٤).

وأقول: إذا كانت هذه الآراء الهندية أسبق من الآراء والكاثوليكية والأورثوذكسية والتي لا تملك لصحتها دليلاً واحداً من كتبها علمنا إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرع عنه، وعلى أصحاب الثالوث جميعاً أن يبحثوا

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٩٦٢ - ١٠٤٨م)، مؤلف عربى سافر إلى الهند، ودرس لغة أهلها، وحصل على كثير من العلوم، وكان مؤرخاً لغوياً وأديباً وعالمًا بالرياضيات والفلك والطب والفلسفة والأديان (الإسلام دين المستقبل ص٩٦ روجيه جارودى ترجمة عبد المجيد بارودى).

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ١/٤٤.

(٣) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٤٧، د. على سامى النشار، طبعة دار المعارف.

(٤) الديانات القديمة ص٢٨، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى.

عن أصل دينهم، ولا يتمادوا في القول على الله ونبيه عيسى زوراً وبهتاناً. والله
در القائل فيهم وفي أقوالهم هذه:

معال لا يساويه معال وقول في الحقيقة لا يقال
وفكر كاذب وحديث زور بدا منهم ومنشؤه الخيال
تعالى الله ما قالوه كفر وذنب في العواقب لا يقال

إبطال قضية الانبثاق

إن قضية الانبثاق التي دار حولها الفكر المسيحي - وبسببها توطن الشقاق
بين الكاثوليك والأرثوذكس - لعجبية وغريبة، وتكمن غرابتها في كونها مختصة
بالروح القدس فقط، وهو الأقوم الثالث في ترتيب الثالوث، علماً بأن أتباعه
متفقون في عدم وجود فرق بين أفرادها، فهم - على حسب زعمهم - ثلاثة في
واحد. فلماذا إذن ينسب الإنبثاق للروح القدس دون الابن مثلاً؟ هل جدّ جديدٌ
به تمييز هذا عن ذلك؟

إن الابن عندهم هو الكلمة، والكلمة صفة من صفات الله تعالى، وقديماً
قرر أسلاف هؤلاء في المجمع القسطنطيني سنة ٣٨١م كما ذكرنا سابقاً أن
الروح القدس هو روح الله، وروح الله عندهم هي حياته، وحياته صفة من
صفاته قائمة بذاته تعالى، فلو انبثقت هذه الصفة عن الذات لانبثقت عنه سائر
الصفات. وهذا هو ما قرره الإمام ابن تيمية في قوله: (لو كان القائم بنفسه
منبثقاً لكان علمه وقدرته وسائر صفاته منبثقة منه، بل الانبثاق في الكلام
أظهر منه في الحياة، فإن الكلام يخرج من المتكلم، وأما الحياة فلا تخرج من
الحى فلو كان في الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التي يسمونها الابن -
ويقولون هي العلم والكلام أو النطق والحياة، أولى بأن تكون من الحياة التي هي
أبعد عن ذلك الكلام^(١).

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٥٩/٢ للإمام ابن تيمية، ط: المدنى المؤسسة السعودية
بمصر.

وبهذا لا يكون الروح القدس منبثقاً من الأب فقط، ولا من الأب والابن معاً، إنما هو خلق كسائر خلق الله، خصه الله بحمل رسالته إلى سائر أنبيائه عليهم السلام، وسيبقى الخلاف بين هؤلاء قائماً على باطل إلى يوم الدين.

ما ترتب على هذا الانقسام الكنسى

كان من الطبيعى أن يترتب على هذا الانقسام الكنسى حول فهم الثالوث بروز عقائد وأحكام جديدة أخذت تطل برؤوسها على المجتمع المسيحى المحتضن للثالوث الوثنى، ونتيجة لفساد المسيحية آنذاك كان من الطبيعى أيضاً أن تفسد الكنيسة بشقيها، وأن يمتد فسادها إلى خارج حدودها، مما كان له الأثر الواضح فى المحيط المسيحى، بيد أن هناك صرخات إصلاحية دوت داخل الكنيسة وخارجها قاصدة إصلاح حالها وردها إلى الواجهة الصواب التى عليها قامت الأديان السماوية. هذا وقبل أن نسطر لهذه الصرخات أو الصيحات الإصلاحية لابد أن نعطى نبذة قصيرة عن أهم العقائد والأحكام التى وضعتها الكنيسة المثلثة وقدمتها للمسيحيين كمقائد وشرائع سماوية جاء بها المسيح - ﷺ - وسنرى هنا أن الكاثوليك والأرثوذكس مازالوا شركاء متشاكسين أيضاً حول بعض هذه الأحكام ومن أمثلتها:

أ - مسألة الاستحالة أو العشاء الربانى

وعنها يتحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة قائلاً: (إن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزاً ويشربون الخمر، ويسمون ذلك بالعشاء الربانى، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد.

المسيح وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح فى جسده بلحمة ودمه)^(١).

أما عن المصدر الذى عليه اعتمدت الكنيسة للأخذ بهذا الحكم فهو ما جاء فى إنجيل متى: (وبينما هم يأكلون أخذ يسوع قطعة خبز، وبعد أن باركها

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٧، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى.

كسرهما وأعطاهما لتلاميذه وقال: خذوا هذا هو جسدي، ثم أخذ كأساً من الخمر، وبعد أن باركها أعطاهما لهم، وقال اشربوا جميعاً من هذه الكأس، فهذا هو دمي العهد الذي يسفك من أجل كثير لمحو الخطايا^(١). ولا شك أن هذا الحكم الذي قالت به كنيسة الثالوث غريباً وعجيباً، ولا أدري هل حقاً توجد عقلية إنسانية تصدق بهذا الهراء وتؤمن بهذه المقولات. إذ كيف تتحول الخمر إلى دم، وكيف يستحيل الخبز إلى لحم؟ ولحم من لحم شخص معروف، بل إله معبود لدى القوم، ما هذا الهراء؟ وكيف يكون التصديق به؟ بل كيف يتهم عبّاد الثالوث نبي الله ورسوله عيسى - ﷺ - بأنه شرب خمراً وفرض شربه على القوم؟ إنني أوقن أن هذا النص الذي اتخذه الكنيسة كدليل على ما تقول: ص كاذب، وقائلة أفاك أثيرم، ولا أقول ذلك جزافاً، بل أمامنا شواهد تثبت أن الخمر محرمة في العهدين القديم والجديد، ومن ثم يثبت ما نقول. وهناك بعض من هذه النصوص وتلك الشواهد:

أولاً: في العهد القديم

- ١ - جاء في سفر الأمثال: (الخمر مستهزئة، المسكر عجاج، ومن يترنج بهما فليس بحكيم)^(٢).
- ٢ - وجاء في سفر أشعيا: (ويل للأبطال على شرب الخمر، ولذوى القدرة على مزج السكر)^(٣).
- ٢ - وجاء في سفر اللاويين: (وكلم الرب هارون قائلاً: خمراً لا تشرب، ومسكراً لا تشرب أنت وبنوك معك)^(٤).
- ٤ - وقد أعلن سفر الأمثال أن الفقر في شرب الخمر: (محب الخمر والدهن لا يستقنى)^(٥).

(١) إنجيل متى إصحاح ٢٦/ ٢٦، ٢٧، ٢٨. (٢) سفر الأمثال إصحاح ١، ٢٠/١.

(٣) سفر أشعيا إصحاح ٥/ ٢٢. (٤) سفر اللاويين، ١٠، ٨/٩.

(٥) سفر الأمثال: ١٧/٢١.

٥ - كما نهى هذا السفر أيضاً عن مجالسة من يشربون الخمر: (لا تكن بين شريبي الخمر، بين المتلفين أجسادهم؛ لأن السكر والمسكر يفتقران)^(١).

ثانياً: في العهد الجديد

١ - حيث جاء في رسالة بولس الرسول - عندهم إلى أهل إفسس: (ولا تسكروا بالخمر الذى فيه الخلاعة، بل امتلثوا بالروح)^(٢).

٢ - وفي رسالة بطرس الأولى: (لنكون قد علمنا إرادة الأمم، سالكين في الدعارة والشهوات وإدمان الخمر والبطر والمنادمات وعبادة الأوثان المحرمة)^(٣). ولا نريد أن نستطرد في ذكر هذه النصوص. ولكن بهذا القدر يمكننا القول بأن المهديين «القديم والجديد» قد سطرت فيهما نصوص تدل على أن الخمر محرمة. ولما جاء الإسلام أكد على تحريم الخمر، وذلك من خلال آيات وفيرة جاء ذكرها في القرآن الكريم:

١ - قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٤).

٢ - وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٥).

٣ - وقال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٦).

والتي يعيننا في هذا المقام أن السيد المسيح - ﷺ - لم يشرب الخمر، وأن الكتب المقدسة لدى القوم شهدت بذلك، ومن ثم فالنص المعتمد عليه في مسألة

(١) سفر الأمثال: ٢٠/٢٢، ٢١.

(٢) رسالة بولس إلى أهل إفسس إصحاح ٥/١٨.

(٣) رسالة بطرس فتولى إصحاح ٣/٤.

(٤) سورة البقرة آية ٢١٩.

(٥) سورة النساء آية ٤٣.

(٦) سورة المائدة آية ٩٠.

الاستحالة نص باطل وكاذب، وكان على الكنيسة أن تفكر قبل أن تشرع ولكنها (فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلا عرّضوا للطرد والحرمان... ولقد خالفت في بعض شأنه أي العشاء الرباني الكنيسة لكاثوليكية غيرها من الكنائس. فالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ترى أن العشاء الرباني لا يكون بالفطير، بينما تراه الكنيسة اللاتينية. ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة، ويمتقدون أنها غير ممكنة في العقل، ولا سائفة في الفكر^(١)).

(ب) أما المسألة الثانية: فهي مسألة امتلاك الكنيسة حق الفجران للمسيء في الدنيا، وهي من المسائل التي أبرزتها الكنيسة إلى حيز الوجود بدون دليل أو برهان حتى تعطى لنفسها قوة تفوق قوة أي سلطان، ومن ثم تكون باسم الثالوث صاحبة الأمر والنهي، وعقدت لهذه المسألة المجمع الثاني عشر، وقد جاء في كتاب «تاريخ الكنيسة» بيان قرار المجمع في هذا الشأن: (أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الفجران فقال: إن يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الفجرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من الملا منذ الأيام الأولى، وقد أعلم المجمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي المثبتة بسلطان المجمع^(٢)). ثم ضرب المجمع بسيف الحرمان على كل من كان له اعتراض على هذا القرار، وقد نقل إلينا صاحب «سوسنة سليمان» صورة من صور صك الفجران التي يمحو بها القس ذنوب العباد (ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ويحك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة. وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيمة ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسي الرسولي وأمحو جميع أقدار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه

(١) راجع محاضرات في النصرانية ص ١٧١، الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) كتاب تاريخ الكنيسة نقلًا عن محاضرات في النصرانية ص ١٧١، الشيخ محمد أبو زهرة.

عام لتابعيها جاء فيه: (عليكم أن تطيعوا آباء الكنيسة كما أطاع عيسى أباه، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعون الرسل، ولا يياشر أحدكم شأناً من الشؤون (كالتعميد والزواج وحضور الموت والصلاة) بدون حضور آباء الكنيسة، وأنى يوجد الأسقف فإن حضوره يعد حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية)^(١).

ولم تكف الكنيسة بهذا الإعلان، بل توسعت في سلطتها خارج حدودها، وتطلعت إلى كراسى الملوك، علماً بأن القاعدة المعروفة عند أربابها هي: (أعطوا ما ليقتصر لقيصر وما لله لله) مع العلم أن كل شيء لله تعالى. وبمرور الزمن اخترقت هذه القاعدة: (ونشأ صراع عنيف بين السلطة والكنيسة للسيطرة من أحدهما على الآخر، إلا أن التهديد الحقيقي للكنيسة بدأ بانجراف القائمين عليها، وتحول البابوات إلى أوغاد وفجار على حد قول تعبير جورج سباين)^(٢). وأصبحت المناصب الدينية في المزاد العلني توزع بأساليب الدناءة حتى كانت ماروزيا وهي ابنة أحد كبار موظفي القصر البابوي، (تعين بنفوذها بعض أصدقائها في مناصب البابوية ومنهم البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ - ٩١١)، وبلغ من استهتارها أن عينت في هذا المنصب الديني ابنها غير الشرعي من سرجيوس هذا باسم البابا يوحنا الحادي عشر، كما عينت أحد أحفادها باسم البابا يوحنا الثاني عشر وكان صبياً في السادسة عشرة من عمره، وهو البابا الذي اتهم بتعيين طفل في العاشرة من عمره في وظيفة أسقف)^(٣).

وهكذا بعدت المسيحية بعداً تاماً عن تعاليم السيد المسيح - ﷺ - وظهرت على السطح باسم الثالوث مسيحية جديدة فاسدة تسمى مسيحية القساوسة، والتي عنها قال روسو: (إن مسيحية القساوسة تعطى للناس تشريعين ورئيسين

(١) المسيحية من ٢٠٠، د. أحمد شلبي.

(٢) تطور الفكر السياسي ٤٧٢/٣ جورج سباين، ترجمة راشد البراوي.

(٣) راجع معالم الفكر الفلسفي في المصور الوسطى ص ١٦٦، د. عبده فراج، طبعة الأنجلو المصرية

ووطنيين، أحدهما ديني والآخر مدني، وتخضعهم لواجبات متناقضة، وتقوم على أكاذيب تخدع الناس، وتجعلهم بلهاء يؤمنون بالخرافات، ويفرقون عبادة الله الحقيقية في طوفان من الطقوس الجوفاء، وهي دين متعصب^(١). وهذا التعصب هو الذي جعل الفساد الديني يتتابع والانحراف الخلقى يتوالى، وتحكم رجال الدين في عقول الناس وعقائدهم واستحوذوا على أموالهم وامتهنوا أعراضهم وأهدروا دماءهم، حتى تنادى الناس جميعاً بالإصلاح الشامل، فكانت الثورة الكبرى ثورة الإصلاح، وبسببها تحررت العقول عن بعض الطقوس الكنيسية، وسادت روح النقد كل شيء حتى وصلت إلى عقيدة الثالوث التي حرمت الكنيسة مناقشتها، مما كان له الأثر الواضح على هذه العقيدة في المسيحية.

(١) المقعد الاجتماعي ص ٢٢٢ ترجمة عبد الكريم أحمد، مراجعة توفيق اسكندر، ط دار سعد. مصر.

ثورة الإصلاح وأثرها على عقيدة الثالوث في المسيحية ١٥١٧م

ظلت الشعوب المسيحية رداً من الزمان تدين بالثالوث دون دليل أو برهان، ثم تبع ذلك تفضي الفساد الكنسي الذي أسلفنا له الذكر إلى أن تمخض الزمان بثورة إصلاحية عارمة، وذلك في أكتوبر ١٥١٧م، وكان من أبرز رجالها: مارتن لوثر الألماني، وزونجلي السويسري، وكلفن الفرنسي. وكان لفكرة الثورة هذه أثر واضح على عقيدة الثالوث في المسيحية.

١- مارتن لوثر الألماني (١٤٣٨ - ١٥٤٦م) وأعماله

هو راهب كاثوليكي كشف سوء حال الكنيسة وانحراف رجالها عن جادة الصواب، فندد بمقائدها، وقام بتعليق نظرياته الخمس والتسعين على باب كاتدرائية فيتبرج بألمانيا، وهي تنص على أن الناس سواسية في الأمور المتعلقة باللاهوت، وأن كل إنسان على ظهر الأرض مسئول عن إنقاذ روحه، وله من كلمة الرب المسطرة في الكتاب المقدس ما يساعد على ذلك، وأن الإنسان يبرأ من الإثم بالإيمان وحده دون توسط من بابا أو غيره، (ثم حارب صكوك الفجران، ونظر إليها كوسائل للرق وللعبودية، وألقى الأضواء كما يقول الدكتور محمد البهي - على عقيدة التثليث)^(١). وكانت أقواله عن التثليث كما جاء في كتاب «حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر»: (على أنه تعبير يفتقد القوة)^(٢)، وأنه تعبير لم يوجد في الأسفار)^(٣).

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي من ٢٥٠، د. محمد البهي، ٩٤ مكتبة وهبة.

(٢) لقد بيّننا زيف التصوص التي يتخذها النصارى دليلاً على صحة الثالوث، خاصة في إنجيل متى ويوحنا.

(٣) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر من ١١٥، مهندس أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة.

ثم حارب سلطة البابا، وجعل السلطة الوحيدة في المسيحية هي الكتاب المقدس وكلمة الله (النص)، ولم يقف البابا ليو العاشر مكتوف اليدين، بل استصدر حكمين ضد هذا الراهب: الحكم الأول: الحرمان من الحياة الأبدية. والحكم الثاني: الإعدام بالنار^(١). ولم يأبه لوثر بهذا القرار، بل عمد إلى الإنذار الذي أرسله إليه فحرقه في ميدان من أكبر ميادين المدينة. وسط جمع حاشد من الناس، وفي سنة ١٥٢٠م جمع البابا مجمعاً، وفيه قرر محاكمة لوثر فلم يذعن لوثر لهذا القرار أيضاً، (ولما حاول الإمبراطور سنة ١٩٢٩م أن ينفذ هذا القرار ثار أنصار لوثر واحتجوا على ذلك، ومن ثم سمي أتباع نحلته بالبروتستانت، أي المحتجين، وأخذ لوثر من ذلك الحين ينشر مبادئه المعارضة للكنيسة الكاثوليكية، والتي تكونت منها النحلة البروتستانية، كما أخذ الناس يدخلون في نحلته أفواجاً)^(٢)، على حد تعبير الدكتور على عبد الواحد واهي.

٢- زونجلي السويسري (١٤٨٤ - ١٥٢١م) وأعماله

لقد ظهر هذا الرجل في العصر نفسه الذي ظهر فيه مارتن لوثر، ودعا إلى كثير مما دعا إليه لوثر في شئون الدين، (وثار على صكوك الفخران وغيرها من مفاصد الكنيسة الكاثوليكية، وتبعه ناس كثيرون، لكنه مات قتيلاً أثناء صراع وقع بين أنصاره وأنصار الكنيسة الكاثوليكية، وكانت دعوته منفصلة عن دعوة لوثر، وإن اتفقت معها في مبادئها)^(٣).

٣- كلفن الفرنسي (١٥٠٩ - ١٥٦٤م) وموقفه من الثالث

ولقد سلك كلفن طريقة لوثر في معارضة الكنيسة، واحتضن منهجه الذي يدعو إلى رفض سلطة البابوات على العقول، ثم أقر لوثر - كما يقول الدكتور البهي - (على أن الإنجيل وحده هو المصدر للحقيقة المسيحية دون تفسيراته

(١) كتاب - محمد ﷺ - في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٢٠٨، إبراهيم خليل أحمد.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٤٢، د. على عبد الواحد واهي.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٢.

وشروحه، وأوضح رأيه في عقيدة التثليث وفقاً للأصول المسيحية^(١). ويبدو أن هذه العقيدة كانت في نظر كلفن لا قيمة لها؛ ولذلك يذكر لنا فيلر في كتابه «تاريخ الموحدين»: (أن كلفن قد أعلن أن قانون الإيمان الذي صدر عن مجمع نيقية كان يناسبه أن يُغنى كأغنية بدلاً من أن يُحفظ كبيان عن العقيدة. لقد رفض كلفن قانون الإيمان الذي أصدره اثاسيوس وبدلاً من ذلك جعل قانون الرسل والوصايا العشر والصلاة الربانية أساس كتاب «خلاصة العقيدة»، الذي صدر في جنيف عام ١٥٤١م، فمن النادر جداً أن نجد ذكراً للتالوث في هذا الكتاب، ولو كانت لعقيدة التالوث أهمية كبيرة لكان كلفن ركز عليها)^(٢).

وبهذا نرى أن حركة لوثر وزونجلي وكلفن الإصلاحية عرضت المسيحية للجدل حول الكثير من عقائدها، بعد أن كانت تلك العقائد مصونة من النقاش، حتى وإن احتوت على أخطاء واضحة فلا يصح لأحد أن يقترب إليها بعين النقد، ومن تسوّّل له نفسه بذلك تتهار عليه قرارات الحرمان والطرده من الكنيسة، ثم الحكم عليهم أيضاً بالكفر والفجور، بيد أن هؤلاء ضربوا بالكثير من قرارات الكنيسة عرض الحائط وتبعتهم حشود هائلة من المسيحيين والذين اکتبوا بنار المساوسة قروناً من الزمان طويلة، ثم كونوا لأنفسهم مذهباً خاصاً يطلق عليه «المذهب البروتستانتي»، وله أنشئوا الكنيسة البروتستانتية، ثم أعلنت باسم رجالها أن الكتاب المقدس هو الحكم الفصل بينها وبين الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، ولهذا المذهب يدين الآن (معظم أهل ألمانيا والدنمارك والنرويج وهولندا وأمريكا الشمالية وسويسرا)^(٣).

ويمكن تلخيص هذا المذهب في الأمور التالية:

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغرب ص ٢٥٠. د. محمد البهي.

(٢) راجع طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص ٣٥. أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة.

(٣) محاضرات في النصرانية ص ١٨٥. الشيخ محمد أبو زهرة.

أهم مبادئ المذهب البروتستانتي

١ - عدم أخذ الأفكار المتعلقة بالعقائد والشرائع والعبادات إلا من الكتاب المقدس وحده، على حين أن الكنائس الأخرى تستمد أحكامها من الكتاب المقدس، ومن قرارات المجامع، وأراء البابوات، ورؤساء الكنائس البروتستانية (الكنائس الإنجيلية) (لإعتمادها على الإنجيل خاصة، وعلى سائر أسفار الكتاب المقدس بوجه عام، بينما سميت الكنائس التقليدية لإعتمادها على التقاليد المستمدة من المجامع ومن أراء رؤساء الكنيسة، وجعلها لهؤلاء الرؤساء سلطان في تقرير حقائق العقائد والعبادات والشرائع)^(١).

٢ - لا تقر البروتستانية في مذهبها البابوية والرياسة العامة في شئون الدين؛ ولذلك لا يوجد للكنائس البروتستانتية رئيس عام بل يعتبر البابا كبير المرشدين، وليس خليفة للسيد المسيح^(٢).

٣ - ينكر المذهب البروتستانتي في كل الإنكار أن يكون لرجل الدين الحق في غفران الذنوب، سواء في حالة الاحتضار أو غيرها، وإنما جعل ذلك الحق لله وحده.

ويرى المؤرخون أن هذا المبدأ من أهم المبادئ التي قام من أجلها المذهب البروتستانتي، وبسببه ألغيت صكوك الغفران.

٤ - ينكر المذهب البروتستانتي جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أم المسيح - ﷺ - من طقوس واحتفالات وأعياد، ويعتبر البروتستانت ذلك خروجاً عن الدين.

٥ - يقرر المذهب البروتستانتي أن العشاء الرباني تذكار لما قام به المسيح من فداء للخليقة، أما ما يقال من استحالته إلى دم وجسد المسيح فهو خرافة.

٦ - يعلن البروتستانتي في مذهبها أن كل مسيحي له الحق في فهم الكتاب

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٤٤، د. على عبد الواحد.

(٢) يا أهل الكتاب تعالوا ص ٢٧٠، د. رؤوف شلبي.

المقدس عندهم دون الرجوع إلى رجل الكنيسة، ولا صلاة إلا بلبغة مفهومة.

٧ - تلى البروتستانتية في مذهبها نظام الرهبة، وهي لا تحرم الزواج على رجال الدين، كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقسس بمختلف درجاتهم^(١).

٨ - تحرم البروتستانتية وضع الصور والتماثيل في أماكن العبادة واتجاه المصلين استناداً لما جاء في التوراة: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تماثلاً منحوتاً صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأنى أنا الرب إلهك إله غيور)^(٢) وهم يرون أن ما أمرت به التوراة يجب الأخذ به طالما أنه لم يرد عن المسيح ما يبطل التوراة.

تلك هم أهم مبادئ المذهب البروتستانى والذى أعلن عقب ثورة الإصلاح سنة ١٥١٧م، ويرى الكثيرون من المؤرخين الغربيين أن هؤلاء استمدوا أكثرية هذه المبادئ، وخاصة المبدأ الأخير مبدأ تحريم الصور من المسلمين، وفي هذا يقول. و. طمسون في كتابه «تاريخ المصور الوسطى» و. ج. أوستر جوسكى في كتابه «تاريخ الدولة البيزنطية»: (إن الحرب على الأيقونات أى الصور والتماثيل بدأت في الدولة الإسلامية عندما أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣م بإزالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية، ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى الدولة البيزنطية، فبدأ ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٦٢٦م)^(٣).

وهذا القول قد يعنى أن البروتستانت قد اتصلوا بالمسلمين عن طريق

(١) راجع في ذلك محاضرات في النصرانية ص ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، للشيخ محمد أبو زهرة، وكتاب الأسفار المقدسة ص ١٤٥، د. على عبد الواحد وأهـ.

(٢) سفر التثنية إصحاح ٧/٥، ٨، ٩.

(٣) نقلًا عن كتاب محمد - ﷺ - في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٢٢٥، للأستاذ إبراهيم خليل أحمد، الذى كان قساً فاسلم.

الدولة البيزنطية فحسب، بيد أنى أرى أنهم بعد ذلك قد اتصلوا بالمسلمين، واطلموا على عقيدتهم، وذلك عن طريق الحروب الصليبية التى واكبت مطلع ثورتهم، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد تأثروا بنور الإسلام فى هذه الجزئية بالذات أكثر من تأثرهم بكتابهم المقدس لديهم.

النقد الموجه لمذهب البروتستانت

وإذا كنا قد علمنا سابقاً أن لوثر وكلفن قد ألقوا الضوء على عقيدة الثالث، وبينوا أنها عقيدة خرافية لا أساس لها فى الكتاب المقدس عندهم فإننا كنا نتوقع أن هذين الرجلين بجوار بقية المصلحين فى عهدهم لا بد أن يرفقوا فى مذهبهم بنداً من خلاله نعلم موقفهم النهائى من عقيدة الثالث، ويبدو أن ما قالوه شئ وما دوتوه فى مذهبهم شئ آخر، حيث بدأ هذا المذهب خالياً من أى إشارة لأمر العقيدة، ولذلك بقيت البروتستانتية كغيرها من النحل (تؤمن بالتثليث والوهية المسيح وبنوته لله تعالى، وصلبه وقيامته... إلخ)^(١). وهذا الإيمان، لا يتوافق ومنهجهم الذى ألزموا به أنفسهم أمام الناس. فهم قد التزموا فى مطلع مذهبهم بالاحتكام إلى الكتاب المقدس، وعدم أخذ العقائد إلا منه، والباحث فى هذا الكتاب لا يجد بين دفتيه نصاً واحداً يصرح بشرعية الثالث، بل أكثر نصوصه ينبثق من بينها شعاع التوحيد، وأيضاً قد التزموا فى مذهبهم بخلع سلطان الكنيسة والمجامع، علماً بأن التاريخ يثبت أن هذه المجامع هى التى تسببت فى إخفاء عقيدة التوحيد التى دانت بها المسيحية قرابة ثلاثة قرون أو يزيد وارساء عقيدة التثليث، فلو كان هؤلاء جادين فى مبادئهم هذه العقيدة التى قررها القساوسة سنة ٢٨١م فى مجمع القسطنطينية، أو على الأقل كان عليهم أن يركنوا ولو قليلاً إلى دراسة القرارات المنبثقة عن هذه المجامع وينظروا فى سندها فيما راوه قوياً قبلوه، وما وجدوه ضعيفاً رفضوه. وبهذا يكونون قد ساروا فى موكب الإصلاح إلى آخر مدا، كما يحتم عليها منطقتهم، أما وأنهم يقفون فى منتصف الطريق، ويخالفون الكنيسة فى أمور فرعية أعظمها تلك التى (١) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص ١٤٢، د. على عبد الواحد واهى.

ضمها مذهبهم سالف الذكر، ثم يدينون بالثالوث المفروض على العقول فرضاً دون دليل أو برهان زاعمين بعد ذلك أنهم أحدثوا في المسيحية إصلاحاً من القمة إلى القاع، فإن هذا هو ما يرفضه منطلقهم الذي ألزموا به أنفسهم ويرفضه واقع الكنيسة ورجالها.

أثر هذه الحركة الإصلاحية على التالوث في المسيحية

وإذا كان هؤلاء المصلحون عندهم لم يتعرضوا للتالوث في مذهبهم، ولم يسايروا موكب الإصلاح إلى آخر مداه. فإننا لا ننكر أن حركتهم هذه قد تمخضت بالفعل بعد ذلك عن آثار إيجابية أحدثت فيما بعد ضجة ضد التالوث الكتسي أعقبه ظهور طوائف الموحدين مرة أخرى على الساحة المسيحية، ومن أهم هذه الآثار ما يلي:

١ - بروز محاولات فلسفية لتحرير

العقل من وطأة التالوث

حيث تحرك الكثيرون من الفلاسفة والعلماء في المسيحية حاملين على عاتقهم مواصلة السير في موكب الإصلاح، وبصحبته من نهج الثورة الإصلاحية - عندهم - المتمثل في أحقية كل مسيحي في فهم الكتاب المقدس دون تدخل من أحد البابوات أو القساوسة، وباسم هذا المنهج أخذوا في تحرير العقول من الأدران الكتسية، ومن وطأة التالوث الجاثي قرابة ألف عام أو يزيد، وكان مطلع هذه المحاولات عقب الثورة الإصلاحية، وعلى وجه التحديد في القرن السابع عشر الميلادي، حيث قام جماعة من المفكرين وعلى رأسهم سبينوز^(١) SpINOZ وليبنتز^(٢) Leibntis ولوك^(٣) Locke بمحاولة تقريب بين الطوائف المسيحية المختلفة على أساس من التعاليم الأصلية للمسيحية، وابتدعوا لهذه المحاولة ما أسموه بنظام العقيدة، وكتبوا خطابات ثلاثة عن التسامح، وعبروا عن هذا

(١) عاش بين سنتي ١٦٢١ - ١٧٧٧م. (٢) عاش بين سنتي ١٦٤٦ - ١٧١٦م.

(٣) عاش بين سنتي ١٦٣٢ - ١٧٠٤م.

التسامح في الكلمة المعروفة «كنيسة حرة»، في دولة حرة - ثم تحولت هذه المحاولة من الوجهة النظرية عند الفلاسفة الثلاثة إلى القيام بتعليل عقلي لمسيحية عامة صافية، وأطلقوا على هذا التعليل (دين الطبيعة) أو دين العقل^(١). وهو إطلاق بلا شك غاشم ولا يصح أن يطلق على أديان تنسب إلى السماء، ولا أجدنى في حاجة إلى مناقشته حتى لا نخرج عن طى الموضوع.

أساس هذا الدين عندهم

جعل هؤلاء الفلاسفة أساس هذا الدين عندهم الإيمان الكامل، وعرفوا الوحي - كما يقول الدكتور البهى - (بأنه ما كان فوق العقل البشرى، لكنه ينسجم مع العقل، أى أن الذى يعتبر وحياً هو ما لا يستطيع العقل أن يجده من نفسه، ولكن مع ذلك يمكن له أن يفهمه في وفاق وانسجام مع تفكيره الصحيح)^(٢). وأقوال الفلاسفة هنا ليس المقصود منها نقض الإيمان في حد ذاته، إنما القصد هو نقض ما طرأ عليه، وهم بهذا كانوا يهدفون بلا شك إلى تحرير العقول من العقائد اللامفهومة وإثبات كرامتها التى أهدرتها الكنيسة عبر القرون بحجة أن العقل لا يستطيع فهم ما جاء به الوحي عندهم، ومن ثم فلا يمكن له فهم الثالوث، ولا يحق له مجرد التفكير فيه.

٢ - اقترب الفلاسفة من مذهب الموحدين

ولما كان الموحدون قديماً يرون أن الوحي لا يأتى بعقائد تضاد العقل، وأن عقيدة السماء بسيطة وواضحة فإن هؤلاء الفلاسفة بمحاولاتهم الدائبة لتحرير العقل من وطأة العقيدة المثلثة الطارئة على المسيحية اقتربوا بلا شك من مذهب الموحدين، بل أنكروا بكل صراحة ما أنكر الموحدون، ومن هؤلاء جماعات السوسنيين^(٣) Socinienes (حيث أكدوا وجود الوحي ولكنهم عبروا

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى من ٢٤٦. د. محمد البهى.

(٢) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، من ٢٤٦. د. محمد البهى.

(٣) هم أتباع الفيلسوف الإيطالى Socin فى القرن السادس عشر (١٥٢٥ - ١٥٦٢). وقد كان من الملائكة.

أنه ما ليس بوحى هو ما لا يستطيع العقل أن يفهمه، وتطبيقاً لهذا اعتبروا ما جاء فى العقيدة المسيحية من التثليث ومن جمل المسيح لهاً إنسانياً فى وقت واحد غير وحي، ثم رأوا أن ما أوحى به الله له طابع القانون ويجب العمل به، والدين لا يبقى فى حيز الفكرة النظرية، بل هو خضوع تام للقانون الإلهى^(١).

وهم بهذا يريدون أن يقولوا إن الدين لا بد أن يكون سلوكاً وعملاً طبقاً لهذا القانون، ولكن ليس كل دين، بل الذى لا يجد العقل فى فهمه عسراً، أما الدين الذى لا يفهم فهو بلا شك قائم على أغراض شخصية ولا صلة له بالوحى الإلهى، وهذا هو ما ينطبق على الدين المسيحى المتمثل فى الثالوث، ومن ثم فلا يصح الخضوع له أو حتى الاعتراف بشريعته. ثم جاء بعد هؤلاء هيجل Hegel فى القرن التاسع عشر، وأقام فلسفة خاصة به^(٢)، على أساس ما أسماه (بالفكرة).. ووصل بهذه الفلسفة الخاصة إلى وحدانية الله تعالى، وبذلك أغضب الكنيسة الكاثوليكية بإنكار التثليث فى الألوهية، وعلى غرار هيجل قام شلينج Schelling بعمل فلسفى سُمى بالفلسفة البنائية، وهى فلسفة تهدف إلى إقرار مذهب الوحدة فى الألوهية^(٣)، وبهذا يتبين لنا أن دفاع الفلاسفة عن العقل ومحاولتهم إصلاح حال الكنيسة بين العقائد اللامعقولة عقب ثورة تيقظ الإنسان من خلالها إلى قيمة نفسه قد جعلهم - سواء بقصد منها أو بدون قصد - يحاربون الثالوث وعقيدة ألوهية المسيح، والاعتقاد بعصمة البابا أو بسلطانه الزمنى، وغير ذلك من الأمور التى لا تستقيم مع العقل

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٤٦، ٢٤٧. د. محمد البهى.

(٢) لقد لعبت فلسفة هيجل هذه دوراً بارزاً فى تكوين النظرة الماركسية حيث تأثر بها ماركس، وخاصة مبدأ النقيض منها، القائل: لكل فكرة فكرة تقابلها، ومن صراع الفكرتين تتكون الفكرة الثالثة هى الجامع لهما، ثم ينطبق عليها ما انطبق على الأولى، وهكذا دواليك ليستمر الدفع والتقدم، والقصد من ذلك عند هيجل هو إثبات الفكرة والوحى. أما ماركس فإن مذهبه لا يتركز على الفكرة، بل على المادة، فهى عنده الثابتة الأزلية، والفكرة عنها تولدت، ومع ذلك فقد أفرغ مذهب هيجل فى هذا الإطار، علماً بأنه لا ينطبق عليهما، بل على الفكرة فحسب. (راجع فى ذلك الماركسية بين الدين والعلم من ص٤٠ إلى ص٤٦) جميل محمد أبو العلا. مطبعة الأمانة.

(٢) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٤٧، د. محمد البهى.

الإنسان الواضح، وهذا كله يتوافق ومذهب الموحدين قديماً، ومن ثم حق لهذا المذهب أن يرى النور مرة أخرى، فظهرت عقب ثورة الإصلاح طوائف تدعوا باسمه تسمى «طوائف الموحدين».

٢. طوائف الموحدين^(١) في المسيحية عقب ثورة الإصلاح

لقد ظهر هؤلاء الموحدون مرة أخرى ليجاروا موكب الإصلاح في المسيحية، ويمثلون مذهبهم بكل صراحة بعد أن خضعت الشعوب المسيحية للثالثون قرونًا طويلة تحت نير الكنيسة. ومعلوم أن التوحيد هو الذي كان المعتقد الأساسي - كما ذكرنا سابقاً - مدة لا تقل عن ثلاثة قرون متتالية أو يزيد، أما التثليث فهو المعتقد الطارئ عليه.. ومن المغالطة الواضحة في هذا الصدد ما ذكرته دائرة المعارف الأمريكية حين قالت: (تظهر بداية التوحيد كمقيدة محددة بعد نصف قرن من الإصلاح الديني البروتستانتى)^(٢)؛ لأن الذي يفهم من هذا النص أن التوحيد لم يظهر كمقيدة رسمية في المسيحية إلا بعد نصف قرن من قيام ثورة الإصلاح، وهو خلاف الواقع الذي أسلفنا له الذكر، وبيناه من خلال دراستنا في الجامع. بالإضافة إلى أن هذا المفهوم يوقع دائرة المعارف الأمريكية في التناقض مع نفسها حيث ورد عنها ما نصه: (لقد بدأت عقيدة التوحيد - كحركة لاهوتية - بداية مبكرة جداً في التاريخ، وفي حقيقة الأمر فإنها تسيق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين)^(٣). ويبدو أن الذي دعاها إلى التصريح بالنص الذي أدى بها إلى التناقض هو كثرة طوائف الموحدين عقب ثورة الإصلاح، الأمر الذي جعلها تتوهم أن التوحيد لم يكن له وجود متكامل إلا في هذه الآونة، ونحن إذ نسلّم لها بأن الموحدين كانوا بالفعل ذا عدد غفير عقب ثورة الإصلاح، إلا أننا لا نسلّم بأن التوحيد لم يظهر كمقيدة رئيسية في المسيحية إلا عقب هذه الثورة، والواقع التاريخي يشهد بذلك.

(١) كلمة الموحدين اصطلاح تاريخي أطلقه المؤرخون على كل من يتبع معتقد أريوس قديماً، وينكره ما تراه فرق النصارى الأخرى القائلة بالتثليث والتاليه والتجسد والصلب... إلخ.

(٢) طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٢٤، مهندس أحمد عبد الوهاب.

(٣) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية، أحمد عبد الوهاب.

المبادئ العامة التي يقوم عليها الفكر التوحيدي في المسيحية

ونظراً للحركة الدائبة التي قام بها الموحدون لتطهير المسيحية من عقيدة الثالوث، فقد أعلن هؤلاء بأنفسهم مبادئ عامة تثير لفكرهم الطريق، وهذه هي أهم مبادئهم، كما جاء ذكرها في دائرة المعارف الأمريكية:

١ - (إن عقيدة التوحيد سوف لا تقبل أى معتقد لمجرد أنه مقدس، إنها تبجل فكر يسوع الناصري، وتعترف بعظمة حكمته، لكنها تنكر أن يسوع كان معصوماً من الخطأ)^(١).

وأرى هنا أن عجز هذا المبدأ قد أخطأ فيه الموحدون؛ لأنهم إن لم يؤمنوا بكون المسيح إلهاً فهو عندهم بلا شك نبي ورسول، والنبي والرسول لا بد أن يكون معصوماً وهم لا يرون ذلك.

٢ - إن كنيسة الموحدين تعتبر الكتاب المقدس تسجيلاً قيماً للخبرات الإنسانية، وهي تصرّ على أن كاتبها كانوا معرضين للخطأ؛ ولهذا السبب فإن أغلب الأجزاء الرئيسة للمعتقدات المسيحية قد رُفضت.

٣ - إن الموحدين يمتقدون أن العقيدة الدينية مليئة بالحركة، وأنها وسيلة للتعامل مع المسائل التي تختص بالوجود الإنساني كله... فالتعليم اللاهوتي الذي لا يمس الحياة في أى نقطة يفقد قيمته الدينية.

٤ - إن الفرق التاريخي بين التوحيد والتثليث يأتي من حقيقة أن الموحدين طالما كانوا يؤمنون بوجود إله واحد فإنهم يمتقدون أن الله سبحانه إله واحد بدلاً من ثلاثة أقانيم، ولذلك قال شانينج ١٨١٩م - أحد زعماء الموحدين -: إن الثلاثة أقانيم تتطلب ثلاثة جواهر، وبالتالي ثلاثة آلهة... ثم قال: إن نظام الكون يتطلب مصدراً واحداً للشرح والتعليل لا ثلاثة؛ لذلك فإن عقيدة التثليث تفقد أى قيمة دينية أو علمية.

(١) انظر طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٣٧، أحمد عبد الوهاب.

٥ - ... إن الكتاب المقدس لم يقل بالتالوث، كما أن يسوع فى نفسه كزعيم دينى هو المسيا، وليس كإله، وبالمثل اعتقد التلاميذ أن يسوع مجرد إنسان. ثم عللوا لهذا المبدأ قائلين: إذا كان عند أى من بطرس أو يهوذا^(١) أى فكرة عن أن يسوع إله لما كان هناك أى تفسير معقول لإنكار بطرس ليسوع - حسبما تذكره الأناجيل بعد القبض عليه والذهاب به إلى بيت رئيس الكهنة - وما كان هنالك تبرير لخيانة يهوذا! لأن الإنسان لا يمكن أن ينكر أو يخون كائناً إلهياً له كل القوة.

٦ - إن الحقيقة المزعومة بأن يسوع مات من أجل خطايانا، وبهذا وقانا لعنة الله مرفوضة قطعاً؛ لأن الله يجب ألا يعرف عن طريق اللعنة، بل عن طريق الحلم والمحبة. إن الموت الدموى على الصليب من أجل إطفاء لعنة الله الإله لهو أمر مناقض للحلم الإلهى والصبر والود والمحبة التى لا نهاية لها.

٧ - إن يسوع لو كان إلهاً فإن المثل الذى ضربه لنا بعبشته الفاضلة^(٢) يفقد كل ذرة من القيمة حيث يمتلك قوى لا نملكها، والإنسان لا يستطيع تقليد الإله^(٣).

هذه هى أهم مبادئ الفكر التوحيدى فى المسيحية، وعلى هديها انطلق الموحدون فى إصلاح مسار المسيحية، وتصحيح الانحراف الذى حدث لها، وإذا كانت الأريوسية قديماً لم يكتب لها النصر النهائية على المستوى الرسمى للدولة فإن ظهور هؤلاء الموحدين عقب ثورة الإصلاح بهذه المبادئ يدل على أن جهودها لم تذهب سدى، بل بقيت لها جذور قوية تثبت بين الحين والحين

(١) بطرس ذكرته الأناجيل بأنه كبير الحواريين. أما يهوذا فهو يهوذا الإسخريوطى. جاء ذكره فى الأناجيل بأنه قبض رشوة ثلاثين درهماً من الفضة، وبسببه قبض على المسيح وقتل وصلب. وبما أن قضيب الصب تحتاج إلى بحث منفرد فى رسالة خاصة إلا أننا نقول: إن القرآن الكريم أثبت أن هناك حادث صلب قد وقع فعلاً، ولكن ليس للمسيح ﷺ ومن ثم فالتقول بصلبه قولٌ باطل. قال جل شانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ ﴾ (النساء: ١٥٧).

(٢) هذه الأمثلة مبثوثة بإطناب فى الأناجيل الأربعة على لسان المسيح ﷺ.

(٣) راجع فى ذلك كتاب طائفة الموحدين ص ٢٧، وكتاب اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس ص ١١١، للمهندس أحمد عبد الوهاب.

وتثمر، وقد تمثل هذا في (الحركات التوحيدية) و(الحركات المعادية للتثليث)، التي استمرت على مر العصور، واستطاعت أن تقيم (طائفة الموحدين)، وهم مسيحيون من مختلف الشعوب والثقافات، وأصبح لهم كنائسهم المنتشرة في أوروبا وأمريكا، ولكي نعرف إلى أى مدى ساهم فكر هذه الثورة في مساندة الموحدين ومحاربة عقيدة الثالوث سنمطى فكرة سريعة عن بعض أنشطتهم في بلاد أوروبا وأمريكا عقب ثورة الإصلاح حتى العصر الحديث.

أ - الموحدون في بولندا

وهذا هو ما جاء في كتاب «طائفة الموحدين» نقلاً عن دائرة المعارف الأمريكية التي قالت: (ما إن حل منتصف القرن السادس عشر حتى كان أكثر من ٢٠٠٠ كنييسة كاثوليكية قد تحولت إلى البروتستانتية، ثم جاءت (الحركات المعادية للتثليث) لتسلك سبلها إلى الكنائس الإصلاحية.

وهنا نذكر الطبيب والمعلم المشهور الدكتور جيورجيو بنديراتا الذي كان مدرساً في جامعة مونتبليه... حتى تشعب بمبادئ الحركة المعادية للتثليث في بولندا (حركة الموحدين)، ثم ما لبث أن أصبح رئيساً لها عن جدارة في عام ١٥٥٨م، ثم تقول: لقد تمت هذه الحركة وقويت لدرجة أنه عندما عقد مجمع بنزوا سنة ١٥٦٢م كان الليبراليون أغلبية، وكان القسس يتكلمون عن التثليث فقط بالعبارات التي تسمح بها الكتب... ويعتبر الإعلان الذي صدر عام ١٦٠٥م واحداً من أهم المطبوعات التي أنتجها جماعة الليبراليين البولنديين - تعنى جماعة الموحدين - فهي تقول: بأن الله واحد في ذاته، وأن المسيح إنسان حقيقي، ولكنه ليس مجرد إنسان، وأن الروح القدس اقنوماً لكنه قدرة الله، ثم حصل الرد الكاثوليكي على هذه الحركة، وصدر مرسوم سنة ١٦٥٨م طرد بمقتضاه جماعة موحدة في عام ١٧٣٦م وكانت كل الحقوق السياسية قد حسبت (من غير الكاثوليك)، ونفيت بعض الجماعات الموحدة خارج البلاد^(١).

(١) طائفة الموحدين من المسيحيين ص ٤١، ٤٢.

ولا أدري أن أفكر هؤلاء الموحدين سيكون في معزل من سكان البلاد التي نزحوا إليها؛ لأنه فكر بسيط لا التواء فيه.

ب- الموحدون في المجر وترانسلفانيا

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: (إن الروح الاستقلالية للمجريين مع الظرف الخاص بالمجر، وهو أنها كانت قد ابتمدت عن روما، كل ذلك أدى إلى فقدان سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، ولقد أذيع ثلاث مرات مرسوم بالتسامح الديني في أعوام ١٥٥٧م، ١٥٦٢م، ١٥٦٨م، ووصل الأمر بالموحدين إلى أن كانت المجر تحت حكم ملك موحد هو جون سيجسموند (١٥٤٠ - ١٥٧١م) وفي ترانسلفانيا حيث ازدهر التوحيد ثانية نجد ذلك يرجع إلى التأثير الإيطالي. ومن الشخصيات الهامة هنا فرانسيس داود، فقد ولد عام ١٥١٠م، في كولوسفار عاصمة ترانسلفانيا، ورغم أنه كاثوليكي فقد قبل عقائد الإصلاح الديني، وأصبح بدوره لوثيرياً ثم كالفينياً، وأخيراً في عام ١٥٦٦م أصبح موحداً لكن تأثير داود هذا قوضه من الأساس وفاة الملك جون سيجموند، إذ خلفه ستيفن باثوري الكاثوليكي، ورغم أنه كان حاكماً عادلاً إلا أنه كان معادياً للإصلاح الديني، حيث منع الموحدين من نشر كتبهم دون إذن منه، الأمر الذي أذى حركتهم تماماً، ومع ذلك فقد استمر داود في جهوه، وكان يمارض بشدة عبادة المسيح. وفي العشرينات من القرن التاسع عشر أقيمت العلاقات مع (الموحدين البريطانيين) الذين هدموا إعانات مالية ساعدت على الإبقاء على مدارس الموحدين)^(١).

وبهذا يتبين لنا أن الموحدين رغم تدخل الملك ستيفن باثوري في وقف حركتهم إلا أنهم مازالوا يناضلون حتى القرن التاسع عشر، حيث ازدهرت مدارسهم في ربوع ترانسلفانيا.

(١) المصدر السابق من ٤٢، ٤٣، ٤٤.

ج - الموحدون في هولندا

لقد ازدهرت المطابع في هولندا عقب ثورة الإصلاح، وكان لهذه المطابع أثر هام في نشر الفكر التوحيدي بين الهولنديين، (حيث طبعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر كتب ورسائل عديدة تعبر عن وجهات النظر التحريرية، ما كان أحد ليجرؤ على نشرها خارج هولندا، وقرب منتصف القرن التاسع عشر صارت ليدن بالتحديد وخاصة جامعتها مركز الدعوة للحرية الدينية في هولندا، لقد صارت مركزاً للتوحيد، كما أنها كانت متحررة تماماً في نقد الكتاب المقدس)^(١).

ويبدو هنا ارتقاء حركة التوحيد في هولندا المسيحية حيث لم يقتصر في نشر فكرها على المدارس الصغيرة - كما علمنا في تراسلفانيا - بل تعدت ذلك ووصلت إلى الجامعات، وأصبحت جامعة ليدن - وهي من أكبر الجامعات في هولندا - تساعد على بث الفكر التوحيدي في شتى البقاع المسيحية، مما يدل على مدى تعطش المسيحيين لهذا الفكر.

د - الموحدون في إنجلترا

وفي إنجلترا انتشر الفكر التوحيدي انتشاراً سريعاً عقب ثورة الإصلاح، وخاصة بين المفكرين الإنجليز، وبسببهم (يوجد في إنجلترا في الوقت الحالي من (٢٥٠ - ٤٠٠) كنيسة موحدة بعضها في الممتلكات البريطانية المستقلة (سابقاً). وتوجد مدرستان لتعليم التوحيد هما كلية مانشستر بأوكسفورد، وكلية التوحيد بمانشستر)^(٢).

هـ - الموحدون في الولايات المتحدة الأمريكية

وفي أمريكا بولاياتها المختلفة تجول الفكر التوحيدي بمبادئه السهلة، (وكانت عقيدة التوحيد موفقة في اجتذاب بعض القادة المهمين لجانبها، مثل

(١) المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٥١.

وليم الرى شانتج (١٧٨٠ - ١٨٤٢م) راعى الكنيسة فى بوسطن، حيث كانت موعظته عن مسيحية التوحيد التى وعظها فى مايو ١٨١٩ تُعد واحدة من اعظم الوثائق الدينية التى كتبت فى أمريكا. هذا وترتكز أغلب كنائس الموحدين فى ولاية نيوانجلند، حيث تبلغ طبقاً للإحصائيات الأخيرة (٢٧٠ كنيسة)^(١) كلها تحارب الثالوث بجوار كنائس أخرى منتشرة فى فرنسا وبلجيكا والدنمرك وسويسرا وغيرها من البلاد الأوروبية والأمريكية.

تعقيب

ويعد:

فهذه نبذة سريعة عن نشاط الموحدين فى شتى البقاع المسيحية عقب ثورة الإصلاح، وهى إن دلت فإنها تدل بلا شك على الأمور التالية:

أولاً: إن هذه الثورة كانت بمثابة الانفتاح لعهد جديد من الحرية الدينية، وعلى أثرها توقفت سلطة الحكام، وامتنعت سياط الكنيسة التى كانت تهوى على كل رأس يفكر فى مدى صحة عقائدها، ومن ثم تحرر العقل من وطأة الكنيسة ورجالها ولو قليلاً.

ثانياً: وعلى ضوء هذا التحرر ظهرت عقيدة التوحيد مرة أخرى فى ربوع المسيحية، وازدهرت على يد المفكرين والعلماء، وأنشأت لها الكنائس والمدارس فى البلاد، بل وتخصصت لنشرها الجامعات، وهذا كله سيؤدى بلا شك إلى انكماش الثالوث، إن لم يكن اليوم فغداً وإن غداً لناظره قريب.

ثالثاً: إن هذا الازدهار لعقيدة التوحيد عقب هذه الثورة يؤكد تأكيداً لا ريب فيه بأن المسيحية، الأصلية قامت على التوحيد، أما التثليث فهو عضو غريب من جسدها، ويقوة السلطات التصق بها حتى صار هو الصور التقليدية التى تعرف به.

رابعاً: إن المعتقدات الكنيسة التى جلبها الثالوث الوثى إلى المسيحية

(١) المصدر السابق ص٥٢، ٥٣.

معتقدات فاسدة كفساد الثالث، وستظل تحارب إلى يوم الدين، وراثتها العفنة هي التي ساعدت في انفصال أعداد وفيرة من المسيحيين عن الكنيسة الكاثوليكية وانضمامهم إلى الموحدين بغية الإصلاح والعودة بالكنيسة إلى معتقدها الأول، وإثر ذلك تملو صرخات الكنيسة الكاثوليكية قائلة لرعاياها: (إن العمل المسكوني يحتم على مؤمنى الكنيسة الكاثوليكية أن يهتموا بدون تردد اهتماماً أكبر بإخوانهم المنفصلين عنهم، وأن يُصلّوا من أجلهم، وأن يتحدثوا معهم عما يتعلق بشئونهم الكنسية بحيث تكون حياتهم شاهداً أكثر أمانة ووضوح للعقيدة والأنظمة التي نقلها الرسل عن المسيح)^(١)، إلا أن هذه الصرخات ذهبت هباءً منثوراً في الهواء، وما ذاك إلا لأن المسيحية المتمثلة في الثالث سواء أكانت كاثوليكية أم غيرها لا يمكن أن تسير روح التقدم الفكرى والمادى؛ لأنها عقيدة جامدة غير مفهومة، ومهما رقت بالفكر وتوالى عليها الإصلاح فإن شبح التأخر والوثنية سيظل يطل برأسه من ثوبها المرقع الذى أخنى عليه الدهر، ولهذا الأمر تتبأ أحد علماء البروتستانت بموت المسيحية ودفنها في القرن العشرين حين قال ما نصه مترجماً:

(إذا كان الدين المسيحى ليس شيئاً سوى الكتلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الرومانى)، أو الكتلكة التى دخلها الإصلاح بالفضل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموهى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً)^(٢)، فهل يا ترى سيعود فيه المسيحيون عن الثالث حقاً، ويسيروا في طريق التوحيد حتى يصلوا إلى الإسلام دين التوحيد الخالص عن كل شائبة أم لا؟.

(١) النشرة الثانية للفايكان مكتبة دير الآباء الدومنيكان.

(٢) الإسلام والتصرانية مع العلم والمدينة ص ١٤٧ الشيخ محمد عبده عيسى الباب الحلبي.

الاستياء العام من كنيسة روما والسعى في إصلاحها (١)

كان ظهور عديد من جمميات المنشقين عن كنيسة روما - أو المبتدعين كما كانت تسميهم الكنيسة الرومانية آنذاك - في الغرب، علامة واضحة على تنامي احتجاج شديد ضد مفاصد الكنيسة الفريية. ولم يكن هؤلاء المنشقون أو المبتدعون وحدهم الذين كانوا يقومون ضد الكنيسة السائدة، في القرون الوسطى (أى من القرن الحادى عشر حتى الخامس عشر)، بل أصبحنا نرى كثيرين من جميع طبقات المسيحيين القريبين غير راضين عن الأعمال الكنسية المعاصرة. إلا أن أولئك المستائين لم ينفصلوا عن الكنيسة نظير المنشقين، ومع وجودهم فيها طلبوا تجديداً كئسيأ. ففى القرن الرابع عشر الميلادى - وخصوصاً فى القرن الخامس عشر الميلادى، الذى بلغ فيه سوء استعمال البابوية وجشعها الدنيوى، وأطماعها الرئاسية أفضى درجاته - صار طلب الإصلاح الكئسى يتردد فى كل مكان، وبإلحاح بشرية استبدادية دنيوية يكرهها الجميع. فالملوك مع حكوماتهم والعلماء والأساقفة والإكليروس والشعب أصبحوا يطالبون جميعاً - باسم الإنجيل والمسيحية الرسولية - بإصلاح الكنيسة برأسها وأعضائها.

طلبوا من البابا أن يتخلى عن سلطته العلمانية، وأن يقنع بالسلطة الروحية، وإن يستخدم السلطة الروحية بدون اغتصاب ولا استبداد، ضمن الحدود التى وضعتها القوانين الكنسية، وأن تسير حياة الرئاسة والإكليروس بموجب نظام صارم، وبالإجمال؛ طلبوا تحسين سلوك الجميع، كما طالبوا بأن

(١) المرجع الأساس فى كل هذا العنوان هو كتاب «تاريخ الكنيسة المسيحية»، المُترَب عن اللغة الروسية، الذى نقله إلى العربية مطران حمص وتوابمها: الكسندروس، ١٩٦٤، ثم الموسوعة البريطانية، وموسوعة إنكارتا الأمريكية.

يُزال كل أشكال سوء الاستعمال الكنسى، ومن جملة ذلك بيع الغفرانات، وأن تتقى المعرفة الدينية من التلوينات السكولاستيكية (المدرسية الفلسفية العقلية)، وتتأسس على الكتاب المقدس فحسب، وأن ينتشر بين الشعب التهذيب الدينى. وبالإجمال: طلبوا بأن تعمّ التقوى الكنسية.. إلخ، وبرهن العلماء اللاهوتيون الإصلاحيون بتأليفهم - بنحو جيد - على ضرورة مثل هذه الإصلاحات. وكانت جامعة باريس أحد أهم المراكز الذى انتشرت منه الأفكار الإصلاحية؛ حيث خرج عدد من العلماء المدافعون عن الإصلاح من هناك، من أمثال رئيس جامعة باريس يوحنا جرسون Jean de Gerson، وأمثالهما، الذين كانوا يعبرون عن إرادة كل المجتمع المعاصر لهم. لكنّ الباباوات - فى البداية - لم يريدوا أن يسموا شيئاً عن الإصلاح، عندئذٍ أخذت السلطات الزمنية على عاتقها - ومثلها بعض الأشخاص - محاولة تحقيق ذلك الإصلاح. فاجتهدت السلطة بواسطة مجامع إصلاحية - البيزنسى والكونستانسى وبازيل - فى تحقيق بعض الإصلاحات، كما بذلت شخصيات متميزة؛ مثل البروفيسور جون ويكلف John Wicliff (١٣٣٠م - ١٣٨٤م) فى إنجلترا، وجسون هُوس John Huss فى بوهيميا^(١) والأسقف الدومينيكي «غيرولامو سافونارولا» Girolamo Savonarola فى إيطاليا، جهودها للإصلاح، معتمدة على تأييد العلماء وجماهير الشعب. بيد أن كل تلك المحاولات بقيت مجرد محاولات ضئيلة التأثير، ولم تحدث ذلك الإصلاح الجذرى والتغيير الكامل المطلوب.

فالمجتمع المسيحى الغربى كان لا يزال مأخوذاً بتأثير السلطة البابوية، ويخشى أن يخطو خطوة حازمة ضدها، ومن جهة أخرى؛ كان باباوات القرن الخامس عشر على مقدار جيد من البراعة، تمكنوا - بواسطتها - من إيجاد وسائل لتهديم كل الخطط الإصلاحية. بيد أن هذه المحاولات مهدت طريق الإصلاح الحقيقى.

(١) بوهيميا: اسم لمنطقة فى وسط أوروبا ذات أهمية فى تاريخها، وهى تشكل - فى الخريطة السياسية الحالية لأوروبا - ثلث ما يعرف - اليوم - بجمهورية التشيك. يحد هذه المنطقة بولاندا من الشمال، ومنطقة موروفيا من الشرق، والنمسا من الجنوب، وألمانيا من الغرب.

اللاهوتى الإنكليزى «جون ويكلف» الإصلاح الجذرى

تقدم اللاهوتى الإنكليزى «جون ويكلف» (١٢٢٤م - ١٢٨٤م) باجتهاده الإصلاحى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر؛ حيث كانت الأحوال مواتية. فى ذلك الوقت (فى عهد الملك إدوارد الثالث)؛ كانت الحكومة الإنكليزية قد بدأت تتحرر قليلاً من وصاية البابوية، ولذلك نظرت بعين الرضا إلى خصومها، فاستفاد ويكلف من هذا الوضع، وقدم سنة ١٢٥٦م، تاليفاً «عن آخر أزمنة الكنيسة»، ثم عندما وقع النزاع بين جامعة أكسفورد والرهبان الفقراء (منذ سنة ١٢٦٠م)، أخذ «ويكلف» يُبرهن - شفاهاً وكتابةً - فشل الرهبنة. وفى هذه المرحلة ألف كتابه الشهير «عن فقر المسيح»، الذى شرح فيه حال الرهبان الفقراء بطريقة لا ترضيهم. وعندما حصل النزاع الطويل بين ملك إنجلترا إدوارد الثالث والسلطة البابوية فى روما حول دفع الجزية المستحقة للبابا، والتي كانت الملك ومعه البرلمان الإنجليزى كارهين لدفعها، وأعلنت الحكومة الإنكليزية سنة ١٢٦٦م، رفضها دفع الجزية للبابا، انبرى «ويكلف» بتأليف كتاب يُدافع فيه عن الحكومة الإنكليزية، ويُثبت فيه - دينياً - حقها فى تحديد سلطة البابا عليها. فبرز شأن «ويكلف» لهذا السبب، وأقيم استاذاً ودكتوراً للاهوت فى جامعة أكسفورد (سنة ١٢٧٢م). وفى سنة ١٢٧٤م؛ توجه «ويكلف» بتفويض من حكومته، مع عدد آخرين، إلى القصر البابوى فى أفينيون (جنوب فرنسا) لأجل التفاوض بشأن الأعمال الكنسية. وهنا اطلع «ويكلف» شخصياً، وتعرف - عن كُتب - على انحراف البابوية. وفور عودته شرع يخطب - علناً - بأن البابا هو «ضد المسيح»، وبلغ «ويكلف» فى هجومه على البابوية إلى درجة رفض الكهنوت من أساسه، مرتئياً بأنه ليست السيامة هى التى تعطى شخصاً ما حق الرئاسة، وإتمام الخدمة الإلهية فى الكنيسة، وإنما هو تقواه الحقيقية وسيرته العملية التى تعطيه ذلك الحق. واتخذ الرهبان المتعصبون أفكار «ويكلف» هذه وأمثالها حجة لرميه بالهرطقة. فاستخرجوا من تاليفه ومعارضاته تسعة عشر موضوعاً، وأرسلوها إلى البابا غريغورى الحادى

عشر (١٢٧٠ - ١٣٧٨م) كدليل على هراطقته. وتعيّنت محاكمة ويكلف سنة ١٣٧٨م. ولكنه نجا من الحكم عليه - هذه المرة - بفضل دفاع الحكومية الإنكليزية عنه، ولأنه تمكن من إقناع المحكمة بتفاسير لائقة. وفي هذه الأثناء؛ وقعت فضيحة الانقسام البابوي الخطير والمعروف^(١). فانبرى «ويكلف» مجدداً ضد البابوية، وتقدم أكثر في مواضعه الإصلاحية؛ فرفض - تماماً - الدرجات الأسقفية في الكنيسة، ودعا إلى العودة إلى ترتيب القسوسية الرسولية، كما رفض - تماماً - «التقليد المقدس»، وجعل «الكتاب المقدس» - فقط - المصدر الوحيد، والدعامة لتعليم الإيمان. ورفض - أيضاً - التعليم عن المطهر والغفرانات، ولم يعترف بضرورة تقديس الزيت، وعدّ الاعتراف الشفوي اغتصاباً للضمير، ودعا إلى الاكتفاء بتوبة الإنسان الداخلية أمام الله، ورفض التعليم عن حضور المسيح الواقعي في سر العشاء السري، أي الأفخارستيا، وقيل - فقط - بحضوره الروحي، ورفض الخدمة الإلهية مع قنونها الاصطناعية والطقوس الباهرة، ودعا إلى أن تكون أبسط بقدر الإمكان، ودعا إلى أن يمسخ لكنة بالحياة الزوجية، رافضاً إيجاب العزوبية والتبتل عليهم، كما نادى بإزالة الطبقة الرهبانية، أو على الأقل أن يُعدّ الرهبان متساوين مع العلمانيين (أي مع عامة الناس). وبالإجمال؛ اجتهد «ويكلف» في أمر الإيمان في أن يتم إلغاد كل وساطة بين الله والإنسان، وأن يكون خلاص الإنسان متوقفاً على علاقته الشخصية بالفادي؛ أي المسيح. ولأجل نشر المعارف الدينية في الشعب أسس «ويكلف» جمعية الرجال الأتقياء الذين يتوجب عليهم وعظ الشعب بالإنجيل. وفي الوقت ذاته؛ بدأ بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنكليزية. كل هذا - وخصوصاً محاولة تمكين الشعب من قراءة الكتاب المقدس - كان سبباً لإثارة الاضطهادات مجدداً ضد «ويكلف». في سنة ١٣٨٢م، في مجمع لندن حكم على

(١) إشارة إلى الانقسام البابوي الكبير الذي وجد خلاله باباوان (وفي فترة؛ غدوا ثلاثة بابوات) كلهم يدعى الشرعية، وكل واحد يحرم الآخر كنسياً، وقد دام هذا الانقسام قرابة نصف قرن (بين ١٣٧٨ وحتى ١٤١٧). ولمزيد الإطلاع راجع فقرة «فترة الانقسام البابوي» أثناء الكلام عن نبذة من تاريخ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

تعليمه في أربع وعشرين قضية كتعليم هرطقي، وطرد من جامعة أوكسفورد. ولم يتمكن الملك الإنجليزي الضعيف ريتشارد الثاني من الدفاع عن «ويكلف». فابتعد عن أكسفورد إلى «ليوتروورث» Lutterworth، ومات هنالك. وكتب في وحدته - قبل موته بقليل - تاليفاً سماه «تريالوغوس» بسط فيه أفكاره الإصلاحية. وبعد ذلك حكم على «ويكلف» مراراً بالهرطقة، فقد حكم عليه البابا يوحنا الثالث والعشرون في مجمع «روما» سنة ١٤١٢م، وفي مجمع «كونستانس» سنة ١٤١٥م، بالهرطقة، وزاد في المجمع الأخير مهماً بإصداره أمراً بحرق جثة «ويكلف»، وذر رمادها، فتم ذلك، بعد أن كان قد مضى على وفاته ٢٨ عاماً لكن، رغم ذلك كله بقي لويكلف أتابع، ليس في الأوساط الشيعية فحسب، بل في طبقات المجتمع العالية. واشتهروا باسم الهرطقة اللوللرديين Lollards. ولما كانت الحكومة - بسبب ضغط البابوية عليها - تمتنع من العطف عليهم، لا بل كانت تساعد الكنيسة في اضطهادهم، لذلك لم يستطيعوا أن ينتشروا ويؤثروا تأثيراً ذا أهمية. ومع ذلك؛ مدت أفكار «ويكلف» جذورها عميقاً في إنجلترا، وفي جهات أخرى أيضاً.

اللاهوتي التشيكي «جون هوس» شهيد الإصلاح

وفي محيط أكثر جاذبية، ظهر بطل آخر من أبطال الإصلاح هو البروفيسور «جون هوس» (أو يوحنا هوس) أستاذ اللاهوت في جامعة «براغ» في بوهيميا. وإذا كان «جون ويكلف» قد ذهب بعيداً في محاولته الإصلاحية إلى حد رفضه عدد من الأمور ذات الأهمية الكبيرة في نظر الكنيسة الرومانية؛ فإن «جون هوس» - على العكس منه - اقتصر على نقد سوء استعمال الكنيسة الرومانية لسلطانها، وبقي محافظاً على العقائد الكنسية التقليدية، بل أكثر من ذلك، إنه كان مدافعاً عن الأرثوذكسية القديمة.

ولد هوس سنة ١٣٦٩م، في مكان صغير في بوهيميا الجنوبية يسمى غوسينتنس، وحصل علومه في جامعة غوسينتنس براغ، التي شغل فيها سنة

١٣٩٨م، كرسى اللاهوت. فى ذاك الوقت؛ كان يشغل أذهان الكثيرين فكرة أن الكنيسة قد تشوهت. وظهرت هذه الأفكار فى بوهيميا، وأضيف إليها ظهور اجتهاد فى بوهيميا فى القرن الرابع عشر لإحياء الأرثوذكسية القديمة التى بشر بها هناك القديسان كيرلس ومثوديوس. وكان الموضوع الأول الذى يريده البوهيميون هو الخدمة الإلهية باللغة السلافية، ومناولة العلمانيين (أى عامة المؤمنين) تحت الشكلين^(١). فصار «جون هوس» - الذى شغل كرسى اللاهوت - مدافعاً حاراً عن إصلاح الكنيسة؛ بمعنى إعادتها إلى الأرثوذكسية القديمة. وقد تهيأ له إعلان مئوله الإصلاحية بشكل شرعى أو قانونى. وفى سنة ١٤٠٢م، شغل وظيفة واعظ فى مُصلّى بيت لحم (هكذا دُعيت الكنيسة التى بناها البوهيميون مجدداً)، فأخذ يعلم الشعب، بمواعظه التى كان يلقيها باللغة السلافية، الإيمان والحياة بموجب الإنجيل فحسب. وعند ذلك؛ تسنى له أن يلفظ شهادات قاسية ضد الكهنة الكاثوليك والرهبان. وفى الوقت ذاته؛ تعرّف «هوس» على مؤلفات «ويكلف» المنقولة من أكسفورد بواسطة صديق إبرونيم البراغى، ونظر إليها نظرة رضا. ولكنه - مع ذلك - لم يُشارك «ويكلف» بجميع آرائه المتطرفة. ولكن هذا لم يمنع أبطال اللاتينية من أن ينسبوا إلى «هوس» هرطقة «ويكلف». وقد حدث الاصطدام سريعاً. فقد حضر إلى براغ لاهوتيان إنكليزيان من أتباع «ويكلف»، وأبرزًا - بين الأشياء الأخرى - صورتان، وكان مرسومًا على إحداهما دخول المسيح إلى أورشليم يُرافقه تلاميذه. وعلى الثانية دخول البابا إلى روما يواكبه الكرادلة. وكان المخلص مرسومًا بإكليل الشوك، وأما البابا؛ ففى التاج المثلث الذهبى... إلخ. وبدأت التفاسير فى الجامعة بشأن هاتين الصورتين. فلم يُحبذ «هوس» سلوك الإنكليز. ومع ذلك؛ صرّح ضدّ البابوية بنفس روح تصريحات «ويكلف». ولكن؛ كانت أغلبية الأصوات فى

(١) يقصد بقضية تناول تحت الشكلين (التي ستكرر الإشارة إليها فيما بعد). أن يتناول عامة الناس المشاركين فى القداس - أى المشاء السرى؛ أى الأفخارستيا - كلا الخبز والخمر. بعكس التقليد الذى اتبعته الكنيسة الكاثوليكية الغربية فى طقس المناولة فى القداس، والذى اقتصر فيه على مناولة المؤمنين خبز الفطير فقط، دون الخمر.

الجامعة للأجانب^(١) الذين - لأسباب قومية محضة - كانوا ضد «هوس» وأعضاء الجامعة البوهيميين. لذلك ألف أعضاء الجامعة الأجانب سنة ١٤٠٨م، قراراً حكماً فيه على موادٍ ويكلف الأربع والأربعين. ولكن «هوس» فاز بطلبه من الملك فينتسلاس King Wenceslas (سنة ١٤٠٩م) بمرسوم جعلت فيه أكثرية الأصوات لأعضاء الجامعة البوهيميين. وعلى هذه الصورة؛ تغلب الحزب البوهيمي الوطني الإصلاحى. فأخذ البوهيميون برئاسة «هوس» يُصرِّحون - بكل حزم - ضد الكنيسة الرومانية. فانبرى رئيس أساقفة براغ «سبينوك» At-chishop Zbynok ضد «هوس»، وأرسل ضده شكوى إلى روما، وجاء منها سنة ١٤١٠م، بأمر بإحراق تأليفات «ويكلف»، وجرُّ أتباعه إلى المحاكمة. وأضيف - إلى ذلك - منع الوعظ في كنائس خاصة. فأرسل «هوس» إلى البابا استئنافاً، برهن فيه بأنه يوجد في تأليف «ويكلف» حقائق كثيرة. ولم يكف عن الوعظ في كنيسة بيت لحم. فطلبه البابا إلى روما. ولكن؛ بفضل وساطة الملك والجامعة، انتهى أمر «هوس» في براغ بسلام. ولكن، سرعان ما وقع مُجدداً الاصطدام بين «هوس» والرئاسة الرومانية، وذلك حين جهز البابا يوحنا الثالث والعشرون حملة صليبية ضد خصومه السياسيين، وأرسل سنة ١٤١٢م أمراً إلى بوهيما أعطى فيه غفرانات كاملة لجميع الصليبيين. فقام هوس ضد هذا الأمر في مواعظه وتأليفه.

أما صديقه إيرونيم البراغى؛ فقد أحرق أمر البابا. ومال الشعب إلى جهتهما. وبدأت الاضطرابات. فجاء من روما أمراً آخر سنة ١٤١٣م، يقضى بفصل «جون هوس» من الكنيسة، وطرده خارج براغ. فكتب هوس تمييزاً إلى الرب يسوع المسيح نفسه، بما أنه لم يأمل أن يجد عدالة على الأرض. وفي الوقت ذاته؛ قدم تأليفاً «عن الكنيسة» برهن فيه بأن الكنيسة الحقيقية يجب أن تتألف من المؤمنين؛ وحيث أن البابا قد سقط من الإيمان - على حد تعبيره - فليس هو عضواً في الكنيسة، وحرمة لا أهمية له. ومع هذا؛ تمكن رئيس

(١) كان للبوهيميين صوت واحد، وللنمساويين والبولونيين ثلاثة أصوات.

أساقفة براغ من طرد هوس خارج بارغ. وفي تلك الأثناء؛ افتتح مجمع كونستانس (سنة ١٤١٤م). وبما أن هوس كان قدم - قبلاً استئنافاً إلى المجمع المسكوني، لذلك طلبوه إلى كونستانس. وقد سلمه الإمبراطور سفيزموند رسالة للمحافظة على حياته. ولما حضر «هوس» إلى كونستانس، وجب عليه أن ينتظر الاستتطاق زماناً طويلاً. وبعد الاستتطاق سجن. فلم يشأ الإمبراطور سفيزموند أن يلح بطلب إطلاقه، بقطع النظر عن الكتاب المعطى له لأجل المحافظ عليه. فعامل المجمع «هوس» بقساوة؛ إذ خُيِّلَ إليه بأن طلب «هوس» أن يُبرهنوا كذب آرائه على أساس الكتاب المقدس هو بحد ذاته هرطقة، لأنه رفض ضمنى للتقليد المقدس أيضاً. وبالإجمال؛ فإن مجمع كونستانس واجه المطالبة بإصلاح الكنيسة بنظرة ضيقة، وفهم بأن هذا الإصلاح يراد به الحد من السلطان البابوي، بقطع النظر عن وجود بعض أعضائه الأحرار. وبقي «هوس» في السجن تحت الاستتطاق ريثما ينتهى المجمع من النظر في قضية البابا يوحنا الثالث والعشرين. وبعد سجنه سبعة أشهر؛ دعوهُ مُجدداً إلى جلسة المجمع العلنية. ولكنه لما أصر على طلبه أن يدحضوا آراءه على أساس الكتاب المقدس حكموا عليه كهرطوقى بالحرق. وفي السادس من تموز سنة ١٤١٥م، مات «جون هوس» حرقاً مريوطاً على خشبة. وكذلك صديقه إيرونيم البراغى، الذى جاء برفقته إلى كونستانس، أعدم بالحرق بعد سجنه مدة طويلة.

وهكذا نلاحظ أن المجمع الأسقفية التى كانت - فى بداية أمر المسيحية - وسيلة للدفاع عن الإيمان المسيحى، ثم أصبحت - بعد ذلك - أداة فى إمبراطور بيزنطة لتنفيذ أغراضه، مُستغلاً - فى ذلك - مطامع بعض الأساقفة وطموحهم إلى الجاه والنفوذ والسلطان، وصل بها الأمر - فى ذلك الزمن - إلى أن أصبحت أداة تكفير وحرم وفصل ومعادة للإصلاح، بعد أن كانت أداة بناء، مما فتح الباب على مصراعيه للخصومة والشقاق بين المسيحيين فى البلاد المختلفة؛ واستمر هذا النحو من الاستغلال السيئ للمجامع، فى القرون الوسطى، وبعد الانشقاق الكبير الأول للكنيسة الغربية الرومانية عن الشرقية،

وبعد الانشقاق الكبير الثاني للكنايس البروتستانتية عن الكنيسة الرومانية؛ حيث كثيراً ما كانت وسيلة بيد البابا للحكم على مخالفيه في الرأي، أو خصومه الفكرين، وحرهم، أو الحكم عليهم بالهرطقة والحرقة!

هذا؛ ولكن الحركة الإصلاحية في بوهيميا لم تنته بحرق «هوس»؛ لأن البوهيميين الذين عضدوه قبل المجمع وفي زمان انمقاده، هُبُوا - بعد موته، بإجمالهم تقريباً - ضد كنيسة روما.

وقد سارت القضية على الصورة الآتية: أتباع «هوس» المدعون هُوسيون أدخلوا عندهم بموافقته مناولة العلمانيين تحت الشككين. وعندما رفض مجمع كُونستانس - بعد حرق هوس - هذه المناولة، واعتبرها هرطقية، قرروا الحصول على الكأس بقوة السلاح. وانضمَّ إلى الهوسيين كثيرٌ من البوهيميين والوطنيين والأشراف بقيادة يوحنا جيشكا. فتحصن على أحد الجبال مع أربعين ألف من الأتباع، مسمىً هذا الجبل تابور. (من هنا؛ دعى الهوسيون تابوريتي). وبدؤوا نضالاً قاسياً مع المدافعين عن الكنيسة اللاتينية.

دامت النزاع - بسرعة - إلى مسافات واسعة. في سنة ١٤١٩م، مات ملك بوهيميا فينتسيسلاس، فخلفه الإمبراطور سينغرموند، لكن البوهيميين رفضوا مبايعته لأجل خيانتته في قضية «هوس». وعلى هذه الصورة؛ نهضت كلُّ بوهيميا. فأرسل البابا مارتين الرابع Martin IV عدة حملات صليبية إلى بوهيميا، لكنه لم ينل شيئاً؛ لأن الهوسيين تمكنوا من دحر كل تلك الهجمات بنجاح. وألقى قائدهم الثاني (منذ سنة ١٤٢٤م) بروكوب الكبير - بإنتصاراته على الصليبيين - الرعب في البلاد المجاورة.

هكذا كانت الأحوال قبل افتتاح مجمع بازيل (سنة ١٤٣١م) الذي أخذ على عاتقه - بين القضايا الأخرى - الاهتمام بمصالحة الهوسيين مع الكنيسة عن طريق المفاوضات والتنازل. وقبل هذا الوقت؛ انقسم الهوسيون في آرائهم الإصلاحية إلى فريقين: فالفريق الأول - وهو الأكثر اعتدالاً - وافق على الاتفاق

مع الكنيسة، شريطة أن تصير المناولة تحت الشكلين، ويسمح بالوعظ باللغة الوطنية، وتؤخذ من الإكليروس الأموال الكنسية، ويحالون إلى محاكمة كنسية صارمة. وعرف هؤلاء الهوسيون باسم كالكستينيين (من الكأس كاليكس) واورتراكفست (من كلمة اثين). أما الهوسيون الآخرون (تابوريت)، الذين ساروا بعيداً أكثر في مخالفتهم ومحادثهم ضد كنيسة روما؛ فطلبوا - فضلاً عن ذلك - إزالة احترام الأيقونات، وإلغاء سرّ الاعتراف، وما أشبهه. فدعا مجمع بازيل نواباً هوسيين لأجل المفاوضات في الأمر، فحضرُوا سنة ١٤٢٢م، وعددهم ثلاثمائة، فلم تُحرز المفاوضات الطويلة نجاحاً. فرجع الهوسيون أدراجهم. فأرسل المجمع في أثرهم سفارة مع عرض التنازل، أعنى أن المجمع اتفق على إتمام أربعة من مطالب الكلكستيين، ولهذا؛ انضمَّ هؤلاء إلى الكنيسة، وإن كانوا لم يستفيدوا مدة طويلة من التساهل المتفق عليه. وفي سنة ١٤٦٢م، أعلن البابا بيوس الثاني أن كل التساهلات التي أعطاهها مجمع بازيل للهوسيين غير نافذة. وبعد هذا؛ صار الكلكستيون يتناولون - سرّاً فقط - تحت الشكلين (أى يتناولون الخبز وكأس الخمر في العشاء السرى)؛ أما التابوريون؛ فرغم بعض التنازلات الجزئية التي قدمها مجمع بازيل لهم ظلوا أعداء ألداء للكنيسة. ولكن؛ لما انتصر عليهم الجنود الكاثوليك في سنة ١٤٢٤م، انتصاراً باهراً اضطرُّوا إن يخلدوا إلى السكينة. وبعد ذلك؛ أى في نحو سنة ١٤٥٠م، شكل الباؤون منهم جمعية صغيرة باسم الإخوة البوهيميين والمورافيين، التي رفضت استعمال السلاح، واجتهدت في بناء حياة أعضائها في هدوء الانفراد، على أساس العليم الإنجيلي الصحيح. فانتشرت هذه الجمعية - بنوع خاص - في القرن السادس عشر، فصارت متساوية مع الجمعيات الدينية الأخرى التي ظهرت على أساس الإصلاح.

الراهب سافونارولا الإيطالي شهيد آخر للإصلاح

ظهرت محاولة جريئة أخرى لإصلاح الكنيسة في إيطاليا نفسها، وقریباً من البابوية ذاتها. فقد برز في فلورنسا، عام ١٤٩٠م، مُصلح كنسى هو الراهب الدومينكانى. «غيرولامو سافونارولا»، Girolamo Savonarola. كان

«سافونارولا» إنساناً ذا حياة صارمة، لكنه حاداً الطبع، ومتهور. وفي زمانه؛ ابتداء الاجتهاد في إيطاليا في درس الفلسفة الكلاسيكية القديمة لقدماء اليونان الوثنيين، الأمر الذي أحدث تأثيراً مهلكاً على آراء الإيطاليين الدينية. وقادت الآراء الوثنية المختلطة بالأراء المسيحية المجتمع الإيطالي إلى وثنية جديدة (كلاسيكية). وتعقد المفهوم الديني بهذا المقدار في روما، حتى اختلط - غالباً - المسيح بالإله «مبركوري»، والمادونا مع فينيرا. وأقيمت طقوس دينية لإكرام فيرغيلي وغوراتسي وأفلاطون وأرسطو. حتى أن الكرادلة والأساقفة نظروا إلى الإنجيل كظنرتهم إلى ميثولوجيا يونانية (أسطورة). فزاع انتشارُ الكُفر - مع فساد أخلاق البابوية والإكليروس وكل المجتمع الإيطالي - الراهب الصارم «سافونارولا»، ودعا للقيامه بنهضة إصلاحية. ورأى أن الوسيلة الوحيدة لأجل تغيير كل شرور المجتمع الدينية والأخلاقية هي إقامة الأخلاق الصالحة بقوة الإيمان، والنعمة في المحيط الإكليركي، وبواسطته في محيط كل المجتمع؛ حيث أنه إذا صلح العلماء - أي صلح الإكليروس (رجال الدين) - صلح الناس بصلاحهم. لذا؛ قرر إدخال هذا الإصلاح بنفسه في الوعظ، وإقامة أنظمة الحياة الكنسية الصارمة. وقد أرسلته رهبانيته في سنة ١٤٩٠م، إلى مدينة فلورانس بصفة واعظ.

فبدأ «سافونارولا» يُوبِّخ البابوية والإكليروس والمجتمع، من على المنبر الكنسي، مُدهشاً - في الوقت ذاته - سامعيه بإخباره عن تنبؤات عن غضب الله الذي سيحلُّ وشيكاً على إيطاليا؛ لأجل عدم إيمان السكان، وبعدهم عن التقوى، وكفرهم. فأحد «سافونارولا» تأثيراً خارق العادة على الشعب بصرامة عيشته، وفصاحته المدهشة المتحدة بالحيوية والتهديدات التنبؤية. فخضع سكان «فلورانس» له كخضوعهم لنبي، وكانوا على استعداد لإتمام كل ما يأمرهم به. فأدرك البابا ألكسندر السادس (سنة ١٤٩٢ - ١٥٠٢م) أي خطر يهدد البابوية بسبب مواعظ «سافونارولا»، وأراد أن يجذبه إلى جهته. وعرض عليه - سرّاً الكردينالية - بواسطة شخص موثوق، لكن «سافونارولا» رفض من على المنبر

الكنسى أمام سامعيه ما عرضه عليه، وأخذ يهاجم - بقوة أشد - فساد أخلاق البابوية. ولما وثق «سافونارولا» من خضوع أهالى «فلورانس» لدعوته، أقام - قبل كل شيء - فى المدينة حكومة دينية إلهية مسيحية، على غرار الحكومة الدينية فى اليهودية، وأعطى لنفسه دور القاضى الإسرائيلى، ثم شرع بإصلاح آداب الإكليروس والشعب الفلورانسى، فرتب أصواماً خاصة، وتوبة علنية، وصلوات عامة، وأخرج الأغانى الدنيوية الفاسقة من الاستعمال البيتى، وأبدلها أناشيد الخدمة الإلهية، وذم التبرج، وجمع الصور من بيوت السكان، والكتب العلمانية، والأدوات الموسيقية، وحرقتها كلها فى الساحات باحتفال، وما أشبه. وعلى هذه الصورة؛ أخضع «سافونارولا» - بجاذبيته الصارمة - «فلورانس» عدّة سنين، لكنه لم يبلغ إلى إصلاح الأخلاق، فالإكليروس الفلورانسى الذى خضع له مرغماً، كان له خصماً.

وتكوّن فى المحيط الفلورانسى حزبٌ غير راضٍ عن طريقة الحياة الصارمة التى أدخلها «سافونارولا». فاستغلّ البابا هذا الاستياء، وقام فى سنة ١٤٩٧م، بفصله عن الكنيسة كهرطوقى. فقوى الحزب المخاصم له فى «فلورانس»، فسجنه، وسلّمه للملكة، وفى سنة ١٤٩٧م، حُكِمَ عليه بالإعدام كهرطوقى ومضلل للشعب، فأعدم حرقاً بالنار!

لقد قام «سافونارولا» - فى أول الأمر - كمصلح كنسى فقط، ثم مزج - بعد ذلك - السياسية بعمله، وظهر فى دور خطيب شعبي، فأثار غضب أولياء الأمور والديويين عليه، فانتقموا منه، وقضوا عليه. هذا؛ وقد تحقق الكثير من نبوءات «سافونارولا» التى كانت تختصُّ - غالب الأحيان - بالحوادث التى لا مفر منها، والقريبة جداً، ولكنه قال بنبوءات فاشلة أيضاً؛ كنبوءته مثلاً عن ارتداد الأتراك القريب إلى المسيحية.

ثانياً؛ ثورة مارتن لوثر ضد كنيسة روما وانتشار دعوة الإصلاح في ألمانيا

في القرن الخامس عشر؛ وصل الاستياء العام من الكنيسة الرومانية ومن جشع وتسلط بابائاتها ومفاسدها العديدة في العالم المسيحي الغربي؛ كضربها الفرائض الباهظة، وقتلها وحرقتها للمعارضين والمصلحين بتهمة الهرطقة، وحجرتها على العقول في فروع العلوم الطبيعية، وتحريمها قراءة الإنجيل إلا بالغة اللاتينية التي لا يعرفها عامة الناس، وتحريمها الزواج على كل القساوسة والرهبان، وصل الاستياء من هذه الأمور وأمثالها إلى ذروته، وكانت مهزلة بيع صكوك الغفران لتأمين النفقات الباهظة، والبذخ في بناء كاتدرائية القديس بطرس في روما بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وكان أول من علا صوته ضد هذا الإجراء وضد سائر انحرافات الكنيسة البابوية هو الراهب الأوغسطيني الألماني، دكتور اللاهوت مارتن لوثر Martin Luther الذي تحولت احتجاجاته وانتقاداته إلى حركة ألهمت ألمانيا، وانتشر لهيبتها إلى البلدان المجاورة، مؤسسة لحركة مفصلية في تاريخ الكنيسة، أدت إلى انفصال جزء كبير من العالم المسيحي في أوروبا عن كنيسة روما الغربية الكاثوليكية؛ لتوجد ما صار يعرف باسم الكنائس البروتستانتية. فمن هو هذا المصلح؟ وما قصة دعوته الإصلاحية التي تجاوز تأثيرها البروتستانتية وحتى النصرانية نفسها، إلى التأثير على مناخ الحياة الأوروبية بشكل عام؟

ولد مارتن لوثر سنة ١٤٨٣م، في مدينة آيسلين الصغيرة في سكسونيا، وسط ألمانيا (ومات في نفس هذه المدينة ١٥٤٦م)، في أسرة فقيرة من الفلاحين، كان أبوه يعمل فيها عامل منجم نجاس. رياه والداه بصرامة، ما كان يخفف من غلوائها سوى الحب، ثم تلقى تعليماً جيداً في «ماغدبورغ» وأيزناخ، فنال شهادة البكالوريوس في الآداب من جامعة إرفورت سنة ١٥٠٢م، ثم شهادة الماجستير في الفنون الحرة سنة ١٥٠٥م، ودرس - أيضاً، ابتداء من عام ١٥٠٥ -

القانون، حسب رغبة والده، الذى كان يبنى توجيه ذلك الابن الموهوب فى طريق اليُسْر والمكارم، لكنْ؛ بعد أن سار لوثر فى هذه الوجهة الجديدة بوقت قليل، نذر أن يدخل الدير تحت وقع الرُعب الذى انتابه فى أثناء عاصفة كاد أن يهلك فيها، وهكذا انتسب - فى سنة ١٥٠٥م - إلى رهبانية القديس أوغوستينوس التى كانت من الرهبانيات الفقرية (أى رهبانيات الصدقة)، وقد تصرّف لوثر على هذا النحو كرجل من العصر الوسيط الكاثوليكي عاش على الدوام فى أوساط تقوية؛ سواء فى البيت الأبوى، أو فى أثناء الدراسة، ولم تؤثر فيه لا الفلسفات الهرطوقية أو الشكية، ولا النزعة الإنسانية العصرية، بل كان يعتمد فى صدره إيماناً عميقاً براء من كل شك، وعندما دخل الدير طلباً لحياة من الاتصال الحميم بالله وللقداسة، ما كان يفعل، مثله مثل الكثيرين ممن تقدموا عليه، سوى إتباع كنيسته، وقد تقيّد أتمّ التقيد بالنظام الداخلى لرهبانيته، وبالتوجيهات التى كانت تعطى إليه فى الاعتراف، وغالى كل المغالاة فى التقشف والزهد، لكنه لم يفز بالسلام، وبعد سيامته كاهناً فى نيسان ١٥٠٧م، وحصوله على درجة البكالوريوس فى الكتاب المقدس سنة ١٥٠٩م، عين مدرساً للاهوت، وأتاح له تبخره فى فكر القديس أوغوستينوس، ثم الكتاب المقدس، أن يدرك سبب قلق نفسه، فقد علموه أن يولى أعماله الصالحة أهمية أكبر مما ينبغى، والنعمة الإلهية أقل مما ينبغى، مع أن هذه النعمة هى المصدر الوحيد لفقران الخطايا، ويفرح متتام مستمد من كلام الإنجيل المحض، فطن إلى أن طريق اليأس والقلق الروحى صار بالنسبة إليه مساراً شاقاً، وأن خلاص النفس لا يتم إلا بنعمة الله نفسه، وحسب.

بعد الخيبة التى عادت بها عليه دراسة اللاهوت المدرسى، جاءت الانطباعات المنفرة التى رجع بها من روما عندما زارها بين عامى ١٥١١ و ١٥١٢، فقد ذهب إلى روما بحثاً عن شهداء وغفرانات سمحة، فما وجد أمامه سوى روما البابوية الدنيوية لعصر النهضة، وبعد ذلك بقليل، وبعد نيته شهادة الدكتوراه فى الكتاب المقدس - حصل فى عام ١٥١٢م، على كرسى الكتاب المقدس فى جامعة فيتنبيرغ

(ويتيمبيرج Wetenberg) الناشئة، التي كان أعطى فيها بعض الدروس في عامي ١٥٠٨ - ١٥٠٩م، وقد خلف فيها المدير العام لرهبانيته «شتاوبتز» الذي كان له خير سند في صراعاته الروحية، كما ألقى فيها سلسلة من الشروح على المزامير (١٥١٣ - ١٥١٥)، وعلى الرسالة إلى أهل روما (١٥١٥ - ١٥١٦)، وعلى الرسالة إلى أهل غلاطية (١٥١٦ - ١٥١٧)، وعلى الرسالة إلى العبرانيين (١٥١٧ - ١٥١٨)، ومن خلال تلك الشروح: أرسى لوثر أسس لاهوته، الذي سماه لاهوت الصليب، وتابع فيه خط القديس أوغوستينوس، وبعد أن أذاعت تلك الشروح صيته، ساور مارتن لوثر الأمل في عام ١٥١٧م، بتجديد اللاهوت بالتقدم بقضايا مناوئة للمدرسيين، لكنه لم يلق أي صدى.

لذلك كانت مفاجاته كبيرة إزاء الوقع الشديد والزويمة التي أحدثتها القضايا الـ٩٥ حول براءات الففران التي علقها في ٢١ تشرين الأول ١٥١٧م، على باب كنيسة قصر فيتبرغ، وهاجم فيها متاجرة الكنيسة بصكوك الففران، وذلك بمناسبة افتتاح مناقشة أكاديمية، فقد نكأ بقضايا جرحاً كان كثير من المثقفين واللاهوتيين قد شكوا منه قبل، فعن طريق بيع صكوك الففران الصادرة عن روما كانت الإدارة البابوية تسد الحاجات المالية الكبرى التي نشأت عن بناء كاتدرائية القديس بطرس، وقد أقبل الشعب على شرائها؛ إذ دخل في اعتقاده أنه من الممكن افتداء الخطايا بالمال.

وتقاطرت الردود بين إيجاب وسلب على لوثر، فكانت مناسبة لتوضيح فكره في رسالته «تعليقات على القضايا الـ ٩٥» (١٥١٨م)، وقد أهدى هذا النص، الذي كان أخضعه لرقابة أسقفية مسبقاً، إلى البابا ليو العاشر Leo X بأمل أن يقتنع البابا منه، ويضع حداً لذلك الشطط في بيع الصكوك، لكن أساقفة ماينتز أقاموا عليه في روما دعوى هرطقة. وتدخلت اعتبارات سياسية (انتخاب شارل الخامس إمبراطوراً في عام ١٥١٩) لتؤخر إصدار قرار بالحرم إلى عام ١٥٢٠، حين أعلن البابا ليو العاشر الحرمان الكنسي بحق لوثر من شركة المؤمنين، وطرده من سلك رجال الكنيسة، واعتباره هرطوقياً خارجاً على

الكنيسة! وفي أثناء ذلك؛ دارت في «لايبتزغ» مساجلة بين «يوهان إيك» و«مارتن لوتر»، فكانت مناسبة لهذا الأخير ليمى مدى خطورة الشكوك التي تتنابه بصدد مؤسسة البابوية بالذات، وليجد نفسه منقاداً إلى تصور جديد للكنيسة؛ بحيث تشاد - حسب تعليم العهد الجديد - لا على مبدأ التسلسل الهرمي، بل على أساس وحدة المؤمنين. وقد عرض أفكاره الجديدة في رسالته في حرية المسيحي (١٥٢٠)، ثم في كتاباته الإصلاحية، وبخاصة في خطابه إلى النخبة المسيحية للأمة الألمانية (١٥٢٠)، وفي الأسر البابلى للكنيسة (١٥٢٠) الذى ضمَّته تحليلاً نقدياً واسماً لتعليم كنيسة روما بصدد الأسرار المقدسة. فلوتر ما عاد - من جهته - يعترف إلا بالأسرار التى ورد ذكرها بالاسم فى العهد الجديد؛ أى سرَّ المعمودية، وسرَّ القريان فقط لا غير.

قسَّمت هذه الكتابات الأراء فى ألمانيا، لكنها وجدت لها أنصاراً كُثراً فى الأوساط الشعبية، كما فى أوساط العلمانيين (غير رجال الدين)، وأوساط الكهنة والرهبان. فما زادت الكنيسة إلا تصميمياً على محاربة لوتر. فبعد حرمانه الكنسى من قبل البابا، طلب الإمبراطور تشارل الخامس من لوتر الرجوع عن أرائه، فرفض ذلك، فوقع الإمبراطور وثيقة إدانة له تعتبره خارجاً على القانون، وتبيح دمه، ولكن أمير سكسونيا بسط عليه حمايته، واستمرَّ لوتر فى الدفاع عن أرائه التى انقسم الناس حولها بين عدوِّ مُخالف، ومُناصرٍ مُوافقٍ له اتخذ أراءه أساساً لحركة الإصلاح الدينى.

وبما أنه لم يعد فى وسع لوتر - بعدئذٍ - أن يجازف بالاعتقال، وربما حتى بالتمذيب، فقد اختبأ فى فارتبورغ، قرب ايزناخ، تحت حماية الدوق الكبير فريدريك الحكيم، أمير إقليم الساكس، الذى أراد إنقاذ حياته، وإن لم يكن من تلاميذه. وهناك كُتِبَ القدَّاس الخاصُّ والنَّذر الرهبانية (١٥٢١)، وترجم العهد الجديد (١٥٢٢) إلى اللغة الألمانية الشعبىَّة، عاملاً ضد تلك الحقيقة التى كانت تُسَلَّمُ بها الكنيسة، والتى تقول إنه خير للمرء ألا يقرأ الكتاب المقدس من أن يقرأ بلغته الأمِّ! وقد أسهم لوتر بترجمته تلك مساهمة كبرى فى تطوُّر اللغة

الألمانية الحديثة، وتحقيق الوحدة العقلية لأبنائها، وفي زرق الشعر الألماني بقوى لا ينضب لها معين، وقد كان لدور لوثر في تاريخ الموسيقى - أيضاً - الأهمية نفسها، التي كانت لإسهاماته للأدب الألماني واللغة الألمانية، وقد كسب لوثر لحزبه كثرة من الأمراء الألمان ممن وجدوا - أيضاً - في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الرومانية الكثيرة في بلادهم طمعاً مغرباً.

حملت الآراء التجديدية المتطرفة - التي روج لها بعض الغلاة من تلاميذ لوثر في هيتتبرغ - هذا الأخير على مبارحة ملجئه ضد مشيئة الدوق الكبير، وبعد أن أقر الهدوء من جديد، قضى السنوات التالية في إرساء أسس الجماعة المؤمنة الجديدة، التي وضع لها قداساً باللغة الألمانية في كتابه القداس الألماني (١٥٢٦)، كما أنه وضع في كتابه في السلطة الزمنية وحدود الطاعة الواجبة لها (١٥٢٢) حجر الزاوية في النظرية اللوثرية عن الدولة: الطاعة في المسائل الزمنية، وإنما المصيان والمقاومة متى ما تدخلت الحكومة المدنية في شؤون الاعتقاد والضمير.

بيد أن لوثر ما لبث - في زمن لاحق - أن مال إلى التشدد في تعليمه عن السلطة، ولاسيما في أثناء «حرب الفلاحين» (١٥٢٥) التي عارض فيها - بقوة - الفلاحين الثائرين، قائلاً لهم كلمته الشهيرة:

«تقولون (المخاطبون هم الفلاحون الثائرون) إنه لا يجوز أن تكون هناك عبودية؛ لأن يسوع المسيح جعلكم جميعاً أحراراً، لكن؛ ألا تكونون بذلك قد جعلتم من الحرية المسيحية حرية جسدية؟ إن القرن المسيحي يمتلك الحرية المسيحية.

على أنه لا يجوز لنا أن نفسر مواقفه هذه، بازدراء مزعوم لمطالبهم الاجتماعية (التي كان يعتبرها - على العكس مبرّره في أكثرها) وإنما سببه كون الفلاحين خاضوا غمار تلك الثورة الدموية باسم المسيح - وقد بدا لوثر - بمكافحته هذا التحوير السياسي للإنجيل - حليفاً للأمراء، على الرغم من أنه

كان ندد - بقوة - بنزوعهم إلى الظلم والإجحاف، ومما عزز - أيضاً - ذلك الانطباع طلبات المساعدة التي وجهه لوثر إلى الأمراء لإعادة تنظيم الكنيسة، ومع أن لوثر لم يفكر - إطلاقاً - بأن يجعل من الأمراء قادة للكنيسة، نظير ما آلت إليه الحال في التاريخ اللاحق للوثرية، فقد بدأ أن لوثر انتقل من موقف ثوري إلى موقف محافظ وسلطوي، ولكن؛ هذا ظاهر الأمر ليس إلا، أما الحقيقة، فهي - فقط - أن لوثر كان - في كل زمان وأن - عدواً للثورة العنيفة، بيد أنه لم يشأ - قط - أن يخلط بين الكنيسة والدولة، ولا أن يمنح الدولة حقوقاً على اعتقاد المواطنين وضميرهم.

كان على لوثر - في أثناء سنة حرب الفلاحين نفسها (١٥٢٥) - أن يرسم في مضامين آخرين حدود فكره، فقد كان إراسموس - الذي يعدُّه الكثيرون نصيراً للوثر - هاجمه في المحاولة في حرية الاختيار (١٥٢٤)، فأجابه لوثر في رسالة عبودية الاختيار (١٥٢٥)، وهذا الكتاب الفنى بالدلالة الروحية - غالباً - ما أسىء فهمه؛ فلوثر ليس جبرياً، وليست المسألة الفلسفية المتعلقة بحرية الاختيار هي ما يطرحه، وإنما المسألة الدينية، فهو يرى في الخطيئة استلاباً للحرية الإنسانية، وفي النعمة - وحدها - انتفاقاً لها، وفي ذلك العام نفسه؛ افترق لوثر - في رسالته الرد على الأنبياء السماويين - عن المتصوفة الروحيين (التيوزوفيين)، من أمثال كاليشتات، وتوماس موندز، إلخ.. ممن كانوا يطلبون الوحي الإلهي، لا في الكتاب المقدس، وإنما في الكشف الروحي، والإشراق الداخلي.

في السنوات التالية أخيراً؛ اندلعت المناظرة الكبرى حول العشاء السرى مع المصلحين البروتستانتيين السويسريين، أولريخ (أو هولدرايخ) زفينغلي (أوزوينغلي) Ulrich or Huuldreich Zwingli (١٤٨٤ - ١٥٣١) وأوكولامباد وأنصارهما من الألمان الجنوبيين، فعلى حين لم يجد هؤلاء في طبيعة القران المقدس (أي العشاء السرى، أي الأفخارستيا)؛ أي سر خاص سوى المعنى الرمزي، أصر لوثر بعاطفة مشوبة - وعلى الأخص في رسالته حول العشاء السرى (الأفخارستيا) السرى (١٥٢٨) - على الحضور الواقعي للمسيح، ولم

نؤد مساجلة ماربورغ الدينية فى عام ١٥٢٩ إلى أئة تسوية، وما أمكن التوفيق بين الألمان الجنوبيين وألمان فييتبرغ إلا فى عام ١٥٣٦م، بفضل جهود مارتين بوسر بوجه خاص، على حين بقى إنشقاق سويسرا بل حل.

على أن مجهود لوثر الرئيسى انصبَّ على متابعة تعاليمه النظامية حول الكتاب المقدس، فقد اجتمع طلبة، قدموا من جميع أنحاء أوروبا، حول كُرسِيه وكُرسى ميلانختون Melancthon، وتجلّى اهتمامه بتربية الشبيبة فى ندائه إلى أعضاء المجلس، أنه يتوجب عليهم إنشاء مدارس مسيحية (١٥٢٤)، وتجلّى ذلك - على الأخص - فى كتابه الشهير «التعليم المسيحى الأصغر» (١٥٢٩)، الذى بقى إلى يومنا هذا الكتاب المدرسى الكلاسيكى للتعليم الإنجيلى، ثم كتب لأجل أرباب الأسر والمعلمين فى المدارس «التعليم المسيحى الأكبر» ١٥٢٩، الذى ضمَّته خلاصة تعليمه، وعمل على تميل القداى بكتابته «أناشيد مقدس» (١٥٢١ - ١٥٢٨)، تولى بنفسه تلحين بعضها، نخصُّ بالذكر منها: «إنى آت من أعالى السماء»، و«من قاع شدتى أهتف إليك»، أو كذلك نشيد الإيا من الله حصننا (١٥٢٩)، وهكذا دشَّن لوثر تقليداً شعرياً دينياً ستأخذ به الكنيسة الإنجيلية على مدى قرون عدة، وأخيراً؛ تابع العمل فى ترجمة الكتاب المقدس، وتجلّى فنه الأدبى فى الأقسام الشعرية من العهد القديم، وبقى حتى آخر أيام حياته ينقح ذلك العمل الكبير.

من وجهة النظر السياسية؛ لم يرغب لوثر فى قيام تحالف عسكرى من الأمراء ضد الإمبراطور، ولكنْ؛ عندما هدد الأتراك شارل الخامس طالب لوثر بأن تهب كل الدول البروتستانية لمساعدته، وعندما هاجم البابا الإمبراطور، وقف المصلح إلى جانب هذا الأخير فى نص له بالغ الحدة: الرد على بابوية روما (١٥٤٥)، كما برز رفضه لقاء البابا فى أحد المجامع فى كتاب بعنوان (فى المجامع وفى الكنيسة) ١٥٣٩، وهو الوثيقة الأبلغ دلالة على علمه الكنسى.

وفيما يلى؛ شهادات بعض المفكرين الألمان الكبار بشأن لوثر، تلقى مزيداً

(١) كان للبوهميين صوت واحد، وللمساويين والبولونيين ثلاثة أصوات.

من الضوء على الأثر الذي تركه في ألمانيا والمسيحية بشكل عام:

- «كان لوثر زوجاً ورب أسرة ملؤه الحنان، وقد تزوج في عام ١٥٢٥، لا بداعى العاطفة وإنما ليضرب لأنصار قدوة. وكان صديقاً وانياً لأصدقائه، وعدواً لدوداً لأعدائه. وكان يجهل اللامبالاة والحكمة والدبلوماسية، وكان ميالاً إلى الكآبة وإلى المزاح معاً، وكانت وفاته عام ١٥٤٦، في آيسلبن، مسقط رأسه، وقليل من الرجال من أحدثوا ما أحدثه من تغيرات في العالم، وما ذلك، لا بالعلم، ولا بالقوة العسكرية، بل بقوة الإيمان، وبالجد الذي أعاد به طرح مسألة الله، والمبدأ الإنجيلي، ولأن الكنيسة أدانته بدون أن تفهمه، تمخض إصلاح الكنيسة الذي كان يجاهد في سبيله عن انشقاق كبير في المسيحية، وليست الكنائس الجديدة هي - وحدها - التي انبثقت عن إصلاحه، بل إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها أفادت منه، وفيما وراء حدود الدين الخالص، كان له دور كبير في إدخال شطر واسع من العالم إلى عصر جديد، فانطلاقاً من حرية الإيمان الشخصي التي رفع لواءها؛ بدأت بالنماء والتفتح حضارة قائمة على الشخصية والضمير والحرية (من نص للمفكر الألماني: هاينريخ بورنكام).

- «كان لوثر وطنياً كبيراً، وقد عرف - منذ زمن طويل - بأنه مربي الأمة الألمانية، ومصالح أوروبا المستنيرة كلها، وحتى الشعوب التي لم تعتق مذهبه الديني قطفت ثمار إصلاحه، فقد هاجم الاستبداد الروحي الذي كان يخنق كل فكر حر وصحيح، وأعاد إلى الشعوب قنطرة - كما لو أنه هرقل حقيقي - الحاجة إلى العقل، وعلى الأخص: في مضممار الأشياء الأكثر صرامة: أي الروحيات: (هردر).

- «ما صار الألمان شعبنا لأول مرة إلا بلوثر... وإنما لا نكاد نفكر بكل ما ندين به للوثر ولحركة الإصلاح، فمن سبيلها انعتقنا من أغلال الظلامية، وصرنا قادرين على تطوير ثقافتنا الخاصة، وعلى العودة إلى ينباع. وعلى البلوغ إلى المسيحية في نقائها». (الشاعر الألماني الكبير: غوته Goethe).

- «إنه لمن الأهمية الأزلية أن يكون الشعب - بالترجمة اللوثرية للكتاب المقدس - قد حصل على كتاب في متناوله يستطيع أن يجد فيه حكمة أزلية، وحساً عظيماً بالحياة... ولقد قام لوثر بإصلاح كبير في الكنيسة الكاثوليكية نفسها». (هيفل).

- «نرى لوثر يوجّه سلاحه - دوماً - هي اتجاهين: ضد البابوية التي تحاول أن تستعيد الأرض التي خسرتها، وضد الشيع العديدة التي كانت تهاجم إلى جانبه الكنيسة والدولة معاً... فكيف كان للوثر أن يرضى بأن يقوم - في المعسكر المناوئ - ذلك الخلط بين العنصرين الزمني والروحي الذي طالما استفظعه في البابوية؟» (رانكة).

ثالثاً: أولريخ زهينغلي السويسري وبداية الحركة الإصلاحية في سويسرا

ولد المصلح البروتستانتي السويسري الشهير أولريخ (أو هولدرايخ) زهينغلي (أو زوينغلي) Ulrich (or Huldreich) Zwingli في ١ كانون الثاني ١٤٨٤، في فلدهاوس Wildhouse في شرق سويسرا. وقتل وهو في السابعة والأربعين من عمره في ١١ تشرين الأول ١٥٣١، في معركة كابل Kappel. نشأ في وسط تصطرع فيه المصالح السياسية والمدنية. ورياه عمه الخوري تربية كاثوليكية سمحة ومنفتحة على التيارات الإنسانية. وقد تعاضم تأثير هذه التيارات عليه عندما غادر منطقته الجبلية ليتابع دراسته في المدن الكبيرة بازل وبرن وهينينا. وقد تأثر - أيضاً - بكتابات بيكو دي لا ميراندولا، وعلى الأخص برساليته: «في كرامة الإنسان»، و«في الوجود والوحدة». و«في العنصرية». أيضاً - إلى تأثير ابن أخي الأفلاطوني الفلورنسي (بيكو دي لا ميراندولا)، (جيوفاني فرانشيسكو) مؤلف كتاب «في العناية الإلهية»؛ إذ يمكن أن نلمس أثره واضحاً في (العناية الإلهية) لزهينغلي، على أن إراسموس هو الذي ترك فيه أبلغ الأثر، وإن متأخراً.

تخرج زفينغلي عام ١٥٠٦، أستاذاً في الفنون، وقبل أن يسام كاهناً، عُيِّن - بتوسط من عمه - خورياً لبلدة (غلاريس Glarus)؛ حيث سيمارس كهنوته إلى عام ١٥١٦، وقد ارتحل عنها بعد ذلك ليصير واعظاً في دير القديسة مريم في اينسدلن. وكان هذا الدير الشهير محجاً لكل سويسرا وألمانيا الجنوبية لوجود صورة (أيقونة) عجائبية فيه، يزورها شعب كثير للسجود. وبرز زفينغلي لأول مرة أمام الزائرين بصفة مصلحاً، وأخذ يعظ ضد زيارة الأماكن المقدسة، والسجود للأيقونات، وما أشبه، مُبرهنناً بأنه يوجد وسيط سماوي واحد - فقط - هو المسيح!

ومن جهة أخرى؛ كان ذلك الدير الذي كان يعظ فيه زفينغلي، ويفضل مديره (ديبولد فون جيروولدسك)، مركزاً كبيراً للمذهب الإنساني. وكانت مكتبته الفنية تصلها - حال طبعها في بال - مؤلفات إراسموس وشروجه على آباء الكنيسة، فكانت تقرأ، وتدرس بتوقير. وكان زفينغلي - الذي تشرف بالتعرف إلى إراسموس سنة ١٥١٥ - شغوفاً بكتابات آباء الكنيسة اللاتينيين، وقد عمل على تجويد معرفته باللغة اليونانية، ووقف بنفسه على دراسة شخصية للمعهد الجديد على أساس طبعة إراسموس لعام ١٥١٥، ونسخ رسائل القديس بولس، وعن القديس بولس تحديداً، وكذلك عن القديس أوغوستينوس، أخذ رؤية شخصية للمسيحية تشبه - في بعض جوانبها - رؤية لوثر، وإن بقيت مستقلة، وقد تعلم - أيضاً - العبرية، ومال مع إراسموس والآباء الشرقيين إلى تأويل مجازي للعهد القديم، وبدأ يحلم بنهضة إنسانية للكنيسة.

اقتترنت مؤهلات زفينغلي العقلية والإنسانية، بوعي سياسي حاد. حدا به إلى معارضة تجنيد المرتزقة في خدمة الدولة الأجنبية، لما يمثل هذا التجنيد من عواقب وخيمة أخلاقياً، وإن يكن فيه نفع مادي كثير لطبقة النبلاء. وقد رافق زفينغلي - بصفته مرشداً روحياً عسكرياً، قوات غلاريس إلى موقعة نوفارا (١٥١٢)، وإلى موقعة مارينيان (١٥١٥)، وفي أواخر عام ١٥١٨: عُيِّن واعظاً في كاتدرائية زوريخ، وفي تلك الفترة تحديداً؛ اندفع في حملته

الإصلاحية، فقد عارض في مواعظه - تماماً مثلما فعل لوثر - بيع صكوك الففران، وأيده - في معارضته هذه - التقدميون من رجال الدين، وأسقف كونستانتز، وبالفضل؛ حظرت بقية الكانتونات (المقاطعات) السويسرية في سنة ١٥١٩، بيع صكوك الففران، وقرر مجلس زوريخ في سنة ١٥٢٠ - بناء على مواعظ زفينغلي - بأنه يجب على الواعظين أن يتمسكوا - بشدة - بالتعليم الإنجيلي الصّرف. وراح تأثير لوثر - ابتداء من ذلك التاريخ - يتمقّ، ووجه زفينغلي الإنسانى الإراسمى نحو مواقع إصلاحية أكثر جذرية، وانتَهك بعض مواطنى زوريخ - فى حضور زفينغلي وإقراره - صيام الفصح، فوجّه إليهم أسقف كونستانتز Konstanz تأنيباً شديداً، فدافع زفينغلي عن موقفه مؤكداً أن كل قصده كان التأكيد على الحرية المسيحية، وعرض وجهة نظر هذه فى كتيّب بعنوان «فى اختيار الأطعمة وحريتها» (١٥٢٢)، وكانت هذه الحادثة بداية لمطالبات الحزب الإصلاحى، ففى صيف ذلك العام؛ حرز زفينغلي عريضة تتضمن ٦٧ بنداً أو فقرة، مهرها عشرة كهنة بتواقيعهم، تطالب بحق الزواج لرجال الكنيسة، وبحق الكرز والتبشير بالإنجيل طبقاً لأفكار حركة الإصلاح. وكتب - بعد ذلك، باللاتينية - دفاعاً مفصلاً عن تلك العريضة، وتتلخص المطالب الإصلاحية لزفينغلي بالنقاط الرئيسية التالية:

- ١ - الكنيسة مولودة من كلمة الله، ورأسها الوحيد هو السيد المسيح.
- ٢ - قوانين الكنيسة ليست ملزمة؛ إلا إذا اتفقت وانطبقت مع الكتاب المقدس.
- ٣ - تبرُّ الإنسان هو بالمسيح فحسب.
- ٤ - الكتاب المقدس لا يعلم حضور المسيح الفعلى الحقيقى ضمن الخبز والخمر المتناولين فى العشاء السرى، والخبز والخمر ليسا سوى علامات - فقط - تذكرنا بآلام المخلص، و تستخدم لأجل تمثين إيماننا فى حقيقة الفداء.
- ٥ - إجراء القداس بالطريقة والمفهوم المعمول به إهانة كبيرة لتضحية وفداء وموت السيد المسيح. وبهذا؛ يكون زفينغلي قد أقصى - بحزم - كل طقس

من الخدمة الإلهية.

٦ - لا يوجد أى مستند فى الكتاب المقدس لوساطة القديسين، أو شافعة الموتى، ولا لتقديس التماثيل، والصور، والأيقونات، وتعظيمها، والحج إليها، وعد زفينغلى إكرام الأيقونات مُساوياً لعبادة الأصنام.

٧ - لا مستند فى الكتاب المقدس لعقيدة وجود المطهر Purgatory الذى يكون بين الجنة والنار.

٨ - الزواج يجب أن يكون متاحاً للجميع، بمن فيهم رجال الكنيسة.

وقد أقدم زفينغلى - كترجمة لقناعاته الفكرية إلى أفعال عملية - على الزواج - سرّاً - من «أنا راينهارد»، ثم بعد عامين؛ أعلن عن هذا الزواج جهاراً، وكانت «أنا» أرملة، وأماً لأحد تلاميذه، ثم أحرزت حركة الإصلاح فى زوريخ نصراً حاسماً على إثر المناقشات العامة التى دارت فى ٢٢ كانون الثانى ١٥٢٢، و٢٦ و٢٨ تشرين الأول من العام نفسه، وقد قدم زفينغلى فى المناقشة الأولى سبعاً وستين قضية، نشرها بالألمانية تحت عنوان «عرض القضايا وأدلتها» ١٥٢٣. أما مؤلفه الرئيسى «فى الدين الحق والكاذب»؛ فصدر عام ١٥٢٥.

وابتداءً من تلك الأعوام؛ توحدت سيرة زفينغلى مع أحداث حركة الإصلاح البروتستانتي فى زوريخ وسويسرا الألمانية، وصرح سكان زوريخ علناً بأنهم مع الإصلاح. وفى سنة (١٥٢٤ - ١٥٢٥)؛ أدخل الإصلاحيون عندهم تنظيماً كنسياً جديداً؛ ألغوا فيه خدمة القدّاس، وأدخلوا فى الخدمة الإلهية اللغة المحلية، وأخرجت الأيقونات من الكنائس، وتحولت أديرة الرهبان إلى مدارس ومؤسسات خيرية.. إلخ، وانتشر إصلاح «زفينغلى» الكنسى إلى أماكن أخرى فى سويسرا، فضلاً عن زوريخ؛ مثلاً فى بازيل، وبرن، وشافهوزن، وغيرها، وبقية (ليوتسرن، وشفيتس، وأورى، وغيرها) مخصصة لكنيسة روما؛ لأن الإصلاح الكنسى من مصلحتها السياسية، وبسبب ذلك؛ حدث بين الإصلاحيين والكاثوليك مخاصمات أدت إلى اصطدامات مسلحة بين الفريقين.

كان الإصلاح الذي سار فيه زفينغلي ذا طبيعة أكثر جذرية - بمعنى من المعاني - من الإصلاح اللوثرى، سواء من حيثُ تبسيط شعائر العبادة أم من حيث الفكر اللاهوتي الذي، وإن يكن أقل أصالة وعمقاً، فإنه أكثر تجاوباً مع المتطلبات العقلانية للمذهب الإنساني، ومع الحياة المدنية المكلفة للكانتونات (أى المقاطعات) السويسرية. وقد سعى زفينغلي - بصفته منظماً - إلى نشر الإصلاح فى سويسرا الألمانية، وإلى توحيد قوى الكانتونات (الولايات) البروتستانتية، وإلى عقد الأواصر مع الإصلاح الألمانى: لكنْ - هنا بالتحديد - باءت محاولته بالفشل، بالنظر إلى الخلاف فى التصور بينه وبين لوثر حول العشاء السرى (الأفخارستيا) (العقلى والرمزى - فقط لدى زفينغلي، والصوفى والواقعى لدى لوثر)، وقد كرّست مباحثات ماريبورغ (١٥٢٩)، الانفصال النهائى بين الإصلاحيين.

وجاءت مسألة مدِّ الإصلاح إلى بعض الأقاليم التى كان فيها للمقاطعات الكاثوليكية والمقاطعات البروتستانتية حقوق مشتركة لتشعل فتيل صدام مسلح بين الكاثوليك والبروتستانت، وبدأت على تحالف «برن» و«زوريخ» البروتستانتى علائم الخور، وترددت القوات البرنية فى نجدة الزوريخيين، ومنى الجيش البروتستانتى Canton الشعبى الصغير، المؤلف من ألفين وخمسمائة رجل بهزيمة على أيدى الميليشيات الكاثوليكية فى معركة كابل Kappel فى ١١ تشرين الأول ١٥٢١، وانهمز زفينغلي - الذى رافق الزوريخيين بالخوذة والدرع بصفة مرشد روحى عسكري - مع المنهزمين، ولقى مصرعه، وجرى التعرف على جثته، فقطعت أوصالها، وأحرقها الجلاذ. وكان من نتائج معركة كابل - التى هلك فيها خمسمائة رجل من أكثر مناضلى الإصلاح السويسرى فعاليةً - جمود فى حركة توسعه. وقد نشر - أيضاً - لزفينغلي بعد وفاته عرض مقتضب وواضح للدين المسيحى باللاتينية سنة ١٥٢٦، ونقل عن لوثر قوله عن زفينغلي: «إن موت زفينغلي هو العقاب المستاهل على كبرائه التى لا تقاس!». وقال عنه «بوسويه»: «لا بد من الاعتراف بأنه كان ذا قوة ذهن كبيرة، وما كان ينقصه شئ سوى القاعدة الضابطة التى لا يمكن الحصول عليها إلا فى الكنيسة. وتحت نير

سلطة شرعية». أما فولتير؛ فكان يقول: «عندما أسس زفينغلي المشهور ذلك شيعته، بدأ أكثر حماساً للحرية منه للمسيحية».

رابعاً، حركة اللاهوتي الفرنسي جان كالفن الإصلاحية

بعد وفاة زفينغلي، خمدت ثورته الكنيسة التي أحدثها في سويسرا الألمانية. ولكن؛ سرعان ما وجد أعلامه آخرون واصلوا مسيرته في التغيير والإصلاح، وكان أشهرهم غليوم فاريل Guillaume Farel (1509 - 1564) الذي ظهر في جنيف سنة 1522م، وعمل هنالك بنجاح، جعل السكان في سنة 1528م، يعلنون عن أنفسهم، بحزم، أنهم من مؤيدي الإصلاح. وبدأوا في السنة التالية يدخلون تنظيماً كنسياً جديداً يتفق وتعليم زفينغلي. إلا أن التنظيم النهائي على مبادئ الإصلاح للجمعية الدينية الجديدة التي نشأت في سويسرا، كانت مدينة لجهود اللاهوتي الفرنسي في جنيف القسيس الإصلاحى الجاف المتشدد جان كالفن John Galvin (1509 - 1564).

ولد جان كالفن في مدينة نوابون Noyon في فرنسا عام 1509، ومات في جنيف Geneva في الجزء الفرنسي من سويسرا عام 1564. أراد ذووه أن يدخل السلك الكهنوتي، وأرسلوه في الرابعة عشرة من العمر إلى باريس للدراسة. فدرس - أولاً - على ماتوران كوديبه، أحد مؤسسي علم التربية الحديث، ثم انتقل - بعد ذلك - إلى معهد مونتيفو Montaigne (فرع لجامعة باريس)؛ حيث انحضرت في ذاكرته دروس أنطوان كورونل في المنطق، ودروس اللاهوتي الاسمي جان مير. وقد اتصل بالأوساط الإنسانية⁽¹⁾ في العاصمة الفرنسية، وتعرف العالم الإنساني الفرنسي الشهير «غويوم» (أو غليوم) «بُوده» (1567 - 1540)

(1) الإنسانية Humanism حركة فلسفية وأدبية انطلقت في إيطاليا، وعمت غرب أوروبا في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين، قوامها التأكيد على قيمة الفرد؛ أي الإنسان وكرمه ومنزلته، وأن الإنسان كائن عاقل ينزع - في جوهره - إلى الحقيقة والخير. وقد أخذت هذه الحركة في إيطاليا منحى أدبياً وفنياً، وهي حين توسع مجالها في سائر دول أوروبا الوسطى والغربية، لاسيما فرنسا وألمانيا؛ لتأخذ - بالإضافة لذلك - منحى تريبياً ولاهوتياً أيضاً، وكانت وراء انطلاق حركة النهضة الأوروبية Renaissance.

Guillaume Bude عن طريق أبناء غليوم كوب، طبيب فرانسوا الأول. وأرجح الظن أنه سمع - منذ ذلك الحين - بكتابات لوثر وميلانختون، ولكن؛ بدون أن يزعزع ذلك وهاءه للكنيسة الكاثوليكية. ونحو عام ١٥٢٩ - وكان حصل على درجة الأستاذية فى الفنون - عزف عن اللاهوت، وتوجه - بناء على أمر من أبيه - إلى أورليان Orleans ليدرس القانون على بيير دى لتوال، وهو واحد من خيرة الحقوقيين الفرنسيين فى ذلك العصر. وبعد ذلك بعدة أشهر قصد بورج Bourges، وقد اجتذبه إليها شهرة الحقوى الإيطالى ألسياتو. وتشرب بالمناهج الحقوقية الجديدة، وتحصلت له معرفة متينة بالقانون الرومانى.

لكن؛ ظلت الدروس الأدبية تجتذبه. وعليه؛ صار سيد مصيره غداة وفاة والده (١٥٢١)، تبع فى باريس دروس القراء الملكيين الممينين من قبل فرانسوا الأول. وكان يعمل - آنذاك - فى وضع أول ملفاته، وهو عبارة عن «شرح لكتاب سنیکا فى التسامح» Commentary on Seneca's De Clementia، وقد نشره سنة ١٥٢٢، وفيه أثبت كالفن أنه علامة ضليع من مستوى إراسموس، وبوده. إنه عمل إنسى (Humanistic) أغرته الأخلاقية الرواقية، واستحوذ على اهتمامه المضموم الرومانى عن السيادة. وسيبقى كالفن - حتى نهاية حياته - وفياً لمنهج الإنسيين، وإلى حد كبير، لروحهم وإعجابهم بالقدامى. إما هجمات على الإنسيين؛ فستستهدف الموقف الشخصى لبعضهم، ولكن؛ ليس المذهب الإنسى بعد ذاته.

إن انضواء كالفن تحت لواء الإصلاح الدينى، الذى اقترح له الدارسون توايخ متباينة جداً، لا يمكن أن يوضع قبل ربيع ١٥٢٤، يوم تنازل عن امتيازاته الكهنوتية. وعن خطأ، فيما يبدو، يُسند إليه الخطاب المشهور الذى ألقاه فى عيد جميع القديسين سنة ١٥٢٣، صديقه الخورى نيقولا كُوب، وكان هذا الخطاب التحريضى يعكس - فى الحقيقة - أفكار الإصلاحيين الكاثوليكيين أكثر مما يعكس أفكار البروتستانتيين. وقد اضطر كالفن - الذى كانت علاقته بكوب معروف - إلى مفادرة العاصمة، وطلب الملاذ لدى صديقه الكاهن تيبه، ثم

قصد بلاط مرغريت دي نافار؛ حيث التقى لوفيفر ديتابل الشهير، وفي أثناء مقدمة الثانی فی أورلیان؛ حرر رسالته فی نوم النفوس، وهاجم فیها مذهب بعض القائلین بتجديد المماد، ممن كانوا يدعون أن النفوس تنام بعد الموت، وحتى یوم الحشر.

أخلى التسامح النسبى - الذى كان تبديه الحكومة الفرنسية إزاء «اللوثريين» - مكانه لاضطهاد فظ، عندما علق بعض المجهولين ملصقات ضد القداس حتى باب القصر الملكى (تشرين الأول ۱۵۲۴). واضطر على الأثر جميع أولئك الذين كان يُشتبه بأن لهم - من قريب أو بعيد - ضلعاً بالمؤامرة التى اتهم بها أنصار الإصلاح إلى الاختباء، أو إلى اللواذ بالفرار. وبما أن كالفن كان - منذ (ارتداداه) - يقوم بدعاية نشطة لصالح الأفكار الجديدة، لم يجد - هو الآخر - مناصاً من مبارحة المملكة.

فی الأسابيع الأولى من ۱۵۳۵ أقام فی بال (سويسرا)، وعكف يُطالع بنهم، واستطاع - فی مدى بضعة أشهر - أن ینجز كتابه باللاتينية «تأسيس الديانة المسيحية» Institutes of the Christian Religion الذى لم یخرج من المطبعة - مع ذلك - إلا فی آذار ۱۵۳۶. كان أول كتاب يعرض - بمنطق وتلاحم وشمول - فكر الإصلاح الدينى - وسرعان ما ترجمة مؤلفه نفسه إلى الفرنسية، وقد ظل یجرى علیه تنقيحات متواصلة حتى لیجوز أن نعدّه كتاب حياة بتمامها. ومهما تكن أهمية كتابات كالفن اللاهوتية الأخرى، فإن كتابه «التأسيس» يتضمن أوفى عرض، وأكمل تركيب لأفكاره، ولقد ضمّنه - أول بأول - حصيلة تأملاته وتجاريه. وهكذا تضخم الكتاب عام ۱۵۳۶، حتى صار سفرأ فی أربعة مجلدات وثمانین فصلاً (۱۵۵۹ - ۱۵۶۰).

ما كاد كالفن يشهد صدور المؤلف الكبير حتى انتقل - لأسباب غير معلومة جيداً - إلى فيرارى، مع صديقه تتييه، قاصداً بلاط الدوق رينه دي فرانس الذى كان لاذ بحماه عدد من اللاجئین لأسباب دينية.

وعلى الرغم من جسامه المجازفة؛ قصد - فيما بعد باريس، ليسوى فيها مع إخوته الإرث الأبوي. ومن هناك؛ أراد الانتقال إلى ستراسبورغ، لكن نشوب القتال بين جيوش فرانسوا الأول وشارل الخامس أرغمه على الانعطاف نحو جنيف، الأمر الذى سيترك أثراً دامتاً فى الشطر الثانى من حياته.

فبناء على إلحاح من غويوم (أو غليوم) فاريل (Guillaume Farel) (١٥٠٩ - ١٥٦٤)، الزعيم الروحى لأنصار حركة الإصلاح الدينى فى جنيف، قبل كالفن بأن يعاونه فى مهمته. وللحال؛ انقلب العالم الشاب إلى واعظ ومعلم ومنظم للكنيسة الجديدة. وقد أخضع المقالات بخصوص تنظيم الكنيسة والعبادة والتعليم واعتراف بالإيمان، لرقابة مجالس المدينة (وقد قبس هذا الأخير من كتابه التأسيس). وكان من المفروض أن يحظى كتابه «الاعتراف بالإيمان» بموافقة جميع أرباب الأسر، الأمر الذى أثار صعوبات. كما ثارت صعوبات أخرى بصدد الانضباط الكهنوتى الذى أراد كالفن وفاريل فرض العمل به، والذى رفضته مجالس المدينة. ومع ذلك؛ عدت هذه المجالس متسامحة أكثر مما ينبغى مع دعاة الإصلاح، فاستبدلت فى عام ١٥٢٨، أعضاء من المعارضة. وانفجر الصراع الكامن عندما شاء والى المدينة أن يطبق - بدون استشارة القساوسة - الشعائر العبادية المعمول بها فى مدينة برن. فقد رأى كالفن وفاريل فى هذه المبادرة مساساً باستقلال الكنيسة الذاتى، ورفضاً الانصياع للأمر، فأقيلوا، واضطروا إلى مغادرة المدينة (١٥٢٨).

قبل كالفن دعوة الإصلاحيين بوسر، وكابيتون، للقدوم إلى ستراسبورغ، والتوطن فيها؛ وكانت هذه المدينة - بفضل دينك الإصلاحيين، وبفضل العبرية السياسية لجاك ستورم - قد أضحت - فى مدى سنوات قليلة - واحداً من أهم مراكز البروتستانتية الأوروبية. وعلى مدى السنوات الثلاث التى أمضاها كالفن فى ستراسبورغ؛ عمق معارفه اللاهوتية، نتيجة لاتصال ببوسر، واستكمل إنشاء تصورات الكهنوتية بما قبسه من معين المؤسسات الستراسبورغية. ووضع ليتورجيا جديدة اعتمدها - فيما بعد - كنيسة جنيف وفرنسا البروتستانتيتان. ولما عين

أستاذاً في المدرسة العليا، مهد جامعة ستراسبورغ، علم فيها إنجيل يوحنا، ورسائل بولس الرسول. وفي عام ١٥٣٩، أصدر «الشروح على رسالة بولس إلى أهل رومية، وكانت بمثابة فاتحة باهرة لسلسلة طويلة من التصانيف الشرحية التي ظل يعمل فيها إلى آخر حياته. وفي عام ١٥٤١، صدرت له «مقالة صغيرة في العشاء السرى»، حاول فيها أن يوضح - برسم الجمهور العريض - وجهة نظره الخاصة في الحضور الواقعي والروحي للمسيح في العشاء السرى، وقد أثبت كالفن - في هذا النص، وفي ترجمته الفرنسية لتأسيس الديانة المسيحية - أنه من أطول الناثرين الفرنسيين في القرن السادس عشر بارعاً. والحق أنه كان - بأسلوبه الواضح والمرن والباثر - واحداً من خالقي الفرنسية الحديثة.

عن طريق أهل ستراسبورغ؛ اتصل كالفن بالبروتستانتية الألمانية: فقد التقى ميلانختون Melancthon في فرانكفورت سنة ١٥٣٩، وحضر ندوة راتسبون (١٥٤١) بصفته مندوباً رسمياً عن ستراسبورغ، إلى جانب ستورم، وبؤسر. وبدا وكأن كالفن سيقم إلى آخر حياته في ستراسبورغ، فساعده أصدقائه على تأسيس منزل، وفي آب ١٥٤٠، تزوج من ايدليت دي بور، أرمل رجل من دعاة تجديد المعمودية كان هداه إلى البروتستانتية.

بيد أن حياة كنيسة جنيف أصابها خللٌ واضطراب من جرأ نفي قسيها الرئيسيين. وواصل كالفن اهتمامه بمصير الطائفة الجنيفية: وقد تدخل لتسكين المنازعات التي أشعل رحيله فتيلها، ونشر في عام ١٩٣٥، «رسالة إلى الكاردينال سادوليه، ردأ على رسالة كان وجهها هذا الأخير إلى أهل جنيف داعياً إياهم إلى العودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية. لكنه لما دعى إلى الرجوع إلى جنيف، لم يلب الدعوة إلا بعد تردد طويل. وفي ١٢ أيلول ١٥٤١، عاد - أخيراً - إلى الظهور على ضفاف بحيرة ليمان، مع برنامج محدد جيداً، ومع العزم على تحويل جنيف إلى مركز للدعاية البروتستانتية برسم فرنسا.

بالإضافة إلى دروسه الشرحية ومواعظه اليومية وجد كالفن عام ١٥٤٢، الوقت ليحرر باللاتينية كتابه: «الدفاع عن مذهب جبرية الاختيار»، داحضاً

حجج الكاثوليكي بيغيوس حول حرية الاختيار. وفي السنة التالية ١٥٤٢، ظهر له بالفرنسية مقالة الذخائر (أى الأيقونات)، التى شن فيها هجوماً عنيفاً على عبادة الذخائر، والمقالة المتضمنة حول ما ينبغي أن يفعله رجل مؤمن بين البابويين، وأتبعهما فى عام ١٥٤٤، برسالته «الاعتذار للسادة النيقوديمييين؛ حيث هاجم «النيقوديمييين»؛ أى أنصار حركة الإصلاح الدينى الذين لا يجسرون على المجاهرة بإيمانهم.

كان جُلُّ أنصار كالفن ومعاونوه من اللاجئيين الفرنسيين الذين كانوا يتدفقون على جنيف. وكان جُلُّ خصومه من «الزنادقة» (الروحيين) الذين كانوا يعرضون ما يعتبرونه تعدياً من قبل الهيئات الدينية على مضمار السلطة المدنية. وضد هؤلاء كتب كالفن فى عالم ١٥٤٥، الرد على شيعة الزنادقة الخيالية، كما كتب مقدمات لخلاصة ميلانختون، ولتوراة جنيف، وتتمّة الشروح التوراتية التى شملت أسفار موسى الخمسة، وسفر يوشع، والمزامير، وسفر الأنبياء، وكل العهد الجديد؛ باستثناء رؤيا يوحنا.

فى أثناء ذلك؛ كانت المعارضة ضد كالفن تقوى، وتشتدُّ. وفى عام ١٥٥٤، فاز «الزنادقة» الروحيون بالفالبية فى الانتخابات، ولكن موقع كالفن لم يتزعزع بالنظر إلى تدفق أعداد جديدة من المهاجرين. على أنه فى الوقت الذى كان فيه بأمس الحاجة لكل قواه ليحبط مكائد أعدائه، راحت صحته - الواهنة منذ عهد شبابه - تتدهور، بينما حلَّ الحداد بمنزله بوفاة زوجته (أذار ١٥٤٩). وفى عام ١٥٥٢، انفجرت قضية سرفيتوس الشهيرة. فمنذ عام ١٥٢١، كانت الطبيب الأسباني ميخائيل سرفيتوس^(١) Michael Servetus قد اعترض - فى رسالة له

(١) الطبيب الأسباني ميخائيل سرفيتوس Michael Servetus (١١٥١ - ١٥٥٣): تأثر بحركة البروتستانتية، لكنه خطأ فى الإصلاح خطوات جذرية وجريئة أكثر، فرأى بطلان عقيدة التثليث، ورأى عدم الوهية المسيح، وكان يسمى الثالث بد الوحش الشيطاني ذى الرؤوس الثلاثة، وقام بحركة نشطة جداً فى الدعوة إلى التوحيد التام، وقد اتهمته الكنيسة بالهرطقة، واعتقلته، ثم أعدمته حرقاً، لكن أفكاره وكتابه انتشرت فى وسط وشرق أوروبا، وصار لها عشرات الألوف من الأتباع والمؤيدين، وسيأتى الكلام عليه عند الكلام على الحركة السوسيانية.

- على التعاريف التقليدية لعقيدة الثالث. ولما لجأ إلى فيينا عام ١٥٤٠، حرَّر فيها - سرّاً - «إحياء النصرانية»، داعياً إلى العودة إلى المسيحية الأولى، ومنتقداً الكنيسة الكاثوليكية، والإصلاحيين البروتستانتيين في آن معاً. وتبادل سرفيتوس بعض الرسائل مع كالفن، فدحضه هذا بإيجاز (١٥٤٥). وفي عام ١٥٢٢، طبع الكتاب، ووصلت نسخة منه إلى جنيف، فبعث غليوم دي ترى - وهو صديق حميم لكالفن - يخبره إلى مراسلين له من مدين ليون، فاستطاع هؤلاء أن يتعرفوا شخص مؤلفه. ودعى سرفيتوس إلى المثول أمام محكمة فيينا الأسقفية؛ وحتى يثبت دي ترى التهمة عليه أبرز الرسائل التي كان «المجدِّف»، بعث بها إلى كالفن (وقد اختلسها من هذا الأخير اختلاساً). وأفلح سرفيتوس في الهرب؛ لكنّ؛ شاء له عدم تبصره أن يمر بجنيف، فألقى القبض عليه. وعلى الرغم من أن مجلس المدينة لم يكن يتعاطف مع كالفن، فقد قرر أن يتابع القضية. وأصر الطبيب «سرفيتوس» على موقفه الصلب، وعقيدته في التوحيد، ونفى التلث، فاتفق كالفن والمجلس - على الرغم من كل شيء - على أن يجعل المتهم عبيراً لمن يعتبر، يؤيدهما في ذلك إجماع كنائس سويسرا. وفي ٢٦ تشرين الأول حكم على «سرفيتوس» الموحد بالإعدام حرقاً، ووافق كالفن على عقوبة الحرق، رغم أنه كان يفضل عليها عقوبة قطع الرأس). ولقد الشهيد «سرفيتوس» المصير عينه الذي كان الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء قد خبئوه، من قبله، للمئات ممن أسموهم بدالهرطقة اليابسي الرؤوس!» ودعاة تجديد المعمودية Anabaptists. وقد حظى موقف كالفن باستحسان غالبية اللاهوتيين^(١)، ولم يجرؤ سوى سياستيان كستيليون على الدفاع عن جانب التسامح، مما جلب عليه رداً لاذعاً من جانب كالفن (تصريح للحفاظ على الإيمان الحق بالثالث، ١٥٥٤)، وخرجت سلطة المصلح من هذه المعمة معززة، لكنّ المعارضة الجنييفية لم تلق السلاح. ولكنّ؛ في عام ١٥٥٥، استطاع الكالفنيون أن يستحوزوا على الغالبية في المجالس في جنيف. ومُذاك؛ عقد إزار النصر للقضية بصورة نهائية. وفي عام ١٥٥٩، نال كالفن حق البورجوازية.

حرر كالفن - في أثناء ذلك - عدداً آخر من المؤلفات؛ دفعاً عن بعض نقاط المذهب. ونخصُّ هنا - بالذكر مقالة الفضايح (١٥٥٠)، التي كتبها ضد الانحرافات الوثنية للبشرية. وعلى إثر التهجّمات التي تعرض لها مذهبه في الجبر، رد بمقالة «في الجبر الأزلي» (١٥٥٢). وبعد ذلك بثلاث سنوات؛ نشبت الخصومة بينه وبين اللوثري «وستفال الهامبورغي» حول العشاء السري، وكتب كالفن في ١٥٥٥ و ١٥٥٦، ١٥٥٧، على التوالي ثلاثة دحوض هي بمثابة آية في الحجاج اللاهوتي. وفي عام ١٥٥٨، استرعت انتباهه الدعاوى التي كانت رائجة في أوساط المهاجرين الطليان بجنيف ضد عقيدة الثالوث، فحرّر - بهذه المناسبة - بالفرنسية «الإجماع حول الوهية يسوع المسيح، والرد على الإخوة البولونيين» (١٥٦٠)، وكان كتابه «التأسيس» قد اكتسب شكله النهائي قبل سنتين. وفي السنتين الأخيرتين من حياته نشر كالفن - علاوة على ذلك - دروساً حول الأنبياء، وسمح بطبع عدة مجموعات من المواعظ حول العديد من أسفار التوراة، وكان - في الوقت نفسه - يراسل - بغزارة - بروتستانتية فرنسا وباقى أوروبا (ترك أكثر من ١٢٠٠ رسالة). ولنذكر - أخيراً أنه توج عمله في عام ١٥٥٩، بإنشائه أكاديمية جنيف، التي صارت مركزاً لدراسات الإنسانية واللاهوتية للبروتستانتين الناطقين بالفرنسية.

كان المرض ينهش جسمه منذ عدة سنوات، وتفاقم على نحو في شباط ١٥٦٤، فودع في نهاية نيسان زملائه، وحضرته الوفاة في ٢٧ أيار ١٥٦٤، وترك وراءه نتاجاً راح تأثيره يتعاضم، ويمتدُّ إلى ما وراء الحاضرة الجنيفية، ليسم بميسمه الكنائس البروتستانتية في أوروبا وأمريكا قاطبة.

وجّه «كالفن» نشاطه، وهو يتابع عمل زوينغلي على رأس الحزب الإصلاحى في «جنيف»، وجّه نشاطه - بنوع خاص - إلى إصلاح الآداب، مطبقاً إياها على تعليمه عن القدر المحدد السابق لكل إنسان (أى عقيدة الجبر)؛ حيث كان يرى أن عقيدة الجبر أو القدر السابق التحديد التي لا يعلم أحدٌ فيها هل هو معين للمخلص أم للهلاك، يجب - حسب رأيه - أن تتب شعور الإيمان والاستسلام

لإرادة الله لدى الإنسان، وتميل به نحو الحياة الأخلاقية الصرفة، وما أشبه. ولهذا؛ كان يطلب من تابعه الممينين للخلاص حياةً نسيكيةً صارمةً. فكانت قوانين الحياة التي سلمها لأهل «جنيف»، والتي ارتقت - بفضل مساعيه - إلى درجة أن أصبحت في سنة ١٥٢٨م - بواسطة مجلس «جنيف» - قوانين حكومية نافذة تشمل كل حياة الناس، واتصفت بالتزمت والصرامة والجفاف، فقد منعت تلك القوانين - مثلاً - النساء من إظهار التبرج على أنواعه، ومنعت الناس من إقامة الحفلات، والفناء الديني، والموسيقى، والألعاب، وتمعبتها، وعاقبت عليها بعقوبات تاديبية مختلفة، وبشدة لا هودة فيها، فمثلاً؛ كان يترتب على المخالفة الحقيقية ضد الإيمان والآداب (كالتجديف والاستهزاء وحياة الخلاعة) يترتب عليها النفي من البلاد، وحتى عقوبة الإعدام. وقد أثارت تلك القوانين القاسية الكثيرين ضد «كالفن»، وتشكل حزباً قومياً من الناقمين، أجبره على الهرب من «جنيف»^(١)، ولم يتمكن من العود إليها؛ إلا بعد أن انتصر أتباع «كالفن» في «جنيف» على خصومهم في سنة ١٥٤١م، فأخضع لتأثيره عند ذلك كل سكان «جنيف»، وتسلط عليهم - بلا حدود - في مدى عشرين سنة وأكثر، تمكن - خلالها - من تسيير العمل إلى النهاية. وجعل عقيدة القدر السابق التحديد عقيدة أساسية للجمعية الجديدة التي أسسها، وأدخل في حياتها - أيضاً - المبادئ الأخلاقية الصارمة، كوجوب الابتعاد عن كل الحفلات الدنيوية، حتى التسلية البريئة، أو التي لا أهمية لها بنظر القواعد الأخلاقية، وبالتالي؛ صار الاحتقار التعصبى للفنى ولحفلات الفناء، وصرامة الآداب البالغة حتى الأمور التافهة في الحياة البيئية والعمومية، وترافقها مع عدم التسامح والتعصب ضد المخالفين لدرجة التكفير والإعدام، كما حصل تجاه الطبيب الموحد

(١) إن الاستياء من إصلاح «كالفن» ابتداء منذ مجيئه إلى «جنيف»، ونما دائماً. ونشأت في محيط المستائين شيعة إصلاحية ليبرالية، رفضت - بالاستناد إلى تعليم كلفن عن القدر سابق التحديد - كل أنواع القواعد الأخلاقية، وأدخلت الحرية التامة والإرادة المطلقة في سلوك الإنسان على أساس سابق التحديد؛ حيث تصبغ الحياة الأخلاقية أو غير الأخلاقية لا أهمية لها في أمر الخلاص، وهذا الأمر أحدث قلقاً كثيرة في «جنيف».

«سيرفيتوس»، كل ذلك صار من الصفات المميزة لأتباع «كالفن». وعلى مثال زهينغلي؛ ذهب «كالفن» أبعد من «لوثر» في إصلاح الخدمة الإلهية (أى العبادة فى الكنيسة)، فقد أبعد من الكنائس كل ما يُذكر بالكتلثة - الأيقونات، الصلبان، الموائد، وغيرها. وأخرج حتى الموسيقى والزخارف، والزينات الكنسية المتنوعة. واختصرت الخدمة الإلهية ذاتها على الوعظ، وتلاوة الصلوات، وترتيل المزامير ترتيلاً بسيطاً بلا فن، وألقى كل نوع من الطقوس. وقد تمسك «كالفن» بسرّين: المعمودية والمناولة، وكان يتمم الأول بالرش وحده بالماء، بدون علامة الصليب، والثانى بصورة كسر الخبز لكل واحد من الحاضرين بالدور وهم جلوس. ورفض «كالفن» الرّئاسة مثل «لوثر»، واستعاض عنها بالمعلمين والوعّاظ، وأقام - وفق ذلك - وظيفة الشيوخ لأجل الرقابة على حياة أعضاء كل جماعة، والشمامسة لأجل إدارة المؤسسات الخيرية، وسلم انتخابات كل هؤلاء الأشخاص الموظفين ليس للسلطة العلمانية نظير «لوثر»، بل للجماعة ذاتها. وعندما مات «كالفن» فى سنة 1564م، دُعيت الجمعية البروتستانتية التى أسسها فى «جنيف» بالجمعية الإصلاحية، ودُعيت - أيضاً - باسم الكالفينية.

والخلاصة أن أهم ما ميز الكالفينية كان التزمّت الدينى الصارم، والتأكيد الشديد على عقيدة القدر السابق، والإيمان بلزوم تبعيّة الحكومة، والنظام الاجتماعى كله للتعاليم الدينية، وخضوع الكل لأوامر ووصايا الله. فالكالفينية تختلف - تماماً - وتتناقض مع العلمانية التى تطالب بفصل الدين عن الدولة، والذى نادى بها - فيما بعد - بعض المنشقين عن البروتستانتية؛ مثل المينونيون (فرع من فرقة الأنابابتية القائلون بإعادة العماد).

انتشار التعليم الكالفيينى فى فرنسا وهولاندا واسكتلاندا

انتشرت الكالفيينية من «جنيف» إلى سائر أنحاء سويسرا الفرنسية والألمانية، وصارت هى المذهب المسيطر هنالك، وفوق هذا دخلت - أيضاً فى بلاد أخرى من أوروبا، وبنوع خاص فى فرنسا، وهولاندا واسكتلاندا. وقد ساعدت جامعة «جنيف» - التى أسسها «كالفن» - كثيراً على نشر الكالفيينية: حيث تلقى فيها العلوم كثيرون من الغريباء بروح الكالفيينية الصريحة.

انتشار الكالفيينية فى فرنسا

دخلت الكالفيينية فرنسا فى حياة «كالفن» ذاته، الذى أرسل إلى هناك وعازماً لنشر تعليمه. وقد وجد التعليم الجديد أتباعاً كثيرين بين النبلاء والإكليروس وسكان المدن والشعب البسيط. حتى أن بعض أبناء الأسرة الفرنسية المالكة صاروا من أتباع الكالفيينية. وكان من نتيجة ذلك ظهور جماعات كالفيينية منظمة على مثال جماعات «جنيف» فى كل فرنسا، وخصوصاً فى فرنسا.

وحيث أن ملوك فرنسا المعاصرين لهذه الحركة الإصلاحية (فرانسيسك الأول الذى مات سنة ١٥٤٧، وهنرى الثانى الذى مات سنة ١٥٥٩، وفرانسيسك الثانى الذى مات سنة ١٥٦٠) ظلوا أمناء لكنيسة روما؛ مارسوا ضد الكالفيينيين وسائل قمع قاسية مختلفة الأنواع (مثلاً كانوا يحكمون بمقوية الإعدام لأجل نشر أى كتاب كلفينى)، ولكن هذه الاضطهادات جعلت الكالفيينيين المضطهدين يبعثون عن سند فى جمعيتهم ذاتها، فألفوا من جماعاتهم حزباً سياسياً قوياً.

وفى سنة ١٥٦٢، فى أيام الملكة كاترينا ماديتشى، التى تولت إدارة المملكة نيابة عن ابنها القاصر كارل التاسع، قررت الحكومة الفرنسية أن تعلن حرباً علنية ضد كل الكالفينيين إجمالاً. ونتيجة لذلك؛ تسلح الهوغونوت أيضاً، ونشبت فى فرنسا حرب أهلية دينية طويلة، مصحوبة بقساوة متطرفة من قبل أتباع الكتلثة. وهى ليلة برثولوماوس الشهيرة (سنة ١٥٦٢)، ولايام التالية لها قتل الكاثوليك اللاتينيون عشرات الألوف من الهوغونوت. ولكن كل تلك المذابح الدموية لم تقن الكالفينية فى فرنسا. ولكى تعيد الحكومة الهدوء إلى البلاد؛ اضطرت - أخيراً - أن تمنح الكالفينيين الحقوق الدينية والمدنية. وهى سنة ١٥٩٨، وقبل جلوسه على العرش؛ أصدر الملك هنرى الرابع النفاى، المنسوب إلى حزب الكالفينيين، أصدر لصالحهم ما سمي بمرسوم نانت، منحهم فيه الحرية بالاعتراف بإيمانهم، وإقامة الخدمة الإلهية علناً، حتى ولو كانت فى أماكن معينة، وحق طبع كتبهم الدينية، وأن يشغلوا كل الأماكن والوظائف فى الدولة... إلخ. وفى سنة ١٦٢٩، على عهد ليودوفيك الثالث عشر تثبتت - من جديد - حقوق الكالفينيين فى فرنسا بما يسمى بالمرسوم العطوف المعطى فى نيم.

انتشار الكالفينية فى هولندا

انتقلت الأفكار الإصلاحية إلى هولندا مع تاليف «لوثر». لذلك؛ فالضارق الدينى الذى بدأ هنالك كان له - فى بادئ الأمر - شكل «لوثرى». ولكن؛ بعد ذلك، وبسبب قرب الاتصال مع سويسرا وفرنسا دخلت إلى هناك الكالفينية أيضاً، واكتسبت شعبية وغالبية هامة، وفى السنين الخمسين من القرن السادس عشر كان فى هولندا جماعات كثيرة كالفينية منظمة على مثال «جنيف». ولم يتمكن الإمبراطور كارل الخامس، الذى كان له، بصفته ملك أسبانيا، سلطان على الهولنديين أيضاً، لم يتمكن من إيقاف انتشار التعاليم الدينية الجديدة مع كل قسوته ومعاربته لها. وفكر خليفته فيليب الثانى (١٥٥٦ - ١٥٩٨) فى حفظ الهولنديين فى حظيرة الكتلثة عن طريق إقامة أسقفيات جديدة، وإدخال الحكم الإرهابى لمحاكم التفتيش. ولكن الاضطهادات الدينية

التي ابتدأت بعد ذلك، والإعدامات الكثيرة العدد، سببت الثورة في هولندا (سنة ١٥٦٦)، ولم تقد هيليب لا الإعدامات، ولا المحاكمات، ولا التعذيب الذي مارسه: لأن الهولنديين ناضلوا ببسالة (أمثال فيلفم، وموريتس أورانسك) عن حريتهم الدينية والسياسية، وانتهى النضال في سنة ١٥٨١، بانفصال سبع مقاطعات هولندية عن أسبانيا الشمالية، وافت جمهورية هولندا. وبتأليف الجمهورية؛ تثبتت فيها الكالفينية نهائياً.

انتشار الكالفينية في اسكتلندا

كانت اسكتلندا في القرن السادس عشر مملكة قائمة بذاتها، مستقلة عن إنجلترا، وكان ناشر الكالفينية فيها شخص يدعى جان نوكس John Knox وقد برز بمواعظه ضد كنيسة روما في سنة ١٥٤٧م. كان نوكس قد تعرّف - في «جنيف» - على إصلاح «كالفن»، فاعتنق أفكاره، وصار تابعاً غيوراً له. وفور عودته إلى وطنه اسكتلندا سنة ١٥٥٥، بدأ بنشر تعليمه الصارم بحماس بالغ. وتحت تأثير مواعظه الفصيحة، التي كان يهزُّ بها الجماهير الشعبية بالآيات الكتابية المخيفة، بدأ سكان اسكتلندا يطردون الكهنة، ويحرقون الأيقونات، والزينات الكنسية، وأحياناً؛ الكنائس ذاتها.. إلخ. ولم يكن في ذلك الوقت في اسكتلندا حكومة قومية تتمكن من إيقاف هذه الحركة الدينية المتشددة. كانت ملكة اسكتلندا ماريا ستيوارت، التي كانت متزوجة من ملك فرنسا فرانسيسك الثاني تعيش في فرنسا، وكانت أمها تدير اسكتلندا بصفة وصية. ولما ماتت الوصية على العرش السكوتلندي سنة ١٥٦٠، تسلّم نوكس وأشياعه السلطة بأيديهم، وجعلوا البرلمان الاسكتلندي يعلن - في تلك السنة ذاتها - إلغاء الكتلثة، وأن ينادى بالكالفينية ديانة الدولة. فأحرز - بعدها - نوكس في اسكتلندا سلطة كالتى كانت لكالفين في «جنيف»، وأصبح - نهائياً - كنيسة اسكتلندا على المبادئ الكالفينية. ولما رجعت الملكة ماريا ستيوارت إلى اسكتلندا بعد وفاة زوجها، وتسلمت السلطة بيدها، لم تتمكن من اتخاذ أى إجراءات هامة ضد إصلاح الكنيسة، على الرغم من أنها كانت كاثوليكية

متعصبة، وذلك بسبب صعوبات سياسية ودولية مختلفة. وأدار اللاهوتي «جان نوكس» نفسه، وحتى وفاته سنة ١٥٧٢، كل الأعمال الكنسية في اسكتلندا، وثبت فيها الكالفينية دائماً. ووضع نوكس - كما فعل «كالفن» - على الاسكتلنديين مشايخ Presbyters لرعاية الكنائس.

خامساً: الحركة الإصلاحية في إنجلترا وتأسيس الكنيسة الأنكليكانية

مع انتشارها السريع في أنحاء أوروبا، دخلت الأراء البروتستانتية - أيضاً - في بلاد الإنجليز. ولكن جهة الإصلاح اللاهوتية ما أشغلت العقول هناك، بل أكثر ما رغب فيه الإنجليز هو صرح النير البابوي، الذي كان مسلطاً عليهم، خاصة عند جمع الأموال الكثيرة لصالح روما. أما السبب الأقرب لبدء حركة الإصلاح في إنجلترا؛ فكانت خصومة «هنرى الثامن» ملك إنجلترا (١٥٠٩ - ١٥٤٧م) مع البابا «كليمنت السابع». فقد أراد «هنرى» أن يطلق زوجته «كاترينا أراغونا» لكى يتزوج من واحدة اسمها أنا بولين، وطلب - في سنة ١٥٢٧م - الطلاق من البابا. ولكن البابا - بتأثير إمبراطور ألمانيا «كارل الخامس» ابن أخى «كاترينا أراغونا»، بعد ماطلة طويلة - رفض طلبه. فغضب الملك الإنجليزي، وقرر - عندئذٍ - أن يمضى بدون البابا في قضية الطلاق والزواج، وليس هذا فحسب، بل قرر أن يزيل سلطة البابا تماماً عن الكنيسة الإنجليزية. وفي سنة ١٥٣٢م، وبموجب أوامر الملك؛ أصدر البرلمان الإنجليزي قانوناً بعدم علاقة بلاد الإنجليز مع البابا في الأعمال الكنسية وعن حقوق الملك العليا في الكنيسة، استناداً إلى تقليد أفرته الكنيسة قديماً، وكان متبعاً في عهد الدولة البيزنطية يعطى ملك كل بلد حق إدارة وتدبير الكنائس الواقعة ضمن حدود مملكته. وفي سنة ١٥٣٤م، أعلن هنرى نفسه - بطريقة رسمية واحتمالية - رأساً أعلى للكنيسة الإنجليزية بدل البابا، ورُحِبَ أكثرية الأساقفة والكهنة في إنجلترا بهذا الترتيب الجديد في الإدارة الكنسية، لأنه لم يتعرض للأراء العقائدية

(الكاثوليكية) بشيء، أما الذين لم يعترفوا برئاسة الملك، أو شكوا بها: فقد تعرضوا للاضطهاد والإعدام، ثم أقفل هنرى كل الأديرة فى إنجلترا (سنة ١٥٢٨)، وحوّل مقتنياتها لصالحه، ولم يعمل هذا الملك المنشق شيئاً تقريباً لأجل تعليم الإيمان، وبما أنه تتقّف ثقافة لاهوتية سكولاستيكية فقد بقى فى سائر اعتقاداته كاثوليكياً، كما كان قبل الانفصال عن البابا، بل كان يبغض البروتستانت كما ظهر ذلك جلياً فى كتاب أصدره باسمه ضد أفكار لوثر سنة ١٥٢١. ولكنّ هنرى هذا - ويتأثير من رئيس أساقفة كانتربرى توماس كرانمير ووزيره كروفيل، وكانا بروتستانتين سرّاً، ومن أقرب مستشارى الملك فى زمن اصطدامه مع البابا - قام بإصدار شيء - عبر البرلمان - يشبه إيماناً جديداً فى عشرة بنود، تكلمت هذه البنود عن ثلاثة أسرار: المعمودية، والتوبة، والمناولة، وعن التبرير بالإيمان. وأبطل تقديس الأيقونات والقديسين، وما أشبه، ولكن: ليس إبطالاً تاماً، وليس بالمفهوم البروتستانتى، فبقى الاعتراف بالاستحالة Transubstantiation فى القرى المقدس (أى التحول الحقيقى للخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه)، وبقى القول بضرورة الأعمال الصالحة لأجل التبرير (خلافاً لعقيدة لوثر القائلة بأن التبرير هبة تتم بالإيمان فقط)، وأن تبقى الأيقونات فى الكنائس... إلخ. وفى آخر أمره: نهض هنرى صريحاً ضد اللوثرية، مصدراً تعليم الإيمان فيما عرف باسم البنود الستة، مهدداً بالإعدام كل الذين ينكرون الاستحالة، أو يقولون بالسماح بالمنامولة تحت الشكلين، أو بأن الكهنة يمكنهم أن يتزوجوا... إلخ، وبسبب هذه الأوامر: تعرض كثيرون ممن اعتنقوا اللوثرية فى بريطانيا للاضطهاد الشديد..

فى عهد خليفة هنرى، الملك إدوارد السابع (١٥٤٧ - ١٥٥٢): بدأ فى إنجلترا الإصلاح وتعليم الإيمان، ومثله الخدمة الإلهية، ولكن: ليس بذاك الشكل الحاد الذى حدث فى ألمانيا أو سويسرا، وبما أن إدوارد كان حديث اسن، فلم يستطع أن يشترك فى الإصلاح، فكان البرلمان يدير (الإصلاح)، أو الأصح كان يديره أوصياء المملكة، الذين كان بينهم كاثوليكيون ومنتحزون للوثرية؛ مثل

رئيس أساقفة كرانمير، فالغيت - قبل كل شيء - بنود «هنرى الثامن» الستة، وسمح بالمناولة تحت الشكلين^(١)، وسمح بزواج الكهنة، وسمح للجميع بقراءة الكتاب المقدس المترجم إلى اللغة الإنجليزية في أيام هنرى، وما أشبه.

ثم بعد مذكرات ومدارس طويلة للاهوتيين الإنجليز وبعض اللاهوتيين القادمين من النمسا صدر كتاب الصلوات العامة Book of Common Prayer الذى تم تعميمه على كل كنائس إنجلترا؛ ليكون كتاب العبادة الموحد الإلزامى، وتبعه كتاب الطقوس سنة (١٥٤٩)، الذى كان التأثير البروتستانتى فيه أكثر وضوحاً، وأخيراً؛ تم إصدار بيان العقيدة فى «٤٢ بنوداً» كتحديد وبيان للإيمان الأنكليكانى (سنة ١٥٥١).

لم يكن كل من كتاب الصلوات العامة أو بنود العقيدة الـ ٤٢ كاثوليكية ولا لوثرية، بل كان فيهما مزيج خاص من هذا وذاك، ليُرضى أتباع كلا المذهبين، فقيل - بشأن الكتاب المقدس: إنه المصدر الأول لتعليم الإيمان، ولكن؛ ثم النص على احترام التقليد أيضاً، وكانت العبارات بشأن التبرير هل هو بمجرد الإيمان أم لا بد فيه من العمل، حمالة وجوه، حتى يمكن قبولها بالمعنى الكاثوليكي والمعنى البروتستانتى، وقد أبقي من الأسرار الكنسية على ثلاثة أسرار فحسب: هى: المعمودية، والتوبة، والمناولة، وتم الاعتراف أن فى سر الشكر (العشاء السرى؛ أى الأفخارستيا) حضور حقيقى لجسد المسيح ودمه. وألفى - بوضوح ونصراً قاطع - تقديس الأيقونات، ورفات القديسين، واستدعائهم فى العبادات، كما ألقى - بكل وضوح وصراحة - ببع الفخرانات، وعقيدة المطهر، والصلاة لأجل الأموات، وتركت الرئاسة غير ملموسة، وبهذا الإصلاح؛ تم تحديد معالم الكنيسة الأنكليكانية الأسقفية Anglican Episcopal Church، التى كانت نوعاً من التوسط بين الكاثوليكية والبروتستانتيّة، وصار أسقف كاتدرائية كانتربورى Canterbury Cathedral فى إنجلترا يُمثل أعلى سلطة روحية فيها (تقع

(١) أى مناولة المصلين فى القداس (العشاء السرى) خبز الفطير والخمر. وعدم الاقتصار على مناولة خبز الفطير فقط، كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية.

الكاتدرائية في مدينة كانتربروري الصغيرة حوالي ٧٥ كم جنوب شرق لندن).

وبعد موت إدوار السادس (سنة ١٥٥٣)، اعتلت العرش أخته ماريا ابنة هنري الثامن، وماريا أراغون كاثوليكية في الصميم، لذلك أقامت الكتلثة، وعرضت أتباع البروتستانتية للاضطهاد القاسي؛ وتمَّ إحراق الأسقف كرانمير عى الحطب، ولكن؛ عندما اعتلت العرش (١٥٥٨) ابنة هنري الأخرى من أنابولين إليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) التي كانت قد تربت في البروتستانتية؛ تعرّضت الكتلثة للاضطهاد، وأقيم مذهب مختلط، وتم قبول كل شيء كانت قد ثبته فزارات البرلمان (سنة ١٥٥٩)؛ خاصة رئاسة العظمة الملوكية على الكنيسة الإنجليزية، وتمَّ إعادة وإحياء كل الأوامر بشأن الكنيسة الصادرة في أيام إدوار السادس، ثم لأجل اتفاق الكاثوليك مع البروتستانت؛ بُدئ بإعادة النظر في بنود اعتراف الإيمان الأنكليكاني الـ٤٢، وتألّف منها إيمان جديد في ٣٩ بنداً، ولكن؛ لم يحدث تغيير كبير في البنود الـ٤٢، بل كلُّ ما حصل أنه لأجل إرضاء الاتجاه الكاثوليكي والبروتستانتى في الـ٣٩ بنداً، صقلت - أكثر فقط - خاصيات هذا وذلك، وظهر تعليم الإيمان مزيجاً غير محدد من الكتلثة والبروتستانتية كما كان في الـ٤٢ بنداً، وفي سنة ١٥٦٢، تثبت الـ٣٩ بنداً في البرلمان الروحي (السينود)، وجعلت دستور إيمان واجباً على الجميع، وعلى هذه الصورة تشكلت الكنيسة الأنكليكانية الأسقفية - نهائياً - على عهد إليزابيث مع مزيج من تعليم الإيمان، وصارت كنيسة عالمية.

ولكن المتطرفين من أتباع الكاثوليكية والبروتستانتية لم يعترفوا بهذه الكنيسة الجديدة، رغم كل الإجراءات الصارمة التي اتخذتها إليزابيث لنشرها بالقوة. فبقيت الكاثوليكية بنوع خاص في إيرلندا، أما أتباع البروتستانتية - الذين تأثروا لحد كبير بالأفكار الإصلاحية الأكثر جذرية، والتي قدمت إلى إنجلترا من ألمانيا وسويسرا وغيرها؛ فقد شكلوا جمعيات دينية بروتستانتية خاصة؛ كان أهمها الكنائس المشيخانية Presbyterian والتطهرية Prutians والمستقلة Independent.

سادساً: تواصل كفاح الإصلاحيين فى ألمانيا وحرب الثلاثين عاماً حتى صلح ويستفاليا (سنة ١٦٤٩) The Peace of Westphalia

كان عمل الإصلاح فى ألمانيا حتى سنة ١٥٢٦، لا يزال قائماً على اكتاف لاهوتى جنوب ألمانيا (النمسا الشائرين) ضد الكنيسة الرومانية. ومنذ ذلك العام؛ بدأ ينتقل إلى أيدي الأمراء الألمان.

لقد جذبت الأملاك الكنسية البابوية الفنية فى ألمانيا الأمراء الألمان إلى الإصلاح، هذا بالإضافة إلى رغبتهم بإقامة أنظمة كنسية جديدة فى الكنائس الداخلة تحت حوزتهم، ورغبتهم - كذلك - فى حصر السلطة الكنسية العليا فى أيديهم. ولذلك فقد كان الإصلاح - بالنسبة إليهم - ليس مجرد عمل دينى كنسى فحسب، بل - أيضاً - مصلحة دنيوية ووطنية. ولهذا؛ عندما أخذ الأمراء الألمان عملية الإصلاح على عاتقهم بذلوا كل جهدهم ليسيروا بها نحو النهاية.

فى سنة ١٥٢٦م، وبسبب ما ظهر من سعى مبعوثى البابا فى سويسرا وألمانيا الجنوبية لخلق الحركة الإصلاحية، عقد كورفيرست السكسونى، ويوحنا الدائم (خليفة فريديريك الحكيم)، ولندغراف غيسن فيليب تحالفاً فيما بينهم فى «تورغاو» للدفاع عن الإصلاح، وقد انضم إلى التحالف - بالتدريج - أمراء آخرون من ألمانيا الشمالية وبعض المدن الحرة، وابتدأ عمل المتحالفين لصالح الإصلاح فى تلك السنة ١٥٢٦م. وفى الاجتماع الملكى فى شبينر اغتتم المجتمعون غياب الإمبراطور، وكذلك ما حصل بينه وبين الباب من اختلاف، وتمكنوا من وضع قرار هؤوضوا - بموجبه - لكل الطبقات أن تعمل فى أمر الديانة، كما تطلب المسئولية أمام الله والإمبراطور. وبهذا القرار حصل الاعتراف - ضمناً - بقانون الإصلاح. وبالاستناد إلى ذلك؛ ابتدأ الأمراء الألمان وإدارات المدن الحرة المؤيدة للإصلاح بإقامة أعمال كنسية فى أملاكهم على مبادئ اللوثرية، حيث بدأ التنظيم الكنسى اللوثرى فى سكسونيا أولاً، ثم

انتشرت إقامته فى الأماكن الأخرى.

ونظم الإصلاحى فيليب ميلانختون Philip Melanchthon . بتعليماته رقابةً بواسطة مديرين على الجماعات اللوثرية، لأجل تقصد الكنائس، وأما مارتن لوثر؛ فقد نشر تعليماً مسيحياً مطولاً ومختصراً؛ ليستخدمه عامة الشعب.

منذ زمن اجتماع شبير سنة ١٥٢٦م، تميز - بوضوح، بين ملاكى ألمانيا - حزبان: كاثوليكي وإصلاحى، ولكنَّ الإمبراطور كارل الخامس لم يرد الانقسام الدينى لمصالح سياسية، فانتسب إلى الحزب الكاثوليكي، وأصبح الاصطدام بين الحزبين لا مفرُّ منه، ورغبةً منه فى عدم حصول نزاع وانقسام الدينى وسط شعبه، سمى الإمبراطور لحل هذا الخلاف وتقريب وجهات النظر بالطرق السلمية، ولكن؛ رغم ذلك شاب النزاع بين الفريقين فى كثير من الأحيان أعمال عنف وعدوان.

وكانت أهم معطيات هذا النزاع ما يأتى:

فى اجتماع شبير سنة ١٥٢٦م، عرض الإمبراطور الألمانى - الذى كان قد عقد هدنة مع الفرنسيين وصلحاً مع البابا - تنفيذ مقررات اجتماع فورمسك سنة ١٥٢١م، بشأن طرد مارتن لوثر، وإلغاء قرارات اجتماع شبير سنة ١٥٢٦م الإصلاحية. فكانت أكثر الأصوات مؤيدة للحزب الكاثوليكي، لذلك تم قبول عرض الإمبراطور. ولكن أتباع الإصلاح قدموا ضد هذا اعتراضاً أو بروتستاً Protest أعلنوا به مبداً جديداً يقول بأنه فى الأمور الدينية، يختص التقرير بضمير كل شخص، وليس بأكثرية الأصوات. ومنذ ذلك الوقت؛ صار يُدعى كل المنضمين إلى حزب الإصلاح بروتستانت: أى المحتجون أو المعارضون.

قدم الأمراء البروتستانت. فى اجتماع أوغسبورغ Augsburg سنة ١٥٣٠م، وبموافقة الإمبراطور الذى حضر هناك شخصياً - اعتراف إيمانهم الذى ألفه ميلانختون Melanchthon، كبيان مدلل لبنود العقيدة والمبادئ اللوثرية، والذى صار معروفاً - فيما بعد - باسم اعتراف أوغسبورغ Augsburg Confession .

قدم الأمراء البروتستانت - في اجتماع أوغسبورغ Augsburg سنة ١٥٣٠م، وبموافقة الإمبراطور الذي حضر هناك شخصياً - اعتراف إيمانهم الذي ألفه ميلانختون Melancthon، كبيان مدلل لبنود العقيدة والمبادئ اللوثرية، والذي صار معروفاً - فيما بعد - باسم اعتراف أوغسبورغ Augsburg Confession .

لقد وضعت الفقرات الإحدى والعشرون الأولى لهذا الاعتراف الأصلي - غير المعدل - الإطار الكلي للعقيدة اللوثرية، والذي تم السمو من خلاله لإثبات أن اللوثرين لم ينشقوا عن الإيمان الكاثوليكي الأصلي في أي شيء. أما الفقرات السبع الباقية؛ فقد ناقشت المفسد وإساءة الاستعمال التي انتشرت في الكنيسة الغربية الكاثوليكية في الفترة التي سبقت بروز الحركات الإصلاحية مباشرة، والتي كان أهمها: المناولة في العشاء السري؛ أي الأفخارستيا Communion تحت شكل واحد (أي الاكتفاء بأن يتناول المشاركون الخبز فقط، دون الخمر)، وإلزام العزوبية على جميع أعضاء السلك الكهنوتي، وإجراء القداس كأضحية مقدمة على سبيل التكفير، والاعتراف الإلزامي، وجعل مؤسسات إنسانية دنيوية مستحقة لحصول الرحمة والنعمة الإلهية، وعدم رعاية آداب الرهبنة، ووقوع انحرافات ومفسد فيها، والتوسع في سلطة بعض أساقفة الكنيسة إلى حد التدخل ويسط السلطان في أمور دنيوية وسياسية محضة .

لكن اللاهوتيون الكاثوليك قدموا دحضهم لهذا الاعتراف فيما عرف باسم «الدحض» Confutation، فوافق الإمبراطور على الدحض، ثم ثبت تنفيذ مقررات فورمسك سنة ١٥٢١م، ومنع البروتستانت من نشر تعليمهم؛ انتظاراً للمجمع الكنسي البابوي المزمع عقده .

لكن المجمع - الذي ألح الإمبراطور على التأمه - لم يحصل بسبب عدم رغبة البابا كليمنت السابع (١٥٢٣ - ١٥٣٤) في دعوته. وفي هذا الوقت في سنة ١٥٣١م، عقد البروتستانت حلفاً جيداً في شمال كالدنسك لأجل الدفاع عن الإصلاح بقوة السلاح.

فاضطر الإمبراطور - الذى لم يكن ينتظر مثل هذا الانقلاب فى القضية، ولم يكن على استعداد للحرب - أن يدخل فى اتفاق مع البروتستانت. وفى سنة ١٥٢٢م فى نيورنبرغ، عقد معهم صلحاً التزم - بموجبه - الحزبان البروتستانتي والكاثوليكي على أنفسهم أن لا يضايق أحدهما الآخر بقضايا الإيمان حتى انعقاد المجمع العام أو قرارات اجتماع آخر. ودعى هذا أول صلح دینی.

مع هذا؛ لم تؤد اتفاقية نيورنبرغ إلى مصالحة واقعية بين الحزبين المتعادين، فالملاقات المتوترة بين الكاثوليك والبروتستانت بقيت قائمة. ولم ينجح الإمبراطور فى قيادتهم إلى الاتفاق عبر الاجتماعات الدينية والمجمع الذى عقد - أخيراً - فى تریدنت سنة ١٥٤٥م. وفى الوقت ذاته؛ كانت اللوثرية تنتشر أكثر، فأكثر، وصار الأمراء البروتستانت يشكلون قوة خشي الإمبراطور جانبها. لذلك قرر كارل الخامس أن يحطم قوتهم. وفى سنة ١٥٤٧م، دحرهم بقساوة فى حرب شمالالدينسك. ولم يدرك لوثر تلك الحرب الأهلية؛ إذ اخترم قبلها فى سنة ١٥٤٦م. وبعدها اضعف الإمبراطور البروتستانت عمل على اتحادهم مع الكاثوليك. ولهذه الغاية - وبتفويض منه - تم تنظيم دستور إيمان فى سنة ١٥٤٨م، عرف باسم «أوغسبورغ اينتيريم» Argsburg Interim كان فى الواقع نصاً توفيقياً ألزم الكاثوليك والبروتستانت بقبوله، ولكن دستور الإيمان هذا أهاج عدم الرضا فى صفوف الحزبين؛ فالكاثوليك أصروا على رجوع البروتستانت إلى الكتلكة، بدون شروط، والبروتستانت رأوا فيه خسارة لمقائدهم. فشرع الإمبراطور باضطهاد البروتستانت؛ ليجبرهم على قبول «الاینتيريم». وبقيت الأحوال هكذا حتى سنة ١٥٥٢م، عندما تقوى البروتستانت من جديد. فى هذا الوقت؛ انحاز إلى جهتهم الأمير السكسونى موريتس، والذى كان متمسكاً باللوثرية، على الرغم من بقائه - حتى ذلك الوقت - إلى جانب الإمبراطور. فأعلن موريتس على رأس أمراء آخرين من البروتستانت الحرب على الإمبراطور، وأجبره على عقد اتفاق موافق للبروتستانت فى باساى سنة ١٥٥٢م، وعلى أساسه تبع قرار سنة ١٥٥٥م المعروف باسم صلح أوغسبورغ

الدينى. وبهذا الصلح؛ أعطيت الحرية للبروتستانت فى قضايا الإيمان ولكن: مع اشتراط أن يبقى حق تفيير الإيمان - فى المستقبل - بيد الأمراء فقط، وليس بيد الخاضعين لهم.

ولكن؛ رغم صلح أوغسبورغ الدينى بقيت العلاقات العدائية بين الكاثوليك والبروتستانت على حالها، ولعب اليسوعيون (الجزويت) - الذين برزوا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر للميلاد وبدء السابع عشر، بدأت تتصاعد الأعمال العدائية بين الكاثوليك والبروتستانت فى بعض أنحاء ألمانيا. وفى سنة ١٦٠٨، عقد أمراء البروتستانت - فيما بينهم - ما يسمى بالاتحاد البروتستانى Protestant Union، أما الكاثوليكون؛ فقد شكلوا فى سنة ١٦٠٩ الجامعة الكاثوليكية Catholie League، ولم يعد - هناك - مفرٌ من وقوع الاصطدامات الدموية بين الفريقين. وسرعان ما توفر السبب لوقوعها. انتزع الإمبراطور الألمانى فريديريك الثانى، ومعه ملك بوهيميا، تلميذ الجزويت، من البروتستانت كنيستين فى بوهيميا سنة ١٦١٨م، فثار البوهيميون، وقاموا بأعمال شغب، وانتخبوا لنفسهم ملكاً آخر. ووضع هذا الحادث بدايةً للحرب المعروفة فى التاريخ باسم حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨م)، التى انقسمت ألمانيا فيها إلى نصفين: شمالي بروتستانتى، وجنوبى كاثوليكي. فالكاثوليك داهموا - بضراوة - عن عقيدتهم الدينية، وحارب البروتستانت - أيضاً - لأجل عقيدتهم بضراوة لا تقل عنهم، مصرين على حقهم الكامل فى حرية الإيمان. وكانت الأرجحية فى هذا النضال، الذى اشترك فيه الملوك الأجانب أيضاً مثل ملك السويد غوستاف أودولف الذى برز للدفاع عن البروتستانت، كانت الأرجحية - أحياناً - إلى هذه الجهة، وأخرى إلى تلك. ثم أدى استنزاف قوى جميع الممالك الألمانية إلى إنهاء الحرب عام ١٦٤٨م. وفى تلك السنة عقد جميع المشتركين فيها ما يسمى صلح ويستفاليا The Peace of Westphalia (سنة ١٦٤٨)، تم - بموجبه - إقرار مساواة حقوق جميع البروتستانت مع الكاثوليك.

انتشار اللوثرية فى مناطق أخرى من أوروبا

فى نفس الوقت الذى ظهرت وانتشرت فيه اللوثرية فى ألمانيا، بدأت تنتشر - أيضاً - فى جهات أخرى من أوروبا، فحيثما كانت تنتشر تأليفات مارتن لوثر كانت تحدث سعيًا للتحرر من نير روما. وكان أول ناشرى اللوثرية هم الملوك أنفسهم كما حدث فى ألمانيا. وعلى هذه الصورة: انتشرت اللوثرية، وتمكنت فى بلاد السويد، والدنمارك، والنرويج، وروسيا (بولونيا الحالية)، وليثوانيا، وأستونيا، وكورليانديا.

ابتدأت الحركة لصالح الإصلاح فى السويد سنة ١٥١٩م، للسبب ذاته الذى انتشرت فيه فى ألمانيا؛ وهو المتاجرة بصكوك الغفران. وقد نشر اللوثرية هناك شقيقان: أولاف، ولورينتس بترسون Olaus and Laurentius Petri. فمال غوستاف الأول فاذا (١٥٢٣ - ١٥٦٠) Gustav I Vasa أول ملك من ملوك السويد المستقلة - بعد انفصال السويد عن الاتحاد الإسكندنافى الذى كان يضمها إلى الدانمارك والنرويج، بعد انتخابه حالاً - إلى جهة الإصلاح وبكل حزم، وصار محامياً عن الأخوين بترسون. وفى سنة ١٥٢٤م، أقام فى أوبسال مناظرةً دينيةً بين واعظى اللوثرية ولاهوتى اللاتينية. وكان الانتصار فى المحاورة - حسب رأى الملك ووجهاء السويد - من نصيب ممثل اللوثرية أولاف بترسون. بعد هذا؛ سارت اللوثرية فى السويد بخطى سريعة: أقفلت الأديرة، وتحولت أموالها ملكاً للملك، وأخذ الكهنة يتزوجون، وما أشبه. وصار الاعتراف - نهائياً - باللوثرية ديانة رسمية ملكية فى مملكة السويد فى اجتماع فيستيراس فى سنة ١٥٢٧، وبعده؛ أدخل عليها تنظيم كنسى مع تلك الخاصة بأن السويد حفظوا عندهم الأسقفية، وإن لم يكن لها سلطة وأهمية متجانسة معها. وكانت قد تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية فى سنة ١٥٢٦م، ومن السويد انتشرت اللوثرية فى فينلندا التابعة لها فى ذلك الوقت.

ودخلت اللوثرية - أيضاً - فى الدانمرك فى وقت مبكر جداً. فقد كان ملك

الدانمركي كريستيان الثاني - الذي دخل الإصلاح في أيامه إلى ألمانيا -
يتردد بين اللوثرية والكنثكة، لكن الملك فريديريك الأول الذي جاء بعده، وقف -
بحزم - إلى جهة الإصلاح في اجتماع سنة ١٥٢٧، ووضع قراراً ساوى - بموجبه
- بين البروتستانت والكاثوليك - وفي أيامه؛ تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى
اللغة الدانمركية.

وأخيراً؛ جعل كريستيان الثالث خليفةً فريديريك اللوثرية مذهباً رسمياً
سائداً في الدانمرك. وسجن في سنة ١٥٣٦م، كل أساقفة الدانمرك المعارضين
للإصلاح، وحجز على أموال الكنائس، وأدخل تنظيماً كنسياً لوثرياً بمساعدة
اللاهوتي اللوثرى يوحنا يوغينسفاغين المعروف باسم بوميران. وحفظت
الأسقفية في الدانمرك، كما حفظت في السويد. وبما أن ملك الدانمرك كان -
في الوقت ذاته - ملكاً على النرويج، صارت اللوثرية هي المذهب الرسمي
السائد في النرويج أيضاً.

وقد ملك بروسيا (بولونيا الحالية) في القرن السادس عشر جماعة
الرهبان أو الفرسان التيوتونيون. فلما اعتنق رئيس الجماعة البرخت أنسباخ
اللوثرية في سنة ١٥٢٥، حوّل أملاك الجماعة إلى دوقية، وأدخل التنظيم
الكنسي اللوثرى. وحصل من أمراء ليتوانيا وأستونيا وما جاورهما نحو ذلك؛
حيث انتشرت اللوثرية هنالك منذ سنة ١٥٢٣، إلى أن توطدت - نهائياً - في
سنة ١٥٦١م.

كما دخلت اللوثرية في مناطق كثيرة من بوهيميا (تشيكيا)، وسلوفاكيا،
وبولونيا، وغيرها، ولكنها لم تتمكن أن تصير هناك مذهباً سائداً.

سابعاً: الفرق والحركات التي انشقت عن البروتستانتية قبل صلح «ويستفاليا»

بتوطيدها لحرية العقل في قضية الإيمان، ودعوتها إلى إعادة قراءة الكتاب المقدس، والاقتصار عليه - فقط - في أخذ العقيدة، ورفض التقيد بالتقليد المسيحي الذي أنبنى في الكنيسة عبر القرون، فتحت الحركة الإصلاحية البروتستانتية - ربما دون أن ترغب بذلك - الباب أمام الكثيرين ليعيدوا النظر في الضم الكنسي التقليدي الموروث للكتاب المقدس، ويراجعوا كل التراث المسيحي التقليدي بأسره، الأمر الذي أدى إلى نشأة مجموعة من الحركات والمذاهب المسيحية الجديدة، الراديكالية في إصلاحاتها، والتي ابتعدت عن مسيحية الكنيسة التقليدية، وحاولت العودة لجذور رسالة المسيح الأصلية أكثر بكثير مما فعلته اللوثرية أو الإصلاح. وشكّل أتباع مثل هذا الاتجاه - الذين نشئوا على تربة بروتستانتية، رغم أن البروتستانتية لا تقرهم - ما سُمى بالشيع والفرق البروتستانتية، كان أشهرها - في عصر الحركات الإصلاحية في الغرب - فرقة الأنابابتيست Anabaptists، أو القائلون بتجديد العماد، أو إعادة المعمودية، وفرقة المينونيون Mennonites أتباع الكاهن الهولاندي «سيمونس مينو»، وفرقة السوسيانيون Socianism، أو التوحيديون الراضون للتثليث أتباع اللاهوتيين الإيطاليين «لييو سوزيني»، وابن أخيه الطبيب «فاوستو سوزيني»، وفرقة الأرمينيانيون Arminianism أتباع اللاهوتي الهولاندي «يعقوب الأرميني».

١- فرقة «الأنابابتيست» أو القائلون بتجديد المعمودية

تسمّوا هكذا من إعادتهم معمودية كل الداخلين في جماعتهم. ويمثلون تياراً بروتستانتياً أكثر راديكالية ويسارياً الاتجاه، ويتلخص تعليمهم بأنهم توسعوا أكثر في المبادئ البروتستانتية حول الاتصال الشخصي بالله دون الحاجة لوساطة الكنيسة والإكليروس، فأكدوا بأن الله يمش ويعمل في

داخل كل مؤمن، يقده ويقيده جميع أفكاره وشعوره ومطالبه وتصرفاته. وأنهم - كمقدسين ومقادين بروح الله - يعدون أنفسهم قديسين، وجمعيتهم كنيسة القديسين، ولأجل الدخول فيها يطلب إعادة المعمودية. وباسم هذه القداسة والقيادة بروح الله رفضوا كل القوانين الموجودة والأنظمة والترتيبات الكنسية والمدنية، معتبرين إياها ضغطاً على حرية الروح العامل فيهم. وقد اشتهر «القائلون بتجديد العماد» بالسعى لهدم كل السلطات الموجودة؛ سواء الكنيسة أو المدنية، ليؤسسوا على أنقاضها مجتمعاً جديداً - كنيسة القديسين - يقوم على مبادئ الحرية، والمساواة، والاشتراك العام بالأموال، وما أشبه. فهذا كان جوهر حركتهم وفكرتهم.

كان أول انطلاق للحركة التي سميت بحركة القائلين بتجديد المعمودية An-abaptists في زوريخ في سويسرا العام 1520م، عندما أخذ الواعظ الكنسي «توماس مونترز» Thomas Munzer يدعو سامعيه لطرح كل الأنظمة الحكومية الظالمة الموجودة، ورفض القتال في جيوشها، وبناء نظام مسيحي عادل جديد. وأخذ يطوف ألمانيا للغايات الثورية ذاتها، وكان معه - في هذا المسعى الثوري - كل من نيقولا شتورخ، رجلٌ بسيطٌ صاحب معمل، ومارك شتينيير الذي كان طالباً في جامعة فيتنبرغ. على أثر مواعظه تلك، طُرد «مونترز» من زوريخ عام 1521، لكن أتباعه بقوا فيها، وتابعوا تنظيم بناء جماعتهم، وانتقلوا - بسرعة - من الكلام إلى العمل، مثيرين شغباً ضد السلطات المدنية، فالتقى القبض على بعضهم، وأودعوا السجون، واضطر الآخرون للهرب والاختفاء. وذهب «شتورخ شتينيير» وغيره من الدعاة من زوريخ إلى فيتنبرغ آمليين أن يجدوا عند المصلحين الألمان موافقة على خُطتهم بشأن تنظيم المجتمع الجديد. ولكنهم لم يحظوا بقبول أفكارهم، بل طردوا من هنالك أيضاً (سنة 1522).

لكن أفكارهم وحركتهم ظلت تنتشر، وتجد لها أتباعاً في سويسرا، وألمانيا، والنمسا، وهولندا؛ حيث ظهر في هذه البلدان عدة زعماء دينيين وصلوا منهج نقد الكنيسة وتصرفاتها السلطوية الاجتماعية، والمناداة بإزالتها، وكان من جملة

ما نادوا به أن الإنجيل لم ينص على معمودية الأطفال، بل إن تعليمه ينفي فائدة مثل هذه المعمودية، التي لا يعقل الطفل منها شيئاً. وكذلك لم ينص الإنجيل على ممارسة القداس Mass (أى مناولة الناس للعشاء السرى فى الكنيسة)، ومن أشهر من نادوا بهذا الاتجاه كونراد غروبييل Konrad Grebel السويسرى المولود فى زوريخ، وفيليكس مانترز Munzer، وسيمون ستامف، وجورج بلوروك، وبلتازار هبماير Balthasar Hubmaier الألمانى، وكانوا جميعاً ممن اعتنق فى البداية المبادئ البروتستانتية.

والحقيقة أن هدف هذه الحركة كان السعى إلى إصلاح كنيسة المسيح ومجتمع المسيحيين، والرجوع بهم إلى المسيحية الروحية الأساسية الصحيحة، وقد رأوا أن من مستلزمات هذا الأمر رفض معمودية الأطفال التى تخلق كنيسة عديدة. لذلك كانت هذه الفرقة تدعو إلى إعادة معمودية الناضجين، وقبول انتسابهم الحرّ إلى الكنيسة.

وبسبب رفضهم للنظام الهرمى لرجال الدين، ورفضهم لتدخل المؤسسات الحكومية المدنية فى الأمور الدينية الخاصة، ورفض خدمة الحكومات وسلطاتها، فقد اتهموا بالمصيان، والخروج على الحكم، وتعرضت حركتهم للاضطهاد العنيف، حتى من باقى الإصلاحيين، فمات غروبييل فى السجن، وقضى بلوروك ومانترز غرقاً... وتمَّ سنُّ قانون يحكم بالإعدام على كل من يثبت عليه أنه قام بتجديد معموديته، وأدت هذه الاضطهادات إلى خلق تيار ثورى متشدد قام بثورات عديدة، أبرزها «ثورة الفلاحين» فى ألمانيا بقيادة «توماس مونترز» Munzer Thomas؛ حيث كان «مونترز» هذا يطوف ألمانيا ساعياً فى نشر أفكاره الثورية والإصلاحية الجذرية فى أوساط الناس؛ لاسيما طبقات المحرومين والفلاحين من أبناء الشعب.. مما حرك الكثير من الفلاحين فى ألمانيا للثورة على الملاكين والسلطات. وهكذا؛ فقد أخذ «مونترز» على عاتقه دور المصلح الكئسى والمدنى فى آن معاً، وصار على رأس الثائرين (ثورة الفلاحين)، ولكن جنود الأمراء والمالكيين تمكّنوا من دحره فى إحدى المعارك، وقبضوا عليه،

وأعدموه بقطع رأسه سنة ١٥٢٥م. وتبع هذا، بدء اضطهاد عنيف في ألمانيا لأتباع هذه الحركة الدينية التي نبزوها بلقب الأنابابتيست، التي معناها الحرفي «رافضوا العماد»، مع أنهم يرفضون عماد الأطفال؛ ليس رفضاً لأساس المعمودية، وإنما لأنهم يرون عماد الطفل عملاً عبثياً؛ لأن العماد يكون للناضج الواعي عن اختيار ورغبة، وقد شارك كل من الكاثوليك والبروتستانت معاً في اضطهاد أتباع هذه الفرقة، وحرقتهم، وإعدامهم بلا رحمة، لكن كل تلك الاضطهادات لم تمح الأنابابتيست، وظلوا ينتشرون في سويسرا، وألمانيا، وهولندا، وكانوا إلهاماً لنشأة فرقة المعمدانيين فيما بعد، والتي لا تزال من أكبر الفرق المنبثقة عن البروتستانتية، والباقية إلى اليوم (سنتحدث عنها لاحقاً).

٢ - فرقة الأنابابتيست المينونيون

انبثقت الفرقة المينونية أو الكنيسة المينونية Menonits عن حركة تجديد المعمودية (الأنابابتيست) في القرن السادس عشر، بل يعتبرها كثيرون فرعاً من فروع (الأنابابتيست). فبالتزامن مع بدء ضعف أتباع الأنابابتيست، قام الكاهن الهولاندي «سيمونس مينو» Simons Menno (١٤٩٢ . ١٥٥٩) بإحياء فكرها من جديد فيما عرف باسم الفرقة المينونية؛ نسبة لاسم مؤسسها. كان «سيمون مينو» - في بداية أمره - كاهناً كاثوليكياً من هولندا، دخل سنة ١٥٣٦، في صفوف «حركة إعادة أو تجديد المعمودية» Anabaptists، ثم قام بتجديد تلك الفرقة، وإعادة بنائها على قواعد أخلاقية صارمة، ونجح في الصمود مع مجموعته في وجه الاضطهادات، وأقام نظاماً كنسياً شديداً محدد التعاليم الدينية، وبفضل نشاطه الذي لم يعرف الكلل لمدة خمسة وعشرين عاماً؛ تمكن من تنظيم الأنابابتيست المشتتين في جمعيات منظمة، وحولهم من ثوار أشداء عنيفين هدامين إلى أناس سلاميين، محبين للعمل، متمسكين بأهداب الأخلاق والسلام، نبراسهم في ذلك خطبة موعظة الجبل المعروفة للسيد المسيح.

ولكونهم من الأنابابتيست؛ فقد رفضوا المعمودية الأطفال، وبقوا يؤمنون

بنفس مبدأ الإيمان والأمل بأنهم جمعية القديسين، فاستمرت الكنيسة المينونية تؤكد بأن المعمودية لا تنفع الأطفال غير العاقلين، بل يستحق هذا السر الناضجون الواعون فقط، بل يجوز أن تمنح المعمودية للأطفال، حتى في خطر الموت، لأنهم يخلصون بدونه. وتحتمل الكنيسة بالعماء السرى ثلاث مرات في السنة فقط، وترى فيه معنى تذكيرياً فحسب. أما موضوع رفض الأنظم القائمة، الذي كان قد اعتمد لدى «الأنابابتيست» الأوائل أسلوب الهدم والثورة؛ فقد انعكس - بعد تجديد وإحياء الفرقة على يدى الكاهن «سيمون مينو» - بشكل آخر: وهو الاعتماد عن خدمة الدولة في كل شكل من أشكال العنف، مما يستتبع وجوب الامتناع عن الجندية والخدمة العسكرية، وكذلك الاعتماد عن الخصومة وأداء القسم في المحاكم، وبالإجمال؛ العيش في حياة سلمية Pacific محضة، وبالتالي؛ مقفلة ومنحصرة في جمعيتهم.

وكان المينونيون أول من طالب بفكرة فصل الدين عن الدولة في الغرب، كما كانوا ممن رفض - بشدة - نظام العبودية وتجارة العبيد الظالمة التي ازدهرت في ذلك العصر، على عكس بعض الكنائس الرسمية والحكومية (الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الأنجليكانية) التي لم تحارب ذلك العمل البربري اللاإنساني، بل ربما باركته، وتعاونت معه؛ بحجة إنقاذ العبيد من الكفر، وإدخالهم في نعيم المسيحية! وكانوا يرفضون ويدينون - تماماً - كل الاستخدامات المسيحية والكنيسة للسياف والعنف تحت ذريعة «الحرب العادلة»، أو لنشر المسيحية (كمحاربة وقتل الهراطقة، أو حروب قمع الإصلاحيين، أو الحروب الصليبية، وغيرها).

وقد اعتمد تنظيم المينونيين الكتسى على مبدأ أن تكون كل كنيسة محلية مستقلة عن غيرها؛ يُديرها شخص أو أشخاص عديدون تختارهم الجماعة المحلية.

ولا يزال المينونيون يجتمعون حتى الوقت الحاضر - بنوع خاص - في هولندا، منذ أن منحوا في سنة ١٥٨١، حرية ممارسة عباداتهم. وتوجد جماعات المينونيت - أيضاً - في روسيا، وفي القارة الأمريكية؛ حيث يصل عدد

اتباعها حوالى الـ ٤٠٠ ألف، منهم ٢٠٠ ألف فى أمريكا الشمالية، وكانوا هم والأناباطيست الأصليين سلف الكنائس المعمدانية ذات الدور والأهمية البالغة فى أمريكا.

٢- الحركة السوسيانية أو «فرقة التوحيديين»

يعود اسم هذه الفرقة إلى لاهوتيين من عائلة إيطالية واحدة تدعى عائلة سوسينى، أو سوزينى Sozzini or Sozini هما القاضى (ليليو سوزين) Lelio Sozzini (١٥٢٦ - ١٥٦٢) وابن أخيه الطبيب «فاوستو سوزين» (١٥٣٩ - ١٦٠٤).

أهم ما ميز هذه الحركة هى إحيائها لعقيدة كانت الكنيسة قد اعتبرتها - منذ القديم هرطقة، وهى عقيدة وحدانية الأب فى ذاته، وأقنومه، وشخصه، ونفى إلهية المسيح، وبنوته الحقيقية لله، المستتعبة لأزليته، ومساواته لله فى الجوهر، والقول ببنوة تشريفية، أو بالتبنى، ونفى إلهية الروح القدس كأقنوم منفصل لله، وبالنتيجة؛ نفى عقيدة التثليث تماماً، ولهذا؛ سُمى أتباع السوسيانية «المخالفون (أو المضادون) للتثليث» Anti - Trinitarians.

وهى الحقيقة؛ يعتبر الطبيب واللاهوتى المحقق الأسباني ميخائيل سيرفيتوس Michael Servetus (١١٥١ - ١٥٥٣) الإرهاصة الأولى لهذه الحركة المضادة للتثليث، والتي اشتهرت - فيما بعد - باسم السوسيانية؛ حيث كان أول من أعطى - بأبحاثه الجريئة؛ مثل كتابه «حول أخطاء التثليث» In De Trinitatis Erroribus (نشره عام ١٥٢١)، وكتاب «إعادة المسيحية إلى حقيقتها الأصلية» Christianismi Restitutio (١٥٥٣) - دافعاً قوياً للأفكار التوحيدية المنكرة للتثليث والتجسد فى أوساط أحرار الفكر فى أوروبا فى القرون الوسطى.

كان «سيرفيتوس» هذا قد تأثر - فى بداية أمره - بحركة الإصلاح البروتستانتيّة، لكنه خطا بعد ذلك، فى الإصلاح، خطوات أكثر جذرية وجراً، فأعلن بطلان عقيدة التثليث، ورفض ألوهية المسيح بشدة، وكان يسمى الثالث

به الوحش الشيطاني ذى الرؤوس الثلاثة، وقام بحركة نشطة جداً فى الدعوة إلى الوجدانية المحضة لله، فاتهمته الكنيسة بالهرطقة، واعتقلته، ثم أعدمته حرقاً، لكنها لم تستطع إعدام أفكاره وكتاباتة التى انتشرت فى وسط وشرق أوروبا، ولقيت عديداً من الأتباع والمؤيدين.

أما الشخصيتان ذاتا التأثير المباشر فى نشأة الجماعة السوسيانية (ومنها أخذت اسمها)؛ فهما اللاهوتيان الإيطاليان اللذين أشرنا إليهما أعلاه، «ليلىو سوزينى»، وابن أخيه «هاوستو سوزينى».

ولد «ليلىو سوزينى» فى مدينة «سينا» Siena فى إيطاليا، ودرس الحقوق، وامتحن القضاء، وتعلم اليونانية والعبرية والعربية، وقام بدراسة مفصلة وعميقة للكتاب المقدس Bible، قادته للتعاطف مع عمل الإصلاحيين البروتستانت، فزار سويسرا، وفرنسا، وإنجلترا، وهولندا، وألمانيا، وبولاندا، والتقى فى كل بلد زعماء البروتستانت فيها، لاسيما اللاهوتى الإصلاحى الألمانى «ميلانختون» Melancthon، والفرنسى «جان كالفن» John Calvin، واعتنق المبدأ البروتستانتى الاشتراكى، ووصل فى أبحاثه إلى قناعة تقول بأنه فى فهم وتفسير الكتاب المقدس - كمصدر تعليم وحيد للإيمان - يجب أن يقبل ما يمكن للعقل أن يفسره ويقبله فقط، أما ما يناقض صريح العقل؛ فلا يمكن قبوله. لذلك لما وجد أن التعليم المسيحى عن الله الواحد المثلث الأقانيم لا يدركه العقل، بل يناقض العقل، رفض هذه العقيدة بالثالوث المقدس، وأكد أن الله أقنوم واحد فقط.

أمضى «ليلىو سوزينى» بقية حياته فى زوريخ، وكتب عدة مباحث لاهوتية حول القرىان المقدس Sacrament وحول بعث الأجساد، اقترب فيها - لحد كبير - من أفكار اللاهوتيين البروتستانت. وعلى الرغم من أنه وضع عقيدة التثليث موضع شك وتساؤل، إلا أنه لم يصل إلى حد تصريحه ببطالانها تماماً، بل اعتبرها مسألة اجتهادية، مؤكداً على حق كل إنسان فى بحثها، واعتناق ما توصله إليه نتيجة بحثه فيها.

أما ابن أخيه الطبيب «فاوستو سوزيني»؛ فقد تأثر كذلك بأفكار عمه، ولما أخذ يصرخ بها، حكمت عليه محكمةٌ تفتيش العقائد بالهرطقة، فهرب من إيطاليا، وساح لمدة ثلاثة أعوام بين زوريخ، وجنيف في سويسرا، وليون في فرنسا، ثم عاد إلى إيطاليا حوالي سنة ١٥٦٢، وبقي ساكناً مدة ١٢ سنة، يعمل في مهنته كطبيب في مدينة فلورانس، دون أن يثير ما يزعج الكنيسة الكاثوليكية. لكنه - في النهاية - رحل عام ١٥٧٥، إلى مدينة «بازل» في سويسرا، واستقر بها؛ ليكون أكثر حرية في ممارسة تأملاته، وصياغة أفكاره، ونشرها؛ حيث تعمق في دراسة اللاهوت، وقام بمناقشات عديدة مع لاهوتيين من البروتستانت، ثم بدأ يظهر آراءه الإصلاحية الجذرية (الراديكالية)، التي وجدت لها أنصاراً وموافقين، وصارت أفكاره تعرف - فيما بعد - باسم «السوسيانية»، على الرغم من رفض صاحبها لأي تسمية لأفكاره بأنها تمثل فرقة خاصة جديدة، بل كان يعتبر أفكاره مجرد عودةٍ صحيحة لرسالة المسيح الحقيقية التي نالها التحريف والتشويه عبر الأجيال فحسب.

أكد «فاوستو سوزيني» أن يسوع المسيح كان إنساناً ونبياً ورسولاً ناطقاً باسم الله، ومُبلّغاً لكلمة الله، وموهوباً بقوة إلهية خارقة الحد، ولكن؛ لم يكن يسوع الهاً ولا تجسداً لله، أو لأحد أقانيم الثالوث الإلهي، وأن المسيح إذا كان يُدعى ابن الله، فذلك بالتبني، لا بالولادة، ومثل ذلك الروح القدس، فقد رفض إلهيته المستقلة، معتبراً إياه قوة إلهية فقط. وهكذا قضى على عقيدة التثليث من أساسها، مؤكداً فردانية الله، وأنه ذو اقنوم واحد فحسب؛ (أي ذو شخصية واحدة، وليس متعدد الأشخاص)، ثم رفض عقيدة الخطيئة الأصلية الموروثة التي تحتاج لتكفير، ووافق - فقط - على أن في الإنسان ميلاً إلى الشر موروثاً. وكتيجةٍ طبيعيةٍ لذلك؛ رفض فكرة الفداء المسيحية القائلة بأن المسيح صلب وتالم كفارة لخطيئة البشر، بل هسر عمل الفداء الذي أتمه المسيح بأنه دلّ الناس بواسطته على طريق الكمال والتضحية الأخلاقية التي تقودهم إلى الحياة الأخلاقية المقبولة والسعيدة بعد الموت. وأخيراً؛ رفض فكرة الجبر؛ أي التحديد

السابق لمصير الإنسان، التي ركز عليها البروتستانت؛ لاسيما الكالفانيين. ومع هذا؛ كان يجيز عبادة المسيح كتعبير عن إجلاله وتعظيمه والتماس العون منه؛ باعتبار أن الله رفعه، ومجده، وأعطاه كل قدرة في الأرض والسماء.

نشر «فاوستو سوزيني» أفكاره تلك في رسائل إصلاحية؛ رد فيها كل عقائد الكنيسة الأساسية في تثليث، وتجسد، وكفارة، وغيرها، فانتشرت كتاباته ورسائله وتعاليمه في كل مكان، وعرفت مدرسته أو مذهبه اللاهوتي باسم «السوسيانية»، أما مخالفوه؛ فسموا أتباعه به «الآريانيين الجدد» (أي أتباع مذهب الأسقف الإسكندراتي القديم أريوس الذي أنكر إلهية المسيح، وقال بتفرد الله الأب بالإلهية). ورغم أنه وجد أتباعاً في سويسرا وألمانيا، إلا أنهم كانوا أفراداً مشتتين، قليلي العدد، مغمورين بين البروتستانتين المتعصبين، لذلك هاجر «فاوستو سوزيني»، ورفاقه الفكريون، سنة ١٥٥١، إلى بولاندا، وترانسلفانيا Transylvania (منطقة جبلية واسعة وسط دولة رومانيا الحالية)، آملين أن يستطيعوا أن يشكلوا - هناك - جمعية خاصة بهم. وقد تمكن «فاوستو سوزيني»، ورفاقه من تحقيق ذلك سنة ١٥٦١، فقد وجد التوحيديين أتباعاً كثيرين في ترانسلفانيا، وبولاندا؛ لاسيما في وسط الأمراء والأشراف. وكان أول انتشار لها عندما أعلن طالب بولاندي اسمه «بيتر جونيسيوس» - Peter GO-nisius، تلك الأفكار التي أوقعت معركة من الآراء بين أهل التثليث والقائلين بأقنومين - فقط - في الله، وبين القائلين بوحداية الأقنوم في الذات الإلهية الواحدة الصرفة، وكان نتيجة هذا الاختلاف الفكري انفصال الكنيسة البولندية المصلحة الصغيرة Minor Poland Reformed Church، عام ١٥٦٥م، أو كنيسة الإخوة البولنديين، التي حملت نفس الأفكار التوحيدية للسوسيانين، وسرعان ما برز - كزعماء لهذه الكنيسة الجديدة - شخصيات مثل «غريغوري بول» Gregory Paul، و«مارسين جيكويتش» Marcin Czechowic، و«جورجن سكومان» Georg Schomann.

وكان في بلاد ملك ترانسلفانيا «جون سيفيسموند» John Sigismund،

طبيب إيطالى الأصل يدعى «جيورجىوس بلاندراتا» Georgius Blandrata (أتى به كطبيب خاص لمرس الملك الإيطالية أيضاً)، كان ذلك الطبيب من معتقى الأفكار السوسيانية، فلعب دوراً هاماً فى التأثير على الملك بأفكاره، مما جعل الملك يسمح للسوسيانين بنشر أفكارهم فى مملكته بحرية، بل صار الملك نفسه - فيما بعد - من معتقى هذه الأفكار، والمشجعين على نشرها، وبث نفي التثليث، ونفى العقائد التقليدية فى ربوع مملكته، وسرعان ما أصبحت مدينة راكوف جنوب بولاندا - منذ عام ١٥٦٩ - نواة لما عُرف باسم جماعة الإخوة البولنديين.

وهكذا ساعدت الأمور «فاوستو سوزينى»، فلم تأت نهاية القرن السادس عشر إلا وقد تشكلت فى بولاندا، وترانسلفانيا جماعات مستقلة من المؤمنين السوسيانيين مع كنائسهم ومدارسهم. وكان من أهم ما نشره - هناك - كتابه القيم «تفسير القسم الأول من الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا» Explanation of the First part of the First Chapter of John's Gospel (انتشرت أول طبعة منه فى ترانسيلفانيا عام ١٥٦٧ - ٦٨)، ثم كتابه «حول يسوع المسيح المخلص» On Jesus Christ, the Saviour (طبع أول مرة عام ١٥٩٤)، وكتابه «حالة الإنسان الأول قبل السقوط» On the State of the First Man Before the Fall (أول طبعة عام ١٥٧٨).

ويفضل ما انضم إلى الجماعة السوسيانية التوحيدية من النبلاء فى بولاندا لم تتلّ الجماعة حريتها الكاملة، والاعتراف بإيمانها فحسب، بل بلغت حد الازدهار. وبعد وفاة «فاوستو سوزينى» جمعت رسائله وكتاباتاته فى بولاندا فى كتاب واحد نشر فى مدينة «راكوف» Rakow البولندية عام ١٦٠٥م، ولذلك أخذ اسم كتاب «العقيدة الراكوفية» Racovian Catechism. بالطبع؛ أسخّطت كتابات ومطبوعات التوحيديين المتعصبين من المسيحيين، مما حدا بجماعة هائجة من عوامهم أن يهاجموا المطبعة السوسيانية الشهيرة، والمدرسة السوسيانية فى مدينة راكوف، ودمروها تدميراً.

ومن الجهة الأخرى؛ كانت السوسيانية قد لقيت رواجاً فى هنغاريا (المجر

أيضاً)؛ بفضل القسيس الروماني فرانسيس ديفيد Francis (Ferens) David (١٥١٠ - ١٥٧٩)، الذي كان أسقفاً كاثوليكياً، ثم اعتنق البروتستانتية، ثم وصل - بفضل دعوة الطبيب الإيطالي «جيورجيوس بلاندراتا» Georgius Blandrata (المذكور أعلاه) - إلى أفكار مشابهة لأفكار «فاوستو سوزيني» في إبطال التثليث، ونفى ألوهية المسيح، بل أكثر من ذلك؛ أعلن بطلان وخطأ توجيه العبادة للمسيح، مما أحدث ضجة كبيرة بين المسيحيين هناك. وقد أثمر التعاون بين القس «فرانسيس ديفيد» وطبيب البلاط «بلاندراتا» في نشر كتابين هامين من كتب التوحيديين، هما: «حول خطأ وصواب وحدانية الله الأب، الابن، والروح القدس»، On the False and True Unity of God the Father, «Son, and Holy Spirit» (انتشر عام ١٥٦٧) والثاني «حول هيمنة المسيح» On the Reign of Christ (نُشر عام ١٥٦٩)، واللذين بدت فيهما - بشكل واضح - أفكار التوحيديين «سيرفيتوس» الأسباني و«سوزيني» الإيطالي. هذا؛ وقد أثرت دعوة القس فرانسيس ديفيد حتى في ملك هنغاريا نفسه، الذي أصدر بياناً أمر فيه بإعطاء «التوحيديين» حرية العقيدة.

لم يدم الحال للتوحيديين أو أتباع السوسيانية على هذا النحو الطيب، بل كان لابد للتعصب الديني ضدهم أن يفعل فعلته؛ حيث بدؤوا يتمرضون لاضطهاد وحشي منظم منذ عام ١٦٢٨، فحرق الكثير منهم أحياءً، أو حرموا من حقوقهم المدنية، وأحرقت كتبهم، وفي عام ١٦٥٨، وبإلحاح من جماعة الجيزويت (اليسوعيين الكاثوليك)، خير الناس بين قبول الكاثوليكية، أو الطرد للمنفي، أو الإعدام، وبهذا؛ تم طرد التوحيديين من بولاندا، فهاجر الكثير منهم إلى هولندا، وتوزع الآخرون في أطراف أوروبا، وظلوا فئات منفصلة لفترات طويلة، وبقي جماعة منهم في ترانسلفانيا (لا تزال باقية إلى اليوم)، وانتشرت أفكار التوحيديين إلى هولندا، ثم بريطانيا، وأخيراً؛ سرت للولايات المتحدة الأمريكية، وكانت وراء نشوء الفرقة الشهيرة التي تسمت باسم التوحيديين . The Unitarians

٤ - فرقة الأرمينيانيين Arminianism

بدأت جماعة الأرمينيانيين عندما قام لاهوتى هولندى بروتستانتي يُدعى «يعقوب الأرميني» Jacobus Arminius، كان في البداية كالفيني المشرب، وصار واعظاً إصلاحياً منذ سنة ١٥٨٨، ثم أستاذاً للاهوت في جامعة ليدن Leiden منذ سنة ١٦٠٢، بدأ بمحاضراته ومواعظه يرد على العقيدة الجبرية المحزنة والمكرية التي بثها «جان كالفن» بشأن لاتحديد السابق لقدر كل إنسان، بنحو يسلب منه حرية الاختيار، فقد أثبت «يعقوب الأرميني» حرية الاختيار لدى الإنسان، وأن له دوراً أساسياً في مصيره قائلًا: إن القول بحرية الاختيار لا يتناقض - أبداً - مع عقيدة التحديد السابق لقدر ومصير كل إنسان، والتي ينص عليها الكتاب المقدس.

وأكد «يعقوب الأرميني» في مواعظه ومحاضراته بأن الله - منذ الأزل - اختار أناساً للنجاة، وآخرين للهلاك، كما بينه يسوع في مثال الخراف والجداء^(١)، ولكن هذا لا يستتبع إجبارهم على ما يفعلون، بل إن الناس ينالون مصيرهم بناءً على ذنوبهم التي يرتكبونها بمحض اختيارهم وإرادتهم الحرة التي منحهم الله إياها، وأن هذا هو المتوافق مع العدل الإلهي والحكمة الإلهية. وقد انضم كثيرون إلى هذا التعليم الجديد في هولندا. ولكن؛ قام ضده الثابتون على التعليم عن سابق التحديد المحتم. وكان على رأس هؤلاء فرانس غومار رفيق «يعقوب الأرميني» في الجامعة. وبدأ الجدل الحاد بين الأرمينيين

(١) إشارة إلى ما جاء في الإنجيل: «٣١ ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده. ٣٢ ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء. ٣٣ فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار. ٣٤ ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تمالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم... ويقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... ٤٦ فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية». إنجيل متى الإصحاح ٢٥/٢١ - ٤٦. وهناك نصوص عديدة تتفق الاختيار السابق؛ منها قول بولس مثلاً: «تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، فقد باركنا كل بركة روحية في السموات في المسيح، ذلك بأنه اختارنا فيه قبل إنشاء العالم لتكون في نظره قديسين». أفسس ١/ ٣ - ٤.

والفوماريين. وبعد «بعقوب الأرميني» سنة ١٦٠٩، طورت مجموعة من الكهنة واللاهوتيين - الذين أيدهم، واتبعوه في فكرته عن سابق الاختيار الإلهي - نظاماً عقائدياً لاهوتياً عقلانياً المنحى، مرتكزاً على تعاليمه، بينوا فيه أن الاختيار الإلهي السابق مثبت على الإيمان، وأن الإنسان بإمكانه باختياره أن يرفض النعمة الإلهية، وأن عمل المسيح كان مقصوداً منه كل الناس والبشرية جمعاء، وأنه من الممكن لبعض المؤمنين أن يسقطوا ويُحرموا من نيل نعمة الله التي حصلت بالفداء. وقد أثاروا لغطاً واحتجاجاً ومعارضة عام ١٦١٠م، بسبب هذا الإعلان، وحمى وطيس الجدل بين الموافقين والمخالفين، واتخذ بسرعة - كالعادة - شكلاً سياسياً؛ لأن موريتس ورائسك الشهير مُحَرَّرْ هولندا من الأسبان، انحاز لجهة الفوماريست الراضين لعقيدة الإرمينيانين، أملاً أن يتمكن - مساعدتهم - من إزالة إدارة الجمهورية في هولندا، وأن يصير ملكاً. وفي المجمع العام الإصلاحى فى أوترخت Utrecht (سنة ١٦١٨ - ١٦١٩): حكم على الأرمينيانين كهراطقة، وتعرضوا لاضطهادات عنيفة. ولكن؛ بموت موريتس فى سنة ١٦٢٥، استعادوا حقوقهم الوطنية، وحصلوا على حرية الاعتراف بالإيمان.

ثامناً: الكنائس والحركات البروتستانتية

لم تكن الحركة البروتستانتية واحدة، بل كانت - كما شاهدنا - متعددة، ونشأ عنها - فى مختلف بلدان أوروبا - عديدٌ من الكنائس والحركات، وكانت أهم وأشهر الكنائس البروتستانتية هى التالية:

١ - الكنيسة اللوثرية

يُشكل اللوثريون أكبر كنيسة بروتستانتية فى العالم. تأسست الكنيسة اللوثرية فى أوائل القرن السادس عشر على التعاليم والمعتقدات التى نادى بها «مارتن لوثر» رائد الإصلاح البروتستانتى. وعلى الرغم من ذلك، تؤكد الكنيسة اللوثرية أنها تتبع - فى الواقع - التعاليم المسيحية الأصلية التى ترجع إلى عهد

ما قبل الإصلاح.

ليس لدى اللوثريين أى شكل تنظيمى يميزهم من بقية الطوائف المسيحية الأخرى. فبعض الجماعات اللوثرية ترى ضرورة أن يكون لها أسقف، بينما يصر البعض الآخر على الولاء للكرادلة ورجال الكنيسة المحليين، وبين هذين الاتجاهين المتشددين توجد مجموعات لوثرية أخرى.

ليس للوثريين طريقة عبادة موحدة. فبعض ترانيم رجال الدين اللوثريين ترانيم تقليدية تشبه الترانيم الكاثوليكية، أما البعض الآخر؛ فيقترب من طريقة العبادة التطهيرية البسيطة التى تدعو إلى تبسيط طقوس العبادة والتمسك الشديد بالفضيلة.

التعاليم؛ تعاليم ومبادئ «مارتن لوثر» هى التى تفصل بين اللوثريين وبقية الكنائس المسيحية الأخرى، وأشهر بيان لتعاليم لوثر جاء فى كتابين كتبهما عام 1529م، وضمنهما خلاصة العقيدة فى قالب سؤال وجواب، بالإضافة إلى اعترافات أوغسبيرج عام 1530م. وتشكل هذه التعاليم أسس العقيدة اللوثرية، وهى أن خلاصة البشرية مُرتين برحمة الله، وليس بالسلوك الأخلاقى والأعمال الطيبة، وبتعميرٍ آخر؛ إن رحمة الله هى التى تخلص الناس من خطاياهم، والقضاء بدم المسيح، وعندما يتحرر الإنسان من خطاياهم يصبح مخلوقاً جديداً، قادراً وراغباً فى خدمة الله، وخدمة إخوانه. ويرى اللوثريون أن الإنجيل يبين هذه الرسالة، ويؤكدُها بطريقة لا مثيل لها. ويمتقدون أن أثر الإنجيل أقوى من تعاليم الكنيسة. وللوثريين قريان مقدسان هما المعمودية، والعشاء الربانى، مع رفض عقيدة الاستحالة Transubstantiation فى العشاء السرى - أى التحول الحقيقى السرى للخبز والخمر الذى يتناوله المؤمن أثناء القداس إلى جسد ودم المسيح فيه حقيقةً كما يعتقد الكاثوليك والأرثوذكس - والاكثفاء بالحضور الروحى للمصاحب للمسيح Consubstantiation فى الخبز والخمر المتناول فى القداس، بمعنى أن الخمر والخبز يمثلان اتحاداً معنوياً وروحياً مع جسد ودم المسيح، ويسمى العشاء السرى - أيضاً - بالقريان المقدس،

أو قربان المذبح.

ويشكل التاريخ الاجتماعي للكنيسة - أيضاً - جانباً من المبادئ والمعتقدات اللوثرية. ويعيش كثير من اللوثريين في الدول الإسكندنافية (كالسويد، والدانمرك، والنرويج)؛ حيث تعد اللوثرية دين الدولة، ويعيش كثير منهم في ألمانيا أيضاً. أما اللوثريون الذين يعيشون خارج أوروبا؛ فيتحدرون من الأوروبيين الشماليين، لذا؛ نجد كثيراً من ملامح حضارة شمالي أوروبا وثيقة الصلة بالتراث اللوثرى، مثال ذلك الإحساس القوي بالمسئولية أو الواجب الفردي؛ إذ يُعدُّ صفة مميزة للوثرية الألمانية، كما يُعدُّ - كذلك - للوثريين وللألمان أيضاً.

واللوثريون محافظون - أى غير ثوريين - تجاه القضايا السياسية والاجتماعية التي يدور حولها خلاف، ويرجع ذلك إلى ارتباط الكنيسة بحضارات أوروبا الشمالية والطبقات الحاكمة آنذاك. ولقد ساعد لوتر على تهيئة هذا الاتجاه حين أكد على أهمية الطاعة، وحثَّ من عاقبة الفوضى السياسية والاجتماعية التي يخشاها أكثر من خشيته من الظلم، ولكن؛ في بعض الأحداث السياسية - مثل أحداث المجر في القرن التاسع عشر - كانت الكنيسة اللوثرية أكثر ثورية من الكنائس الأخرى.

٢ - الكنيسة المنهجية أو الميثودية Methodists

الميثوديون أو المنهجيون هم أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في أوكسفورد/ إنجلترا عام ١٦٢٩، اللاهوتي الأنجليكاني البريطاني «جون ويزلى» John Wesley (١٧٠٣ - ١٧٩١) وأخوه تشارلز (١٧٠٧ - ١٧٨٨) محاولين فيها إحياء كنيسة إنجلترا.

كان «جون ويزلى» الابن الخامس عشر للقسيس البريطاني الأنجليكاني صموئيل ويزلى. تلقى تعليمه في المدرسة، ثم في كنيسة المسيح في جامعة أوكسفورد. رُسم شماساً عام ١٧٢٥، وقبل في سلك كهنوت الكنيسة الأنجليكانية

عام ١٧٢٩، وعمل لفترة راعى كنيسة مساعداً لأبيه. وانتقل للإقامة فى أكسفورد عام ١٩٢٩، كزميل لكلية لينكولن، وهناك انضم إلى النادي المقدس، الذى كان يضم مجموعة من الطلاب، وهم أخوه «تشارلز ويزلى»، وضماً - كذلك - «جورج وايت فيلد» George Whitefield الذى أصبح - فيما بعد - مؤسس الميثودية الكالفينية. كان أعضاء ذلك النادي يلتزمون - بشكل صارم ودقيق ومنهجى - بالمبادئ والتعاليم الدينية، بما فى ذلك زيارة المساجين والمرضى وتسكينهم، ومن هنا؛ كان زملاؤهم فى الدراسة يطلقون عليهم - من باب السخرية - اسم «المنهجين» Methodists.

فى عام ١٧٣٥، سافر ويزلى إلى ولاية جورجيا فى أمريكا ضمن بعثة تبشيرية أنجليكانية، والتقى فى السفينة بعض المورافيين الألمان، الذين أثرت فيهم تقواهم الإنجيلية البسيطة. وبقي على اتصال معهم أثناء إقامته فى ولاية جورجيا، وقام بترجمة بعض ترانيمهم إلى اللغة الإنجليزية. وباستثناء هذه الزمالة، كانت تجربة ويزلى الأمريكية فاشلة.

لدى عودته إلى إنجلترا عام ١٧٣٨، سعى ويزلى إلى لقاء المورافيين ثانية، وأثناء حضوره إحدى اجتماعاتهم فى لندن شعر بيقظة وصحوة دينية فى داخله، أقتعته - بشكل عميق بأن الخلاص ممكن لكل إنسان من خلال الإيمان بسوع المسيح فقط. ورغم معارضته الابتدائية لإلقاء المواعظ خارج الكنيسة، إلا أن ويزلى بدأ فى أبريل عام ١٧٣٩، بإلقاء موعظة فى الهواء الطلق، والأماكن العامة، وقد أحدثت مواعظه تأثيراً حماسياً كبيراً فى سامعيه، مما أقتعه بأن المواعظ فى الهواء الطلق أفضل طريقة للوصول إلى جماهير الناس؛ ولكن؛ بالطبع لم يتح له عددٌ كبيرٌ من المنابر نظراً لكون الكنيسة الأنجليكانية كانت تتجهم بالحركات الإحيائية.

فى الواقع؛ استطاع ويزلى أن يجذب عدداً كبيراً من الجماهير من خارج سلكه الإنجيلي، كما أن نجاحه يعود - فى جزء منه - إلى كون إنجلترا المعاصرة كانت مستعدة لحركة إحيائية؛ حيث لم تكن الكنيسة الأنجليكانية قادرة على

تقديم ذلك النوع من الإيمان الشخصي للناس المتعطشين. من هنا؛ لقد تشديد ويزلى على الديانة الداخلية وتأكيد أنه كل إنسان تم قبوله كابن لله ترحيباً وجاذبية واسعة لدى الناس في بريطانيا.

في الأول من أيار/ مايو ١٧٣٩، شكل ويزلى - مع مجموعة من أتباعه، التقوا في حانوت في لندن - أول جماعة ميثودية أو منهجية، ثم انتشرت مثل هذه الجماعات في مناطق أخرى من بريطانيا، وفي آخر ١٧٣٩، تم تأسيس بناء سُمي «الأساس»، وخدم كمركز قيادة الحركة المنهجية لسنوات عديدة. مع تنامي الحركة؛ برزت حاجة ملحة إلى التنظيم. لذلك بدءاً من عام ١٧٤٢، تم تقسيم الجماعات إلى شعب، وتعيين زعيم لكل شعبة. وقد ساهمت لقاءات تلك الشُعب في نجاح الحركة بشكل كبير، بالإضافة للدور الشخصي الهام الذي لعبه زعماء تلك الشعب، الذين كان يُعِينهم ويزلى نفسه، ثم مُنذُ عام ١٧٤٤، بدأت تُعقد مؤتمرات سنوية للزعماء الميثوديين.

كان ويزلى واعظاً ومنظماً لا يعرف الكلل، كان يقطع ما يزيد على ٨٠٠٠ كم سنوياً، ملقياً أربع أو خمس خطب في اليوم، ومؤسساً لجماعات جديدة.

اختلف ويزلى مع المورافيين عام ١٧٤٠، بسبب عقيدتهم حول القضاء السابق المحتوم (العقيدة الجبرية)، مما جعله ينفصل عن وايت فيلد، كما أنه اختلف مع عدد من نزعات كنيسة إنجلترا، بما في ذلك عقيدة الخلافة الرسولية؛ (أي المحافظة على سلسلة غير منقطعة من أساقفة الكنيسة المسيحية تصل إلى القدس بطرس الرسول)، ولكنه لم يقل - أبداً - إنه كان ينوي إنشاء كنيسة جديدة، ومع ذلك؛ كانت النتيجة لا يمكن اجتنابها لأفعاله وأفكاره وقوع هذا الانفصال عن الكنيسة الأنكليكانية بعد وفاة ويزلى.

في عام ١٧٨٤، اصدر ويزلى إعلاناً حدد فيه قواعد ونظم لهداية وإرشاد الجماعات الميثودية (المنهجية)، وفي نفس العام؛ قام بتعيين مساعده توماس كوك، رجل دين أنكليكاني، كرئيس للتنظيم الميثودي (المنهجي) في الولايات

المتحدة، مفضلاً إليه إدارة الطقوس السرية، وترسيم الكهنة، وكان إعطاء حق ترسيم الكهنة يمثل أهم خطوة باتجاه الانفصال عن الكنيسة الأنجليكانية، ذلك الانفصال الذى لم يحدث إلا بعد موت ويزلى، لقد كان ويزلى مهتماً - بشكل عميق - برفع المستوى الثقافى والاقتصادى والصحى لجماهير الناس، وكان كثير التأليف فى موضوعات تاريخية ودينية مختلفة، وقد ألف ٢٣ مجموعة من التراييم، وترجم عن اليونانية واللاتينية والعبرية. فى أيام أحياته الأخيرة: تلاشت عداوة الكنيسة الأنجليكانية لحركة ويزلى المنهجية، بل أبدت الكنيسة الأنجليكانية إعجابها بها، ولما توفى - سنة ١٧٩١ - دفن فى كنيسة سیتی رود فى لندن، وتم وضع لوحة تذكارية باسمه فى دير ويستمنستر Westminster Abby الشهير.

تميز وعظ الأخوين ويزلى بناحيتين بارزتين تميزت بهما حركة المنهجيين، الناحية الأولى هى دعوة الجميع إلى الاستجابة للرب من خلال يسوع المسيح فحسب، والناحية الثانية هى دعوة الذين استجابوا إلى الاندماج فى جمعيات. وقد طور الأعضاء فى الجمعيات القواعد الانضباطية للحياة المسيحية، وذلك بشكل أساسى من خلال الفروع التى سميت شعباً، وكانت الشعب تلتقى أسبوعياً فى ظل التوجيه الروحى لقائد الشعب.

وبانتشار الحركة؛ برز جون ويزلى قائداً، وتشارلز شاعراً. وقد ألف تشارلز ٧,٠٠٠ ترنيمة دينية، وبذلك أعطى ميثوديست صفة متميزة أخرى هى التعبير عن إيمانهم من خلال الفناء. وظلت مجموعة التراييم الدينية (١٧٨٠م) عملاً روحياً كلاسيكياً يخص الكنيسة العالمية. وكان الدور الرئيسى لـجون تنظيم الجمعيات فى نظام متصل يمكن التحكم فيه من خلال مؤتمر يعقد سنوياً.

وعقد هذا المؤتمر فى أول مرة عام ١٧٤٤م. وتميزت «المنهجية» باستخدام جون ويزلى للوعاظ غير المعتمدين. وقد أراد جون ويزلى أن تبقى الجمعيات حركة إصلاحية داخل نطاق كنيسة إنجلترا، إلا أن مقاومة رجال الدين الذين يتبعون الكنيسة الإنجليزية، والحاجة لتوفير إشراف رعوى لأعضاء المجتمع،

أدتا إلى الانفصال عن الكنيسة.

واعترف ويزلى بهذا الانفصال فى عام ١٧٨٤م، عندما عين توماس كوك، المدير الأول للكنيسة «المنهجية» فى أمريكا. وقام - أيضاً - بمنح كوك سلطة تعيين فرانسيس أزبورى ليخدم بالطريقة نفسها.

وقد تم تأسيس أبرشية الكنيسة «المنهجية» (الميثودىستية) فى عام ١٧٨٤م، فى مؤتمر عيد الميلاد الذى عقد فى بالتيمور بولاية ماريلاند فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان كوك وأزبورى أول أساقفتها. وانتشرت الطائفة الجديدة بسرعة، وبخاصة من خلال الوعظ الرحالة، المعروفين باسم المبشرين الرحالة، الذين نشروا رسالة الميثودىستية فى الساحة الأمريكية الواسعة.

التغير الاجتماعى والانقسام

عندما تمزقت الميثودىستية، أفسحت القواعد الأولى للجمعيات المجال لهيكله اجتماعية كنسية ذات مطالب أقل. وقد تصاعد التوتر، وكان بعضه يعزى إلى قضايا عبر محلولة تخص حكم الكنيسة، وذلك بعد وفان جون ويزلى فى عام ١٧٩١م. إلا أن السبب لهذا التوتر يعزى إلى أن الميثودىستية ركزت على نمط حياة معين لمسيحيى العالم. وأدى هذا التركيز إلى جعل أعضائها مشاركين فى التغيرات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر الميلادى. وشكل بروز حركة اتحاد التجارة الصراع الرئيسى فى بريطانيا. أما فى الولايات المتحدة؛ فقد تمثل فى الرق.

وبد أدت هذه المسائل إلى حدوث انقسامات عديدة فى صفوف الميثودىست. وقد تجسد الانقسام الأول فى بريطانيا، بتشكيل الرابطة الميثودىستية الجديدة فى عام ١٧٩٧م، والتي تبعها الميثودىست الأوائل فى عام ١٨١٠م. أما فى الولايات المتحدة؛ فقد أدت الانقسامات إلى تأسيس الكنيسة الميثودىستية الويزلية فى عام ١٨٤٢م، والكنيسة الميثودىستية الحرة فى عام ١٨٦٠م. وتم تأسيس عدد من الكنائس الميثودىستية الزنجية؛ وتضم الكنيسة

الإفريقية عام ١٧٨٧م، وأبرشية كنيسة الرب الميثوديستية الإفريقية عام ١٧٩٦م، وأبرشية الكنيسة الميثوديستية الأسقفية للملونين عام ١٨٧٠م، والتي سميت - فيما بعد - بالكنيسة المسيحية. وقد حدث أهم خلاف حول الرق عام ١٨٤٤م، وأدى إلى انقسام الأبرشية الكنسية الميثوديستية إلى طائفتين شمالية وجنوبية. وأدت الاختلافات العقائدية إلى تكوين كنيسة الناصرة عام ١٩٠٨م.

وقد جرت اجتماعات موسعة لإعادة لمّ الشمل في بريطانيا عام ١٩٢٢م، وفي الولايات المتحدة عام ١٩٢٩م. وفي عام ١٩٦٨م، تأسست الكنيسة الميثوديستية الموحدة. وأصبح الميثوديست جزءاً من كنيسة كندا المتحدة عام ١٩٢٥م، والكنيسة الأسترالية الموحدة عام ١٩٧٧م.

يؤكد كل الميثوديين - عموماً - على الأخلاقية الفردية والاجتماعية، وعلى المسئولية الشخصية أيضاً. ويتبع جميع الميثوديست Methodists «جون ويزلي»، ويقبلون الإنجيل ركناً أساسياً للإيمان، وبينما يعدون كلاً من التقاليد المسيحية والفلسفة مصدرين ثانويين، فإنهم يؤكدون على أهمية التجربة الدينية مقياساً مهماً في الإيمان.

٣ - الكنائس المشيخية والكنائس المصلحة

الكنيسة المشيخية أو المشيخانية Presbyterian Church واحدة من عدة كنائس بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية. فهم - كسائر هوق البروتستانت - يرفضون البابوية؛ أي الدعوى بأن البابا خليفة المسيح، ويرون أن شيوخ الكنائس مرتبتهم متساوية، ولقد كان «جون كالفن» أول من دعا إلى الأخذ بهذا الأسلوب في إدارة الكنيسة، ثم تبناه - من بعده - جون نوكس، والهوغونوت، أو البروتستانت الفرنسيون.

ويتميز المشيخانيون Presbyterians بانقسامهم إلى جماعات، يرأس كل جماعة شيخ منهم، يسمى بشيخ الجماعة Presbyter، وتهتدى الجماعة بهديه، وتتلقى عنه. وفلسفتهم في ذلك أن الناس خلقوا أحزاباً، وأنه لا بد لكل حزب

من كبير لهم، فهكذا كانت البشرية منذ الأزل. وأكثر الكنائس المشيخية تدين مذهب كالفن البروتستانتية.

وتشكل الكنائس المشيخية - في الواقع - مجموعة كبيرة من كنائس الطوائف البروتستانتية في البلدان الناطقة بالإنجليزية، وتشكل الأغلبية بالنسبة للكنائس البروتستانتية التي انتشرت في العالم الجديد؛ أي القارة الأمريكية؛ خاصة الولايات المتحدة، هذا؛ وتدعى الكنائس من هذا القبيل، في خارج البلدان الناطقة بالإنجليزية، بالكنائس المصلحة، أو القويمة Reformed Churches مثل الكنيسة المصلحة الهولندية، وأحد شعارات هذه الكنائس الإصلاح الدائم. وتتمى زهاء ١٠٠ طائفة مسيحية إلى الاتحاد العالمي للكنائس المصلحة.

وبشكل عام؛ يطلق على جميع الكنائس البروتستانتية التي اتبعت تعاليم المصلحين البروتستانتين السويسريين «جان كالفن» و«ألوريج زفينغلي» اسم الكنائس المصلحة Reformed Churches (ولكالفن التأثير الأكبر فيها)، وذلك في مقابل الكنائس البروتستانتية التي اتبعت تعاليم الإصلاح الألماني «مارتن لوثر»، والتي يطلق عليها اسم الكنائس اللوثرية أو البروتستانتية Lutheran or Protestant. ومن أهم الفروق بين الإثنيين أن الكنائس المصلحة - تبعاً لتعاليم كالفن وزفينغلي - لا تؤمن لا بالاستحالة Transubstantiation - أي تحول الخبز والخمر لجسد ودم المسيح فعلاً في جسم المتناول لهما في العشاء السرى (الأفخارستيا)، كما هي عقيدة الكاثوليك والأرثوذكس، ولا بالحضور الروحي الفعلي للمسيح Consbstantiation في الخبز والخمر في القداس، كما هو تعليم مارتن لوثر، بل ترى في تناول الخمر والخبز في العشاء السرى مجرد إحياء لذكرى العشاء الرباني للمسيح والتلاميذ فحسب. كما أن الكنائس المصلحة رفضت بعض المراسم الكنسية التي بقيت الكنائس اللوثرية محتفظة بها.

وتشير كلمة مشيخي إلى نموذج مميز من أشكال إدارة الكنيسة. ويدير أعضاء الكنيسة المشيخية مجالس تسمى الجلسات أو المجامع الكنسية المؤلفة من قس وعدد من الشيوخ العلمانيين غير الكهنوتيين. وتبعث الجلسات ممثلين

عنها إلى مجالس الكنيسة التي تدعى مجامع أعضاء الكنيسة أو الشعب التي تشرف على التجمعات في المنطقة. وتتمثل مجتمعات أعضاء الكنيسة في المجمع الكنسية أو الجمعيات. وتعمل الإدارة النيابية على جميع المستويات؛ بحيث يشترك شيوخ علمانيون في الإدارة مع القساوسة، ويكونون - جميعهم - على قدر المساواة، ويكون لجميع القساوسة مرتبة متساوية.

التعاليم والعبادة: يرجع المشيخيون والمصلحون - دائماً - إلى الإنجيل؛ باعتباره السلطة الفاصلة في الأمور المتعلقة بالشئون الدينية. وقد أصدرت الكنائس سلسلة من البيانات الرسمية التي تعبر عن تفهمها للحقيقة الإنجيلية. ومن بين الوثائق الرئيسية للاهوت الإصلاحى، وأكثرها شغفاً وتأثيراً: كتاب هايدلبيرج للتعليم الدينى بالسؤال والجواب (١٥٦٢م)، وكتاب وستمنستر الوجيز في التعليم الدينى بالسؤال والجواب (١٦٤٧م). والكتاب الأول هو الأكثر استخداماً في أوروبا، أما الكتاب الثانى؛ فهو أكثر شيوعاً في البلدان الناطقة بالإنجليزية. ويعد كتاب العقيدة المعتمد من قبل الكنيسة المشيخية الأمريكية، والصادر في ١٩٦٧م، إحدى الوثائق الرسمية الأخرى.

وكان جون كالفن أكثر اللاهوتيين تأثيراً خلال سنوات تطور تعاليم حركة الإصلاح. وكان كالفن مفسراً للإنجيل أكثر من كونه مفكراً ذا أفكار مترابطة. ويدور جدل بين الدارسين، فيما إذا كان بالإمكان تلخيص أفكار كالفن في موضوع واحد. وتتمثل إحدى النقاط الرئيسية في تفكيره، في الإيمان بأن الله هو الحاكم الوحيد الحقيقي الموجود الذى يحكم جميع المخلوقات. ويعد هذا الاعتقاد أساسياً بالنسبة للتعاليم الإصلاحية بشكل عام..

ويعد الإيمان بالقضاء والقدر من الموضوعات المهمة الأخرى، ولا يركز كالفن عليه كثيراً، إلا أنه يعد أكثر أهمية في فكر اللاهوتيين الإصلاحيين اللاحقين. والإيمان بالقضاء والقدر هو الإيمان القائل بأن الله يقرر المصير الأزلى للبشرية. ولم يعد الإيمان بالقضاء والقدر موضوعاً مميزاً في التعاليم المصلحة.

وفيما يتعلق بالعبادة؛ فقد كانت الكنائس المصلحة تركز - دائماً - على الوعظ، بالإضافة إلى المناسك الإنجيلية المقدسة المتعلقة بالعماد والعشاء السرى. وقد أفرزت الكنائس المصلحة عدداً كبيراً من الوعاظ. وتميزت العبادة الجماعية في الماضي، بإنشاد المزامير المترجمة إلى اللغات الدارجة (اللغات المحلية) والمقفاة. وخلال المائة أو المائتي عام الأخير حلت التراتيل محل المزامير بصورة عامة. وتم التخلي مؤخراً - إلى حد كبير - عن صلاة القداس الرسمية المعمول بها خلال فترة الإصلاح في القرن السادس عشر، ليحل محلها الصلاة الحرة في بداية القرن السابع عشر، وقد عادت الكنائس المصلحة - جزئياً - إلى وضع صيغ للعبادة.

لقد كانت تعاليم الحركة المصلحة - على الدوام - أكثر التعاليم انتشاراً في العالم، بالنسبة للهيئات البروتستانتية الرئيسية. وعلى خلاف الإنجيلية واللوثرية، كان يتم تنظيم الكنائس المصلحة - في غالب الأحيان - دون دعم حكومي، بل كان يتم ذلك في بعض الأحيان تحت ظروف الاضطهاد. وكان العديد من زعمائها - ومن بينهم جون كالفن ونوكس - منفيين أو لاجئين من فرنسا، أو إنجلترا، أو اسكتلندا، أو هولندا، أو ألمانيا، أو إيطاليا، أو بولندا، أو المجر.

وكانت جنيف بسويسرا مركزاً دولياً مهماً للاجئين. ومن جنيف؛ انطلقت أفكار الحركة المصلحة، وانطلق زعماءها إلى أنحاء أوروبا. وأنشئت الكنائس المصلحة في جميع بلدان أوروبا تقريباً، إلا أنه كان لكل منها معتقداتها، وصلواتها، وشكل إدارتها.

وقد أدت الكنائس المشيخية والمصلحة دوراً مهماً في حركة التصير الواسعة في القرن التاسع عشر؛ إذ إن ما يقرب من نصف الكنائس الأعضاء في اتحاد الكنائس المشيخية العالمي الحالي هي كنائس حديثة العهد، أنشئت في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، حتى أصبحت الكنائس المصلحة الناطقة الإنجليزية أقلية بالنسبة للكنائس المصلحة الأفريقية، والآسيوية، والأمريكية اللاتينية. وأدت الكنائس المشيخية والمصلحة - في حالات عديدة - دوراً مهماً

فى تشكيل الكنائس المتحدة مع طوائف أخرى. وهذا ما حدث فى الصين، واليابان، وجنوب الهند، والفلبين. كما أسهمت الكنائس المتصلة إسهامات كبيرة فى تقديم الأفراد والأموال إلى المنظمات القومية والدولية المكرسة للوحدة المسيحية.

٤ - الحركة التطهيرية أو البيوريتانية Puritans

تعنى كلمة تطهيرية - عموماً - الجماعة التى - فى مختلف الملل والنحل - وهى مختلف الأزمنة، تبحث عن عبادة بدون بهارج، وعن التزام صارم بالأخلاق، وتقيد صادق بالمعتقدات التى تؤمن بأنها حقة.

وفى الغرب؛ قصدت الحركة التطهيرية العودة إلى المسيحية الأصلية، ومعارضة الكنائس السائدة، وما يتعلق بها من كهنوتية، وما تقدمه من تقسيمات فى الواجبات الدينية.

وبالمعنى التاريخي؛ تدل كلمة تطهيرية على الحركة التى قامت فى القرن السادس عشر، وفى القرن السابع عشر، فى إنجلترا، من أجل متابعة الإصلاح المعتدى الذى وضعت إيزابيث من أجل إصلاح النظام الكنسى والطقوسى. وقد نشأت التطهيرية فى إنجلترا فى أواخر القرن السادس عشر كحركة إصلاحية متأثرة بالكالفنية، ومستهدفة تبسيط طقوس العبادة وشعائرها، والدعوة إلى التعلق المتزمت بأهداب الفضيلة. ويتمثل جوهر «التطهيرية» بنزوع التطهريين نحو الالتزام الصارم بالأخلاق المسيحية، وبشكل العبادة، وبالعيش فى مجتمع مدنى ملتزم أخلاقياً، بطيخ إرادة الله، ويعمل بوصاياها..

وتطلق كلمة متطهر Puritan على كل من أتباع هذه الحركة الذين هاجروا إلى أمريكا بين سنة ١٦٢٠ و ١٦٤٠م، وحاولوا أن يقيموا فيها طائفة دينية وسياسية تتوافق مع معتقدهم المثالى. وقد عمل عدة علماء اجتماع - بأساليب شتى - على إباز العلاقة بين العقلية التطهيرية وروح الرأسمالية.

أ- التطهريّة الإنجليزىة

لقد حفظت البروتستانت الإنجليز، فى القرن السادس عشر، البنىات الكهنوتية الوسيطية من الضياع، فظلت البلاطات يغب عليها الطابع الأسقى فى مجال السياسة، وظل تراكم الأرباح حتى عن طريق الربا مقبولاً، أما المناصب العامة؛ فظلت تمتلك بالشراء.. وعلى العموم، بقيت الطقوسية -Ritualism والمراسمية هى السائدة فى كل المعاملات..

ضمن هذه البنىات الجامدة المواد التسع والثلاثون التى صدرت عن الملكة إليزابيث ١٥٢٢ - ١٦٠٢، عقيدة بروتستانتية مباله إلى الكالفينية، دون أن تشمل على أى تنظيم إلزامى للكهنوت، وبموجبها؛ كانت السلطة الملكية تسمى الأساقفة، وكانت تستخدمها كأجهزة إدارية.

إلا أن عقلية أكثر ميلاً إلى الإصلاح كانت سائدة فى الطبقات الاجتماعية، خاصة فى الطبقة الوسطى من سكان المدن. وكانت لمواعظ الكهان فى القرن الرابع عشر أثر بالغ فى نفوس الناس.

وعندما حاولت الملكة ماري تيودوره (١٥١٦ - ١٥٨٨) (ملكيت ست سنوات من ١٥٥٢ إلى ١٥٥٨) إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا، شنت حملة كبيرة على البروتستانت. فهرب قسم منهم إلى سويسرا، وشكلوا فى جنيف طائفة من المهجرين بقيادة السكتلندى جون نوكس. ولما عادت هذه الطائفة إلى إنجلترا مع استلام إليزابيث الحكم، حاول بعض منهم أن يفرس فى الأرض الإنجليزىة الأفكار والممارسات التى اتبعها المصلحون السويسريون، فيما يخص الطقوس والتنظيم الكنسى. وقامت فى اسكتلندا، بتأثير من نوكس كنيسة مشيخية (برسبىتارية) وطنية.

وفى سنة ١٥٦٥، استعملت كلمة متطهر للدلالة على هؤلاء الإصلاحيين الذين كانوا يبحثون عن دين بسيط نقى، ونزىه، وخال من التعقيد، ومجتمع نقى بعيد عن الانحلال. وبحكم مبالفتهم فى الالتزام بمعتقدهم؛ وقفت منهم

الأسقفية الأنكليكانية والعرش معها موقف العداء. وعمدت السلطات - بمختلف الوسائل - إلى ترحيلهم. إلا أن الظروف السياسية، والخطر الأسباني الذي تهدد بريطانيا - يومئذ - أخر تنفيذ التدابير بحقهم. كما قامت فئة منهم بتأدي بالاعتدال، وعدم معاداة الأسقفية، وبإعطاء الأساقفة الحق في إدارة شؤون الرعية الدنيوية دون المتعدية.

ورغم الاضطهاد ظلت التطهرية قوية، خاصة في جامعة كمبيريدج؛ حيث كان العداء مستحكماً ضد المراسمية، وضد اليهارج والتسلية والملاهي، حتى إن القيمين على الجامعة كانوا يطالبون بإلغاء الزينات من الكنائس، وإبطال لباس الكاهن الذي يميزه من سائر الرعية، كما كانوا يطالبون بإلغاء بعض ترتيبات الكنييسة خلافاً للأصول المتبعة..

وانتشرت الأفكار التطهرية عن طريق توزيع النشرات، وعن طريق الوعظ. وكان الكهنة الأنكليكان قليلي المعرفة بالوعظ.

ولذلك عمد بعضهم - من المحتاجين مادياً - إلى بيع منصب الواعظ إلى متخرجين من الجامعة، الذين كانوا - غالباً - من التطهرية البارعين في الوعظ، ومعرفة التحدث إلى الناس. وكان الكاهن يكتفى - عندئذ - بتقديم المراسم.

وكان الناس يحبون التعلّم عن طريق سماع المواعظ الدينية؛ لأن الواعظ كان يقدم لهم - إضافة إلى التعليم الديني - سلسلة من الأخبار والمعلومات والتعليقات الدينية الاجتماعية والسياسية، حتى أصبح الوعظ نوعاً من المحاضرات الشعبية.

وبفضل الصدقات والعطايا والهبات؛ استطاع الواعظ التطهريون أن يؤدوا النفقات الكثيرة المتوجبة عليهم؛ خاصة من جراء المحاكمات، وفي الدعاوى التي كانت تقام ضدهم.

وأخيراً؛ تهببت الكنييسة إلى مخاطر هذه المواعظ، فألغت بيع مناصب الواعظ.

وشكلت الطوائف المجمعية Congregationalists التي طورد أعضاؤها - فيما بعد - وأخرجوا من إنجلترا، تياراً اقليةً داخل الحركة التطهيرية التي كانت غالبيتها المشيخانية (البرسبيتارية) Presbyterians تريد المهادنة. وتخشى التفرقة والانشقاق. وكان اتباع هذا التيار ميالين إلى البرلمان. وينتمون إلى الطبقة الوسطى من أهل المدينة. وفي مواجهة الخطر الذي كانت تشكله الثورات الشعبية - بالنسبة إلى النظام القائم - حاول ملك إنجلترا تشارلز الأول Charles I (١٦٠٠ - ١٦٤٩) (حكم من ١٦٢٥ إلى ١٦٤٩)، عند خلافة مع البرلمان، وفي مطلع الحرب الأهلية، أن يعتمد على تضامن المالكيين^(١). ولكن الأعيان من جماعة البرلمان - خاصة في شرقي إنجلترا ولندن - حطموا هذا الحلف، أو هذا التضامن، واعتمدوا على الشعب للقيام بالثورة الإنجليزية. ويرى ش. هيل أن تقدم التطهيرية ساعد على هذه القطيعة بين الملك والمالكيين، فقد كان ثمانون بالمئة من الوعاظ التطهريين من شرقي إنجلترا. وعمل هذا على تخفيف خوف المالكيين من الشعب؛ لأن الشعب كان محتضناً ومحاطاً تماماً.

وفي لندن؛ لم يكن أصحاب المصانع الصّفّار من التطهريين يخشون عمّالهم؛ لأنهم كانوا - في المساء - يعلمونهم القراءة والكتابة والأفكار الدينية والسياسية. وشكل هؤلاء الصناع من الحياكيين والأجراء الدائمين طبقة وسطى مضمونة الجانب؛ فقيرة، ولكنها تؤمن بالإصلاح إيماناً قوياً.

وأدّى إعدام الملك شارل الأول وأهمية الجمعيات المستقلة التي كان أعضاؤها من بين جنود أوليفر كروم Oliver Cromwell (١٥٩٩ - ١٦٥٨)^(٢).

(١) كان الملك تشارلز الأول يمتدّد بالحق الإلهي للملوك، وأن الملوك فوق القوانين، وفوق أي محاسبة من قبل البرلمان. وقد أثار بسلوكياته الثورة الإنجليزية التي وقعت فيها الحرب الأهلية بين جيش الملك والجنود التابعين للبرلمان. وقد هزمت جيوش الملك، وقبض عليه البرلمانيون، وأودعوه السجن، ثم أدين بالخيانة، وحكم عليه بالإعدام بقطع الرأس، وتم تنفيذ ذلك في يناير من عام ١٦٤٩. (دائرة معارف إنكارنا الأمريكية).

(٢) أوليفر كرومويل زعيم الثورة الإنجليزية (١٦٤٠ - ١٦٦٠)، وأحد التطهريين، وأول عضو عموم بريطاني يحكم بريطانيا، مع أنه من عامة الناس (أي خارج العائلة المالكة) في فترة إلغاء الملكية، بعد الإطاحة بالملك تشارلز الأول.

ومن المثقفين اليساريين، ومن بعض شرائح الطبقات الشعبية، وميلها للتسامح، إضافة إلى الفرق السياسية الأصلية أو الراديكالية، إلى إرهاب أكثرية التطهرين البرسبيتاريين، وبعد موت أوليفر كرومويل؛ خاف هؤلاء على أنفسهم، وساعدوا على عودة الملكية.

وكان البرلمان كهنوتياً في معظمه، فحرّض الملك تشارلز الثاني (١٦٣٠ - ١٦٨٥)^(١) على عدم احترام الوعود المقطوعة للتطهرين المعتدلين. وبعد قانون التوحيد الديني الذي صدر سنة ١٦٦٢، اضطهد التطهريون حتى ثورة ١٦٨٨، الأمر الذي حمل الكثيرين منهم على الهجرة؛ وخاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية (التي لم تكن تحمل هذا الاسم يومئذ).

ب- التطهريّة الأمريكيّة

يمكن أن نهيّز بين موجتين فيما يخص الهجرة التطهريّة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر:

الأولى كانت هجرة الأباء الحجاج، وهم تطهريون انفصاليون من المقاطعات الشمالية في إنجلترا - وبعد إبعاد دام اثنتي عشرة سنة في ليد Leyde في هولندا، خافوا أن تتحول ذريتهم، وتصبح هولندية، وأن يغطى عليها محيط كانوا يرونه فاسداً من الناحية الأخلاقية وهرطوقياً. فهاجروا على سفينة ماى فلور May Flower إلى أمريكا. وقد مول سفرهم هذا تجار من إنجلترا. وأسسوا في الولايات المتحدة مدينة «نيو بلايموث» - The Colony of New Ply-mouth (مكان ولاية ماساتشوسيت Massachusetts الحالية)، فأصابته هنالك المجاعة والأمراض، فأواهم الهنود الحمر، وعلموهم كيف يزرعون الذرة، وكيف يستعملون السمك كسماد كيماوي، وأنقذوا منهم بضع عشرات من الموت المحتم. وجاءت موجة ثانية أضخم عدداً، في سنة ١٦٣٠؛ أي بعد سنة من حل البرلمان على يد تشارلز الأول. وجلب هؤلاء التطهريون الجدد - الذين كانوا قد انفصلوا

(١) حكم إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا في الفترة: (١٦٦٠ - ١٦٨٥).

عن الكنيسة الأنجليكانية - معهم الرساميل التي أتاحت لهم الاعتناء بالأرض، وأقاموا في خليج ماساتشوسيت.

اعتبر تطهريو إنجلترا الجديد (نيو انكلاند) أنفسهم شعب الله المختار. وقالوا بأن كنيستهم سوف تكون (إسرائيل) الجديدة، وأنها مملكة الشعب العبرى الوارد ذكرها في العهد القديم. وكانت أمريكا في نظرهم هي أورشليم الجديدة، والملاذ الذى اختاره الله لهم لكى يحميهم من الفساد، ومن الفناء. أما الهنود الحمر؛ فكانوا في نظرهم بقايا شعب ملمون، قاده الشيطان إلى هذه القارة حتى يحكم. وكانت هذه الأفكار ذريعة دينية تبرر اغتصاب الأرض من قبل هؤلاء الدخلاء الجدد. ورغم أنهم صرّحوا - فى معظمهم - أنهم أمناء لكنيسة إنجلترا، فقد عمد هؤلاء التطهريون إلى تنظيم وظائفهم وفقاً للأسلوب المشيخي (البرسبيترى). وكانت الكنيسة - يومئذ - محور الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية. ولكى يكون المرء عضواً فى الأبرشية كان عليه أن يعلن عن ولائه للأبرشية، وأن يركبه أعضاؤها الآخرون. وكانت أكثرية السكان فى المدينة تذهب إلى الكنيسة دون أن يكون كل فرد عضواً إلزامياً فيها. وحتى دون أن يكون متمتعاً بحقوق المواطن. أما المستبعدون؛ فكانوا مطاردين من قبل السلطة المدنية. وكان القيمون على العقيدة يؤخذون من داخل الطوائف، وهى التى تنتخبهم، ولم تكن هناك تراتبية كنسية. وفى سنة ١٦٤٨، صادق مجمع كمبريدج على صك الإيمان الصادر فى «وست منستر» Westminetr.

وفى زمن كان الدين والسياسة فيه متداخلين، لجأت التطهرية إلى القاضى ليحكم على أولئك الذين يعتبرهم هرطقويين، ولكنها علمت أتباعها روح التمرد إلى حد الخروج على القانون. وبعض أعضائها فضلوا الإبعاد مرة ثانية على الخضوع. فقد ذهب رجل الدين التطهري الإنجليزي الأصل روجز وليمز Roger Williams (١٦٠٢ - ١٦٨٣) مؤلف كتاب الهرطقتان، (الهرطقة الأولى تؤكد أن حقوق الهنود فى الأرض هى حقوق صحيحة ومحقة. والهرطقة الثانية تمنع القضاة المدنيين من ممارسة سلطات كهنوتية)، ليؤسس مستعمرة «رود آيلند»

Colony of Rhode Island التي غدت مهد الكنيسة المعمدانية، وملاذ الحرية الدينية. ولما اضطهد الكويكرز رجعوا إلى بنسلفانيا؛ حيث أظهروا التسامح الشديد. وعند محاكمات مدينة «ساليم» Salem في ماساتشوسيت بتهم الشعوذة في سنة ١٦٩٢، حصل نوع من الاضطهاد الديني، حكم على أثره على تسعة عشر شخصاً بالموت.

وفي أواخر القرن السابع عشر؛ أدت المصاعب المادية والحروب ومجىء غير الطهوريين إلى خمور الوهج الديني والأخلاقي عند التطهريّة الأمريكية. وتم التخلي عن النظام التيقراطي، وسمح لكل إنسان ملاك بالتصويت، وبصورة تدريجية؛ شاع التسامح الديني، واستقر.

ج- التطهريّة والرأسمالية

في كتابه الشهير الخلفية البروتستانتية والفكر الرأسمالي، يحلل م. وبيبر البروتستانتية، وخاصة التطهريّة في الفكر الرأسمالي، ويرى أن العقيدة الكالفينية حول المصير المحتوم، خلقت نوعاً من الهلع والنشاط والنجاح المهنيين، يفسرهما المؤمن كمؤشر على الاضطفاء الرياني. وبخلاف ما اعتقده المؤرخون أن التطهريين كانوا ضد التمتع بالثروة، والنوم على حرير التملك، إلا أنهم لم يكونوا ضد العمل والسعي لجمع خيرات الأرض بالعمل، ولا ضد التملك بالذات. وكانوا يرون أن الرفض الزهدي لمخاطر الثروة لا يتنافى مع الواجب الديني الرامي إلى السعي من أجل الاغتناء.

ويرى ر. ه. توني: «أن الاكتشافات الكبرى ونتائجها الاقتصادية كانت السبب الأساسي في النمو الرأسمالي، وأن الإصلاح الديني - وخاصة بشكله التطهري - قد تم بفضل صعود الطبقات الوسطى، وبفضل العقلية المتاجرة. وإن التطهريّة بعد أن قبولتها البنيات الاقتصادية الاجتماعية، قد ساعدت على تدعيم هذه البنيات بإيجاد المبرر لها باسم الله. وقد وجد الفكر الرأسمالي في بعض أشكال التطهريّة عنصر قوياً حيويته ومزاجها».

ويرى مؤلفون آخرون العكس، ويزعمون أن التطهريّة لم تكن لها هذه الأصالة، إذ يرى و. سومبار أن هذه الحركة كان لها تأثير إيجابى على ازدهار الرأسمالية، بمقدار ما استعادت أفكاراً كانت واردة - وبقوة أكبر - فى الديانة اليهودية التى تمتاز بأسبقيتها. وذهب ك. سمويلس إلى أبعد من ذلك، فرفض الفكرة القائلة بأن فكر الرأسمالية كان يمكن أن ينطلق - حتى ولو جزئياً - من تأثير دينى، مهما كان.

فهو يرى أن العقليّة الرأسمالية تسيّر - جنباً إلى جنب - مع زمننة كل النشاطات البشرية بشكل تدريجى. ومهما بدت هذه الملاحظات معقولة، تظل الأطروحة الويبرية دونما دحض. إن هذه النظرية تركز على المظاهر الخصوصية للرأسمالية الغربية الحديثة. إن التطهريّة قد لعبت دوراً عند مستوى التنظيم العقلائى والبيروقراطى للعمل الحر.

وهذا الأثر اندمج بعوامل أخرى تاريخية. وويبر يدعو - بإلحاح - إلى تصور أكثرى (تعددى) للسببية، وهو - من جهة أخرى - يبين أنه يوجد فرق بين الرأسمالية اليهودية المتجهة نحو المضاربة والاستغلال - رأسمالية المنبوذين - والرأسمالية التطهريّة التى كانت تنظيمياً برجوازيّاً للعمل. وأخيراً: إنه لا ينكر أهمية عملية الزمننة، ولكن؛ يبدو أن التقشف العلمانى عند التطهريين قد ساعد هذه العملية، فى حين أن الكاثوليكية قد لجمتها بوجه عام. إن التطهريّة كانت موقفاً مميزاً وقفته الطبقة الوسطى الصاعدة، ولكنها - بعد أن نظرت أمانى كانت كامنة - أتاحت للبرجوازية البروتستانتية أن تلعب دوراً اقتصادياً مهماً جداً فاق الدور الذى لعبته البرجوازية الكاثوليكية.

والخلاصة أن التطهريّة أو البيوريتانية هى مذهب اعتنقه البروتستانت الإنجليز، ثم الأمريكيون، وله خصوصية فى فهم السياسة المعتقديّة الدينية والاجتماعية والاقتصادية... ظهرت فرقهم فى زمن الملكة إليزابيث. واستهدفت إصلاح كنيسة الدولة، وإلغاء الطقوس والأردية الكهنوتية، ونظام الرتب الكنيسة. ولم تكن الفرقة ترمى - فى أول الأمر - إلى الخروج على العقيدة

الأنجليكانية، إنما وجدت في لندن سنة ١٥٦٧، جماعة تسيّر في عبادتها على أسلوب أهل جنيف. وهكذا بدأ الانشقاق - تدريجياً - عن الكنيسة الرسمية. فظهر المشيخيون (البرسبيتاريون) والانفصاليون، وتبعهم الجمهوريون الذين انضموا إلى الكالفينيين في مقاومتهم لكنيسة إنجلترا. وعندما انتصرت حركتهم بمعاوضة التطهرين أخذ هؤلاء يتنازعون فيما بينهم. ووضعت عودة الملكية في إنجلترا حداً لسيادة التطهرين المؤقتة. وهاجر التطهريون - بعد الاضطهاد - إلى الولايات المتحدة الأمريكية - وظلت الروح التطهرية سائدة هناك لمدة طويلة.

ونظرة التطهرين إلى المجتمع هي نظرة تيوقراطية، والقس مخوّل سلطة مطلقة لمراقبة سلوك الفرد. والعائلة عندهم هي حُصن التقوى. وعلى الناس أن يمشوا في طاعة الله الملعنة إرادته في الكتاب المقدس. ويستعمل مصطلح التطهري - اليوم - للدلالة على التزمّت الديني والكبت.

٥- أصول البروتستانتية أو العقائد

المشتركة بين جميع فرق البروتستانت

رغم كثرة الكنائس البروتستانتية وكثرة الانشقاقات ضمنها، إلا أنها - جميعاً - تجتمع على أصول مشتركة هي القاسم المشترك بين جميع الفرق والتسميات والكنائس البروتستانتية المختلفة، ويحس بنا - في ختام هذا الفصل حول الإصلاح الديني - أن نلخص هذه الأصول والعقائد والخصائص والمبادئ التي تجمع بين جميع الفرق البروتستانتية، وهي الأمور التالية:

١ - يعتبرون أن التبرير (أي وصول الإنسان إلى البر أمام الله، وقبول الله له)، والخلاص الأخرى الأبدى إنما يكون بالإيمان وحده، وليس بالأعمال، ولا دخل للأعمال في الخلاص، بل هو هدية مجانية من الله. فمن آمن بالمسيح، وأنه ابن الله الذي فدى البشر، ينال الخلاص بلحظة الإيمان، دونما حاجة للأسرار، أو وساطة الكنييسة، أو الأعمال الصالحة، كما يرون أن المؤمن لا يهلك

مهما سقط، أو فعل.

٢- لا يستدون - فى عقائدهم وتعاليم دينهم - إلا إلى الكتاب المقدس Bible وحده فقط، ويرفضون كل عقيدة تأتي من خارجه؛ سواء مما يسمى «بالتقليد الكنسى» Tradition أو التسليم الرسولى، أو المجمع الكنسية، أو غير ذلك، وهذا الأصل جعلهم يرفضون عشرات العقائد والتعليمات والاجتهادات الكنسية الإضافية التى التزمت بها الكنيسة الكاثوليكية عبر العصور. مثل العقيدة بوجود المطهر Purgatory والعقيدة بالحبل بمریم العذراء بلا دنس (زى بلا حمل للخطية الأصلية)، والعقيدة ببقاء عُذْرَةَ العذراء، وبصعود جسدها بعد دفتها .. إلخ.

وعلى الرغم من اعتماد البروتستانت الكامل على الكتاب المقدس فى إثبات كل ما يؤمنون به، إلا أنهم يختلفون مع الكاثوليك والأرثوذكس فى عدة أمور هامة فى هذا المجال:

الأمر الأول: إن العهد القديم من الكتاب المقدس يضم عند الكنيسة الكاثوليكية ٤٦ سفرًا، فى حين يقتصر عند الكنائس البروتستانتية على ٣٩ سفرًا فقط، وذلك بحذف سبعة أسفار يعتبرونها (أبوكريفا) Apocrypha أى أسفارًا منحولة، أو مشكوكًا فى أصالتها، وصحة نسبتها، وهى: سفر يهوديت، وطوبينا، والمكابيون الأول والثانى، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروك، بالإضافة إلى مقاطع من سفرى استير، ودانيال.

الأمر الثانى: أنه رغم تقديس المسيحيين الكاثوليك والأرثوذكس للتوراة واعتبارهم إياها تمثل كلام الله، إلا أنهم يرون أن المسيح أعطاها تأويلاً جديداً، وفتح برسالته ودمه - على حد قول الكنيسة - عهداً جديداً - فلم يعد من الواجب الأخذ بحرفية شريعة التوراة؛ لأنها كانت عهداً قديماً، والمسيح جاء ببيان تأويلها، والمقصود الحقيقى منها الذى هو شريعة الروح، لا الحرف. فى حين أن البروتستانت ساووا فى الأهمية بين العهد القديم والعهد الجديد

للكتاب المقدس، وأعادوا الاهتمام بالمفهوم الحرفى للمهد القديم، وأخطر ما فى هذا الأمر أنهم اهتموا وأخذوا بالوعد الذى قطعه الله قديماً لشعب بنى إسرائيل بإعطائهم فلسطين أرض الميعاد، فأخذوا بهذه الوعود على حرفيتها، مما جعل كثيرين منهم يتعاطف مع تملك اليهود لأرض فلسطين.

الأمر الثالث: لا يؤمنون بأصوام الكنيسة المأخوذة - فى جزء منها - من تعاليم المهد القديم.

٣ - الاعتراف بالمسيح وحده معلماً، ونفى ضرورة توسط الكنيسة بوزرائها وتمرتباتها فى العلاقة بين الله والمؤمن.

٤ - أداء العبادة والصلوات والتراتيل باللغة الوطنية للمتعبدين، والاهتمام بقراءة الكتاب المقدس باللغة الوطنية للقارئ.

٥ - يرفض البروتستانت عبادة مريم العذراء، ودعائها، وطلب الحوائج منها، كما يرفضون عبادة الملائكة والقديسين تحت اسم إكرامهم، ولا يؤمنون بشفاعة القديسين، ولا بالصلاة على الراقدين، ولا بينون الكنائس على أسماء القديسين، ولا يستعلمون البخور، ولا يوقدون شموعاً لهم، ولا يختلفون بأعيادهم.

٦ - لا يوجد عند البروتستانت نظام طقس خاص لبناء الكنائس، ولا اتجاه إلى الشرق فى الصلاة.

٧ - يؤمن البروتستانت بالحكم الألفى للمسيح عند مجيئه بجسده ثانية إلى الأرض.

٨ - يرفض البروتستانت كل الأسرار والطقوس الكنسية عدا سرى المعمودية والعشاء السرى (الأفخارستيا)، فيتفق البروتستانت جميعاً فى رفض سر الاعتراف أمام الكاهن لأجل الغفران، ورفض سر الدهن بالذيت، أو الأصوام، أو العزوبية والتثبث، ويقتصرون على سرى المعمودية والقريان المقدس (العشاء السرى) فقط، ويفسرون الأخير تفسيراً رمزياً فلا يؤمنون بعقيدة الاستحالة Transubstantiation أى تحول خبز وخبز القديس إلى جسد ودم

المسيح فى جسم المتناول تحولاً حقيقياً سرياً كما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، بل يرون فى تناولهما إحياءً لذكرى فداء المسيح فحسب.

٩ - يرفضون إكرام الأيقونات؛ أى صور وتمائيل القديسين والآباء، فلا توجد فى كنائسهم أى تماثيل، أو صور.

١٠ - المراسم العبودية عند البروتستانت بسيطة خالية من الفخفة، فهم لا يستخدمون الآلات الموسيقية والمقاعد داخل المعبد، وهم متحررون من الأزياء والطقوس والمراسم والتمرتبات الكنسية، التى عند الكاثوليك والأرثوذكس، ولا يرسمون شارة الصليب... إلخ.

١١ - يؤمن البروتستانت - عموماً - بحرية العقيدة، وحرية التعليم، وحرية الفكر عند المتعبد.

١٢ - العودة إلى البساطة، والفعل الحر، والتساوى بين الشعب والإكليروس، فليس لكنائس البروتستانت من يترأس عليها رئاسة عامة، فهم يرفضون - تماماً - الرئاسة العامة على الكنائس المعطاة للبابا فى روما، ويؤمنون بما يسمى بالكهانة العامة لكل المؤمنين *The Universal Priesthood of Believers*؛ أى أن كل مسيحي مؤمن هو كاهن بعد ذاته. كما يشجع البروتستانت ترسيم النساء أعضاء فى الأبرشية، إشارة إلى مكان المرأة فى المجتمع اليوم.

١٣ - لا رهبنة عند البروتستانت، ولا تبتل، ولا عزوبية، ولا فقر اختياري، ولا أديرة.

١٤ - يؤمنون بمواهب الروح القدس - وخاصة موهبة الألسنة - وأنها لازالت قائمة.

١٥ - يؤمن البروتستانت - خاصة المتأثرين بالكالفينية - بنوع من الجبر، المبتنى على الإيمان بحرية اختيار الله لأناس معينين للهلاك، وأناس معينين للخلاص.

تاسعاً: حركة الإصلاح المضاد للكنيسة الكاثوليكية في نضالها مع البروتستانتية

١ - مجمع ترينت Council of Trent (١٥٤٥ - ١٥٦٢)

كانت الحركة الإصلاحية التي أثارها «مارتن لوثر» ضربة شديدة لكنيسة روما وللبابوية؛ خاصة أنه، منذ بداية الإصلاح، والبروتستانت الثائرون على كنيسة روما وعلى الكهنة الكاثوليك التابعين لها يضربون على وتر واحد؛ وهو نقد وفضح المساوي والمفاسد في الحياة الكنسية، داعين إلى تجديد جذرى، ومطالبين - لأجل هذا - بمجمع عام.

أدرك الباباوات الخطر المهدد، وبدلوا كل الوسائل الممكنة لتفاديه، فسمى كل من البابا لاون العاشر Leo X (١٥١٢ - ١٥٢١) وأديان السادس Adrian VII (١٥٢١ - ١٥٢٢) في خلق الحركة الإصلاحية بالقوة. وسلحاً - لأجل هذه الغاية - الإمبراطور كارل الخامس ضد لوثر وأتباعه أما البابا كليمنت السابع Clement VII (١٥٢٢ - ١٥٢٤)؛ فكان أحد الباباوات الأكثر أهلية؛ إذ فكر - بشكل جدى - بشأن الإصلاح الكنسى؛ أملاً أن يوقف الفليان الدينى بإجراء إصلاحات فعلية، وإزالة سواء الاستعمال. وعلاوة على اجتهاده فى وضع حد للحركة الإصلاحية بقوة وتأثير الإمبراطور، سمى - فى الوقت ذاته - باستخدام الدسائس والأنواع المختلفة من الحركات السياسية للقضاء على البروتستانتية، لكن كل مساعى الباباوات ذهبت سدى، فالبروتستانتية انتشرت أكثر. فأكثر، ورغم أن الإمبراطور كان يعمل لصالح كنيسة روما، إلا أنه - هو بدوره - طلب إصلاحاً كنسياً، وطالب بعقد مجمع عام لهذا الغرض. كان عقد مجمع عام فى ذلك أخطر شيء على السلطة البابوية؛ بسبب النزعة العامة إلى الإصلاح. لذلك تحجج البابا كليمنت السابع بأعذار مختلفة؛ ليتجنب الدعوة لإنعقاد المجمع الذى كان الإمبراطور يطالبه به بإلحاح خاص. ولكن بولس الثالث Paul III (١٥٢٤ - ١٥٤٩) خليفة كليمنت فكر فى الأمر بنحو مختلف. فقد رأى أن

المجمع العام، إذا التأم، وصارت قيادته تحت التأثير المباشر للبابا، يمكن أن يكون - حسب تفكيره - وسيلة ممتازة لدحر الحركة الإصلاحية، وتوطيد الكتلة على أسس متينة، لذلك وافق - بسهولة - على دعوة المجمع؛ مهتماً بأن يجعل المجمع تحت تأثيره.

بعد مفاوضات طويلة؛ تعين مكان المجمع في سنة ١٥٤٢، مدينة ترينت Trent، على الحدود بين إيطاليا وألمانيا. وافتتح المجمع في سنة ١٥٤٥، وقد حصلت مداورات كثيرة في المجمع، وتأجلت جلساته مراراً، واستمر ينعقد، وتشبب فيه الخلافات، ثم توجلب بقية جلساته، ثم ينعقد ثانية، حتى أنهى ذلك المجمع التريدينتي نشاطه أخيراً سنة ١٥٦٢، وأرسلت قراراته إلى كل الجهات الكاثوليكية للعمل بموجبها، ثم منع البابا - بكل حزم، وبمرسوم خاص لأي كان - أن يفهم ويفسر قرارات المجمع بموجب فهمه، وترك هذا الحق محصوراً بالكرسي الرسولي. فأضعف هذا التحديد أهمية قرارات المجمع الإصلاحية. ومع هذا؛ فقد غير مجمع ترنت كثيراً من حياة كنيسة روما إلى الأحسن.

وأهم مقررات المجمع التريدينتي أنه ثبت بسلطته تعليم الإيمان الكاثوليكي، وحكم على البروتستانتية مع ما قام به من تحسين في الحياة الكنسية، معطياً إياها وقوة في النضال مع الإصلاح. بعد المجمع؛ بدأت القلاقل الدينية تضعف بالتدرج في البلاد الكاثوليكية، وبذلك وضع حداً لانتشار البروتستانتية فيها.

٢- جمعية اليسوعيين ودورها البارز في الإصلاح المضاد

علاوة على مجمع ترنت، كان للجمعية اليسوعية، التي ظهرت في أشد أوقات الإصلاح حراجة أهمية عظيمة في تاريخ نضال كنيسة روما مع البروتستانتية، أو ما عرف باسم حركة الإصلاح المضاد Counter Reformation.

أسس هذه الجمعية شريف أسباني هو «أغناطيوس لويولا» St. Ignatius of Loyola وفي في قصر من قصور النبلاء في «جيبوزكوا» Guipuzcoa في مملكة «الكاستيل» Castile (الجزء الشمالي من أسبانيا الحالية)، وكان ذا ميول

بطولية، دخل في الخدمة العسكرية تحت قيادة «أنطونيو مانريك» دوق «نجيرا»، وفي سنة ١٥٢١، في أثناء الدفاع عن بامبيلونا Pampeluna، التي حاصرها الفرنسيون، أصيب إصابة بالغة كاد يموت بسببها، وبقي مدة طويلة تحت المعالجة. وفي أثناء مرضه؛ تمكن من قراءة سيرة حياة الراهب دومينيك، والراهب فرنسيسك، فشغف بحياتهما؛ لدرجة قرر معها أن يتبع مثالهما. وهذه هي التجربة أو المحبة الروحية التي غيرته، وحولته - بالكلية - إلى إنسان متدين حكيم يؤمن بالمسيح، وينذر نفسه للدعوة، فموضاً عن المجاهدات الحربية التي لم يعد قادراً عليها بسبب مرضه، أخذ يفكر بالمجاهدات الروحية. وقد شغل المقام الأول في تصورات العمل لإدخال المسلمين في المسيحية (عاصرت هذه الفترة بدء اندحار المسلمين من الأندلس). وحالما تعافى من مرضه، غادر «لويولا» المجتمع، وبدأ حياة تنقلية مليئة بإنكار الذات، ثم توجه إلى أورشليم. ولكن؛ هناك أحس بعائق أمام غيرته على هداية غير المسيحيين - خاصة المسلمين - إلى المسيحية، وهو أنه كان يجهل حقائق الإيمان. لهذا؛ شرع - بعد عودته - بدرس اللاهوت في باريس. ولكن؛ لم يفارقه ذلك الحماس الديني، والحمية لهداية غير المؤمنين (أي غير المسيحيين!).

وقد استطاع أن يثير التعاطف مع نواياه في بعض رفاقه، فألف جمعية صغيرة من أشخاص شاطروه في توجهاته، وكانت تلك هي نواة الجمعية المستقلة.

في سنة ١٥٢٤؛ نذر «لويولا» ورفاقه - في إحدى كنائس باريس - الفقر (أي عدم الكسب، وعدم امتلاك أي شيء من مال الدنيا ومتاعها)، والعفة (أي العزوبية والاستكفاف عن الزواج)، وأقسموا أن يكرسوا حياتهم للاهتمام بالمسيحيين في أورشليم، وهداية غير المؤمنين (المسلمين والوثنيين) إلى المسيح، بطريقة الموعظة الحسنى، والمرونة، والمسامحة، والانفتاح على الناس، والتغفل في أوساطهم الشعبية، والانتشار في العالم.

وبانتهاء دروسهم - سنة ١٥٢٧ - توجهوا بأجمعهم إلى البندقية؛ ليجروا من

هناك إلى اورشليم (القدس)، لكن الحرب التي كانت دائرة في ذلك الوقت بين الصليبيين والأتراك (المماليك البحرية) أوقفتهم عن السفر، وفي الوقت ذاته؛ رزى «لويولا» أن اندفاعهم للعمل لصالح الكنيسة يمكن تحقيقه - أيضاً - في البلدان الغربية المسيحية؛ حيث تزعزع الإيمان كثيراً نتيجة للفوران الإصلاحى؛ لذلك قَبِلَ - هو ورفاقه - في البندقية درجة الكهنوت، وأقاموا من نفوسهم وعاظماً متقلين يقنعون الجميع، ويدعونهم إلى التوبة في كل مكان. وفي أثناء تنقلهم من مدينة إلى أخرى وصلوا إلى روما (١٥٢٩)، وهنا استطاعوا - بغيرتهم الخارقة العادة على الوعظ، وشكل حياتهم الصارمة - أن يجذبوا إليهم عظماً عظيماً، حتى إن كثيرين أخذوا يعلنون رغبتهم بالانضمام إليهم. فقرر «لويولا» - الآن - أن يؤسس - رسمياً - جمعية، ورتب - مع رفاقه - قانونها. وفضلاً عن النذور الرهبانية الثلاثة: الفقر والعفة والطاعة، وضعوا على أنفسهم نذراً رابعاً هو الطاعة المطلقة للبابا، وأوجبوا على نفوسهم إتمام كل ما يأمرهم به، والذهاب سريعاً حسب توجيهه إلى كل مكان يرسلهم إليه بدون تردد. وكانت غاية الجمعية - كما تحددت في قانونها - نشر وتثبيت الإيمان والكنيسة، ويجب أن تكون الوسائل لهذا هي: البعثات إلى الوثنيين والمحمديين (الاسم الذى كانوا يطلقونه على المسلمين!) والهرطقة، وبالإجمال؛ إلى أى مكان إذا كان في ذلك الحصول على الهدف، وإقامة مؤسسات خيرية ومعاهد علمية تعليمية وتربوية، والوعظ، وأخيراً؛ الاعتراف. وبما أن أعضاء هذه الجمعية نذروا أنفسهم للنضال ضد مملكة الشيطان؛ فكانوا بمنزلة جنود للمسيح، لذا؛ أعطوا لأنفسهم اسم (جمعية يسوع، أو أخوية - أى رهبانية - يسوع). ورأى البابا بولس الثالث - الذى كانت حركة الإصلاح البروتستانتى قد ضيّقت عليه الخناق، في جمعية لويولا هذه، وفلسفتها الجديدة - سلاحاً ممتازاً للنضال ضد حركة الإصلاح المادية للكثلكة والبابوية تلك؛ ثبت قانون تلك الجمعية سنة ١٥٤٠. وحافظ البابا بولس الثالث PouI III وخلفاؤه؛ وخصوصاً جوليوس الثالث Ju- lis III، حافظوا بكل عناية على الجمعية، وأعطوها حقوقاً وامتيازات لم تلها

أى جمعية؛ لأنهم وجدوا فيها الرد الكاثوليكي الناجع على الدعوة إلى النهضة والإصلاح والتنمية والتغيير.

تنظيم جمعية اليسوعيين الداخلى

انقسم أعضاء الجمعية إلى عدة مراتب: المرتبة الأولى، وهى الأدنى، تتألف من الشباب الذين تتم تهيئتهم فى معاهد خاصة للدخول فى الجمعية؛ حيث كان اليسوعيون ينتخبونهم - غالب الأحيان - من عداد طلاب كلياتهم ذوى الكفاءة الناجحين بامتياز، وكانت التهيئة تتحصر - قبل كل شىء - فى إنماء الخضوع والإخلاص للجمعية، وكان من الواجب على كل من يستعد للدخول فى الجمعية أن يقطع كل علاقة شخصية له مع العالم، وأن ينكر إرادته الشخصية، والعقائد، والميول، وأن يسلم ذاته - بكلية - لأمر الجمعية كأنه جثة، أما الرتبة الثانية؛ فتتألف من السكولاستيون (أى المدرسيون المتعلمون)، ويدخله المستعدون الذين نجحوا فى الامتحان، ويعطون النذور الثلاثة الأولى؛ الفقر، العفة، والطاعة، ويخدمون بصفة مساعدين للمعلمين والمبشرين، وما أشبه، وبمقدار ما يظهر السكولاستيون استعدادهم إلى هذا النشاط أو ذاك ينتقلون إلى صف المرشدين الروحيين، ويؤلفون المرتبة الثالثة للجمعية، ويعينون فى وظيفة معلمين، وأساتذة، ووعاظ، وأباء اعتراف، وغيرها، وفضلاً عن هؤلاء المرشدين الروحيين؛ كان من اليسوعيين - أيضاً - مرشدون علمانيون أعطوا - كذلك - ثلاثة نذور بسيطة، ويعينون للخدمة المنزلية فى معاهد الجمعية المختلفة. وأخيراً؛ كانت رتبة الجمعية الرابعة التى تتألف من البروفسورية (الأساتذة الكبار) الذين أعطوا النذر الرابع فى الطاعة المطلقة للبابا، ولا يتعين فى هذه الرتبة إلا المرشدون الروحيون فقط، الذين امتازوا بمقدرة ممتازة، ومعرفة، وإخلاص، وحنكة، وكانوا يتسلمون الوظائف الأكثر أهمية فى الظلمة، وكذلك البعثات المختلفة والسفارات. وعلى الجمعية؛ يقف جنرالها الذى ينتخبه الأساتذة الكبار من بينهم طول الحياة، ويتمتع بسلطة لا حدود لها فى إدارة الجمعية، ويتوجب على كل أعضاء الجمعية الخضوع التام له؛ إنه جنرال غير

مرتبط بأحد سوى البابا؛ وحيث أن أعضاء الجمعية - مع كل مؤسساتها أينما وجدوا - كانوا خاضعين لجنرالهم؛ فهم يستثنون من كل أنواع الخضوع لأى سلطة روحية أخرى. وعلى هذه الصورة؛ فالجمعية اليسوعية - وعلى رأسها جنرالها الذى مركزه فى روما - تمثل - بذاتها - مملكة ضمن مملكة، أو بالأصح كنيسة خاصة ضمن الكنيسة. وتتقسم كل المملكة اليسوعية - حسب انتشارها فى جهات مختلفة - إلى ولايات، يعين الجنرال رؤساء عليها من الأساتذة الكبار باسم ولاية. وكانت توجد فى إدارة الولاية - وتحت رئاسة الجنرال الأولى - كل المؤسسات الكائنة فى الولاية المختصة بالجمعية: المشافى، المياتم، المبتدئون فى الرهبنة، المدارس، الكليات، البعثات، وغيرها، ويدير مؤسسات الجمعية رؤساء خاصون... إلخ. وبالإجمال؛ كان كل شئ فى الجمعية من الجنرال حتى آخر خادم منظماً بترتيب صارم جداً، وبخضوع تام، وطاعة الأعضاء الأدنى مرتبة للأعلى.

وقد تم حفظ هذا الترتيب بواسطة نظام رقابة وتجسس مبنى على قواعد مضبوطة؛ حيث يتجسس بعض أعضاء الجمعية على البعض الآخر، فالذين فى المقاطعات يجب عليهم أن يشوا للجنرال - فى مدة معلومة - عن الحالة، وسير الأعمال فى مقاطعاتهم، وفى الوقت ذاته؛ يجب على المعينين رقباء عليهم من قبل الجنرال أن يشوا بالولاية وأعمالهم سراً، وفى مدة معلومة. وكذلك كان هناك رؤساء لمؤسسات منفصلة يرسلون وشايات مؤقتة إلى رئيسهم، وكذلك إلى الجنرال، ويتوجب على مساعديهم أن يعملوا - كذلك - مستقلين عنهم.. إلخ. فالجنرال الواقف على كل شئ من مصادر مختلفة، عن كل شخص فى الجمعية ماذا يعمل؟ وحتى بماذا يفكر؟ يتصرف بكل شئ، وبالجميع، دون أن يكون مسئولاً أمام أحد عن عمله، يعاقب من يشاء، ويرحم من يشاء حسب رأيه، ويعين فى وظيفة، ويعزل، وبالإجمال؛ يوجه أعمال كل واحد، والواقع أن الجنرال نفسه لم يكن مستثنى من رقابة الجمعية، فيوجد لديه - بدون انفصال - أربع رقباء، وأب روحى واحد من الأساتذة الكبار، وهؤلاء ينتخبهم الأساتذة

الكبار.. بيد أن الرقباء لا يتدخلون بشأن أوامره، ولا يضيقون على سلطاته غير المحدودة، والغاية الأولى من تعيينهم هي مراقبة الجنرال؛ لكي لا يتحول عن مقاصد وأهداف الجمعية، وكان لهم الحق - عند الضرورة - أن يقوموا باستدعاء عقد اجتماع لمجلس الأساتذة الكبار لأجل إجراء محاكمة الجنرال (الأمر الذي لم يحدث في كل مدة الجمعية)، ثم - بعد ذلك - يصيرون وزراء بسطاء لدى جنرال الجمعية صاحب السلطة المطلقة.

نظمت جمعية اليسوعيين - لأجل نشاطها - قوانين أخلاقية فريدة؛ فاليسوعيون الذين اختاروا لأنفسهم طريقة الجدل الفلسفي السكولاستيكية - للبرهان على عقائدهم ودحض ما يخالفها - طبقوا هذه الطريقة على التعليم الأخلاقي أيضاً، وأوجدوا منهاجاً أخلاقياً جديلاً يمكن - على أساسه - أن نعترف بكل نقيصة، أو كل جريمة بأنها غير محسوبة أخلاقياً. والتجؤوا في هذا المضمار - قبل كل شيء - إلى نظرية ألفوها وسموها نظرية التبرير، وينحصر جوهرها في ذلك الرأي القائل بأن أى عمل يتم لا يعتبر ضد القوانين الأخلاقية إذا أمكن أن يقدم - لأجل تبريره - أساس يشبه الحقيقة، أو رأى أحد اللاهوتيين الموثوقين. وإذا لم يمكن تطبيق نظرية التبرير هذه؛ فإن اليسوعيين يلجؤون إلى وسيلة أخرى ماكيافيللية (على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة)، وبموجبها يمكن إثبات كل عمل مخالف للأخلاق شريطة ألا يكون هذا السلوك غير الأخلاقي هو الغاية الأولى، بل يكون عمله وسيلةً اضطرارية لأجل الحصول على غاية مسموحة وممدوحة. أعنى: ينتج من رأيهم أن الغاية الحسنة تبرر كل الوسائل القبيحة. وأخيراً؛ يلجأ اليسوعيون إلى حيلة ثالثة لبقة. وهو التعليم الذى يسمونه التحفظ الفكرى؛ على أساس هذا التعليم سمحوا أن يعطى قسم، ووعود كاذبة، ولكن؛ يجب عند ذلك أن يضع فى عقله تحديداً ورفضاً للقسم والوعد.

بدأ نشاط هذه الجمعية منذ تثبيت قانونها. وبفضل تنظيمها المتين، وعقل وحذق أعضائها، وكذلك الامتيازات المعطاة لها من الباباوات، انتشرت بسرعة

خارقة في كل جهات أوروبا، وحتى أنها دخلت في جهات العالم الأخرى، وحيثما يسكن اليسوعيون، فإن أول ما يعملونه هو بناء إحدى المؤسسات: المستشفيات، دور رعاية الأيتام، مدارس الأولاد، ويعملون بالوعظ، ويجعلون من أنفسهم آباء اعتراف (مرشدين)، وما أشبه.

وبواسطة المستشفيات والمياتم؛ يكتسبون عطف الشعب (الطبقات المحرومة). وبواسطة المدارس والكلديات يستلمون كل الثقافة بأيديهم، ويرون النشء الصغير على الروح الكاثوليكية الصارمة.

وعندما يكونون وعاظاً فإنهم يظهرن كمناظرين محنكين ضد البروتستانتية، ومدافعين عن جميع عقائد كنيسة روما. وأخيراً؛ وبواسطة الاعتراف، فإنهم - إجمالاً - تساهلون في أخلاقية التصرفات، نتيجة لأراء اليسوعيين الأخلاقية الخاصة.

لم يتمكن اليسوعيون من جذب كثير من الطبقات الشعبية إليهم فحسب، بل استطاعوا أن يخضعوا ضمير التائبين، ويوجهوه حسب إرادتهم. وبما أن اليسوعيين يعملون على هذه الصورة لصالح كنيسة روما، فإنهم لا يتحرجون - لأجل التوصل إلى أهدافهم - من القيام بوسائل أخرى، يشغل المكان الأول من بينها الدسائس المصحوبة بأعمال غير حسنة. ولما كانوا يحتقرون كل القوانين الأخلاقية لأجل الحصول إلى غايتهم، فهم لا يتورعون عن ارتكاب الجريمة. وكانت قصور الملوك الكاثوليك والأمراء - التي اجتهد اليسوعيون أن يشغلوا فيها وظيفة آباء روحيين ومستشارين أيضاً - مجالاً رحباً لنشاطهم، ودسائسهم، ومكائدهم، التي نجحوا - من خلالها - في تحقيق الغاية الحقيقية البعيدة للجمعية؛ ألا وهي انتصار كنيسة روما في حريها ضد البروتستانت. وهكذا سار نضال كنيسة روما مع البروتستانت بشكل أكثر نجاحاً بفضل اليسوعيين. ففي النصف الثاني من القرن السادس عشر؛ تمكن اليسوعيون من إيقاف انتشار البروتستانت في بعض المناطق الألمانية، بل حتى تمكنوا من نشر الكتلثة في مناطق أخرى. أما المناطق التي لم يتمكن اليسوعيون أن يصنعوا فيها شيئاً

لإزالة البروتستانتية بالوسائل المادية؛ فقد اجتهدوا أن يخنقوها بالنار والسيف، كالمساهمة الفعالة التي لعبوها مثلاً في الحروب الدينية التي قامت في فرنسا لأجل سحق الكالفينية، والتي حصلت فيها مذابح راح ضحيتها عشرات الآلاف من المسيحيين الكالفينيين، وكالدور الذي لعبوه في حرب الثلاثين عاماً في ألمانيا، التي كان هدف الكاثوليك منها اجتثاث جذور البروتستانتية تماماً؛ حيث كان اليسوعيون هم الذين هيئوها، وأوقدوا نارها، بل كانت تلك الحرب تسير بمشاركتهم الفعالة.

لدى وفاة «اغناطيوس لويولا» سنة ١٥٥٦، كان هناك أكثر من ألف يسوعى يعملون في أنحاء أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، والعالم الجديد (أى القارة الأمريكية؛ خاصة القسم الجنوبي منها؛ أى أمريكا اللاتينية). وبلغ عدد اليسوعيين عام ١٦٢٦م، ما يربو على خمسة عشر ألف راهب، في حين بلغوا حوالى ضعف هذا العدد في منتصف القرن التالى؛ أى عام ١٧٤٩.

جلبت الوضعية البارزة والخاصة التي كان اليسوعيون يتمتعون بها دون سائر الأخويات الرهبانية. ولعبهم دور أبطال البايوية المدافعين الأشداء على البابا، جلبت ضدهم عداوة الكثيرين ونفورهم، وكان سبب ذلك هو تنامي مشاعر الوطنية والقومية وحب الاستقلال لدى الأمراء في منتصف القرن الثامن عشر، مما أوجد روحاً معادية للبابا ولرجال الدين في ذلك العصر بشكل عام، وهكذا بدأ كثيرون - سواء من رجال الدين، أو من الأمراء العلمانيين - يسمون للقضاء على هذه الجمعية وحلها. وفى عام ١٧٧٢؛ قام البابا كليمنت الرابع عشر Clement XIV، تحت ضغوط حكومات كل من فرنسا، وأسبانيا، والبرتغال، بإصدار مرسوم بحل الجمعية، وإبطالها.

لكن؛ بعد مدة وجدت رغبة ملحة لدى أوساط كثير من الناس في فرنسا وغيرها بأن تعود الجمعية لممارسة دورها التعليمى والتبشيرى القديم، الأمر الذى حدا بالبابا «بيوس» الثالث Pius III أن يأمر بإعادة تأسيسها عام ١٨١٤. فواصلت - منذ ذلك الحين - عملها التعليمى والتبشيرى؛ حيث يوجد لها بعثات

فى كثير من بلدان العالم؛ بدءاً من الصين شرقاً، ومروراً بآسيا، وأفريقيا، وبلدان الشرق الأوسط العربية، وانتهاء بأمريكا؛ خاصة الجنوبية غرباً .

ولكن؛ مما يأخذه الناس فى بلدانهم ذات الأكثرية غير المسيحية على هذه الجمعية سعيها للتبشير عبر مدارسها لضمان تعليم المسيحية للناس منذ طفولتهم، وإغائها للغات الوطنية، ونشرها للثقافة الأوروبية. وسيادة الجنس الأبيض، بل كانت مدارسهم تعلم - فى البداية - باللاتينية، ثم تحولت إلى الفرنسية، والبرتغالية، والأسبانية، والإيطالية، وزادت الشكوى من خداع المبشرين واتباعهم أخس الوسائل لتحقيق أهدافهم، حتى فهم كثير من الناس من اصطلاح اليسوعية أو الجزويتية أنه المكر والدهاء .

ومن المآخذ الأخرى على الجمعية أن فلسفة اليسوعيين محافظة ورجعية، وتتكبر حقوق المرأة، وتستبعدها - بالكلية - من النشاط الاجتماعى العام، وتجعل للرجل السلطة الكاملة والسيادة الشاملة، وتحرم على النساء دخول التجمعات اليسوعية، وتقصرها على الرجال .

الجمعيات الرهبانية الأخرى التى ظهرت فى عهد الإصلاح والإصلاح المضاد

أما بقية الجمعيات الرهبانية التى ظهرت فى كنيسة روما فى عصر الإصلاح؛ فلم يكن لها الأهمية التى كانت للجمعية اليسوعية، مع أنها ظهرت تحت تأثير الإصلاح أيضاً، ولعبت دوراً فى تحقيق الإصلاح الكاثوليكي المضاد، وكان أهم تلك الجمعيات هى:

جمعية التياتين: تأسست سنة ١٥٢١، فى إيطاليا، وغايتها إتقان إكليروس الرعية فى إقامة واجباتها. وكان التياتين كهنة مع النذور الرهبانية، فكانوا يقومون بغيرة خاصة بإتمام كل الواجبات فى إتمام الخدمة الكنسية، والوعظ، والعناية بالمرضى والمحتضرين مجاناً ولوجه الله .

رهبة الكبوشيين: تُولف فرعاً لجمعية الفرنسيسكان القديمة. ظهرت فى سنة ١٥٢٨ - أقام الكبوشيون قانون فرانسيسك الأولى، وأدخلوا فى طريقتهم شكل حياة فقيرة صارمة، وبما أنهم لم يهتموا بالثقافة، فكانوا يختلطون - بشكل خاص - بطبقات المجتمع السفلى، يثبتون فيهم - مع الخرافات - احترام كنيسة روما.

رهبة البياريست Piarists أو البياريين: تأسست فى بداية القرن السابع عشر. وغاية هذه الجمعية تعليم وتهذيب الفتيان على الروح الكاثوليكية الصارمة. وكانت منتشرة - بنوع خاص - فى بولونيا، وفى الأماكن الروسية الواقعة تحت سلطة بولونيا، كما انتشرت فى أمريكا اللاتينية، وأمريكا الشمالية.

رهبة العازاريين والكننة المبشرين: The Order of the Lazarists أسسها فى فرنسا الكاهن الفرنسى القديس «فانسون دى بُول» Saint Vincent de Paul (١٥٨١ - ١٦٦٠)، مؤسس جمعية التبشير Congregation of the Mission، وغايتها تهذيب السكان المحليين تهذيباً دينياً أدبياً، ثم دخل العازاريون فى الشرق الأرثوذكسى لمقاصد تبشيرية.

رهبة الفيانت The Feuillant Monastic Order: أسسها - عام ١٥٧٧ - الراهب «جان دى لباريير» Jean de la Barriere رئيس دير الفيانت السيستيريكانى Cistercian Monastery of Les Feuiliants قرب مدينة «تولوز» جنوب فرنسا، كحركة إصلاحية ضمن أخوية السيستيريكان الرهبانية. فى عام ١٥٨٦، أقر البابا «سيكستوس الخامس» Sixtus V الأخوية الجديدة، وصادق عليها، وفى عام ١٥٩٢، اعتبر البابا كليمنت الثامن Clement VIII أخوية الفيانت جماعة منفصلة قائمة بذاتها.

يعيش الرهبان «الفيانت» على وجبة تتألف من الخبز والماء وخضروات الفصل، مع الملح فحسب. فهم نباتيون لا يتعاطون اللحوم، ولا يملكون أو يقتنون أى أثاث، وكانوا، تحت إشراف «باريير»، يمضون حياتهم بصمت كامل.

وبالصلوات والعمل اليدوى، وبعد حياة المؤسس؛ توسعت نشاطاتهم لتشمل أعمالاً ثقافية وأسقفية إرشادية. ازدهرت أخوية الفيانت فى فرنسا، وانتشرت فى إيطاليا. ثم انقسمت - عام ١٦٣٠ - إلى فرعين فرنسى وإيطالى، أخذ القسم الإيطالى اسم أخوية البرنارديين المصلحة Reformed Bernardines. وصل عدد الأديرة التى تديرها الرهبنة - فى أوج شعبيتها - إلى ٧٤ ديراً. لكن؛ فى القرن الثامن عشر؛ لم يستطع «الفييانت» أن يجذبوا إليهم إلا عدداً محدوداً من الراغبين، لذلك بدأ شأن هذه الرهبانية بالاضمحلال؛ خاصة عقب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، التى أبطلت جميع الجمعيات الرهبانية، وألغت قانونيتها. ولم يتم إحياء هذه الأخوية - فيما بعد - بل انتهت، وكان الانقراض نصيب الفرع الإيطالى لها أيضاً، والذى انقرض منذ بدايات القرن التاسع عشر.

عودة إلى التوحيد فى العصر الحديث

إذا كنا قد علمنا فيما سبق أن التوحيد هو أساس الديانة المسيحية - ولذلك كان له أنصار على مر العصور - وأن التثليث عقيدة عليه طارئة قد صيغت فى المجامع بيد بشرية، وهى بعيدة كل البعد عن وحى السماء، ومع ذلك فإن نجمها قد سطع فى أفق المسيحية بفضل الكنيسة ورجالها قرونًا من الزمان طويلة، فإننا ونحن فى العصر الحديث عصر التحدياوالفكرية والعقائدية نجد أن هناك دلائل واضحة تبين عن أقول نجم الثالث المسيحي والعقائدية نجد أن هناك دلائل واضحة تبين عن أقول نجم الثالث المسيحي وبزوغ شمس التوحيد مرة أخرى، وذلك من خلال أقوال مفكرى المسيحية وعلمائها العصريين الذين يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يرجعوا الثالث الذى لا يتوافق ومنطق العصر، ويعودوا بالمسيحية مرة أخرى إلى التوحيد الذى يتناسب مع منطق العلم والفكر، ومن خلال أقوالهم ونظرياتهم ستحمل العقائد الكنسية بمجملها سواء بقصد منهم أو بدون قصد إلى المتحف عما قريب إن شاء الله، ويسرع المسيحيون فى عقب ذلك زرافات ووحداناً إلى الدخول فى ركب الإسلام - دين التوحيد الخالص -، وحتى لا نسوق الكلام جزافاً سنبادر الآن إلى تحكيم العلم فى قضية الثالث والوحدانية، ثم نرجع فى هذه القضية بعد ذلك إلى أقوال مفكرى المسيحية فى هذا العصر.

أولاً: تحكيم العلم فى قضية الوحدانية والثالث

أقول ببيجاز غير مُخل: إذا ما ذهبنا إلى العلم لنحكمه فى قضية الوحدانية والثالث لوجدنا أنه لم ينته أى من العلماء فى أبحاثه عن الله تعالى الذى يثبت العلم وجوده أن له سبحانه ثلاثة أقانيم، أو أنه على صورة إنسان أو

شمس أو تفاعحة أو جمرة نار كما يصوره أصحاب الثالوث، بل اتفقوا جميعاً على اختلاف مشاربيهم أن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له ولا ولد. وها نحن نرى:

١ - يقرر العالم الإنجليزي هرشل (أنه كلما اتسع نطاق العلم كلما زادت البراهين الدامغة على وجود خالق أزلي واحد لا حدٌ لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده) (١).

٢ - وينفى عالم الطبيعة الأمريكى جورج ايرل ويفيس أن يكون الإله جزءاً من الإنسان، أو من هذا الكون المادى كما يدعى النصارى، وهذا هو ما يفهم من قوله: (إننى أفضل أن أومن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من الكون، بل هو حاكمه ومدبّره بدلاً من أن أتبنى هذه الخزعبلات) (٢).

٣ - وكذلك يعترف الفلكى الكبير جيمس جينز بأن للكون قوة واحدة - لا ثلاث - وهى غير متجسدة ولا شبيهة بالمادة، وذلك فى قوله: (إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر على عجل، لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة أو مهيمنة، وهذه القوة تشبه أذهاننا إلى حد كبير، وهذا لشبه ليس من ناحية المواطف والأحاسيس، وإنما هو شبه يتعلق بذلك المنهج الفكرى الذى يمكننا بالذهن الرياضى) (٣).

٤ - (ويقول سبنسر الذى لم يكن يعترف بالأديان: إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك) (٤).

٥ - ويصل الدكتور/ أ.ج. كروتين الذى بدأ حياته ملحداً نافيّاً لوجود إله

(١) الله واحد أم ثلاث؟ ص ١٢٧، د. محمد مجدى مرجان.

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٢، ٦٣، د. وحيد الدين خان.

(٣) الدين فى مواجهة العلم ص ٦٢، ٦٣، د. وحيد الدين خان.

(٤) الماركسية بين الدين والعلم ص ١٦٢، د. جميل محمد أبو العلاء.

مطلقاً يصل من خلال الأبحاث والاكتشافات الحديثة إلى الإيمان بالإله الواحد - غير مثلث الأقانيم - هو خالق الكون ومدبره، وفي ذلك يقول: (إذا تأملنا الكون وأسرارهِ وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته لابد أن نفكر في إله خالق، من ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيداً ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء؟ وعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منتظمة وفصول متتابعة لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة نزعت من الشمس ألقيت في الفضاء بلا معنى) (١).

٦ - ويكتب أحد علماء الطبيعة في مذكراته قائلاً: (إن ثمة عضلاً لا متناهياً يحكم العالم، وكلما أعمنتُ النظر استطلعتُ أن أبصر ذلك العقل الذي يشع خلف أسرار الأشياء.. إننى أعلم أن البعض قد يجد في هذا القول مدعاة للسخرية، ولكن هذا لا يعينى في قليل أو كثير.. إنكم قد تستطيعون أن تتزعوا جلدي من جسدي، ولكنكم لن تستطيعوا أن تتزعوا من عقلي إيماني بالله الواحد، أستغفر الله، فإنى لا أومن بالله فقط، بل أراه) (٢). والرؤية المقصودة هي الرؤية بالعقل لا بالعين.

من ذلك كله نعلم أن العلم الحديث قد توصل بالفعل إلى وجود الإله، واعترف به كقوة محركة للكون ومنظمة له، ولكنه لم يعترف أى اعتراف بأن هذه القوة تتكون من ثلاثة أقانيم، أو أنها تجسدت وتصورت في صورة مادية ونظر إليها الناس ورأوها، إن هذا الهراء لا يوافق عليه العلم وما ذاك إلا لأن المادة التي يتكون منها ذلك الجسم المنظور بلفظ العلم، قد تكونت من ذرات، والذرة (هي أصغر ما في العالم، وهي في الفبار غير مرئية، فقد تناهت في صفرها لدرجة أن ٢٠ مليوناً منها لا تكاد تعادل حجم رأس دبوس) (٣). فإذا

(١) الله والعلم الحديث ص ١٦، الأستاذ عبدالرازق نوفل.

(٢) كيف أرى الله ص ١٧، ١٨، عبدالودود شلبي، دار الشروف.

(٣) راجع الماركسية بين الدين والعلم ص ١٠١، د. جميل أبو العلا.

كانت هذه الذرة المخلوقة لا ترى بالعين المجردة - على أنها بمفردها عالم كبير - يرى خالقها ومدبرها؟ بل كيف يتحد هذا الخالق القوي بمخلوقاته الضعيفة، ويظهر في صورة إنسان مهان.

إن النصرارى كما يحكم العلم قد ضلوا في فهم نبيهم ورفعوه إلى مرتبة الألوهية بلا دليل ولا برهان، وهم بهذا قد كذبوا على أنفسهم وعلى الواقع، فالسيح ماهو إلا بشر، ومن الحماقة - كما يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي - (أن نظن في بشر مهما علا شأنه أنه خالق كوكبًا، ولماذا نذهب بعيداً إنه لم يستطع أن يخلق ذبابة فما دونها، فكيف يُعد إلهاً من يمجز عن أى خلق. إن الواقع الذى يعلو به صوت العلم - والبدئية - أنه من المستحيل جعل عيسى إلهاً يَخْلُق وَيَرْزُق وَيُحْيِي وَيُمِيت وَيُدِير شُؤن العباد والبلاد وأمر السماء والأرض.. إلخ؛ لأنه في حياته عبد ضعيف، وبعد مماته رفاتٌ وموارى في حفرة من التراب) (١).

وأصحاب الثالوث الذين بعدوا عن الوجدانية في القديم والحديث يشعرون بذلك جيداً، ومن ثم فهم يلتمسون له القوة التي تجعل منه إلهاً من طبيعة أخرى غير الطبيعة العاجزة كإنسان، وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله سبحانه وتعالى هي نسبة البنوة وكأنه ولى عهد، وزين لهم هذا التخبط أن عيسى ولد من أم فقط، وبذلك يصبح إلهاً وابن الله، بيد أن العقل والنقل والعلم الحديث يهدمون صرح هذا التحايل على رؤوس أصحاب الثالوث، ويشهدون جميعاً بأن الإله واحد أحد غير مثلث الأقانيم، وأنه سبحانه لا شريك له في الكون، ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (٢). وكل شيء غير هذه الحقيقة فهو خرافة، ولهذا القضية تنبه علماء المسيحية المعاصرون ومفكروها الذين استتارت عقولهم بنور العلم والمعرفة فحاولوا جاهدين إقصاء عقيدة التثليث التي تتولد منها شتى الخرافات،

(١) عقيدة المسلم ص ٥٥، ٥٦، محمد الغزالي.

(٢) سورة الشورى آية: ١١.

واستنكروا بكل قوة وجراءة ألوهية المسيح، والخلط بينه وبين الإله الخالق، ثم نادوا جميعاً بعودة المسيحية مرة أخرى إلى عقيدة التوحيد التي شهد لها العلم وجاء بها المسيح ﷺ.

ثانياً: تقويض فكرة المسيح الإله من خلال بحوث المسيحيين المعاصرين:

ولكى تعود المسيحية بالفعل إلى التوحيد الذي توافق مع منطق العلم والفترة ونصوص الأناجيل اتجهت بحوث مفكرى المسيحية إلى مسألة تأليه المسيح التي قامت عليها عقيدة التثليث، وكان من هؤلاء المفكرين:

١ - الفيلسوف رينان (حيث كتب هذا الرجل كتاباً يثبت فيه أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ولا ابن إله، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى والروح الكريمة، ورينان بقوله هذا يحاول تقويض فكرة المسيح الإله أو المسيح ابن الإله، وإذا قُوِّضت هذه الفكرة فإن مسيحية الثالث ستتهار من أساسها وتسطع في الأفق مرة أخرى عقيدة التوحيد) (١).

٢ - والقس هـ. د. أ. ماجور رئيس معبد ريبون باكسفورد يكتب هائلاً: (لايد أن نعلم علم اليقين أن عيسى لم يقل في الأناجيل أنه ابن الله بحالة طبيعية، كما تقول قصص ولادته العذرية، ولم يقل إنه ابن الله بحالة نفسية، كما يدعى علماء لاهوت (نيس) (٢)، بل قال: إنه ابن الله بحالة مجازية) (٣).

٣ - وفي سنة ١٩٢١م يعلن الدكتور راشدل كاريل أمام عدد كبير من رجال الدين في أكسفورد (أن قراءة الكتاب المقدس أظهرت له أن عيسى ليس بياله، ولم تسمح له تلك القراءة باتخاذ عيسى إلهاً، لأن عيسى كان رجلاً بكل معنى الكلمة لا إلهاً. ثم قال: لم يدع المسيح الألوهية، ولم يناد بها، وربما كان قد

(١) انظر كتاب أوروبا والإسلام ص ٢٤، د. عبدالحليم محمود، ط بيروت.

(٢) يقصد بـ (نيس) هنا مجمع نيقية الذي حكم بتأليه المسيح، وقامت على هذا الحكم مسيحية الثالث.

(٣) الإسلام الدين الفطرى الأبدى ص ٦٩، الملامة أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى، كبير علماء تركستان، ط بيروت.

سمح لنفسه أن يدعى مسيحًا، إلا أنه لا يوجد في أي قولٍ مثبت ما يدل على أن علاقته بالله. تختلف عن علاقة أي بشر آخر بالله أما أقوال الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) لا يمكن عدّها تاريخيًا، لأنها تفوق الإدراك البشري، ويتضح مما أتى به عيسى أنه كان رجلاً، وكان له جسم ونفس وعقل وإرادة بشرية.

ثم مضى يقول: ومن المخالفة للحقيقة أن نظن أن روح عيسى كانت موجودة قبل خلق العالم، إذ ليس هناك أي أساس لمثل هذه العقيدة ما لم نجزم بأن كل الأرواح البشرية كانت موجودة قبل أن توجد الأجسام في الدنيا، وهذا يخالف المذهب الكاثوليكي المسلم به، ولا تحتاج الهوية المسيح إلى ولادة عذرية، أو إلى إتيان أي معجزة أخرى إذا كان إلهاً (ولم يكن إلهاً)، فإن أمكن أن يثبت تاريخياً أن المسيح ولد حقاً من غير أب فإن ذلك لا يكون دليلاً أو برهاناً على ألوهيته، إلى أن قال: «ومع ذلك لا يمكن أن ينكر أن عيسى تكلم عن أشياء كثيرة وقال إنها ستحدث في المستقبل، والحال أن التاريخ لم يثبت حدوث شيء منها» (١).

وبهذا نرى كيف وثب هذا المفكر الدكتور راشدل على فكرة المسيح الإله لتقويضها وإقصائها عن المسيحية، وإثبات بشرية المسيح، ولكنه وهو في هذه الحالة - حالة تقويض أو إقصاء فكرة المسيح الإله - قد أخطأ حين قال: (إن عيسى تكلم عن أشياء كثيرة وقال إنها ستحدث في المستقبل. والحال أن التاريخ لم يثبت حدوث شيء منها): لأن هذا القول تشتم منه رائحة اتهام المسيح بالكذب، وإذا قيل: إن الرجل يقصد هنا نفى الألوهية عن المسيح، بمعنى أن المسيح إذا كان قد أخبر بشيء ولم يحدث لفير المسيح، أما وأنه ثم يفعل فإن ذلك يحتم علينا أن نقول: إن المسيح إذا لم يكن إلهاً - وهو كذلك - فهو نبي ورسول، وإلا لبقيت المسيحية بدون نبي أو رسول، والنبي أو الرسول إذا أخبر أحدهما بشيء عن ربه فلا بد أن يحدث - شأن أنبياء الله ورسله عنهم السلام - وإذا كان الأمر عندكم عكس ذلك فالمسيح منه براء. وفي تلك الحالة لا بد أن

(١) انظر المصدر السابق ص ٧٠، وانظر أيضاً ترجمة كاملة لهذه النصوص في كتاب حوار بين مسيحي ومسلم ص ٢٢٩، ٢٢٠، د. محمد فؤاد الهاشمي، ط. دار الرسالة.

توجه إصبع الاتهام إلى كُتَّاب الأناجيل الذين لم يثبت بعد حقيقة اتصال
سندهم بالمسيح ﷺ.

٤ - ويعلن الفيلسوف الروسى تولستوى استنكاره لألوهية المسيح، ويطالب
بعودة المسيحية إلى التوحيد ثم يقول فى كتابه «الإنجيل الصحيح»: لا يخفى أن
جميع ما تعطيه الكنيسة من التعليمات الخاصة بابن الله، والله وكونه فى ثلاثة
أقانيم، ثم الخاصة بالخبز والخمر اللذين يستحيلان فعلا إلى جسد ودم الله،
ويتاولهما المسيحيون على هذا الاعتقاد كله غير معقول وهو خرافة. وفى
الختام يقول: (وبناء على ما تقدم فإنى أنبذ كتب العهد القديم والكتب المقدسة
التي حصرتها الكنيسة فى سبعة وعشرين كتاباً) ^(١).

٥ - ويستخف المؤرخ الأوروبى الشهير مستر ولز المسيحى بمن يبعد عن
التوحيد فى المسيحية ويمتق عقيدة الثالوث، فيقول: (من الكفر ومن السخف
أن يعتقد الإنسان بنظرية الثالوث وبما أحاط بالمسيح وأمه مريم من خرافات
أصبحت راسخة فى الدين المسيحى على أن المسيح لم يذكر شيئاً من هذا، ولم
ياتنا بهذه النظريات إلا إسكندفيلو اليهودى وأتباعه أصحاب مدرسة
الإسكندرية الذين جعلوا يفسرون أقوال المسيح بعد ثلاثمئة سنة من تاريخ
وفاته، ويقول فى كتابه «الله الملك الخفى»: لم يأت المسيح ولا بحرف واحد من
هذه الكفرات المعقدة التي أصبحت فيما بعد أساس الدين المسيحى. وقيدت
عقول الغربيين بسلاسل من تلك الاعتقادات والطقوس... ولقد ازدادت هذه
الكفرات فى الدين المسيحى منذ دخول بولس الرسول فيه. حتى أن هذه
(الكفرات) أخضت الدين المسيحى الحقيقى - دين التوحيد - عن العالم
المسيحى، وأضاعت علينا تعاليمه الحقيقة والأعمال التي قام بها المسيح دون
زيادة أو نقصان أو مبالغة، إلى أن قال: ولقد حللنا النظريات المسيحية ولا أرى
ضرورة لإضاعة الوقت فى ذكر الاعتقادات التي يمتقدها المسيحيون.. ولا يمكن

(١) الإسلام الدين الفطرى ٧١/١، العلامة أبو النصر الطرازى.

قطعياً لمن يريد البحث عن الله حقيقة والإيمان به أن يعتقد بالثالوث مهما كان وأياً كان مصدره) (١).

٦ - أما الدكتور شارل جنيبير - أستاذ ورئيس قسم الأديان بجامعة باريس - فيعلن صراحة أن المسيحية الثالث هذه ستتهار انهياراً كاملاً في العصر الحديث؛ لأنها قائمة على انقراض من الفكر الوثني، وأنها لا تمت بصلة إلى السيد المسيح، ويقرر في كتابه «المسيحية نشأتها وتطورها» (أن المسيحية السيد المسيح كانت في غاية من البساطة وكان ﷺ يعلن التوحيد، ويعلن أنه عبدالله ورسوله فقط، وأنه بعث إلى خراف بني إسرائيل الضالة. ثم يقول: إن المسيحية الحاضرة بكل ما فيها من عقائد وطقوس وشعائر فإنها غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة المسيح. وفي نهاية هذا الكتاب يصرح بأن المسيحيين الغربيين الذين مازالوا خاضعين لمسيحية الثالث وشعائرها لم يكونوا قط مسيحيين في يوم من الأيام) (٢).

٧ - وفي أمريكا ينادى أحد العلماء المعاصرين - وهو الدكتور ولتر لند برج - بعودة المسيحية إلى التوحيد، ويميب في مقال له على رجال الدين الذين مازالوا يصورون الإله في صورة إنسان فيقول: (إن جميع المنظمات الدينية تبذل محاولات لجعل الناس يمتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة إنسان بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة على الأرض - وهو نفس الاعتقاد الإسلامي - وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتندرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تتسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد أن هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية) (٣).

(١) الإسلام الدين الفطري الأبدي ٧١/١، العلامة أبو النصر الطرازي.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٨، ٧، ٦٤، ترجمة د. عبدالحليم محمود، دار المعارف المصرية.

(٣) كتاب: الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٢، تأليف: نخبة من العلماء الأمريكيين: ترجمة د. الدمرداش عبدالمجيد سليمان.

والكاتب الأمريكى يريد أن يقول: إن المسيحية التى تقول بالإله الإنسان لم تعد مقبولة فى هذا العصر، وما ذلك إلا لكون هذا الاعتقاد الموروث عن المجامع غير مفهوم، وإذا ما حاول المسيحي المثقف فهمه فإنه وهو فى تلك الحالة سيدخل فى صراع مستمر بين موروث اعتقاده، وبين كل عقل وفكر ومنطق، وفى خضم هذا الصراع قد يصل إلى الإلحاد ونبذ فكرة الله كلية، ولا منجى من ذل إلا بتقويض فكرة المسيح الإله، وعودة المسيحية مرة أخرى إلى التوحيد .

٨ - وفى لندن تنشط الأبحاث والدراسات الأكاديمية ضد فكرة التآليه والتثليث، وتطالب المسيحيين بإعادة النظر فيما توارثوه من معتقدات، وتقرر صراحة عدم صحة الخلط بين المسيح الإنسان والإله الخالق، والعودة بالمسيحية مرة أخرى إلى التوحيد .

ومن هذه الدراسات والأبحاث كتاب صدرت طبعته الأولى فى لندن عام ١٩٧٧م والخامسة عام ١٩٧٨م، وهو يحمل عنوان: (أسطورة تجسد الإله فى المسيح)، وقد وجد هذا الكتاب اهتماماً كبيراً لدى الأوساط المسيحية فى إنجلترا لكونه قد اشترك فى تأليفه سبعة من علماء اللاهوت والأساتذة المتخصصين فى دراسات العهد الجديد من مختلف الجامعات البريطانية^(١). ومضمون الكتاب يُقرأ من عنوانه، ويكفيها فى هذا الحيز المحدود أن نقتبس بعض ما جاء فى مقدمته التى تعترف بأن الإنسان فى هذا العصر كلما ازداد علماً كلما نفر عن الثالث وابتعد عن المسيحية: (إن المعارف الإنسانية ستستمر فى نموها بتسارع متزايد، ولذلك فالضغط على المسيحية الآن - أى فى هذا العصر - أقوى من أى وقت مضى، وعلى المسيحية أن تعدل نفسها لوضع يمكن معه الاعتقاد بها، وهذا الوضع - كما يقول المؤلفون - لا بد أن يقتنع به المفكرون

(١) هم: دون كجويت جامعة كمبردج، وميخائيل جولدر، وجول هك، وفرانسيس يونغ جامعة برمنجهام، ولزلى هولدن جامعة لندن، ودينيس نيهام، وموريس ويلز جامعة أكسفورد.

الأمناء الذين تجذبهم شخصية يسوع وتعاليمه^(١)، ولما كانت المسيحية المثلثة قد أخذت بشخصية يسوع الحقيقية، وادعت أنه شريك للإله فى الكون بادر هؤلاء الأساتذة بتبيان الحقيقة فى هذا الكتاب فقالوا: (إن المسيح كما هو مقدم فى الكتاب الخامس للمهد الجديد (٢ - ١٢)^(٢). إنسان اختاره الله لندور خاص فى إطار الإرادة الإلهية، وإن الاعتقاد المتأخر (بأنه الله فى صورة إنسان) و (الشخص الثانى فى الثالوث المقدس) الذى يحيى حياة بشرية ليس هو - أى هذا الاعتقاد - إلا أسلوباً أسطورياً أو شاعرياً للتعبير عن أهمية المسيح بالنسبة لنا، وهذا الاعتراف مطلوب منا لمصلحة الحقيقة) ومن المعروف أن الكنيسة لا يمكن أن تقبل اعترافاً كهذا، أو تسلم بصحته، إلا أن المقرين به - وهم أساتذة فى علم اللاهوت - يملون علم اليقين بأن الكنيسة على خطأ، وأن العصر الحديث لا يمكن أن يتمخض عن عقول تتماهى فى هذا الخطأ، وإذا كانت الكنيسة تريد بالفعل بقاء المسيحية فى هذا العصر فلا بد أن ترجع عن فكرة التآليه وأن تبادر بالاعتراف بعقيدة التوحيد التى قامت عليها المسيحية الأولى، ولا تخلط بين الله والمسيح، ولهذا قالوا فى ختام مقدمتهم: (إن أمننا هو ترقية الحديث عن الله وعن يسوع من الخلط والتشويش، وبذلك يتحرر الناس لخدمة المسيحية باستقامة وكمال)^(٣).

(١) تمريب د. نهيل صبهى الطويل نقلاً عن مجلة الأمة القطرية - العدد الرابع للسنة الأولى من ٥٠، فبراير سنة ١٩٨١م.

(٢) يقصد هنا ما قاله بطرس فى سفر أعمال الرسل إصحاح ٢: ١٢: (أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده فى وسطكم كما تعلمون).

(٣) المصدر السابق ص ٥٠.

الخلاصة

والخلاصة التي تنتهي إليها من خلال عرضنا لهذه البحوث والدراسات أن هناك مسيحيين مازالوا يدعون إلى وحدانية الله، وينادون بعودة المسيحية إلى التوحيد، ويحاولون من خلال أبحاثهم ودراساتهم إقصاء الثالوث، وإبعاد فكرة المسيح الإله، تلك الفكرة الغامضة التي تبحث لها عن أنصار بين العلماء والمفكرين في هذا العصر فلم تجد، وما ذلك إلا لتنافرها مع العلم والمنطق والقطرة. والذي يلفت النظر أكثر ويسترعى الانتباه أن محاولة إقصاء الثالوث، وتقويض فكرة التاليف لم تعد في هذه الأونة قاصرة على العلماء والمفكرين فحسب، بل اتسعت دائرة ذلك وشملت الكثير من المسيحيين، فنجد أن أغلبية المسيحيين الذين نجادلهم بالمودة - إن استثنينا رجال الدين منهم - يصرحون في بهرة المجالس، وفي جهر من غير إسرار أنهم لا يمكن أن يتصوروا أن الله جل جلاله ثلاثة وجوه أو ثلاثة أقانيم، وأنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا المسيح إلا رجلاً عظيماً ورسولاً من عند الله، وليس هو الله ولا ابن الله وليس ذي صلة بالوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله، وهذه الأقوال التي نسمعها من مسيحي هذا العصر هي ذاتها أقوال الموحدين قديماً، وهذا هو ما يجعلنا نقرر هنا أن المسيحية التي شوهدت بالثالوث بعد رفع المسيح ﷺ بثلاثمئة عام لم تقب عنها عقيدة التوحيد لحظة واحدة، لا في القديم كما رأينا سابقاً ولا في الحديث كما علمنا من هذه البحوث، بل ظل الصراع فيها مستمراً بين التوحيد والتثليث على مر العصور والأزمان إلى يوم الناس.

هذا وإن حُق لنا التنبؤ بشيء إزاء النتيجة التي سيتمخض عنها هذا الصراع في هذه الأونة فإننا نتنبأ باسم العلم الذي أضاء العقول وباسم هذا البحوث التي صدرت من علماء وأساتذة لهم قدرهم في قلوب معتقى المسيحية في هذا العصر: أن مسيحية التوحيد سيكون لها الظفر والنصر في النهاية.

وإذا ما انتصرت هذه المسيحية فإنها تكون قد اقتربت بالفعل إلى الإسلام دين التوحيد الخالص، وإذا ما اقترب هؤلاء الموحدون إلى حقائق الإسلام وعلموا جوهره أعلنوا اعتناقهم له بلا تردد ولا اكتساب. وفي هذا العصر رأينا بالفعل الكثير من المسيحيين في شتى أقطار العالم يعلنون نبذهم للمسيحية، ويرتمون بكل اطمئنان واقتناع في أحضان الإسلام. دين التوحيد الخالص.

ثالثاً: المسيحيون الموحدون في هذا العصر

يتجهون إلى الإسلام (دين التوحيد الخالص)

من خلال البحوث والدراسات تطلع موحديو المسيحية في هذا العصر إلى الإسلام فوجدوه ديناً يتلام مع الفطرة، يتوافق مع العلم، يتآخى مع العقل، دين لا يجسد الإله، ولا يرفع البشر إلى درجة الألوهية، دين يكره التعدد، وينبذ الثالوث، ويدعو إلى الاعتقاد بإله واحد في أفعاله، لا شريك له، كل شيء قائم به، وكل شيء خاضع له، من تكلم سمع نطقه. ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه، هو فوق كل شيء، وليس دونه شيء هو مالك كل شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١). والدلائل على هذه الوجدانية مبثوثة في الكون كله وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد، ومسطورة في كتاب الإسلام: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدائقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾

(١) سورة الشورى الآية: ١١.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ .

نظر الموحدون المسيحيون إلى هذه الآيات القرآنية وغيرها من الآيات الكونية فأيقنوا أن عقيدة التوحيد في الإسلام هي العقيدة الصحيحة الخالصة التي يسكن إليها القلب، ويقتنع بها العقل، فتوجهوا بكل اطمئنان إلى الإسلام، وأخذوا يشهرون عقيدة التوحيد الخالصة في شتى بقاع العالم.

الدلائل على ذلك

ولعل الصحف والمجلات اليومية هي التي تدل على ذلك، وتؤكد لنا مدى إقبال موحدى المسيحية على الإسلام، ففي جريدة الرأي العام الأسبوعية التي تصدر في القاهرة (جاء خبر عن ثلاثين شخصاً يعلنون الإسلام في دولة الإمارات العربية خلال شهر يناير ١٩٨٨م، وفي المملكة العربية السعودية واحد وخمسون شخصاً من مختلف الجنسيات العالمية يعلنون إسلامهم) (٢). وفي كوريا الشمالية يوجد إقبال شديد على الإسلام، (ويشهر أحد عشر ألفاً من المسيحيين إسلامهم في عام ١٩٨٧، ١٩٨٨. وتؤكد الأبحاث الغربية - كما يقول الخبر - أن هذا العدد الكبير من المسيحيين الكوريين الذين انتشر بينهم الإسلام يعد بمثابة تحدى لمحاولات الفزو الثقافي الذي تمارسه الدول التي تريد التئيل من الإسلام) (٣). (وفي فرنسا يزداد عدد المسيحيين الذين ارتموا في أحضان الإسلام في هذا العصر إلى أن وصل إلى ١,٥ مليون مسلم حتى عام ١٩٨٨م، يخرج من بينهم - كما تقول جريدة الوهد القاهرة - رجل يُسمى (١) صورة النمل الآيات من: ٦٠ - ٦٤ .

(٢) الخبر من جريدة الرأي العام القاهرة العدد ٨٧/ أول فبراير ١٩٨٨ - ١٣ جمادى الآخر ١٤٠٨هـ.

(٣) المصدر السابق نفس العدد.

على الكواش ليرشح نفسه لرئاسة الجمهورية فى هذا العام^(١). مما يؤكد تقوية شوكتهم فى هذه البلاد.

(وهى أمريكا نشرت صحيفة انسايت الأمريكية تحقيقاً صحفياً أكدت فيه أن الدين الإسلامى فى العصر الحديث أصبح مسار اهتمام المسيحيين الأمريكان، وأن معتقيه يزدادون يوماً تلو الآخر حتى وصل تعدادهم ٧,٥ مليون مسلم فى عام ١٩٨٨م، ثم تقرر الصحيفة أن هذا الدين - تعنى الإسلام - فى خلال عشرين عاما مقبلة سيصبح الدين الثانى فى القارة الأمريكية كلها)^(٢).

وهى لندن معقل المسيحية أيضاً تخرج مسيرة هائلة من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام تعدادها ستة وسبعون ألف موحد فى ذكرى مولد الرسول ﷺ، بقيادة الشيخ شمس الدين الفاسى تُردد فى سماء لندن الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله محمداً رسول الله، وقد ذكرت مجلة اللواء الإسلامى الصادرة ٢٧ ربيع ١٤٠١هـ تحقيقاً عن هذه المسيرة مشفوعاً بالصور واللقطات التى تصور هذا المشهد الرهيب)^(٣).

هذه الأخبار وغيرها مما تنشره إلينا الصحف والمجلات تؤكد أن الإسلام لا المسيحية هو دين الغد، وأن المسيحيين عامة والموحدين منهم خاصة، إذا ما فتحوا قلوبهم وعلموا جوهر الإسلام وحقيقته وسماحته اقتربوا إليه بلا تردد وأعلنوه لهم ديناً وعقيدة بكل اقتناع واطمئنان.

وسأذكر الآن بعض نماذج من هؤلاء المسيحيين الذين اهتموا إلى الإسلام، لكى نعرف لماذا أسلموا؟ وما هو مدى اقتناعهم بالإسلام وعقيدته؟

(١) انظر تحقيقاً كاملاً عن هذا الخبر فى جريدة الوفد المصرية العدد ٢١٢، ٢٤/٢/١٩٨٨.

(٢) جريدة الراى العام القاهرة العدد ٨٧ السنة الثامنة، أول فبراير ١٩٨٨.

(٣) انظر الصورة والتحقيق لهذا الخبر فى مجلة اللواء الإسلامى المصرية العدد ٣٠٥، ١٩/١٢/١٩٨٧م

نماذج مسيحية اعتنقت الإسلام في العصر الحديث

أولاً: مسيو أتين دينيه الفرنسى

ولد فى باريس ١٨٦١م، ثم نشأ فى حضن أبوين مسيحيين، وتلقن بطبيعة الحال العقائد المسيحية نظرياً ومارسها عملياً، وذهب به أبوه ككل مسيحي إلى الكنيسة، فشب الطفل وترعرع على عقيدة التثليث والقداء والفسران.. إلخ، وعلى مر الزمن أخذ الرجل يشك فى هذه الأمور، وحتى يقطع الشك باليقين بدأ يدرس المسيحية على روية، وأخيراً انتهت نتائج أبحاثه إلى أن عقيدة التثليث وألوهية المسيح والصليب.. إلخ، عقائد باطلة لا صلة لها بالمسيح، وأن المسيحية حقيقة مليئة بالأغلاط الواضحة، ثم ثار شعوره الدينى ثورة رفضت عنه كهوف التقاليد المسيحية، وأعلن رفضه للتثليث وألوهية المسيح، وإرتقى بين يدى مذهب الموحدين، لكن الرجل لم يقف عند هذا المذهب، بل أخذ يبحث عن عقيدة يسكن لها قلبه، وتطمئن مشاعره الدينية، وهذه العقيدة لا توجد فى الوسط المسيحي، فسافر فجأة إلى الجزائر، والتقى بأحد علمائها، ثم تعلم العربية والقرآن، وفجأة وجد نفسه فى أحضان سورة الإخلاص فسُرَّ بهذه المنحة العظيمة، ووضحت أمامه عقيدة التوحيد الخالصة، فأعلن الإسلام بكل اقتناع سنة ١٩٢٧م.

وفى كتابه «أشعة خاصة بنور الإسلام» عقد موازنة بين الإله فى المسيحية والإله فى الإسلام فقال: (إن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً أو ما إلى ذلك من الأشكال، أما فى المسيحية فإن لفظ (الله) تحيطه تلك الصورة الأدمية لرجل شيخ طاعن فى السن، قد بانته عليه

جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد في الوجه غائرة إلى ناحية بيضاء مرسله مهملة، تثير في النفس ذكرى الموت والفناء. ثم يقول: ونسمع القوم يصيحون (ليحيى الله) فلا نرى للفرابة محلاً، ولا نمجّب لصيحتهم، وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخاً هرمًا قد بلغ أردل العمر، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء؟ وكيف لا يطلبون له الحياة؟.

ثانياً: الكاتبة الأمريكية من مريم جميلة

وهي سيدة أمريكية من أصل يهودى بحثت عن عقيدة التوحيد في اليهودية والمسيحية فلم تطمئن إليها، ثم اتجعت إلى الإسلام، فرأت عقيدته صافية نقية، فاتخذته ديناً خالصاً، وأسلمت وجهها لله رب العالمين، ثم كتبت كتاباً بعنوان: «الإسلام في مواجهة أهل الكتاب»، وفيه بينت مدى الانحراف والضلال اللذين لحقا بالعقيدة في اليهودية والمسيحية. والذي يهمننا هنا ما قالته عن المسيحية التي تركتها إلى الإسلام فتقول: إن هذه الديانة شوّهت فيها عقيدة التوحيد؛ وذلك بسبب تجسد الإله في المسيح، وتبين الكاتبة المهتدية (أن هذا التجسد قد ترك آثاراً ضارة ومهلكة من حيث إنه يخلق في الأنهان صورة معينة ومحددة وقاصرة عن الإله الخالق المتعالى عن عالم الحس والغيب كما يصفه المبشر نفسه. ثم تقول: إن ما يحدث هو أن الإله الذي لا تتكر المسيحية تعالیه يتحول إلى أسير لتصورات بشرية، وباليته تصورات راقية، بل هي بنت بيئات معينة، وتجارب تاريخية نسبية) (١).

وتقصد الكاتبة هنا أن هذا التجسد موروث عن الأديان البدائية الوثنية، أما الادعاء بأنه أوحى به من قبل السماء فلا نصيب له من الصحة. ثم تبين الكاتبة أن ثمة أسباباً كثيرة جعلتها تبتعد عن العقائد المسيحية عامة، وترتمى في أحضان الإسلام منها مثلاً: (أنها قرأت عن أسقف بنيويورك يعلن أن عقيدة

(١) راجع كتاب رحلتى من الكفر إلى الإيمان، قصة إسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية مريم جميلة، تمريب وتعليق د. محمد يحيى.

التثليث أصبحت عبئاً يجب التخلص منه، وأستاذ اللاهوت بمدينة أمريكية أخرى يدعو إلى عدم استخدام كلمة (الرب)، وثالث يقول: إن المسيحية يجب أن تخضع لناموس التطور والتغير، وتقول الكاتبة أيضاً: قرأت عن حفلات راقصة داخل كنيسة بواشنطن، وعن كاهن في مدينة بنيويورك يُعَيِّن مستشاراً لبعض الفرق الموسيقية ويطوف معها في الملاهي الليلية، وعن مجموعة من القسس الشبان تقيم خدمة استشارية للشواذ جنسياً في سان فرانسيسكو، ونسمع لراى استرالى اعتنق الاسلام بعد رفضه للمسيحية يقول: إن أغلبية الأستراليين لم تعد تؤمن بالدين، ونتيجة لخلو الكنائس يلجأ الكهنة إلى حيل متنوعة يجلبوا الناس، كإقامة قداسات خاصة للراقصين وما أشبه ذلك^(١).

كل هذه الأمور جعلت هذه الكاتبة تبتعد عن العقائد المسيحية الفاضلة، والتي صارت مدار رفض من الشباب الأمريكى عامة، الأمر الذى أدى بهم إلى الضياع والانحيار. أما الكاتبة المهتدية فقد أنقذت نفسها من هذا الضياع باعتناقها لعقيدة التوحيد فى الإسلام. وعن هذه العقيدة تتحدث للشباب الامريكى قائلة: (إن عقيدة التوحيد الصافية النقيسة فى الإسلام ترفض كل أشكال القومية والعنصرية والتثليث وعبادة القديسين وتقديس الصور والكهنوت والتوحيد، وتجمل المؤمن يتعاطف مع كل المخلوقات التى أوجدها الإله، ويقيه الخوف من غير الله، ويدفعه إلى التقوى وعدم اليأس...

وفى ظل الإيمان بعقيدة التوحيد فالانتحار والتشاؤم والقنوت أمور لا محل لها فى نفس المؤمن، فالؤمن الحق يصبر ويثابر ويثق فى الله ويتوكل عليه ويمتئب قلبه بالشجاعة، وهو مستمد دوماً للتضحية بكل شىء فى سبيل الله؛ لأنه يعلم أن لله كل شىء) (٢). وعلى يد هذه الكاتبة المؤمنة رجع الكثير من الشباب المسيحى الضائع إلى عقيدة التوحيد الإسلامية وأعلنوا الإسلام.

(١) راجع المصدر السابق ص ٢٤٦.

(٢) راجع المصدر السابق ص ١٥١، ٢٥٢.

ثالثاً: الأستاذ محمد مجدى مرجان

وإذا ما تركنا فرنسا حيث المهتدى ناصر الدين دينيه وأمريكا حيث الكاتبة الأمريكية المهتدية مريم جميلة واتجهنا إلى مصر لنرى قصة أخرى من قصص الاهتداء إلى الإسلام بلا واسطة، فإننا نتوقف هنا عند قصة المهتدى الأستاذ محمد مجدى مرجان الذى اهتدى بعد البحث والتتقيب إلى عقيدة التوحيد الخالصة التى جاء بها الإسلام، وقال فى أحد رسائله: (لا يكفى للإيمان الحقيقى وراثه العقيدة وتقليد الآباء والأسلاف والعلماء والجذات، فلم يكن الدين فى يوم من الأيام إقراراً لوضع قائم، ولا انسياقاً لطقس متبع، وإنما كان الدين دوماً دعوة إلى الحق وثورة على الباطل، ولو كانت العقيدة إرثاً وانصياعاً لما انتقل الناس من باطل إلى حق، ومن عبادة الأصنام والأغنام إلى عبادة الخالق، ولبقى العالم إلى اليوم كما كان منذ آلاف السنين يسبح فى الأباطيل والترهات. يقول الفيلسوف برتراندرسل: (إن القضية الدينية يجب ألا تقبل إلا إذا كان لها سند كالسند المطلوب فى القضية العلمية)، ولكن معظم الناس يرون الدين دون وعى ولا إدراك، وهم لا يعرفون من الدين سوى إسمه. وما سطر فى شهادة ميلاده يهودى أو بوذى أو مسيحي أو مسلم أو غير هذا أو ذلك، ومع ذلك فإنه يتعصب لما سطر فى شهادة الميلاد هذه تعصب المستميت.. دون بحث أو روية ودون هدوء أو تعقل، ودون دراية بالعقيدة التى سموه بها، ودون علم بالدين المغاير، ولكن هذا كله ليس ديناً ولا إيماناً، بل ليس عقلاً ولا إدراكاً^(١).

هذا ما يقوله الأستاذ مجدى مرجان الذى أعلن إسلامه وسمى نفسه محمد مجدى مرجان، وسطر فى كتابه «المسيح إنسان أم إله؟» قوله: (ولدت لأعبد المسيح ولأرضعه إلهاً فوق الألهة، فلما شببت شككت، فبحثت عن الحقيقة، ونقبت فعرفت ونادانى المسيح: يا عبدالله أنا بشرٌ مثلك، فملا تشرك

(١) الله واحد أم ثلاث؟ ص ٧، ٨، محمد مجدى مرجان، ط دار الهنا.

بالخالق وتعبد المخلوق، ولكن اقتدى بي واعبده معي، ودعنا نبتهل له سويًا
«أبانا وإلهنا حمدك وسبحانك رب العالمين إياك نعبد وإياك نستعين يا
عبدالله، أنا وانت وباقي الناس عبيد الرحمن. فأمنتُ بالله، وصدقتُ المسيح،
وكفرتُ بالآلهة المصنوعة»^(١).

هذه هي أفكار المهتدي محمد مجدى مرجان الذى كانت عائلته تعده ليكون
داعياً نصرانياً، فالحقته تلميذاً فى إحدى مدارس اللاهوت، شماساً فى أحد
الكاتدرائيات لىتم توجيهه وإعداده ليصبح داعياً للثالوث، وقد أتاح له ذلك
الاطلاع على كثير من العلوم الدينية والأسرار اللاهوتية ويقول: (إنه قد بذل
جهداً كبيراً فى محاولة إقناع عقله وفكره بظروف ولادته بحكم الوراثة التى
تحتم عليه الانسياق للعقائد المسيحية، ولكنه فشل فى هذا؛ لذلك ذهب يبحث
عن العقيدة التى يرتاح إليها ضميره وعقله فى هدوء وتعقل وفى ززانة وروية،
وقد وصل إلى الحقيقة فى يسر وسهولة، ودون جهد أو عناء؛ لأنها واضحة
وضوح الشمس، ساطعة سطوع النور، تفتح ذراعيها لمحبيها وتتأدى مبصرها
وناظرها)^(٢). ولم تكن هذه الحقيقة الساطعة إلا عقيدة التوحيد الخالصة،
عقيدة الإسلام.

(١) المسيح إنسان أم إله؟ ص ٢٢٢، د. محمد مجدى مرجان، ط دار الينا.

(٢) إله واحد أم ثلاث؟ ص ٧، ٧، الأستاذ محمد مجدى مرجان، دار النهضة العربية.

رابعاً: الأستاذ إبراهيم خليل أحمد (القس سابقاً)

هو أحد المسيحيين المصريين الذين هداهم الله للإسلام، وكان يسمى سابقاً القس خليل فليبس، ولد بمدينة الإسكندرية في ١٢ يناير ١٩١٩ (تدرج في مدارج العلم اللاهوتية حتى تخرج في أسيوط من الكلية الأمريكية عام ١٩٤٢، وحمل دبلوم كلية اللاهوت الإنجيلية المسيحية بالقاهرة عام ١٩٤٨، وعُين قسيساً راعياً لكنيسة بافور بأسيوط عام ١٩٥١م. ثم قسيساً استاذاً للمقائد والإسلام بكلية اللاهوت بأسيوط عام ١٩٥٣، ثم عُين قسيساً مبشراً بالإرسالية الألمانية السويسرية في أسوان عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥) (١).

ولقد حسن إسلامه واتبع عقيدة التوحيد الإسلامية بعد أن عقد مقارنة بينها وبين عقيدة التوحيد التي ذكرتها الأناجيل، وفي ذلك يقول (هراة بتأمل وتفكير سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وأخذت أتأمل الوحدانية في القرآن الكريم، الأمر الذي يتسطيع العالم وغير العالم فهمه واستيعابه من غير إجهاد الفكر أو عناء الدرس والتحصيل، وقارنتها بالوحدانية التي وردت في إنجيل متى في الباب الأول والعدد الأخير: الأب والابن والروح القدس «إله واحد أمين». وعند دراستي للنص الأصلي علمت أن هذه العبارة لم ترد في الأصل اليوناني. هذا بالإضافة إلى بلبلة أفكار عامة الناس وحيرة جهابذة العلماء في الدفاع عن هذه العقيدة السقيمة التي كشف التاريخ عنها القناع. وأكد العلامة جارسلاف كريني - أستاذ الحضريات في جامعة أكسفورد - أن عقيدة التثليث مستمدة من الوثنية الفرعونية، ولم تكن قط مستمدة من المسيح ﷺ.

وبهذا اعتقدتُ بصدق الوحدانية البسيطة التي جاء بها الإسلام (٢).

(١) هذه الترجمة في كتاب يا أهل الكتاب تعالوا ص ٢٩١ د. رؤوف شلبي.

(٢) محمد ﷺ هي التوراة والإنجيل والقرآن للأستاذ إبراهيم خليل أحمد ص ١٠.

جهاده لإعلاء عقيدة التوحيد الإسلامية

ولقد جاهد الأستاذ إبراهيم خليل أحمد لإعلاء عقيدة التوحيد الإسلامية ونشرها بين أبناء المسيحية (فاشترك في مناظرة بين الإسلام والنصرانية في الخرطوم^(١)).

في الفترة ما بين ١/٢٣ إلى ١٤٠١/١/٢٩ هـ الموافق ١٢/٧/١٩٨٠ م. عقب المناظرة أعلن أكثر من خمسمئة مسيحي الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً وعيسى رسولا الله^(٢). ليس هذا فحسب بل إن هذا الرجل الصادق الإيمان حكى أثناء المناظرة عن جهاد آخر قام به لإعلاء عقيدة التوحيد فقال: (كنتُ في جامعة أسيوط عام ١٩٧٦ بجمهورية مصر العربية وحاضرتُ الطلبة وأثبتُ بالدليل القاطع أن المسيح ﷺ لم يُصلب، ولم يُقتل، وذلك من الأنجيل ذاتها، وأثبتُ أيضاً من خلال هذه الأنجيل أن المسيح ﷺ نادى بالتوحيد، ولم يدع أنه ابن الإله المتجسد، أو ما شابه ذلك، وأكدتُ أن روح القدس ملك من الملائكة، ولم يقل المسيح أن هذا الروح هو الألقوم الثالث، أو أنه الهيئة الثالثة لله «سبحانه وتعالى»، ثم أخذ يقول: إننى أقرر حقاً أمام حضراتكم أن سبعة عشر شاباً من شباب جامعة أسيوط - عقب انتهاء هذه المحاضرة - قد أعلنوا إسلامهم بكل قوة وجرأة.. ثم قال: أيها الأخوة الحاضرون، لكى أكون مثالاً لكم أعلن على حضراتكم أنتى حينما دخلت الإسلام لم أدخله عفواً أو بارتجال، ولكن أخذتُ أدرس الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً من عام ١٩٥٥م إلى ١٩٥٩م حتى أتانى اليقين، فأعلنتُ إسلامي، ولقد شعرتُ أن الإسلام يفرض علىّ فرضاً، وهو أن أحمل رسالة التبليغ، وأن أدعو برسالة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(١) اشترك في هذه المناظرة مع الأستاذ إبراهيم خليل أحمد الدكتور محمد جميل غازي الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر، والصيد اللواء مهندس أحمد عبدالوهاب.

(٢) مناظرة بين الإسلام والنصرانية من ١٥، ١٩، طبعة الرياض، المملكة العربية السعودية.

إننى فى هذا اللقاء - والكلام مازال للمهتدى الأستاذ إبراهيم خليل أحمد أعود بذاكرتى إلى ما قبل ١٩٥٥م، حينما كنت قمة من قمم الكفر، وكنت أضلل الشباب المسلم، ولعله سبحانه أراد أن يُطمئن نفسى، وأنه قد غفر لى فعلاً ماتقدم من ذنبى، إذ أرانى هذا الشباب وقد أسلم، وإننى أقول لكم أيها الشباب عليكم بالثقة فى الإسلام، ومن منكم على درجة من المعرفة والعلم فعليه أن يضع كل إمكانياته فى إخوانه المسلمين، والسلام (١).

ويعد فهذه نماذج لبعض المسيحيين الذين هدامهم الله لتوحيده سبحانه، وشرح صدورهم للإسلام، وإذا كانت هناك عوامل قد أدت إلى خراب العقيدة المسيحية فى الزمن الغابر فإن العصر الحديث قد بدأ بالفعل ينبه معتقى المسيحية إلى هذه العوامل، ويمود بهم بعد البحث والتتقيب إلى عقيدة التوحيد الخالصة، تلك العقيدة التى جاء بها الإسلام ونادى بها محمد ﷺ، ومن قبله نادى بها عيسى وموسى وكافة الأنبياء عبر القرون والأزمان. هذا... والعصر الحديث قد تمخض عن بعض الشواهد والدلائل التى تؤيد الوحدانية وتدلل على قداسة الدين، الدين الإسلامى الحنيف.

بهذا كله يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى واحداً واحداً لا شريك له ولا ولد، وهو لا يحتاج لوحدانيته ووجوده إلى دليل. كما يتضح أيضاً أن عداوة المسيحية الثالثى وكرهيتها للإسلام - كما نراه من معتقيها فى هذه الأيام - لا يرتكز على طريقة علمية، وإنما يرجع فى الأساس إلى الهوى، وإلى العهد القيصرى وفساد الكيسة ونظمها وتماونها فى القديم والحديث مع الطغاة الذين يريدون دهن الحقائق، حتى ولو كانت هذه الحقيقة تتآخى مع الفطرة وتتوافق مع العقل وتتناسب مع معطيات العلم.

وأخيراً أقول: إذا كانت هذه أدلة الإسلام على وحدانية الله، فأين أدلة أصحاب الثالثى الذين أنكروا هذه الوحدانية؟

(١) راجع المصدر السابق ص ٤٩٥، ٤٩٦.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

صدق الله العظيم والحمد لله رب العالمين في الأولين والآخرين، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهى الكتاب

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٤.

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - الأحاديث النبوية.
- ٣ - الكتاب المقدس.
- ٤ - الدين - محمد عبدالله دراز.
- ٥ - نشأة الدين - على سامى.
- ٦ - نشأة الدين - النشار.
- ٧ - الله - عباس محمود العقاد.
- ٨ - الجامع لأحكام القرآن - القرطبي.
- ٩ - مفاهيم إسلامية - أبو الأعلى المودودي.
- ١٠ - قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة د. زكى نجيب محمود.
- ١١ - الديانة اليونانية.
- ١٢ - فجر الإسلام.
- ١٣ - تاريخ الفكر المسيحي.
- ١٤ - عقيدتا التثليث والصلب.

- ١٥ - أهم عوامل انحراف النصرانية.
- ١٦ - موجز تاريخ الشرق الأدنى، فيليب حتى.
- ١٧ - تاريخ الفلسفة - إبراهيم مذكور.
- ١٨ - مشكلات العقيدة النصرانية.
- ١٩ - الموسوعة الفلسفية.
- ٢٠ - تاريخ الكنيسة ليوسيبوس.
- ٢١ - تاريخ الكنيسة - جون لوريمر.
- ٢٢ - دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى.
- ٢٣ - أديان العالم.
- ٢٤ - تاريخ الفلسفة اليونانية.
- ٢٥ - تاريخ الفلسفة في الإسلام.
- ٢٦ - المدخل لدراسات الفلسفة الإسلامية لليون جويته.
- ٢٧ - المسيحية - شارك جيني بير.
- ٢٨ - الإسلام والفلسفات القديمة - أنور الجندي.
- ٢٩ - تاريخ الأقباط - زكى شنودة.
- ٣٠ - كنسية مدينة الله أنطاكية العظمى - د. أسد رستم.
- ٣١ - الروم - د. أسد رستم.
- ٣٢ - دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدى.
- ٣٣ - ومراجع أخرى كثيرة بداخل الكتاب.

الفهرس

7	مقدمة
15	الفصل الأول: نشأة الدين
17	١_ فكرة فطرية التوحيد
18	٢_ المذهب المتطور
18	٣_ المذهب الحيوي
19	٤_ المذهب الطبيعي
20	٥_ المذهب التوتمي
24	نقد المذهب التطوري
26	اثر الخلاف وموقع المسيحية منه
29	الفصل الثاني: اثر الفلسفة في تحريف العقيدة النصرانية
30	أولاً: بداية دخول الفلاسفة اليونانية في الفكر النصراني
31	ثانياً: أهم الفلاسفة الذين تأثر بهم النصارى
33	ثالثاً: فلاسفة النصارى في القرون النصرانية
43	رابعاً: بعض ملامح التأثير الفلسفي في العقائد النصرانية
48	الفصل الثالث: أثر رجال الكنيسة في الانحراف
48	نشأة الكنيسة
51	المجامع
52	الحركة الأريوسية
58	مقاومة رجال الكنيسة لأريوس
68	عقيدة التوحيد بعد المسيح
68	المبحث الأول: الاضطهادات واثرها في العقيدة المسيحية

المبحث الثاني: الفلسفة وأثرها على عقيدة التوحيد

74 بعد المسيح (عليه السلام)

76 المبحث الثالث: بولس وموقفه من عقيدة التوحيد

المبحث الرابع: عقيدة التوحيد بين الطرق المسيحية

82 قبل مجمع نيقة سنة 325 م

82 أولاً: فرقة التثليث

83 ثانياً: فرقة إيلان

83 ثالثاً: فرقة البربرانية

84 رابعاً: فرقة المرقيون

شبكة كتب الشيعة

86 طائفة الموحدين

86 أولاً: فرقة البوليقانيون

87 ثانياً: فرقة أبيون

87 ثالثاً: فرقة الأريسيون

المجامع المسيحية بين القول بعقيدة التوحيد

93 وإرساء مقولة التثليث

95 أنواع المجامع

shiabooks.net

95 المبحث الأول: مجمع نيقة والوهية المسيح 325 م

108 المبحث الثاني: مؤلف أصحاب عقيدة التوحيد من قرارات الإلوهية

المبحث الثالث: المجمع القسطنطيني الثاني 381 م

118 وتقرير إلهية الروح القدس

122 المبحث الرابع: ما هي أدلة القوم على إلهية المسيح والروح القدس

122 أولاً: إلهية المسيح والأدلة عليها

123 ثانياً: أدلة القوم على إلهية الروح القدس

136 الفصل الرابع: الفرق النصرانية وأثرها في تحريف النصرانية

- 139 عصور ظهور الفرق في النصرانية
- 140 أولاً: عصر التوحيد
- 141 ١_ الأبيونيون
- 142 ٢_ جماعة (الموحدين الله)
- 143 ٣_ الشمشاطيون
- 144 ٤_ الأريوسيون
- 145 ثانياً: المنحرفون
- 145 ١_ البولسيه
- 146 ٢_ الغنوصية الباطنية
- 147 ٣_ المرقيونية
- 148 ٤_ البربرانية
- 148 ٥_ فرقة إيان
- 149 ثالثاً: عصر التثليث
- 150 ١_ الأبوليناريون
- 150 ٢_ النسطورية
- 152 ٣_ اليعقوبيون أو اليعاقبة
- 153 ٤_ الملكانيون
- 153 رابعاً: عصر الانقسام
- 153 ١_ المارونية
- 153 ٢_ الكاثوليك
- 154 ٣_ الأرثوذكس
- 154 ٤_ البروتستانت
- 158 المجامع النصرانية وأثرها في تحريف العقيدة
- 158 ١_ مجمع نيقية سنة 325 م
- 165 ٢_ مجمع القسطنطينية سنة 381 م

- ٣_ مجمع افسس الأول سنة 431 م..... 166
- ٤_ مجمع خلقيدونية سنة 451 م..... 167
- ٥_ مجمع القسطنطينية الثاني سنة 553 م..... 170
- ٦_ مجمع القسطنطينية الثالث سنة 680 م..... 171
- ٨_ مجمع نقية الثاني سنة 787 م..... 171
- ٧_ مجمع القسطنطينية الرابع سنة 769 م..... 172
- ٩_ مجمع القسطنطينية الخامس سنة 879 م..... 172
- ١٠_ المجمع التاسع (مجمع لاتران الأول) سنة 1123 م..... 174
- ١١_ المجمع العاشر سنة 1139 م..... 174
- ١٢_ المجمع الحادي عشر (مجمع لاتران الثالث) سنة 1179 م..... 174
- ١٣_ المجمع الثاني عشر (مجمع لاتران الرابع) سنة 1210 م..... 174
- ١٤_ التاسع عشر: من عام 1542 م _ عام 1563 م..... 174
- ١٥_ العشرون: الفاتيكان المسكون الأول عام 1869 م..... 175
- ١٦_ مجمع الفاتيكان المسكون الثاني عام 1962 م _ عام 1965 م..... 175
- حالة الفرق والمذاهب المسيحية بعد خلقيدونية النساطرة..... 183
- عقيدة النصارى في الحلول والاتحاد..... 190
- ١_ معنى الحلول والاتحاد..... 190
- ٢_ معنى الاتحاد..... 192
- ٣_ العلاقة بين الحلول والاتحاد..... 193
- ب_ عقائد فرق النصارى في حلول الإله في المسيح واتحاده به..... 194
- ١_ عقيدة النسطورية في الحلول والاتحاد..... 195
- ٢_ عقيدة اليعقوبية في الحلول والاتحاد..... 198
- ٣_ عقيدة الملكانية في الحلول والاتحاد..... 200
- الفرق المسيحية التي سكنت موجودة عند ظهور الإسلام..... 207

- 220 الفصل الخامس: انقسام الكنيسة حول فهم الثالث وما ترتب على ذلك
- 221 مذهب نسطور في المسيح وطبيعته
- 222 مواقف أصحاب عقيدة التثليث من مذهب نسطور سنة 431 م
- 223 اعاصير الخلاف بين أصحاب الثالث سنة 449 م حول طبيعة المسيح
- 226 انقسام الكنيسة الأرثوذكسية
- 227 انقسام الكنيسة الكاثوليكية
- 243 ثورة الإصلاح وأثرها على عقيدة الثالث في المسيحية 1517 م
- 243 ١- مارتن لوثر الألماني (1483 _ 1546 م) وأعماله
- 244 ٢- زونجلي السويسري (1484 _ 1531 م) وأعماله
- 244 ٣- كلفن الفرنسي (1509 _ 1564 م) وموقفه من الثالث
- 248 النقد الموجه لمذهب البروتستانت
- 249 أثر هذه الحركة الإصلاحية على الثالث في المسيحية
- 249 ١- بروز محاولات فلسفية لتحرير العقل من وطأة الثالث
- 253 المبادئ العامة التي يقوم عليها الفكر التوحيدي في المسيحية
- 260 الاستياء العام من كنيسة روما والسعي في إصلاحها
- 272 ثورة مارتن لوثر ضد كنيسة روما وانتشار دعوة الإصلاح في ألمانيا
- 295 انتشار التعليم الكالفي في فرنسا وهولندا واسكتلندا
- 298 الحركة الإصلاحية في إنجلترا
- تواصل كفاح الإصلاحيين في ألمانيا
- 302 وحرب الثلاثين عاماً حتى صلح ويستفاليا
- 309 الفرق والحركات التي انشقت عن البروتستانتية قبل صلح ويستفاليا
- 309 ١- فرقة "الأنابابتيست" أو القائلون بتجديد المعمودية
- 312 ٢- فرقة "الأنابابتيست" المينونيون
- 314 ٣- الحركة السوسيانية أو "فرقة التوحيديين"
- 320 ٤- الأرمنيانيين

321 الكنائس والحركة البروتستانتية
321 ١_ الكنيسة اللوثرية
323 ٢_ الكنيسة المنهجية أو الميثودية
328 ٣_ الكنائس المشيخية والكنائس المصلحة
332 ٤_ الحركة التطهرية أو البيوريتانية
340 ٥_ أصول البروتستانتية أو العقائد المشتركة بين جميع فرق البروتستانت
344 حركة الإصلاح المضاد للكنيسة الكاثوليكية في نطالها مع البروتستانتية
344 ١_ مجمع تريدنت
345 ٢_ جمعية اليسوعيين ودورها البارز في الإصلاح المضاد
353 الجمعيات الرهبانية الأخرى التي ظهرت في عهد الإصلاح والإصلاح المضاد
357 واخيراً
357 عودة إلى التوحيد في العصر الحديث
367 الخلاصة
380 المصادر والمراجع
382 فهرس